

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

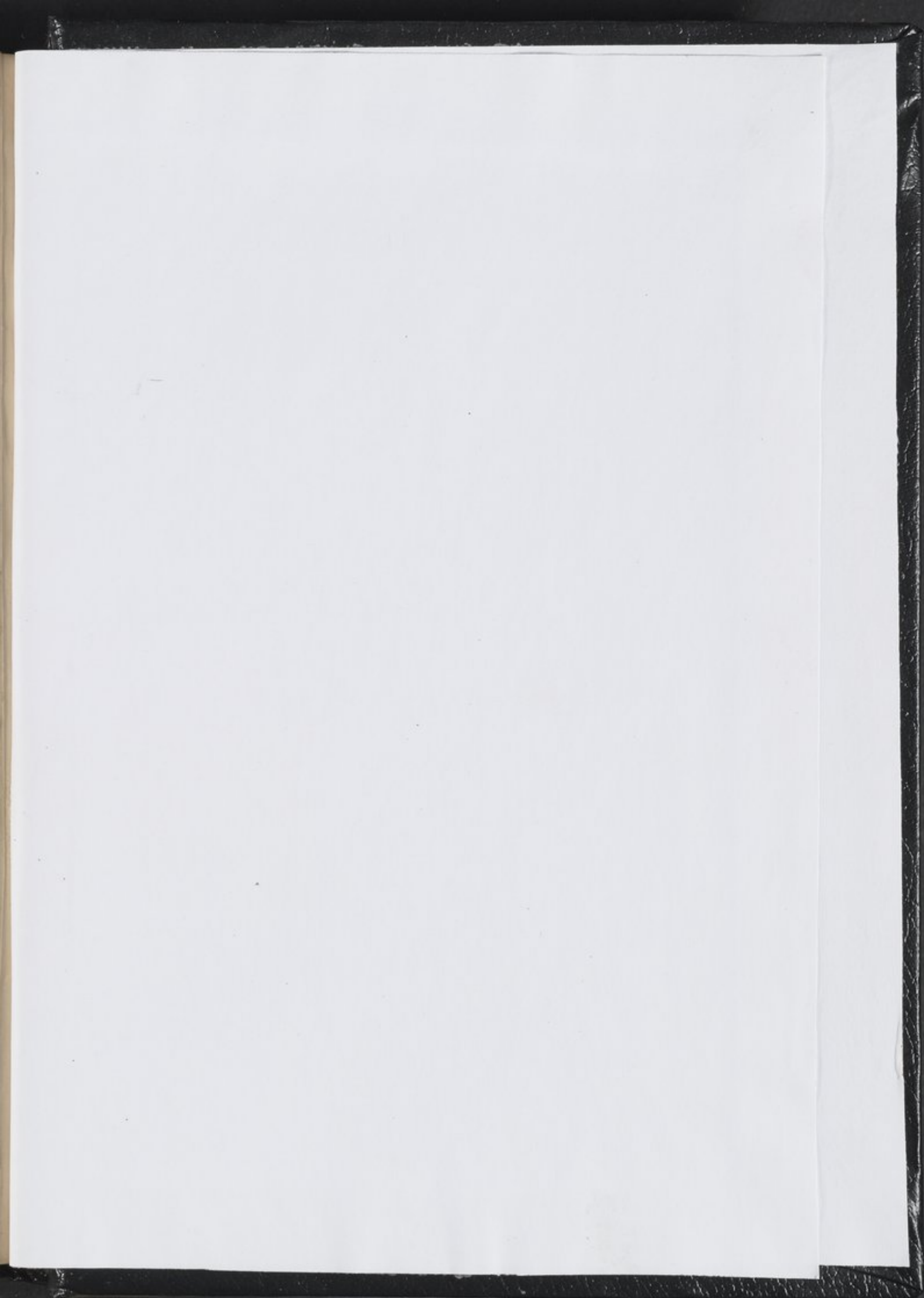


3 8534 01862 8630









# أدب وتاريخ

## واجتماع

PJ  
7503  
S22  
1950

بقلم

الدكتور محمد صبري بك  
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة فؤاد الأول



مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

١٩٥٠

الكتاب  
الكتاب  
الكتاب  
٥٦/٤/٥٦



oelc  
67308170

B12315230  
13636686

تاریخ بیا

مکتبہ

مکتبہ اسلامیہ  
بیت المقدس



مکتبہ اسلامیہ

۱۳۶۱

## تصدير عام

كتابى هذا جزآن : الأول منهما كتاب أدب وتاريخ الذى ظهر فى سنة ١٩٢٧ ونقد ، وها نحن أولاء نعيد طبعه فى هذا الجزء الأول . أما الجزء الثانى فهو تكملة للأول اذ يشتمل على مختارات من المقالات والأبحاث المتنوعة فى الأدب والتاريخ والاجتماع التى نشرت فى الصحف والمجلات منذ سنة ١٩١٣ لغاية سنة ١٩٥٠ ، مقالات وأبحاث لم تنشر فى الجزء الأول الذى ظهر فى سنة ١٩٢٧ ولم تجمع فى كتاب .

وقد أضفنا الى مجموعة الجزء الثانى مقالات وأبحاثا جديدة كتبت خصيصا فى صيف هذا العام لينتظمها هذا الكتاب ، ولم تنشر اطلاقا . مثال ذلك الكتاب السادس **امرؤ القيس وجوته** من ص ٣١٣ الى ٣٧٣ . وفصول - فى حديقتى - الأخيرة و **على النيل و كان مساء** من أدب الوحي والتصوير **الكتاب الخامس** . و **سر تاخر المصريين** من أدب الاجتماع **الكتاب السابع** .

ولا يظن أحد أن هذا الكتاب فى صفحاته الخمسمائة يحوى بين دفتيه المختار مما نشرناه فى سبعة وثلاثين عاما ، لأننا فقدنا معظم أصول المقالات ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق . وانا لنأسى ، ويحق لنا أن نأسى ، على الزمن القريب أو البعيد ، الذى كان فيه أدب . وكان فيه أدباء . وكان فيه ذوق وأهل ذوق يتذوقون الأدب وأساليب الكتابة وأفانينها من كل لون . كانت للأدب دولة فدالت . وكان لها رجال فانقرضوا . حتى زهدنا فى الكتابة ، وزهدنا عن « جوائز » القوم . وزهدنا فى كل شىء . واذا كنا قد ضللنا فالتاريخ لن يضل ولن يضل . ولكل جيل كتابه فى عنقه .





## الجزء الأول

تصدير ..... ١١

### الكتاب الأول:

## محمود سامي البارودي

- رسالة من أمير الشعراء أحمد شوقي بك ..... ١٥
- الفصل الأول - تمهيد ..... ١٧
- الفصل الثاني - عصر الصبا ..... ٢١
- الفصل الثالث - صناعته الشعرية ..... ٣١
- الفصل الرابع - الثورة العرابية ..... ٣٥
- الفصل الخامس - المنفى ..... ٤٥
- الفصل السادس - آخر أيامه ..... ٥٥
- الفصل السابع - مختارات ..... ٦١

### الكتاب الثاني:

## إسماعيل صبري

- الفصل الأول - صبري في صباه ..... ٨٥
- الفصل الثاني - سلامة الذوق ..... ٩١
- الفصل الثالث - شعر الكهولة ..... ٩٥
- الفصل الرابع - مختارات ..... ١١٤

### الكتاب الثالث:

## تاريخ الحركة الاستقلالية في إيطاليا

مقدمة بقلم خليل مطران بك ..... ١٣١

## الباب الأول

- عصر النهضة والثورات . . . . . ١٣٥  
 الفصل الأول - ايطاليا لغاية مؤتمر فينا . . . . . ١٣٧  
 الفصل الثاني - الحركات الثورية . . . . . ١٤٤  
 الفصل الثالث - مازينى . . . . . ١٥٠  
 الفصل الرابع - المعتدلون (١٨٤٣ - ١٨٤٨) . . . . . ١٥٧

## الباب الثاني

عصر الحروب والاصلاحات

- الفصل الأول - القوى الرئيسية في الحركة . . . . . ١٦٩  
 الفصل الثاني - كافسور . . . . . ١٧٣

## الكتاب الرابع :

### الفصول

- دقات الساعة . . . . . ١٨٩  
 موليير . . . . . ١٩١  
 مصر حيرى . . . . . ١٩٧  
 الذكريات . . . . . ٢٠٠  
 اسماعيل صبرى . . . . . ٢٠٢  
 خاطر في العيد . يوم شم النسيم . . . . . ٢٠٥  
 خطرات في الطريق . الآلام . . . . . ٢٠٧  
 خطرات في الطريق . بلاغة العرب . . . . . ٢١١  
 القديم والجديد . . . . . ٢١٥  
 الى اى طريق نحن مسوقون . مهزلة في ماتم . . . . . ٢١٧  
 البنون والحياة الدنيا . قصيدة شوقى بك . تحليل ونقد . . . . . ٢٢٠  
 تعليق الأمير شكيب أرسلان . . . . . ٢٢٠  
 المصرى غريب في بلاده . . . . . ٢٢٣



## الجزء الثاني

الكتاب الخامس :

### فصول في الأدب

#### الباب الأول . أدب النقد والتحليل

صحيفة

٢٣٩	.....	امرؤ القيس
٢٤٨	.....	بلاغة العرب . كليلة ودمنة
٢٥٣	.....	الحكم على الشعر وأساليب النقد والتحليل (١)
٢٥٧	.....	نقد المقال السابق لأستاذ جليل ( اسعاف النشاشيبي )
٢٦١	.....	الحكم على الشعر وأساليب النقد والتحليل (٢)
٢٦٥	.....	شوقي

#### الباب الثاني . أدب الوحي والتصوير

٢٦٩	.....	سياحة في الجبل
٢٧٢	.....	مقبرة في الفردوس
٢٧٤	.....	الانسان والنمل
٢٧٥	.....	في الطريق
٢٧٧	.....	تحية السياسة الأسبوعية
٢٧٨	.....	ما رآته عيناي في أوروبا (١)
٢٨١	.....	ما رآته عيناي في أوروبا (٢)
٢٨٤	.....	ما رآته عيناي في أوروبا (٣)
٢٨٦	.....	وحي الأدب . في حديثي (١)
٢٨٩	.....	في حديثي (٢)
٢٩٣	.....	في حديثي (٣)
٢٩٧	.....	في حديثي (٤)
٣٠٣	.....	في حديثي (٥)



صفحة

٣٠٥	في حديثي (٦) و (٧)
٣٠٦	على النيل (١) و (٢)
٣٠٧	على النيل (٣)
٣٧٧	خطرات في الاجتماع . الحماسة

## الكتاب السادس :

### امرؤ القيس وجوته

٣١٣-٣٧٢

## الكتاب السابع :

### فصول في الاجتماع

٣٨٠	الصناعة في مصر (١)
٣٨٧	الصناعة في مصر (٢)
٣٩٠	عصر الانتقال
٣٩٦	مصطفى كامل
٤٠٠	لمحة الى نهوض الأمم وسقوطها
٤٠٢	علل المجتمع المصري
٤٠٥	في الحياة المصرية . عوامل اليأس وعوامل الأمل
٤٠٨	اليأس من الإصلاح
٤١١	مصر والألعاب الأولمبية
٤١٥	ذكرى الثورة المصرية
٤١٧	عيد الدستور
٤٢٠	الواقعيون والخياليون
٤٢٢	سر تأخر المصريين

## الكتاب الثامن :

### فصول في التاريخ

٤٢٩	أحمد عرابي باشا
٤٥١	رسالة الجامعة في العصور الحديثة
٤٦٧	الامبراطورية المصرية في الخمسين عاما الأخيرة
٤٨٨	الصومال بعد أرتيريا
٤٩٠	دولية المسألة المصرية وحيدة القناة (١)
٤٩٧	دولية المسألة المصرية وحيدة القناة (٢)
٥٠٢	كيف خرقت انجلترا معاهدة ٣٦

## البحر الأول

من الكتب التي...

الكتاب الخامس

مركز القدس وحرارة

الكتاب السابع

فصول في الاجتماع

ساعة الانجاز

الكتاب الثامن

الكتاب الثامن

فصول في التاريخ

هذا الكتاب...



## تصدير

هذه كتب وفصول ظهرت في أزمنة مختلفة فضمنت شتاتها في سفر واحد أقدمه اليوم للقراء ، تنطوي كلها على غرض واحد ، وهى صورة من نفس كاتبها ، مصرية في سمتها ونزعتها •

ولا ريب أننا لم نبلغ بعد في عالم الفكر ما بلغناه في عالم الخيال ، وأن آدابنا القومية لا تزال في نشأتها الأولى ، وما آداب الأمم إلا سنادها •

كان أدباء الألمان ، ومؤرخوهم ، وفلاسفتهم في بروسيا في القرن الثامن عشر يشيدون بذكر العظمة القومية ، ويتعهدون الشعور الوطنى في كتاباتهم ، فلما حاول نابليون اخضاعهم في أوائل القرن التاسع عشر انقلبت الفكرة الكامنة في النفوس ، الفكرة الحية المنتجة وليدة آدابهم القومية ، الى قوة خارجية منظمة انتفضت فجاءة فأخرجت الأجنبى من الديار ، وأحاطت استقلال بروسيا وعظمة ألمانيا بسياج متين •

ان الآداب القومية الصحيحة ، من تاريخ وبيان وفلسفة ، يجب أن تكون رسول الفكرة الوطنية الى النفوس ، بشرط أن لا تتبذل في السياسة ، وأن تصون نفسها عن الامتهان وخدمة الأغراض ، وأن تروى فيها شهوات العلى ، وأن يتنفس المظلوم في أفيائها ، وأن تكون له مصدر قوة والهام ، ترده الى العزم اذا أصابه ضعف أو خور ، وتعصمه باليقين اذا جنح الى اليأس والاستسلام ، وتتعهده اذا عز المعين ، وتحدوه في الطريق المأمون الى غاية المراد البعيد •

وأكبر أمل لصاحب هذا الكتاب أن ينتفع به المتأدبون وأن يكون حجرا صغيرا في بناء أدبنا القومى •

مارس سنة ١٩٢٧



# الكتاب الأول

محمود سامي البارودي



مات في سنة ١١١١

بمدينة بغداد



# مقدمة

## رسالة من أمير الشعراء

إلى المؤلف<sup>(١)</sup>

سيدي الأستاذ صبرى :

أحب بك مهديا ، وأكرم بكتابك هدية ، ولا برحت توألينا بالطرف من أدبك ، وتوأفينا بالتحف من كتبك ، وجعل الله هذه الآثار وأمثالها من نتائج القرائح في مصر نماء وبركة ، في رأس مال الأمة ، من حضارة مستقبلية ، ودولة مؤهلة ، ومكان بين الممالك ومنزلة ، فما رأس أموال الأمم الا وسائل الأدب السليم ، وذرائع العلم الصحيح ، وكل أدب سليم فهو أدب كل زمان ، وكل علم صحيح فهو علم كل أوان . سألتني عن رأيي في رسالتك الجليلة فان كان له من القيمة ما زعمت فهو رأى الغواص في الجمانة ، والبستاني في الريحانة ، والتجر في معتقة الحانة ، ترجمة كلها حسن وأحسن ما فيها المترجم ، وتحلية كلها روعة وأروع ما فيها المحلى . منكوب كريم اجتمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق في البرامكة من جاه يطويه ، ونعيم يدويه ، وولد يرديه ، ونور يطفئه ، وحسب وضاح يخفيه ، وحكم بالأمس نافذ يحكم فيه . جاورته بحلوان الشهور الطوال يشد بيتينا طنبا ، وينتظم دارينا جدار ، فاذا الجار كريم ، واذا

(١) كان المؤلف نشر البحث الخاص بالبارودي على دفعات في الصفحة الأدبية من السياسة الأسبوعية ثم جمعه وطبعه على حدة في رسالة ظهرت في سنة ١٩٢٣

الشاعر عظيم ، ما سمعته مرة عرض شعره على جلسائه ، ولا رأيته  
 الا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه . وهكذا كان رحمه الله  
 اذا جرى ذكر الحوادث العراقية في مجلسه توارى بالاطراق حتى  
 يمسك المتكلم . سألته مرة صبرى باشا : هل له مذكرات عن الثورة ؟  
 فقال لا ، قال : وما منعك ؟ قال علمى بأن الغضب فى طباعى وخوفى من  
 أن يملكنى عند بعض الذكريات فيبغى القلم على الرجال . فقال حامد بك  
 خلوصى وكان ممن ضم المجلس ، صدقت ، ألسنت القائل ( ونغضب فى  
 شرورى نقيير فنشتد ) فتبسم رحمه الله ثم قال : ولا يفضبنى مثل حديث  
 الثورة فلنخض فى غيره . وعلى ذكر الثورة أقول للأستاذ انه كان له غنى  
 عن الاشارة الى مواقف المرحوم البارودى فى الحوادث العراقية فان فى  
 ذلك من مسابقة التاريخ ما فيه ، ومن سابق التاريخ لم يأمن أن يضل  
 الأعقاب ، ويحرف مواضع التبعات من الرقاب .

المخلص

شوقى

٢ يولييه سنة ١٩٢٣



## الفصل الأول

### تمهيد

البارودي يمثل طور الانتقال أحسن تمثيل بشخصيته البارزة في الشعر ، فهو صلة متينة بين شعر العرب القديم والشعر العصري ، وهو محي دولة الشعر بعد العدم ، فوجب أن يعنى به المصريون لأنه زعيم النهضة الشعرية الأدبية التي هي مظهر سام من مظاهر النهضة العامة التي نهضتها البلاد في القرن التاسع عشر .

ولكننا قبل أن نقلب الطرف في شعر البارودي وترجم عن الأثر الذي يتركه في النفس سنقول كلمة اجمالية نحدد بها المراد بالشعر العصري .

لو تفهمنا بالدقة على حدة معنى كلتا الكلمتين « الشعر العصري » لتجنبنا سبلا كثيرة ضل فيها اللب والفهم وأخطأ في سلوكها شعراء كثيرون . الشعر شعور « يشعر » به الفرد في « عصره » والآن تفصل :

الشعر الذي يصدر عن شعور صادق هو الشعر حقيقة ، هو الشعر المطبوع المنسجم الذي تنعكس في مرآته صورة من حياة الرجل يتجلى فيها طابع خاص ، وكلما كبرت شخصية الشاعر ازدادت اتصالا بعصره ، وقد يمتزج الاثنان امتزاج الروح بالجسد ، ويصبح طابع الشخصية مثلا للشاعر وعصره معا .

فلاجل أن يكون الشاعر شاعرا عصريا يجب أن يكون شعره شعرا وأن يكون عصريا ، واني أضرب مثلا :

يذكر القراء أن شاعرنا حافظ ابراهيم وصف القاطرة في قصيدة نه ميمية في « رعاية الأطفال » فلم يوفق في هذه القصيدة كما وفق في كثير



من شعره خصوصا في قصيدته اللامية التي قالها في نفس الموضوع ،  
تلك القصيدة التي تجلت فيها شاعرية حافظ والتي يقول فيها :  
وكان ناحل جسمها في ثوبها      خلف الخروق يطل من غربال  
ووصف الشاعر الفرنسي « الفرد دي فيني » القاطرة في أول عهدها  
في قصيدة « بيت الراعي » فلم يوفق والسبب واحد ، ذلك أن الأول  
كان شاعر بؤس ورقة وألم فحلق في فضاء لم يألفه وقل أن يألفه  
الشعر فسقط ، وكان الثاني شاعرا فيلسوفا تذوب نفسه أسى على المجتمع  
البشرى الذي أطال التأمل فيه فهبط فجأة من سماوة الفكر العالى وأخذ  
يتخوض في ماء وحل •

ذلك أن الشعر العصرى ليس معناه وصف المخترعات العصرية من  
قاطرات وطائرات وما شاكلها — وان كان ذلك لا يمنعه من التعرض  
لها — فهذا في الحقيقة تطفل من الشعر على العلم وطرق أبواب ما أغناه  
عن الوقوف بها طويلا •

قال البارودى :

طبعته في لوح الفؤاد مخيلتى      بزجاجة العينين فهو مصور  
وسرت بجسمى كهرباء حسنه      فمن العروق به سلوك تخبر  
لولا التنفس لاعتلت بى زفرة      فيخالنى طيارة من يبصر  
انظر الى هذه الأبيات الثلاثة التى اضطررنا الى ذكرها الآن لأنها  
جامعة ، تجد البارودى أشار في البيت الأول الى آلة التصوير  
أو « الفتوغرافيا » ، وفى الثانى الى الكهرباء والسلوك ، وفى الثالث  
انى الطيارة •

خلط الشاعر بين الشعر والعلم ، بين الخيال السامى والماديات ،  
بين ماء السماء الصافى وماء المستنقع الآجن ، فظهر شعره فى تلك الصورة  
التي يابها الذوق السليم •

هذه الأبيات ليست من الشعر العصرى فى شىء لأنها ليست من

الشعر ، وانى أمقت ذكر المخترعات على هذه الصورة كما أمقت الصنعة والتكلف والبديع والجناس وكل ما يحول الشعور عن مجراه الطبيعي فلا يلبث أن يتشتت ويجف .

وليس من الشعر العصرى فى شىء أن يولع بعض شعرائنا المعاصرين بىكاء الأطلال والدمن كما كان يفعل العرب لأنه لا أثر للأطلال والدمن فى العصر الحاضر ولا يمكن أن ينم بكاؤها عن شعور صادق .

على أن فى ذلك مظهرا من مظاهر التقليد ، والتقليد ممقوت لأن معناه فقدان شخصية الفرد وشخصية العصر ، وهو دليل ضعف ، والحياة قوة .

والنفس تمل التقليد لأنه عدو الجديد ولكل جديد لذة ، وكلما تعددت المذاهب واختلفت باختلاف العصور كان ذلك دليل نهضة وحياة ، والحياة حركة .

ومن أراد أن يتحقق من ذلك فليقارن بين مذهب العرب ومذهب المولدين ومذهب الأندلسيين ، أو فليقارن بين مذهب الشعراء الفرنسيين فى القرن السابع عشر (Ecole Classique) ومذاهبهم العديدة فى القرن التاسع عشر ، ثم ليقارن بعد ذلك بين مذهب الشعراء الفرنسيين أو الانجليز فى الوقت الحالى وبين مذهب شعرائنا اليوم اذا كان لنا مذهب جديد معين .

لا أريد بذلك الحط من مكانة الشعر العصرى فلست أنكر مثلا عبقرية شوقى التى تتجلى كالصبح ، ولكن من منا لا يأسى كلما رأى شاعرنا قد وقف جزءا كبيرا من شعره على المديح وسلك فى ذلك مذهب القدماء .

على أن من حسنات شوقى أنه هجر البكاء على الطلول والمغانى وبكى على آثار مصر وشاد بذكراها فى قصائد عديدة من عيون قصائده فأصبح « شاعر الآثار » وكان بذلك مصرى النزعة عصريا ،



وكان يعبر عن شعور صادق ووطنية عالية ، وكان في الوقت نفسه خير  
ترجمان للنهضة المصرية الحديثة التي تعمل على احياء مجد السلف •

ولكنني لا أقصد التكلم عن « عصرية » شوقى أو مطران أو صبرى  
أو غيرهم وانما أردت أن أضرب مثلا ، وأضيف الى ما تقدم أن الشاعر  
العصرى حقيقة هو الذى يضطر الناقد الى ترتيب قصائده عند الحكم  
عليها ، لا بحسب الأبواب من مديح وفخر وهجاء كما يفعلون ، بل  
بحسب تاريخها فهذا هو المقياس الصحيح الذى يدلنا على مبلغ ارتباط  
الشعر بحياة الرجل وعصره •

وتلك هى الطريقة التى سنجرى عليها فى درس البارودى والبحث  
عن آثار القديم التى تختلط أحيانا بشعره اختلاط الرغام بالذهب فى  
معدنه ، وسنبين كيف تمكن البارودى من نظم بعض قصائد من الشعر  
النقى الحر كسبائك الذهب المصفى •

ولا ريب أن هذا الشاعر سيكون لنا مثلا كبيرا ثبت به تلك الحقيقة  
التي جهلها الأكثرون وهى أحسن الشعر أصدقه •



## الفصل الثاني

### عصر الصبا

صدر من ديوان البارودي جزءان يحتويان على معظم شعره ، وهما مصدران بمقدمة في حياة الرجل لا تنفع غلة لاسيما اذا تذكرنا أن حياة هذا الشاعر كانت كبيرة مملوءة بالحوادث والعبر التي نظمتها يد المقدار صحيفة في تاريخ مصر ، وأن حياته وشعره يؤلف بينهما نسب صادق فمن أراد حقا أن يمتع بذلك الشعر العذب فليرجع الى الأصل وهو الحياة وليقتطف تلك العناقيد من كرومها وحسبنا أن نصورهما من عل في لوحة مصغرة .

وستتكملم في هذا الفصل عن صباه حتى يقارب الأربعين في آخر حكم اسماعيل ، ثم نتكلم عنه في أطوار حياته الأخرى ، ابان الثورة العرابية ، في منفاه وفي مصر .

نشأ البارودي في بيت مجد مؤثله ، هو ابن حسن بك حسنى الذى كان من أمراء المدفعية ثم صار مديرا لدنقلة وبربر على عهد المرحوم محمد على باشا ، ابن عبد الله بك الجركسى ينتهى نسبه الى المقام السيفى نوروز الأتابكى أخى برسباى قرا المحمدى .

والترك والجركس هم آخر طبقة من الغرباء وفدوا الى مصر واتخذوها وطننا وتوالدوا فيها فأصبحوا « مولدين » روى صاحب الهلال أن البارودي كان شديد الحرص على معرفة نسبه وأنه بذل نحو ٣٠٠٠ جنيه في سبيل البحث عنه في أنحاء القطر ومراجعة النصوص وغير ذلك .

ولد صاحب الترجمة بسراى باب الخلق لثلاث بقين من رجب سنة ١٢٥٥ هجرية ، وفي سنة ١٢٦٢ توفى والده بناحية دنقله وكان عمره اذ ذاك سبع سنين وفي ذلك يقول لما ناهز العشرين :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادي  
طاح الردي بشهاب الحرب والنادي  
مات الذي نرهب الأقران صولته  
ويتقى بأسه الضرغامه العادي  
مضى وخلفني في سن سابعة  
لا يرهب الخصم ابراقى وارعادي  
فان أكن عشت فردا بين آصرتي  
فها أنا اليوم فرد بين أندادي

هذا الشعر كما تراه متين محكم النسيج نظمه في سن صغيرة ، فما سر هذه القوة التي تجلت قبل الأوان في عصر مقفر من الشعر الجيد ؟ أهو في تربيته القومية أم في طبعه واستعداده ؟ .

شرح محمود سامي في سن الثامنة يتلقى مبادئ العلم على أساتذة كانت تحضر في منزله ، ودخل في سنة ١٢٦٧ ، أي في سن الثانية عشرة ، مدارس الحربية وتخرج منها برتبة باشجاويش سنة ١٢٧١ في أوائل تولية سعيد باشا ، وكان عمره اذ ذلك ست عشرة سنة ، ويقال انه كان يتعاطى صناعة الشعر في أثناء دراسته .

أما تربيته الأدبية فاليك ما قاله عنه الشيخ حسين المرصفي في « الوسيلة الأدبية » وكان من أعرف الناس به : « محمود سامي البارودي لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع بعض من له دراسة وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ وهو بحضرتة حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن . . . ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدا شربها من خسيسها ، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمرء » .

لم يكن عصره يساعد على تكوين ملكة البلاغة لأن حامل لواء



الشعر اذ ذاك محمود صفوت الساعاتى الذى أعقب الدرويش ، حدثنى  
المرحوم حفى بك ناصف مرة أن أجود قصيدة نظمت فى عهد محمد على  
هى القصيدة التى مطلعها :

يا آل طه عليكم حملتى حسبت ان الضعيف على الأجواد محمول  
والتى ما زال الى اليوم بعض سكان الريف يحفظونها ، وكان الليثى  
والنجارى والايبارى والنديم ورفاعة وأبو النصر وغيرهم من معاصرى  
الساعاتى مولعين بالبديع محتذين مثل البهاء زهير وابن خفاجة وغيرهما  
من المتأخرين الذين ليسوا من حلبة هذا الميدان •

أما فيما يتعلق بالوراثة فقد قال البارودى :

أنا فى الشعر عريق لم أرته عن كلاله  
كان ابراهيم خالى فيه مشهور مقاله  
وسما جدى على يطلب النجم فناله

لا أظن أن خال البارودى كان شاعرا يمتاز عن اهل عصره ولكن  
لعل البارودى وجد فيه مشجعا على قول الشعر كما وجد فى المعالى  
التى يفخر بها ، وفى معاهد العز والشباب التى درج فيها •

ولكن كل هذا لا يكفى لأن يبرز شاعر غض الاهداب على معاصريه  
ثم يجرى حبله على غاربه حتى يلحق بفحول المتقدمين قبل أن يطوى  
برد الشباب •

اذن كان سر قوة هذا الشاعر فى طبعه ، وكانت فى قرارة نفسه عين  
كامنة ما لبثت أن وجدت منفذا ضئيلا فتفجرت بالسحر الحلال ولم  
تنضب ، روى الأستاذ خليل مطران فى فصل رائع : « لقد تسامحت يوما  
بدالة الود فسألته أية حال من أحوال حياتك كنت فيها أميل الى الشعر  
وأكثر اشتغالا به فأجابنى ان خطرات الشعر صحنى فى أيامى كلها  
ولم تفارقنى الا فى أقلها » •

على أن من يقرأ شعر البارودى يرى ماء الطبع يتفرق فيه ، قال



هو عن نفسه في كلمة افتتح بها ديوانه : « ولقد كنت في ريعان الفتوة  
واندفاع القريحة بتيار القوة ألهج به لهج الحمام بهديله ، وآنس به أنس  
العديل بهديله ، لا تذرعا الى وجه أتتويه ، و لا تطلعا الى غنم أحتويه ،  
وانما هي أغراض حركتني ، و اباة جمع بي ، وغرام سال على قلبي فلم  
أتمالك ان أهبت فحركت به جرسى ، أو هتفت فسريت به عن نفسى »  
ثم روى بيتين قالهما في هذا المعنى :

تكلت كالماضين قبلى بما جرت

به عادة الانسان أن يتكلما

فلا يعتمدنى بالاساءة غافل

فلا بد لابن الأيك أن يترنما

أجل ، غنى البارودى بالشعر كما يفنى الطائر من غير صنعة  
ولا تكلف ، وحركت الأغراض فؤاده في فجر الحياة فأطربنا بأغانيه ،  
حتى جاء آخر العمر وأظلمت الدنيا في عينيه بعد فقد الشباب  
وفقد الديار .

ولقد خص شاعرنا بالذكر غرضين من الأغراض التى حركته في شبابه  
فقال « اباة جمع بي وغرام سال على قلبي » ، أما غرامه فلا ندرى من  
أمره شيئا ، على أن شعره في الغرام قليل ولا أعرف له الا قصيدة فذة  
واحدة في هذا الموضوع ، من خير ما غنى به شاعر على غصن  
انغزل المياد :

هل من فتى ينشد قلبى معى      بين خدور العين بالأجرع  
كان معى ثم دعاه الهوى      فمر بالحى ولم يرجع  
فهل اذا ناديته باسمه      يفيق من سكرته أو يعى

والقصيدة كلها من أرق الشعر وهى لا تقل كثيرا عن قصيدة  
صبرى باشا التى مطلعها :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى      أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء

ويغلب على ظني أن البارودي قال قصيدته هذه في آخر حياته  
لأن عليها مسحة الشعر الذي أنضجه الألم ، ولعله هتف بها في منفاه ،  
وفي البيتين الأخيرين منها بعض الدلالة :

فهل الى الأشواق من غاية أم هل الى الأوطان من مرجع  
لا تأس يا قلب على ما مضى لا بد للمحنة من مقطع

ومهما كان من الأمر فانتى أعتقد أن البارودي كانت في نفسه  
مغالبة بين عاطفتي الحب والاباء فتغلب الاباء وجمح به . ولقد كان  
الاباء عاملا كبيرا في حياته ، وفي شعره ، دفعه في الحياة الى سلوك  
الطريق الوعر المملوء شوكا ليصل الى العز من خلاله ويبلغ به أبعاد  
غاية ، ثم الى التجلد والصبر عند الشدائد ، ودفعه في شعره الى الفخر  
وترك المديح الذي « يتطلع الى غنم » وهو رجل ذو مطامع طموح الى  
العلياء ، وكأنما نطق الكاظمي بلسانه حين قال :

ما سلونا آرام نجد ولكن شغلتنا العلا عن الآرام  
إذا دققنا النظر في مصادر هذا الاباء وجدناها ثلاثة : أولها أصل  
البارودي وحسبه ، ثانيها النعرة العربية التي ورثها الشاعر عن العرب  
الذين درس شعرهم وأصبح يجاريهم ، ثالثها كبرياء حامل السيف ،  
لأنه سيما أن البارودي كان جنديا كبيرا صعد في درج الترقى في أيام سعيد  
واسماعيل وخاض الوقائع ، وكانت له مواقف في حرب كريد وحرب  
الروس مع الدولة وصفها وصف مصور .

أما وقد ذكرنا العز الذي خالط اباءه والذي يفوح شعره برياه  
فلا يغيب عنا أن البارودي لا تكاد تخلو له قصيدة من ذكر « روضة  
المقياس » أو « روضة النيل » والجزيرة ، والشجر ، وغناء الأطيبار ،  
وقد وصف حديقة جزيرة كريد وحديقة جزيرة سيلان ، واننا لا يخالجننا  
شك في أن البارودي كان في أيام صباه يؤم كثيرا روضة المقياس  
والجزيرة ، فانطبعت صورتها في فؤاده الحساس ، وصار كلما أوحى  
اليه فؤاده قول الشعر ظهرت هذه الصورة في ألوان شتى .



وبالجملة فان طبيعة البارودي في شبابه حرّكته لقول الشعر والتمييز بين أساليب القدماء الذين كان يحفظ من شعرهم كل ما كان جزلا رصينا ، ثم وجدت تلك الطبيعة في الحياة ما يساعد على تغذيتها في أطوارها المختلفة فخرج شعره في صباه متينا رقيق الحواشي •

وقد ثبت لنا أن القصائد التي جرى بها القدماء أمثال أبي نواس والشريف الرضى والنابغة الذبياني وأبي فراس والطغرائي ، والتي هي من أجود شعره ، هي من شعر الشباب ولكننا لم نهتد الى هذه النقطة من الديوان المطبوع الذي جنى عليه شارحه • بل من الوسيلة الأدبية ، فان الشيخ حسين المرصفي اختار هذه القصائد وذكرها في كتابه ، وهو وان لم يكن ذكر تاريخها الا أننا عرفنا أن تاريخ ظهور الطبعة الأولى من كتابه كان سنة ١٢٩٦ ( لا ١٢٩٢ كما ذكر خطأ في أول الكتاب ) فتكون جملة القصائد التي نشرت فيه ظهرت قبل أن يبلغ البارودي أربعين عاما • وسنذكر شيئا من هذه القصائد التي تنهادى كالعرائس في أبهى حلى ، ولكننا نقرر من الآن أن البارودي كان فيها مجاريا لا مقلدا فساقها حضرية بدوية التركيب ، ومهما حشد فيها من ألفاظ وتشبيهات قديمة فان آثار التقليد سطحية ، ولت شعري متى كان الصانع المقلد يصل بالشعر الى المرتبة العليا التي وصل اليها البارودي •

انظر اليه مثلا كيف وصف حرب جزيرة كريد حين خرجوا من طاعة الدولة سنة ١٢٨٢ ( ١٨٦٥ ) في قصيدة « أخذ الكرى بمعاقد الأجفان »  
انتى يقول فيها :

وضعو السلاح الى الصباح وأقبلوا

يتكلمون بألسن النيران

صوّر البارودي في هذه القصيدة موقفا له في تلك الحرب تصويرا دقيقا كأنه من ريشة مصور ، ومما يزيدنا عجباً أنه نظمها في ميعه الصبا اذ كانت سنه وقتئذ ٢٧ عاما •



وقال في موقف آخر :  
ولما تداعى القوم واشتبك القنا  
ودارت كما تهوى على قطبها الحرب  
وزين للناس الفرار من الردى  
وماجت صدور الخيل والتهب الضرب  
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا  
سقين بكأس لا يفيق لها شرب  
صبرت لها حتى تجلت سماؤها

وانى صبور أن ألم بي الخطب  
ولما أعلنت روسيا الدولة العلية بالحرب سنة ١٢٩٤ هـ ( ١٨٧٧ م )  
ذهب مع الجيش الذى أرسلته الحكومة المصرية لمساعدتها ومما قاله  
في هذه الحرب :

أدور بعينى لا أرى غير أمة  
من الروس بالبلقان يخطئها العد  
جواث على هام الجبال لغارة  
يطير بها ضوء الصباح اذا يبدو  
اذا نحن سرنا صرّح الشر باسمه  
وصاح القنا بالموت واستقتل الجند  
ترى من ذلك أن البارودى وصف الحرب عن خبرة وصفا يتأثر منه  
القارىء كأن أحساسهما مشترك .

ومما قاله فى بعض القصائد الأخرى التى أشرفنا إليها ، وذاع على كل  
لسان ، وصفه للخمر فى القصيدة التى يجارى بها أبا نواس :  
فطاف بها شمسية لهية لها عند ألباب الرجال ثور  
اذا ما شربناها أقمنا مكاننا وظلت بنا الأرض الفضاء تدور  
ومنها وصف الحمام :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ولا دائرات الدهر كيف تدور

خوارج من أيك دواخل غيره      زهاهن ظل سابغ وغدير  
إذا غازلتها الشمس رفت كأنما      على صفحتها سندس وحرير  
أرأيت وصفا أدق من هذه الأبيات يشف عن قوة الملاحظة  
وحسن التخيل ؟ •

ومنها في الفخر :

وأصبحت محسود الجلال كأننى  
على كل نفس في الزمان أمير  
إذا صلت كف الدهر من غلوائه  
وان قلت غصت بالقلوب صدور  
ومن قوله أيضا في الفخر في القصيدة التي يجارى بها الشريف الرضى :  
ومن تكن العلياء همة نفسه      فكل الذي يلقاه فيها محجب  
إذا أنا لم أعط المكارم حقها      فلا عزنى خال ولا ضمنى أب  
ومن قوله في قصيدته التي يجارى بها أبا فراس :

وانى امرؤ لولا العوائق أذعنت      لسلطانه السدو المغيرة والحضر  
من النفر الغر الذين سيوفهم      لها في حواشى كل داجية فجر  
إذا استل منهم سيد غرب سيفه      تفزعت الأفلاك والتفت الدهر  
كل هذا الشعر قاله البارودي في صباه ، وكل هذا الشعر يترنم به  
أهل العصر فهو اذن من الشعر العصرى الحرّ ، وهو كما ترى مشرق  
الديباجة عليه نضرة ونعيم يدل على اقبال الدنيا ، ولكن لا يفتك أن  
الأيام دول وأن أواخر أيام اسماعيل التي كانت في الوقت نفسه أواخر  
أيام شباب شاعرنا الذي رضع من ثدى عزه وسلطانه قد تكدرت بعد  
صفو وأصابها ازعاج بعد أمن •  
جاء في الديوان ما نصه :

« قال يذم سيرة الحكام ويحرض الناس على طلب العدل في الأحكام  
وذلك في عهد اسماعيل باشا خديوى مصر » ، جاء في هذه القصيدة :



قامت به من رجال السوء طائفة  
أدهى على النفس من بؤس على ثكل  
من كل وغد يكاد الدست يدفعه  
بغضا ويلفظه الديوان من ملل  
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت  
قواعد الملك حتى ظل في خلل

ومنها :

فبادروا الأمر قبل القوت واتزعوا  
شكالة الريث فالدنيا مع العجل  
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا  
لكل منتزع سهما ومختتن  
حتى تعود سماء الأمن ضاحية  
ويرفل العدل في ضاف من الحلل

هذه القصيدة فيما أعتقد مبدأ الشعر السياسى فى العصر الحديث  
وهى صيحة فى وجه الظلم الصارخ ، واستنهاض للهمم ، وحث على  
العمل ، وتذكير بمجد دارس ، وهى وداع للشباب وبلهنية العيش ،  
وايدان بالدخول فى حياة قلق واضطراب ، وجد بعد لهو .

على أن فيها معنى آخر ، وهو أن الشاعر قد وفق بين الشعر والعمل ،  
بين الحلم والحقيقة فكان طائر النهضة الذى غرد فى السحر ، وكان ساعد  
النهضة العامل وان لم توفقه المقادير .

وسنرى كيف بدأت تتغير روح البارودى فى شعره مع تغير الحوادث  
التي كان شعره مرآة لها .





## الفصل الثالث

### صناعته الشعرية

أبنا في مقال سابق كيف تأتي للبارودي أن يصوغ في صباه قصائد بدأ بها المتقدمين وكانت حلية في جيد العصر ولكن هناك نقطة لا نرى بدا من الإشارة إليها ، وهي أن شارح ديوان البارودي لم يحن على شعره بشرحه الطويل الغث فحسب ، بل تعدى ذلك إلى عدم العناية بنشر الشعر في صورته الأصلية فمسح بعض القصائد الرائعة التي جرى بها البارودي فحول المتقدمين ، وكان من السهل على الشارح أن يتنبه إلى هذا الخطأ الذي وقع فيه عفوا لو أنه تفهم شعر البارودي واهتمامه بحسن السبك أو أنه أمعن النظر في القصائد التي نشرها له صاحب الوسيلة .

ومن العجيب حقا أن ينشر المرصفي للبارودي وهو حي في ريعان الشباب نصا لقصائده أصح بكثير من النص الذي نشر بعد وفاته ، على أننا من جهة أخرى قد أسعدنا الحظ بالوقوع على نصين مختلفين لقصائد أو أبيات معدودة لا نشك أن الثاني منهما الذي ظهر في ديوانه هو في الحقيقة النص الأول الذي أصلحه البارودي وصقله بعد أعمال الروية فيه ونقده نقد الصيرفي الحاذق .

من المقارنة بين هذين النصين يتبين لنا بعض جمال هذه الصناعة الشعرية وسرها ، ولقد صدق الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في قوله في المقتطف سنة ١٩٠٥ « لم يكن شاعرنا كامل التصرف في فنون المعاني وإن كان أشعر من جميع معاصريه بلا مرأ غير أنه أتم ذلك النقص بما أتقن من جمال الصناعة وبديع الرواء ، أما نمط البارودي في النظم فهو غاية ما دارت له الألسنة ، عذوبة تكاد ترشف ، وجزالة تلعب بالنفس ،



وسلاسة يستريح في ظلها القلب • وكان يقدم أبا تمام على المنتبى لأن  
شعر أبي تمام أجزل وصنفته أوضح وأتم •

جاء في القصيدة التي يجارى بها أبا فراس :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم ملول من الأيام شيمته الغدر

وقد روى صاحب الوسيلة البيت على الصورة الآتية :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر

فانظر الى الفرق بين الصياغتين وتأمل كيف كان البيت في أول

الأمر كالطائر الذي هيض جناحه فتعسر عليه النهوض حتى جاء

انشاعر وبدل الشطر الثاني بشطر آخر يتلاءم مع الأول معنى ومبنى ،

فان قوله « ملول من الأيام » بعد « ثم بدد شملهم » من أضعف التراكيب

وأخسها بخلاف « أخو فتكات بالكرام » فان هذا التركيب جمع بين

الجزالة والرقعة اللتين بلغتا منتهاهما في آخر البيت حين فسر شاعرنا

الكناية بقوله : « اسمه الدهر » •

أضف الى ذلك ان حزن الشاعر يتجلى في الشطر الأخير على أولئك

« النفر الغر » الذين بدد الزمان شملهم ، وهذا أتم للمعنى وأوفى وأكثر

اتصالا بما جاء بعد ذلك :

قلم يبق منهم غير آثار نعمة تزوع بريها الأحاديث والذكر

وقد تنطق الآثار وهى صوامت ويشنى برياه على الوابل الزهر

ولعل أكبر قصيدة بدلت معالمها وشوهت هى قصيدته التى جارى

بها أبا نواس ، فان الفرق بين الروائين كبير جدا فنحت المتأدبين على

الموازنة بينهما لما فى ذلك من فائدة ، واننا لانشك أن رواية الوسيلة

أصح وأبلغ من رواية الديوان ولا نأسف الا على شطر واحد ذكر فى

الثانية وسقط من الأولى مع البيت كله وهو :

ونبها وقع الندى فى خميلة لها من نجوم الأقحوان ثغور

فان الشطر الأول غاية فى الحسن والانسجام ، قال صديقى الكاشف



حين أنشدته اياه : « هذا شعر » ، وهو ظرف من الجوهر الرقيق يشف  
عن ذلك النفس العالى ، وفيه ما يسميه الافرنج بالنغم التقليدى  
(Harmonic imitative) ، وهو دقة التعبير عن المعانى بتراكيب وألفاظ  
وأوزان تجد لها نغما خاصا يحكى تلك المعانى ويدل عليها • اقرأ  
ثانية الشطر الذى سبق ذكره :

ونبها • وقع الندى • فى خميعة

تر أن الوقوف بعد لفظى « نبها » و « الندى » يجعلك تحس  
وقع الندى وهو يهبط على الخميعة من عل • ومن الأبيات التى بدلت  
فى هذه القصيدة قول البارودى :

عقدنا جناحى ليلنا بنهارنا وطرنا مع اللذات حيث تطير  
فقد جاء فى الديوان :

عقلنا به ماندمن كل صبوة وطرنا مع اللذات حيث تطير  
فالشطر الذى رواه المرصفى كما ترى ضعيف متكلف فى حين أن  
الشطر رواية الديوان من أجود التراكيب وأجملها، ومعنى البيت أن الشاعر  
كان يتمتع بليل جمع فنون اللهو، وهذا دليل على السرور الكامل الذى ينسى  
الانسان مر الليالى حتى ينبهه وقع الندى أو هاتف بالسحر وهو لاه منعم ،  
ومما يزيد من ملاحظة ذلك التصوير المقابلة بين الشطرين ، فان الشاعر ذكر  
فى الشطر الأول أنه يعقل ما ند من كل صبوة ثم وصف نفسه بالطائر  
الحر الذى يطير فى فضاء اللذات حيث تطير ، فأنت ترى من جمال المقابلة  
بين الضدين ما ترقص له النفس •

وجاء فى هذه القصيدة وصف الحمائم رواية الديوان :

إذا ضاحكتها الشمس رفت كأنما على صفحتها سندس وحرير  
فقد ورد فى الوسيلة « غازلتها » بدلا من « ضاحكتها » والأولى  
فى هذا المقام أدق وأحلى أما كلمة المضاحكة فهى عامة شائعة خالية من  
الصنعة الشعرية التى امتاز بها البارودى •

كان شاعرنا يفتش عن الألفاظ الشعرية ، ورب كلمة مليحة تعدل  
بيتا بل قصيدة بل ديوانا ، مثل ذلك كلمة « حواشى » فى هذا البيت :

من النفر الغر الذين سيوفهم لها فى حواشى كل داجية فجر

ولعل البارودى أغار على الشريف الرضى الذى قال :

نهار بلاء السيوف مفضض وجو بحمراء الأنابيب مذهب

ترى اليوم محمر الحواشى كأنما على الجو غرب من دم يتصبب

لم تخرج لفظه الحواشى فى بيت الشريف عن كونها لفظة جيدة

من حيث اللغة الشعرية ولكن معناها ضيق محدود ، فى حين أنها

فى بيت البارودى جيدة من حيث الصنعة الشعرية العالية ومعناها واسع

غير محدود ، وكلما تأملت فيها حملتك على جناحها فى فضاء

الفكر والخيال •

وقد أغار البارودى سهوا على شطر كامل لأعرابى كان سائحا فبلغه

أن امرأته تزوجت فقال من أبيات :

أتانى بظهر الغيب أن قد تزوجت فظلت بى الأرض الفضاء تدور

وصف شاعرنا الخمر فقال :

إذا ما شربناها أقمنا مكاننا وظلت بنا الأرض الفضاء تدور

ولكن البارودى أحسن الأخذ وصار أحق بالمعنى من صاحبه •

هذه أمثلة علنا نكون اهتدينا بها الى بعض أسرار تلك الصناعة ،

وفى اعتقادى أن البارودى جمع فى أسلوبه بين الرقة والمتانة ، والدقة

والجزالة ، والبدائة والحضارة ، فجاء شعره مصقول الديباجة كالمرمر

المسنون يمت بنسب الى البحرى ، وكلاهما لا يشق له غبار •



## الفصل الرابع

### الثورة العرابية

انتقل البارودي من صباه الى كهولته تحت لواء الثورة حتى أسلمته الى منفاه وهجع هجوع الليث بعد أن كانت له على أعدائه دولة وصوله •

ولسنا نريد اليوم أن تفصل حوادث الثورة العرابية وأسبابها ونتائجها فهذا بحث تاريخي مستقل نرجئه الى حين ، ونكتفى الآن بكلمة اجمالية عن الثورة وشرح الدور الذي لعبه البارودي فيها • أجمع أكثر المؤرخين على القول بأن الثورة العرابية كانت ثورة وطنية مصرية ترجع أسبابها الى الظلم الذي أخنى على البلاد في أيام اسماعيل ، والى تدخل انجلترا وفرنسا في فروع الادارة المصرية تمهيدا للاحتلال الثنائي الذي تفردت به انجلترا فيما بعد تحت ستار الثورة التي كانت تعمل في الحقيقة على ازالة أسبابه واجتثاث أصوله •

بدأ أحرار المصريين في أواخر حكم اسماعيل وأوائل حكم توفيق يطلبون صراحة العدل والدستور لخلاص البلاد مما هي فيه ، وانضم البارودي من أول الأمر الى زعماء الحركة وكان من مشجعيها سرا • روى المرحوم عرابي باشا في مذكراته أنه في سنة ١٨٧٩ على أثر حادثة المالية التي دبرها اسماعيل وأراد أن يلصق تبعثها بمحمد بك النادي ، وعلى الروبي ، وأحمد عرابي دعاهم رئيس التشريفات عبد القادر باشا حلمي فتفاهموا معه ثم دعاهم محمود باشا البارودي وكان وقتئذ مأمور الضبطية فصارحوه القول ، وهنا قال عرابي بالنص عن محمود سامي : « وآنتست فيه تأفقا من الظلم وميلا الى العدل والدستور » •



أجل ، كانت هذه النفس الأبية تكره الظلم وتأبى الصبر على الهوان ،  
ولقد أشرنا في مقال سابق الى القصيدة التي شكا فيها ظلم الحكام •  
ولما صعد الأمير محمد توفيق الى العرش هنا بقصيدة قال فيها :  
أمران ما اجتمعا لقائد أمة      الا جنى بهما ثمار السؤدد  
جمع يكون الأمر فيما بينهم      شورى وجند للعدو بمرصد  
أراد « بالجمع » مجلس النواب و « بالجند » الجيش — وهذا  
واضح — فانظر الى شجاعة الشاعر واخلاصه لوطنه كيف دفعاه في ذلك  
الزمن غير المأمون الى المجاهرة بتلك الحقيقة الكبرى وسط التهنة  
والمديح ، والبارودي هو خير من لخص أغراض العرابيين في بيت من  
الشعر ، وهل هناك دواء أنجع من مجلس يحكم البلاد وجيش يحميها ؟  
وهل هناك وسيلتان أخريان لتحقيق ثورة الاصلاح التي كانت البلاد  
بحاجة اليها ؟ •

عين الخديو توفيق في أوائل حكمه محمود سامى وزيرا للأوقاف  
المصرية فسعى جهده في اصلاحها ، ويقال انه كان في ذلك الوقت يشجع  
الحزب الوطنى سرا مع أن القوة العاملة لهذا الحزب كانت في الجيش  
حيث استحكم العداء بين المصريين والعنصر التركى الشركسى الذى ينتمى  
اليه البارودي ، وهذا يدل على حب العدل الذى بنى عليه لاسيما وأنه  
من أسره قديمة فى الديار المصرية •

ولما حدثت المظاهرة العسكرية الأولى ضد عثمان رفقى الشركسى ناظر  
الجهادية وطلب عرابى من الخديو توفيق عزله أجابه الخديو الى طلبه  
وأحال هذه النظارة الى محمود سامى الذى أصبح ناظر الجهادية  
والأوقاف معا •

روى محمود باشا فهمى المهندس فى كتاب « البحر الزاخر » أن عرابى  
وعلى فهمى وعبد العال « اعتبروا اجابة طلبهم مكيدة بهم من الحكومة  
لتسكين جأشهم ثم تحتال عليهم وتغتالهم وما كانوا يعتقدون فيما يعظهم

به محمود سامى من الأقوال وتمهيد الأحوال واضطرب حالهم وشرعوا  
في عقد مجالس سرية واحتفالات وجمعيات ليلية » •

أعتقد أن محمود فهمى لم يقل في هذا الموطن الاحقا • ويجب  
علينا من الآن أن نتبين الصفة البارزة في خلق البارودى وهى الاعتدال ،  
وان كان المعتدل قد يتطرف أو يتهور في بعض أزمان الثورة ، وأريد  
بالاعتدال هذا الخلق الهادى الذى يجمع بين الرزانة والروية والحكمة •  
ولقد جمع البارودى بين الاعتدال والذكاء ، وكان أنه العرايين فاشترك  
في الحركة ولم ييزه حلمه • ولم يلعب فيها دور شاعر وانما قال فيها الشعر  
منفردا قول باك على فنن في غسق الدجى بعد أن غرد في فجر النهضة  
تغريدة أو تغريدتين • ولم يلعب دور زعيم يخطب في الجماهير ، وانما  
كان رجل وزارة وسياسة يرقب الحوادث من كذب ويعمل على سياستها  
حتى اذا رآها جمحت بالبلاد مولية أنزوى في ضيعته وكان أقلهم تبعه •  
اجتهد البارودى في اصلاح « الجهادية » المختلة فطلب الى رئيس  
الوزارة رياض باشا زيادة مراتب الضباط والعساكر وتعديل النظمات  
والقوانين العسكرية ، وقد وقع الخديوى توفيق على هذا الطلب في  
١٢ أبريل سنة ١٨٨١ ففرح الناس وأقام محمود سامى احتفالا دعا اليه  
النظار والمفتشين وكان يوما عظيما خطب فيه رياض ومحمود سامى  
وأحمد عرابى وأثنوا على الخديوى •

وفي ٢٥ يولية من هذه السنة بينما كان الخديوى مصيفا  
في الاسكندرية صدمت عربة أحد التجار جنديا فقتل لساعته فحمله  
رفقاؤه الى سراى رأس التين وطلبوا الى الخديوى النظر في أمره فهاجه  
ذلك وأمر بعقد مجلس حربى حكم عليهم بالأشغال الشاقة أو بالنفى  
الى السودان فشكا عبد العال حلمى أميرالاي السودانية من قسوة  
الحكم وعرض محمود سامى تلك الشكوى على الخديوى فشق ذلك  
عليه واعتقد أن محمود سامى كان يعمل باتفاق مع العرايين فدعا  
في الحال النظار من القاهرة الى الاسكندرية وقدم البارودى استغفاه  
وعين مكانه داود يكن ابن عم الخديوى •



والراجح أن الذي دفع محمود سامي الى عرض هذه الشكوى هو اعتقاده عدالتها ولكن يظهر أن ذوى الأغراض ألقوا من الدسائس في حقه عند الخديوى ، أشار الى ذلك بقوله :

نقموا على حميتى فتألبوا      حزبا على وأجمعوا ما أجمعوا  
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا      سمعا يميل الى الملام توسعوا  
لا عيب فى سوى حمية ماجد      والسيف يغلبه المضاء فيقطع

ويقال ان هذا مبدأ العداوة بين الخديوى ومحمود سامي ومبدأ التحالف بين محمود سامي والعرايين .

ثم عاد النظر الى القاهرة وانتظمت الأمور فى الظاهر ، وعاد اليها الخديوى فى شهر سبتمبر وسرعان ما أصدر داود يكن أمرا الى ألى القلعة بالتوجه الى الاسكندرية وألى الاسكندرية بالحضور الى العاصمة ، فتوجس عرابى خيفة وفهم أن المقصود تفريق كلمتهم هو وأعوانه . روى محمود فهمى بالنص : « لما استغفى محمود سامي من نظارة الجهادية وتوجه الى منزله فى القاهرة توجه اليه أحمد عرابى سرا فى الليل وتعاهد معه على مساعدته ومعاضدته ، هذا قول عرابى لى والافأنا ما كنت أعرف هذا ، ولما استوثق عرابى من معاوضة محمود سامي له ، عاد الى منزله وتوجه فى صباح ثانى يوم الى العباسية وأتى اليه طلبه عصمت بيث له ما وقع فيه فخاطب فى الحال عرابى الآليات فى كونهم يستعدون للحضور فى ميدان عابدين » .

هذه الرواية من الأهمية بمكان لأن هذه الفترة أول عصر الثورة ولا بد أن يكون عرابى قد استوثق أولا من تأييد محمود سامي وبعض كبار الوطنيين له قبل كتابته الى الخديوى والى نظارة الجهادية يخبرهم « ان الجيش سيحضر الى سراى عابدين بخصوص طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد » فان هذه الطلبات أصبحت قومية لا محدودة كما كان الأمر من قبل ، لذلك لقيت تأييدا من الشعب وبدأت الثورة التى ترمى الى الاصلاح العام .

اجتمعت الآلايات في عابدين ، كما هو معلوم ، في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وطلب عرابي باسم الجيش الذي هو قوة الأمة التنفيذية « اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش » فتردد الخديوى ثم عين شريفا رئيسا للوزارة مكان رياض الذي كان مكروها ولم يقبل شريف الا بعد أن تعهد له رؤساء الحزب العسكرى باطاعة أوامره وقدم له عمد البلاد ضمانا ، ولما دعى محمود سامى لتقلد وزارة الجهادية أجاب « بأنه عقد النية على أن لا يتقلد خدمة من خدمات الحكومة ما دام لرجال العسكرية سلطان يعلو سلطان القانون » ولكنه قبل بعد الحاح .

وقد اطلعنا على أوراق للمرحوم الشيخ محمد عبده يعجب فيها من خطة شريف « الذى كان من مدبرى الحركة » ولا شك أن القارىء يعجب أيضا من خطة محمود سامى المتناقضة فى الظاهر ، وأغلب ظنى أن هذين الوزيرين ، لاسيما محمود سامى ، من المعتدلين الذين يعملون لمصلحة بلادهم ولكنهم يخشون دائما أن تغل يدهم سكرة العسكر أو أن تخرج الثورة من دائرتها السلمية القانونية فى ظروف دقيقة للغاية فيجد الخصم وسيلة للقضاء على نجاحها المبدئى خصوصا وأن المطالب الأساسية كانت أجيبت أو كادت ، وباستغلالها فى الدائرة القانونية يمكن الاحتيال والوصول الى أبعد غاية : كان مانان بطل البندقية وحاميا فى الثورة الايطالية من أكبر أنصار هذه الفكرة .

وهذا هو السبب الذى من أجله ألح شريف ومحمود سامى على عرابى فى السفر بألايه الى رأس الوادى فى مديرية الشرقية وعلى عبد العال حلمى الى دمياط . ومن حسنات عرابى أنه أبى ان ينتقل قبل أن يصدر أمر بتشكيل مجلس النواب ، وكان الاحتفال بتوديعه فاتحة المظاهرات والاتصال بين عرابى والجمهور ، واشترك الجمهور فى الثورة اشتراكا فعليا .

ولكن عرابى بعد استقراره فى رأس الوادى شرغ يجول فى أنحاء المديرية ويخطب فيها فدعاه محمود سامى وعينه وكيلا لنظارة الجهادية .



وفي ٢٢ سبتمبر وافق الخديوى على القوانين العسكرية وفي ٤ أكتوبر اعتمد لائحة مجلس النواب الذى تم انتخاب أعضائه فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وكان مؤلفا من اثنين وثمانين عضوا تحت رئاسة سلطان باشا ، وكان من الممكن أن تسير الأمور بانتظام لو لم يكن الانجليز بمرصد يدسون بين هذا وذاك ، ويحرضون هذا على ذلك ، ويحركون المطامع والشهوات حتى وجدوا بفضل داء الشخصيات الذى ينغل فى جسم الأمة فرجة توصلوا بها الى كبد البلاد فطعنوها فى الصميم .

وما وافق الخديوى توفيق من مبدأ الحركة الى منتهاها على جميع الاجراءات والمطالب الا مكرها . كان للسراى حزب ، وكان العرابيون منقسمين الى متطرفين أمثال عرابى وطلبة وعبد العال وعبد الله نديم ، ومعتدلين أمثال عبد السلام المويلحى ومحمود سامى ، وشريف وغيرهم ، لذلك كان الخصم آمننا مطمئنا لم يزعجه انعقاد مجلس النواب لعلمه أن فرص الخلاف كثيرة وأنه سيعرف كيف يخلقها ويستفيد منها ويحول بين المصريين وبين التمتع بمجلس النواب الذى هو عمود الثورة السلمية المنظمة .

أرسلت انجلترا وفرنسا فى ٧ يناير سنة ١٨٨٢ مذكرة ثنائية الى الخديوى تقولان فيها « أنهما موطدانه ومثبتانه على الأريكة الخديوية » فوقعت هذه المذكرة فى القاهرة ، كما قال السير مورلى ، كالتنبلة ، وكان الغرض منها خلق الفتن وتهيئة جو صالح للتدخل .

وكان شريف باشا قدم فى ٢ يناير سنة ١٨٨٢ الى مجلس النواب اللائحة الأساسية الجديدة التى أعدها له ، وبعد فحصها وقع الخلاف بين النواب والنظار بشأن المواد المتعلقة بالميزانية وكان سلطان باشا وبعض النواب يؤيدون شريف فتدخل وكيل فرنسا وانجلترا معارضين فى حق مجلس النواب فى تقرير الميزانية فكان تدخلهما مثيرا للشكوك داعيا لاستحكام الخلاف ، وانتهى الأمر باستعفاء شريف باشا وتأليف وزارة برئاسة محمود سامى البارودى ، وتعيين أحمد عرابى وزيرا للجهادية

فسر الحزب الوطنى بهذا الانتصار ووردت التهنئات من كل صوب ،  
واعتربت هذه أول وزارة وطنية مصرية ينتمى رئيسها الى حزب الثورة •  
ملك محمود سامى وقتئذ أعناق المطالب وكان مملكا على عرش  
القلوب ، على أن شاعرنا وهو البصير الهادىء الذكاء لم يكن ممن  
يلهيه سكر الانتصار عن الحقائق الراهنة ، واليك الدليل :

فى يوم الأربعاء ٨ فبراير ذهب محمود سامى الى مجلس النواب  
ومعه اللائحة بعد أن وافق عليها مجلس النظار فقبول بالشكر والتبجيل ،  
ثم وقف محمود سامى خطيبا فى المجلس فقال :

« أيها السادة النواب : اننى سعيد الطالع بحضورى بينكم حاملا  
الى حضراتكم القانون الأساسى •••

« الا أنتى أعلم كما تعلمون أن مجرد وضع القانون على أصول  
الحرية وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع  
حضراتكم بل لا بد أن ينضم الى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم  
فى المحافظة على حدود هذا القانون ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث  
تكون جميع الأعمال والأفكار منحصرة فى دوائرها • وقد قال عقلاء  
السياسيين ان الوصول الى هذا النوع من الكمال أعنى حصر جزئيات  
الأعمال وكلياتها فى دائرة القانون انما ينال بعد العناء وطول التجارب  
ولكنى لا أعد هذا صعبا عليكم •

« وفى أملى أنكم ستحققون ما يظن أحباء البلد فيكم عندما تبدئون  
فى الأعمال المهمة التى تهيأتم الآن لمباشرتها بأن تستعملوا صادق النظر  
للووقوف على ما فيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى الهمم حتى  
لا يضيع الزمن الطويل فى الحصول على فائدة قليلة وهذا لا يكون  
الا بتخليص الأفكار وتمحيص الطوايا من شوائب النزعات الشخصية  
بأن نجعل الأعمال وقفا على المصالح العمومية التى نفعها فى الحقيقة عائد  
عليكم وعلى أبنائكم •

« ان التفات النظر الى الخصوصيات يبعث فى القلوب محاسدات



ومناظرات تحمل على الخلاف الدائم وانكم تعلمون أن الذين رقوا الى ذروة العز وأوج الشرف لم ينالوا ذلك الا باخلاصهم في طلب النفع العام فاعترف العالم بفضلهم وأجلتهم القلوب وأحلتهم أعلى المنازل فثبتوا في مكانهم ما داموا بحلية الاخلاص » •

ثم ختم قائلاً : « وآخر ما تتواصى به أن لا نجعل للتعصب المشربي دخلا في الأعمال الوطنية التي كلفتكم البلاد أن تقوموا بأدائها وأن تكون الوطنية الحقيقية هي الباعث القوي على كل فكر والغاية القصوى من كل قول وعمل » •

هذه خطبة أخلق بها أن تكتب بماء الذهب فهي صيحة اخلاص في ساعة الخطر تشف عن جوى باطن وداء دخيل •  
وسرعان ما سعت انجلترا وفرنسا في خلق الارتباكات وتعقيد الأمور للقضاء على الثورة والاستيلاء على مصر •

بلغ عرابي أن طائفة من ضباط الشركس يعملون على الكيد له فعقد مجلسا حربيا وقرر نفيهم الى الأقطار السودانية فعارض الخديوى وتصلب عرابي وكان هذا مبدأ دخول الثورة السلمية في طريق العنف والارتباك والاضطراب التي لعبت به انجلترا تحت ستارها دورا كبيرا ختمته بمأساة الأسكندرية : وسعت انجلترا الخلاف بين الخديوى والعرابين فدعا الخديوى قنصلى انجلترا وفرنسا وقال لهما ان حياة الأوربيين في خطر فانزعج القنصلان وذهبا الى رئيس الوزارة محمود سامى وناظر الحربية أحمد عرابي فأكدا لهما أن لا خوف من ذلك •

في هذه الساعة انقلت « عيار » الثورة وجمحت الحوادث عجلي ، وكثرت المجالس الليلية والاجتماعات وظن الناس الظنون • وبينما كان بعضهم يعمل على رقع الخرق قبل أن يتسع وردت أنباء مجيء الأساطيل الى المياه المصرية ، وارسال الدولتين بلاغا آخر بالاتحاد مع سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، تطلبان فيه اسقاط الوزارة واخراج عرابي من القطر المصرى فلم تقبله الوزارة وقبله الخديوى الذى كان جل اعتماده

على انجلترا ، وبناء عليه استعفت الوزارة ، وكان ذلك في ٢٦ مايو  
سنة ١٨٨٢

يظهر أن محمود سامي أحس وقتئذ الخطر الذي يهدد البلاد وعجزه  
عن تقويم الأمور فعاد الى ضيعته وبقي فيها حتى دعاه عرابي الى قيادة  
فرقة الصالحية في الحرب التي دفعت انجلترا البلاد اليها .

ولا ريب أن البارودي رجع الى مزارعه مترع القلب بالأسى ، فلما  
رأى خلاء ومنظرا هتف بالشعر ليسرى عن نفسه . ولعله نظم في هذه  
الفترة القصيدة التي تقتطف منها ما يأتي :

كنا نود انقلابا نستريح به	حتى اذا تم ساءتنا مصائره
فالقلب مضطرب فيما يحاوله	والعقل مختبل مما يحاذره
ان دام هذا أضع الرشد كافله	فيما أرى وأطاع الغي زاجره
تنكرت مصر بعد العرف واضطربت	قواعد الملك حتى ريع طائره
فأهمل الأرض جرئى الظلم حارثها	واسترجع المال خوف العدم تاجره
واستحكم الهول حتى ما يبیت قتي	في جوشن الليل الا وهو ساهره
انى أرى أنفسا ضاقت بما حملت	وسوف يشهر حد السيف شاهره
شهران أو بعض شهر انهى احتدمت	وفي الجديدين ما تغنى فواقره
فان أصبت فعن رأى ملكت به	علم الغيوب ورأى المرء ناظره

كان الرومان يسمون الشاعر (Vates) وهو الذى يملك بالرأى علم  
الغيوب ، وقد يتفق ذلك كثيرا للشعراء لما امتازوا به من فطنة والهام ،  
وهذا ما حدث للبارودي فانه كان ينصح مواطنيه بالعمل على اجتناب  
الحرب وان كان يعلم علم اليقين ان البلاد مدفوعة اليها وانه لا ينفع  
الحذر ، وقد أجاد البارودي في البيت الثانى تصوير هذه الحالة النفسية  
كما أجاد تصوير نفسيته حين جاءه وهو فى سيلان خبر العفو  
عنه فقال :

أحس فى قلبى ديب المنى وألمح الشبهة فى خاطرى



هذان البيتان من أدق الشعر ، وهما خير ماء تحدر من غمام واحد •  
ثم انظر من أى بحر يعترف حين يقول بعد انتهاء الحرب وان كان  
الديوان خلوا من أية اشارة الى موضوع الأبيات :

نصحت فكذبتم فلما أتى الردى      عمدتم لتصديقى وقد قضى الأمر  
فلم يبق فى ايديكم غير حسرة      ولم يبق منى غير ما عافه الصدر  
فجاء الذى كنتم تخافون شره      وزال الذى لم يبق من بعده شعر

هذا شعر ينضح بمرارة العيش التى يقاسبها مغترب فى منفاه  
بعد أن قضى الأمر وضاعت الديار ، ومن كياسة البارودى وصدق وطنيته  
أنه لم يطعن الثورة فى ظهرها بعد فشلها كما فعل الكثيرون ، ولم يأس  
على المال ومتاع الدنيا وظل كريم العنصر :

لم أقترف زلة تقضى على بما      أصبحت فيه فماذا الويل والحرب  
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى      ذنب أدان به ظلما واغترب  
فلا يظن بى الحساد مندمة      فانتى صابر فى الله محتسب  
أثريت مجدا فلم أعبأ بما سلبت      أيدى الحوادث منى فهو مكتسب  
لا يخفض البؤس نفسا وهى عالية      ولا يشيد بذكر الخامل النشب

ألست تحس كأن هذا الشعر من قول المتنبى أو أبى العلاء وأن  
روح الشاعر « تطورت » فى كهولته ، ثم انظر الى الحكمة فى شعر  
صباه وقد كانت بنت الذكاء والتحصيل ، وانظر اليها الآن وقد شيب  
الدهر فوديتها وصارت بنت التجارب والألم •

فانت ترى من كل ما تقدم أن البارودى لعب فى الثورة العرابية  
دورا كبيرا تصحبه الحكمة والاعتدال فى معظم أطوارها ، وترك حبلها  
على غاربها حين أحس ريحا عاتية تسوق البلاد الى الحرب ، ثم رجع  
الى الصف فلم توفقه المقادير ، وذهب الى منفاه الذى جمع الأسى  
واقترح زناد فكرة فقال شعرا كثيرا أعاد به الى البلاد عصر الأدب الأزهر •

## الفصل الخامس

### المنفى

أرأيت مخضرا من الروض كان مسرحا للشباب ترف عليه الغضارة  
والنضارة ، وكان ساكنوه يقامرون الدهر فوق ذلك البساط الأخضر ،  
والدهر يلهمهم بعاجل الربح عن آجل الخسران ، حتى قمرهم فجاءة ،  
ودالت دولة السرور ، وهبت النكباء ، وغاض ماء النعيم ، وطوى  
البساط ، وخرج كل منهم خاشعا وسليبا .

كان محمود سامى من أولئك النفر الذين تبسطوا على لذات الشباب  
زمانا بين الجزيرة والروضة ، وذاقوا حلاوة المجد وهم فى ضحوة العمر ،  
ثم دفعهم الطماح فقدموا الراحة والرفه والثروة والجاه مهرا للحرية  
والعلياء .

أجل ، فقد محمود سامى كل شيء الا الشرف والكبرياء ، ومكث  
فى منفاه سبعة عشر عاما كاملة أفنى فيها كهولته بين تباريح وعبرات  
ولوعة وحنين .

نكب فى الثورة حين ختله الدهر وألقى ورقة رابحة اجتاحت المال  
والبلاد فكانت كهولته كلها ليلة داجية ، وكان كبليل الظلماء يردف  
تغريدا بتغريد ، ويقول شعرا هو أنس المحزون ، وعزاء الشكلى ، وسلوة  
العاشق ، شعرا يلهم الصبر على المكاره ، والجلد على الشدائد والأمل  
فى الله . وهو القائل :

فان أكن جردت من ثروتى فضل ربي حلية العاطل  
ولقد كانت الأيام التى ختمت بها الثورة وسبقت منفاه مأساة  
تتصدع منها كبد الحر مملوءة بالذكريات المحزنات التى تهيج فى سماء  
الفكر كأنها أغربة سحيم .



وحسبك أن تذكر أن بعض المصريين رحبوا جهلا أو انخداعا  
« بدخول الفاتحين » ؛ وأن حب الانتقام دفع بعض الكبراء الى ارسال  
الخدم الشركس وغيرهم ليهينوا ويزعجوا زعماء الثورة في سجونهم  
صباح مساء ، ولعل البارودي أشار الى ذلك في قوله وهو بمنفاه :

وما أنا بالمغلوب دون مرامه      ولكنه قد يخذل المرء جهده  
أبى الدهر الا أن يسود وضيعه      ويملك أعناق المطالب وغده  
تداعت لدرك الثأر فينا ثعاله      ونامت على طول الوتيرة أسده  
وكان حكم على رؤساء الثورة بالاعدام فقيض الله لهم بلنت الذى  
أرسل برودلى ونايبر للدفاع عنهم فاستبدل بالحكم فى ٣ ديسمبر  
سنة ١٨٨٢ النفى المؤبد .

ولا اخاله الا مشيرا الى ذلك بهذين البيتين المنفردين اللذين يقومان  
مقام لوحة مصورة :

ألا قل لقوم شامتين تربصوا      تهزم شر بالمنية كارث  
أرى ستر خطب قد ترفع وانبرت      تلوح لهم منه وجوه الحوادث  
وفى ٢٨ ديسمبر رحل قاصدا سيلان ، ومعه صحبه ، فدخلوا  
ميناءها كولومبو فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ ، وهناك أقاموا بعد أن سلخ  
من العمر خمسة وأربعين عاما ، وقد وصف شاعرنا الفراق بقصيدة أحلى  
من تعريسة الفجر ، قال :

محا البين ما أبقيت عيون المها منى  
فشبت ولم أقض اللبانة من سنى  
عناء ويأس واشتياق وغربة  
ألا شدا ما ألقاه فى الدهر من غبن  
فان أك فارقت الديار فلى بها  
فؤاد أضلته عيون المها عنى  
بعثت به يوم النوى اثر لحظة  
فأوقعه المقدار فى شرك الحسن

فهل من فتى في الدهر يجمع بيننا  
فليس كلانا عن أخيه بمستغن  
ولما وقفنا للوداع وأسبلت  
مدامعنا فوق الترائب كالمزن  
أهبت بصبري أن يعود فعزني  
وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن  
وما هي الا خطرة ثم أقلعت  
بنا عن شطوط الحي أجنحة السفن  
فكم مهجة من زفرة الوجد في لظي  
وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن  
وما كنت جربت النوى قبل هذه  
فلما دهنتي كدت أقضى من الحزن  
ولكنني راجعت حلمي وردني  
الى الحزم رأى لا يحوم على أفن  
ولولا بنيات وشيب عواطل  
لما قرعت نفسي على فائت سنى

هذا شعر يمتزج بالروح رقة ، وعندى أن أجود قصائد البارودي  
ثلاث : هذه القصيدة التي أخلق بها أن تسمى قصيدة « محا البين »  
كما يقولون « قفا نيك » و « خفف الوطاء » وقصيدته الغزلية « هل  
من فتى ينشد قلبى معى » ، وقصيدته التي قالها في الجزيرة بعد  
عودته من منماه :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع  
هيهات قد ذهب المتبوع والتبع  
ومن العجيب أنك لا تجد في هذه القصائد معنى جديدا ولا أثرا  
من آثار المبالغة والغلو ، وانما هي عرائس مجلوة وسمها الله بميسم  
الجمال فغنيت عن التزويق الكاذب ، انما هي تصوير حالات نفسية ،



ووجدان ، وعواطف قد يخبل اليك لأول وهلة أنه خال من الدقة  
ولكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق فان هذا الشعر الحى من  
التصوير الصادق الذى يلعب بالنفس ويدخل على القلب بلا استئذان •

كلنا يعرف قول المرحوم اسماعيل باشا صبرى فى الفراق :

هل عند ذاك السرب أنا بعده فى الحى من آماقنا تتدفق

اطرب كناقد لهذا البيت لأن فيه معنى جديدا ، وهو من الغلو  
المستعذب ، ولكننى لا أتذوقه لأنه لا يحرك عاطفتى ، ولأنه يخاطب العقل  
قبل القلب •

ولقد كان فراق البارودى مظلما ، وكان منفاه مظلما اذ نعى اليه  
زوجه وأصدقائه واحدا بعد واحد ، ورأى الشقاق يدب بين رؤساء  
الثورة فى المنفى فغادرهم عام ١٨٩٠ الى مدينة كندى فى جزيرة سرنديب  
( سيلان ) ، وكان هذه الظلمة وقفت فى عينيه هناك وتجمدت فانقلب  
حسير الطرف فى أواخر سنى منفاه ، ثم عاد الى مصر ففقد ابنتيه ، فيالها  
ظلمة أخذت تنزل فى عينيه شيئا فشيئا من أول كهولته نزول الليل  
فى الهوة العميقة حتى اتصلت بظلام القبر •

ماتت حليلته سنة ١٣٠٢ هـ أو سنة ١٨٨٥ م فرثاها بقصيدة من  
جيد شعره جاء فيها :

لا لوغتى تدع الفؤاد ولا يدي	تقوى على رد الحبيب الغادى
يا دهر فيم فجعتنى بحليلة	كانت خلاصة عدتى وعتادى
ان كنت لم ترحم ضناى لبعدها	أفلا رحمت من الأسى أولادى
ومن البلية أن يسام أخو الأسى	رعى التجلد وهو غير جماد
هيهات بعدك أن تقر جوانحى	أسفا لبعذك أو يلين مهادى
ولهى عليك مصاحب لمسيرتى	والدمع فيك ملازم لوسادى
فاذا انتبعت فأنت أول ذكرتى	واذا أويت فأنت آخر زادى

هذه القصيدة من النوع الذى يسميه الافرنج (Poésie intime) وهو شعر الحياة المنزلية الباطنة ، وان اشارة البارودى الى الدمع الذى سيلازم وسادته بعد فرقتها لأفضل عندى على بساطتها من دك الجبال وكسوف الشمس جزعا ! .

نظم البارودى أكثر شعر المنفى فى مدينة كندى حيث أقام عشرة أعوام ووجد منظرا طبيعيا من أبهى مناظر الدنيا . وصف المرحوم عرابى باشا فى مذكراته هذه المدينة ، قال : « وفى سنة ١٨٩٢ اتقلنا الى مدينة كندى عاصمة جزيرة سيلان للاقامة فيها حيث وجدنا مناخها فى زمن الربيع جميلا ، وكان قد سبقنا اليها بالاقامة محمود باشا سامى ويعقوب باشا سامى وطلبه باشا عصمت .

« ومدينة كندى كائنة فى وادى ثلاث شعب بين ثلاثة جبال ، فيها بيت للحاكم ومحكمة نظامية فى بيت ملوك الشنجليز ، وفيها بركة عظيمة طولها ميل وعرضها من ٢٠٠ الى ٤٠٠ متر تنصب فيها مجارى السيل من رؤوس الجبال ، وعليها حاجز من الشمال وقنطرة بباب لصرف المياه الزائدة عن منسوبها ، وعلى حافتيها أشجار السيجو والمنجو والدوم وجوز الهند ، وهى محل النزهة العمومية .

« وفوق الجبل خزان للمياه المنبجسة من قمته طوله نصف ميل وعرضه ١٠٠ متر وعليه سد عظيم ، وفى جانبه الجنوبى جدول فوق سطح الخزان تنصرف فيه المياه الزائدة وتمتد منه المواسير الموصلة الى أعلى نقطة من بيوت المدينة .

« وهناك منتزه عظيم يقال له جنينة برادينيا على نهر برادينيا مساحتها نحو ٦٠٠ فدان وفيها من جميع أنواع الشجر وكل شجرة مكتوب على لوحة بجانبها اسمها واسم بلادها .

وفى هذى نحو ٢٠٠٠٠ منهم ١٠٠٠٠ من المسلمين » .

ولا ريب أن سكنى البارودى فى هذه المدينة التى جمعت بين جمال المنظر وجلاله فى السهل والجبل قد أثرت فى نفس الشاعر وجعلته يلهج



بذكر الطبيعة لهج الحمام بهديله ، وأجد له طيب المكان وحسنه منى  
فتمنى مصر :

يا جبذا جرعة من ماء محنية      وضجعة فوق برد الرمل بالقاع  
ونسمة كشميم الخلد قد حملت      ريا الأزاهر من ميث وأجراع  
يا هل أرانى بذاك الحى مجتمعا      بأهل ودى من قومى وأشياعى  
وقال من قصيدة أخرى يتشوق :

ردوا على الصبا من عصرى الخالى      وهل يعود سواد اللمة البالى  
لم يدر من بات مسرورا بلذته      أنى بنار الأسى من هجره صالى  
يا غاضبين علينا هل الى عدة      بالوصل يوم أناغى فيه اقبالى  
غبتم فأظلم يومى بعد فرقتكم      وساء صنع الليالى بعد اجمال  
فاليوم لا رسنى طوع القياد ولا      قلبى الى زهرة الدنيا بميال  
أبيت منفردا فى رأس شاهقة      مثل القظامى فوق المرأبأ العالى

وقال من قصيدة « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » :

أدعو الى الدار بالسقيا وبنى ظمأ      أحق بالرى لكنى أخو كرم  
منازل لهواها بين جانحتى      ودیعة سرها لم يتصل بفسى  
إذا تنسنت منها تفحة لعبت      بى الصبابة لعب الريح بالعلم

لاشك أن الشاعر فى البيت الثانى يشير الى حب مكتم فتق قلبه  
فى شباب عليه نضرة ونعيم كما يفتق برد الندى وردة الروض النضير ،  
فسار شعره مسير النسيم فى الجنان يضوع بريها • والراجح أن حبه  
لم يزد عن ذلك الحب الذى قال عنه « لامرتين » أنه نشأ عن نظرة  
حزت فى كبده فشب وكبر وهى باقية فيها كالمدينة التى يتركها عابر  
سبيل فى جذع الشجرة ، فما كان أشد لوعته ، وما كان أكبر ألمه :

فلا تسألنى عن هواى فانتى

وربك أدرى كيف زلت بى النعل

فما هى الا أن نظرت فجاءة

( بخلوان ) حيث انهار وانعقد الرمل

الى نسوة مثل الجمال تناسقت  
فرائده حسنا وألفه الشمل  
تكنفن تمثالا من الحسن رائعا  
يجنّ جنونا عند رؤيته العقل  
فكان الذى لولاه ما درت هائما  
أرود الفيافي لا صديق ولا خل  
قد تكون حلوان أصل حب ذلك الرجل العفيف النفس ، وقد  
يكون كل حبه فى تلك النظرة أو ذكرها التى عاودته وهاجت بلباله  
وشجنه وحنينه فى سرنديب فقال :

أبيت حزينا فى سرنديب ساهرا  
طوال الليالى والمخليون هجد  
اذا خطرت من نحو ( حلوان ) نسمة  
نزت بين قلبى شعلة تتوقد  
وهيهات ما بعد الشيبية موسم  
يطيب ولا بعد ( الجزيرة ) معهد  
شباب واخوان رزئت ودادهم  
وكل امرىء فى الدهر يشقى ويسعد

هذه الأبيات توازن أرقى أبيات الأغاني أو ديوان الحماسة بعلو  
النفس الشعري ، وصدق النزعة ، وصفاء الروح ، وقل أن يوفق لمثلها  
شاعر عصرى يعيش فى جو المدينة الحديثة الذى يتعذر على روح  
الشاعر أن تنطلق فيه حرة بريئة من كل صنعة • ومن أرق شعره  
فى الغزل قصيدته التى أولها :

غلب الوجد عليه فبكى وتولى الصبر عنه فشكا  
والقصيدة التى مطلعها :

لوى جيدته وانصرف فما ضره لو عطف  
كان الحب من العواطف التى تتجاذب نفسه ، ولا يظن أحد



أن البارودي ما زال مضطربا في أمله حتى استقر في منفاه فان نفسه  
من النفوس الكبيرة الوثابة التي لا يقعد بها يأس أو جزع ، والتي  
يتعب في مرادها الجسم لاسيما اذا كان أسيرا :

عفاء الدنيا اذا المرء لم يعيش بها بطلا يحمى الحقيقة شدة  
وانى امرؤ لا أستكين لصولة وان شد ساقى دون مسعاى قده  
أبت لى حمل الضيم نفس آية وقلب اذا سيم الأذى شب وقده  
ثم انظر كيف تفتح همته التي لا تهدأ باب الأمل المغلق حين يقول  
في نفس القصيدة :

ولابد من يوم تلاعب بالقنا أسود الوغى فيه وتمرح جرده  
قلوب الرجال المستبدة أكله وفيض الدماء المستهلة وردده  
أحمل صدر النصل فيه سريرة تعدّ لأمر لا يحاول رده  
في هذه الأبيات صور البارودي نفسه التي لا ينال منها أسرى عانيه ،  
بل ولا ضعف لحق بجسمه ولا مشيب :

انى وان كانت الأيام قد أخذت  
منى وأخنى على الضعف والشمط  
فقد أذود السبنتى عن فريسته  
وأفجأ البطل الحامى فاخبط

وقد يتعجب القارىء من قوله أيضا في قصيدة :

تالله أهدأ أو تقوم قيامة فيها الدماء على الدماء تراق  
ولكن العجب لا يلبث أن يزول اذا تذكرنا أن النفوس الكبار لا تهدأ  
لها نائرة الا اذا جاءها الموت وأنام أصحابها بعنف فناموا •

وهناك عاطفة أخرى تجلت في شعر البارودي ، ولاشك أن المنفى  
كان سببا في تقويتها وتنميتها ، هي العاطفة الدينية • كان شاعرنا في  
سرنديب يعلم كثيرا من المسلمين القراءة والكتابة ويعظ ويخطب في  
الجوامع ، هناك نظم قصيدة « كشف الغمة » التي توصل بها الى الله ليغفو  
عنه ويفرج كربه ، ونظم قصيدة أخرى مدح فيها الرسول ومما قاله :

أنا الذى بت من وجدى بروضته  
أحن شوقا كطير البانة الهزج

هاجت بذكره نفسى فاكنست ولها

وأى صب بذكر الشوق لم يهج

ويظهر أن العاطفة الدينية تمكنت من نفسه حتى دفعته الى التفكير  
فى أمر الوجود وحقيقة الكون ، ساعدها على ذلك ثقل الدنيا على  
عينيه ، قال من قصيدة :

سل الفلك الدوار ان كان ينطق      وكيف يحير القول أخرس مطرق  
نسائله عن شأنه وهو صامت      ويخبر ما فى نفسه وهو مطرق  
فلا سره يبدو ولا نحن نرعى      ولا شأنه يدنو ولا نحن نلحق

ومن بديع التصوير :

فضاء يرد العين حسرى ومسرح      يقص جناح الفكر وهو محلق  
ولا يفوتنا أن نقول ان من دقق النظر فى شعر البارودى وجد فيه  
نزعة المصّور الماهر • انظر الى قوله فى الشيب :

أخلق الشيب جدتى وكسانى      خلعة منه رثة الجلباب  
ولوى شعر حاجبى على عي      نى حتى أظل كالهدّاب  
وقوله :

ورب يوم طويل العمر قصره      جرى السوابق والوخادة النشاط  
ترى به القوم صرعى لا حراك بهم      كأنهم من عتيق الخمر قد سقطوا  
وللفواخت فى أفنانها هزج      قد ماج من لحنهن السهل والفرط  
خضر الجناجن والأطواق تحسبها      أطفال ملك لها من سندس قمط

ومن أراد الكثير فليتصفح ديوانه فكله غرر وآيات وعبر •

وقد عاد البارودى من منفاه الى مصر سنة ١٩٠٠ ويقال ان المرحوم  
الشيخ محمد عبده هو الذى توسط له فى العفو عند الخديوى ، وسنتكلم  
فى الفصل الآتى عن شعره فى آخر أيامه بعد أن دار الفلك دورته  
وتبدلت الحال حالا •



## الفصل السادس آخر أيامه

قضى البارودي في مصر أربعة أعوام من سنة ١٩٠٠ لغاية سنة ١٩٠٤ أو من ٦ جمادى الأولى سنة ١٣١٨ لغاية ٦ شوال سنة ١٩٢٢ ، وكان انحداره في آخر سنه من منفاه الى القبر مثل انحدار الشمس عند المغيب في رءوس الجبال وقد أعارتها الطبيعة كل ما حوته من روعة وجلال .

ويخيل الى أن نفسه الواسعة ذات الطول والعرض كانت مملوءة بالسكون المهيب الذي يحيط بأعلى الذرى ، وكان الشاعر يشرف منها على الماضي الممتد فلا يرى حوله من كل النواحي الا خرائب وطلولا . ولا يغرنك ما قاله متغزلا حين « أطل على ربوع مصر وسر برؤية أهلها » ! .

أبابل رأى العين أم هذه مصر  
فانى أرى فيها عيوناهى السحر  
نواعس أيقظن الهوى بلواحظ  
تدين لها بالفتكة البيض والسمر  
فان يك موسى أبطل السحر مرة  
فذلك عصر المعجزات وذا عصر  
فأى فؤاد لا يذوب صباية  
ومزنة عين لا يصبوب لها قطر  
بنفسى وان عزت على ربيبة  
من العين فى أجفان مقلتها فتر

فتاة يرف البدر تحت قناعها  
ويخطر في أبرادها الغصن النضر  
تريك جمان القطر في أقحوانه  
مفلجة الأطراف قيل لها ثغر

والقصيدة كلها على هذا النمط خالية من الروح الشعرية التي امتاز  
بها البارودي ، وهي من الشعر الفاتر الذي يتمخض عنه التكلف ، وكذلك  
شأن القصيدة الأخرى التي قالها شاكر الخديو عباس على تعطفاته :  
عباس يا خير الملوك عدالة وأجل من نطق امرؤ بشائه  
أو ليتنى منك الرضا وجلوت لى وجها قرأت البشر فى أثناءه  
وقد اشتهر البيت الأخير من هذه القصيدة :

لا غرو ان جمع المحامد يافعا وسما بهمته على نظرائه  
فالعين وهى صغيرة فى حجمها تسع الفضاء بأرضه وسمائه  
على أن هذا البيت ان هو الا أثر من آثار الصنعة العالية : فاما أن  
تكون الروح الشعرية نضب معينها فى آخر العمر فلم تبق للشاعر الا صنعته  
يحتال بها على صوغ القريض ويستر بها ما لحق شاعريته من ضعف  
أو وهن كما تستر الحسناء آثار الكبر فى غضون الوجه تحت الألوان  
والطلاء ، واما أن تكون شاعرية الرجل ما زالت فى نضرتها ولكنها  
عصته حين دعاها لاسيما وان البارودي قال ما قاله قياما بالواجب نحو  
ملك عفا عنه ثم أصدر أمره « بتمتعته بالحقوق المدنية » وبلاد رآها بعد  
أن عاش غريبا عنها سبعة عشر عاما •

وهذا الفرض الثانى عندى أقرب الى الصحة لأن البارودي كان  
شاعرا مطبوعا غذى بأداب العرب والفرس والترک ، ومثل هذا الطبع  
يخيل اليك أحيانا أن العمر يجففه ولكنه لا يلبث أن يتفجر بالماء الزلال •  
يدل على ذلك قصيدته العينية التي ثبت لنا أن البارودي قالها  
فى الجزيرة بعد رجوعه من منفاه اذ كتب ناقد المنار ولعله المرحوم



الأديب السيد حسين رضا - في عدد ٧ يناير سنة ١٩٠٥ فصلا  
يتبين منه أن الكاتب كان من ألصق الناس بالبارودي في آخر أيامه ،  
روى الكاتب : « ومر بقصر الجزيرة بعد عودته من سيلان فتذكر أيام  
اسماعيل ونظم معتبرا ومذكرا » :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع  
هيهات قد ذهب المتبوع والتبع  
هذى ( الجزيرة ) فانظر هل ترى أحدا  
ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع  
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة  
للملك منها لوفد العز مرتبع  
فلا مجيب يرد القول عن نبأ  
ولا سميع اذا ناديت يستمع  
كانت منازل أملاك اذا صدعوا  
بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع  
عاثوا بها حقبة حتى اذا نهضت  
طير الحوادث من أوكارها وقعوا  
لو أنهم علموا مقدار ما فغرت  
به الحوادث ما شادوا ولا رفعوا  
دارت عليهم رحي الأيام فانشعبوا  
أيدي سبا وتخلت عنهم الشيع  
كانت لهم عصب يستدفعون بها  
كيد العدو فما ضروا ولا نفعوا  
أين المعامل بل أين الجحافل بل  
أين المناصل والخطية الشرع  
لاشئ يدفع كيد الدهر ان عصفت  
أحداثه أو يقى من شر ما يقع

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم  
 ولا تعطلت الأعياد والجمع  
 والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر  
 وإنما صفوه بين الورى لمع  
 لو كان للمرء فكر في عواقبه  
 ما شان أخلاقه حرص ولا طبع  
 وكيف يدرك ما فى الغيب من حدث  
 من لم يزل بغير العيش ينخدع  
 دهر يغر وآمال تسر وأء  
 سار تمر وأيام لها خدع  
 يسعى الفتى لأمر قد تضر به  
 وليس يعلم ما يأتى وما يدع  
 يا أيها السادر المزور من صلف  
 مهلا فانك بالأيام منخدع  
 دع ما يريب وخذ فيما خلقت له  
 لعل قلبك بالايام ينتفع  
 ان الحياة لثوب سوف تخلعه  
 وكل ثوب اذا ما رث ينخلع

وقد علق كاتب المنار على القصيدة قائلا : « فهذه القصيدة من  
 آخر ما نظم ، وفيها من آيات النذر للمغرورين بكثرة المال والدثر » .  
 تلك قصيدة من أجود شعر البارودى ، وهى دمة وفاء على أيام  
 اسماعيل التى كانت أيام صباه ، وهى من الشعر الحى الذى يستمد  
 قوته من الذكرى ، وهى بكاء على الحال التى آلت إليها البلاد بعد  
 عودته إليها ورؤيته المحتل ضاربا بجرانه فى نواحيها ، ولا ريب أن  
 الألم الصامت كان فى قواده كالجمر تحت الرماد فلم يصرح عنه مقاله  
 وأشد الألم ما كان مكتما .



وتدل قصيدته في الجزيرة على أن الرجل كان ثاقب الفكر لا تعوقه  
الظواهر عن رؤية أبعد البواطن ، فلم تغره الرفاهية المادية التي غربت  
بعض العرابيين بعد رجوعهم من المنفى فتوهموا أن أغراضهم تحققت ،  
ولم تغره مظاهر العدل المنظم في الظاهر ، فأزاح الستار عن ذلك الظلم  
الأجنبي المنظم في الباطن الذي يضؤل بجانبه كل ظلم .

من ذلك نفهم كيف كان الشاعر بالأمس يبكى من اسماعيل  
فأصبح يبكى عليه .

وكأنى بالشاعر أحس دنو الأجل فاستسلم للقضاء في هذه القصيدة ،  
ولم تحفزه همته الى الفخر ومغالبة الأقدار ، ورثى نفسه فيمن رثى  
حين قال :

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع  
فهذا البيت من خير ما قيل في وصف خروج الانسان من هذه  
الحياة الدنيا دون أن يحس الكون بفقده مهما كان عظيما ، قال فيكتور  
هوجو في هذا المعنى بيتا يشبه هذا البيت :

Je m'en irai bientôt au milieu de la fête

Sans que rien manque au monde immense et radieux,

وقد تكون هذه القصيدة في جملتها أثرا من آثار التأمل الذي يعترى  
الانسان عند تقلص الأيام وتقلب الدنيا ويدفعه الى عرض الماضي في  
صفحة الفكر فاذا بكى عليه كان بكاؤه المر عصاراة التجارب والألم .

كان الأستاذ خليل مطران يختلف اليه كثيرا في آخر أيامه ، ومما  
قاله عنه في فصل كتبه : « ان هذا الوزير الذي اقتدح زناد تلك الهمة  
وشبت بعد استقالته تلك الفتنة المستطيرة لم يكن مع شجاعته واقدامه  
الذين بلغ بهما أقصى مبالغهما في مواطن القتال الا رجل سكينه ووداعة  
وحلم ، وقلما كان رجل أرق منه قلبا على ذويه وأحفظ عهدا لمحبيه ،  
ولعل اصابته بكريمته هي التي قلصت من كبده وأودت بجسده .  
ثم ان العارف بحوادث حياته لا يكاد يصدق أنه هو الرجل الذي كان

ديده في سنواته الأخيرة أن يجمع أطفاله وهم غلامان وأربع فتيات  
فيجعل لهم مكانا خصيصا من البيت لتلقى العلوم واللغات بضرورها على  
أساتذة يحضرون في مواعيد كأنهم في مدرسة قانونية فيرعى سيرهم  
كل يوم ثم يمتحنهم كل أسبوع مرة ثم يمتحنهم آخر كل شهر ويوزع  
عليهم المكافآت •

« على أن هذا البر انما كان احدي شمائله وفضائله فان أريد بعض  
التعداد فالجودة مع الجود ، والكياسة مع لطف الحس ، والصفح مع  
المقدرة ، والايانس مع علو النفس وشرف الطبع » •

نضيف الى ذلك أن البارودي تمكن بفضل جده وكده من تجديد  
جزء عظيم من ثروته تركه لأهله وذويه فكان طول حياته مثال الهمة  
العلياء ، ولم يمنعه قول الشعر من قيادة الجحافل ورياسة الوزارة في  
أخرج الأوقات والعمل •

وكل ما يعاب على الرجل أنه لم يوفق في حياته السياسية كما وفق  
في شعره ، ومهما كان من الأمر فقد كانت حياة هذا الرجل صحيفة كبرى  
من التاريخ المصري تشهد له بحسن الطوية ، وصدق العزيمة ، وكرامية  
الظلم ، والاعتدال ، والروية ، والأناة •

وهو مؤسس دولة الشعر التي يحمل لواءها اليوم شوقي ومطران  
وحافظ وآخرون بعد أن غادرهم شيخ الشعراء بعده المرحوم صبري باشا  
الذي نعاها اليوم الى الشعر كما ننعي فتى الجود الى الجود •

ولا أعرف رجلا كافح الردي مثلما كافحه البارودي ، وطاعن خيلا  
من فوارسها الدهر مثلما طاعنها ، وخاض وقائع الحياة مثلما خاضها ،  
وقد كان خلق الرجل عظيما ، وذكاؤه عظيما ، وشعره عظيما فكان الثلاثة  
في مستوى واحد •

وفي اعتقادي أن أكثر شعره ارتباطا بحياته شعر المنفى ، شعر  
العواطف ، شعر الوجدان ، شعر الألم •



وليس في هذا الشعر ما يبعث على اليأس والاستسلام ، أو يولد خورا في العزيمة ، وإنما هو درس من دروس الشجاعة والصبر والجلد ، درس من دروس الوفاء وعلو النفس وكرم العنصر ، فأخلق به أن يكون أنشودة الصبي في مكتبه ، والناسك في صومغته ، والزارع في مزرعته ، والوطني في جهاده •

وقد لبي دعوة ربه في ٦ شوال سنة ١٣٢٢ ( ديسمبر سنة ١٩٠٤ ) فيكنه مصر وبكاه الشعراء الذين وقفوا يوم الأربعين لدى قبره « ونهوا الأصدقاء النائمة حوله في بهو السكون الخالد » • وكان ذلك يوما مشهودا لم يسبق مثله الا للمعري ، ومن خير ما قيل فيه بل خير ما نحتم به هذا البحث قول مطران :

وما كان سجنك الا قرارا	وقد تعب الجد أن يسهرا
ولا النفي الا خلاء أعدت	به زمن الأدب الأزهرا
ولا الشكل الا لتأسي أساك	وتبكي بكاء ليوث الشرى
ولا الغض عما تراه العيون	الا وقد ساء أن ينظرا
اذا وسع الكون فكر امرىء	فلا بأس بالطرف أن يحسرا
على الشمس أن تهدي المبصرين	وليس على الشمس أن تبصرا

## الفصل السابع

### مختارات

نشر في هذا الباب ما نختاره من قصائد البارودي التي أشرنا الى أكثرها في أثناء البحث حتى تكون عند القارئ فكرة كاملة عن الرجل وشعره ، قال رحمه الله :

هل من فتى ينشد قلبي معي  
كان معي ثم دعاه الهوى  
فهل اذا ناديته باسمه  
هيهات يلقي رشدا بعد ما  
فيادموع القطر سيلى دما  
وأنت يا نسمة وادى الغضا  
وأنت يا عصفورة المنحنى  
وأنت يا عين اذا لم تفي  
صباية أغرت على الأسى  
ويلاه من نار الهوى انها  
أبيت أرعى النجم فى سدفه  
لا أهتدى فيها الى حيلة  
طورا أدارى لوعتى بالمنى  
فهل الى الأشواق من غاية  
لا تأس يا قلب على ما مضى  
وقال يصف حرب سكان جزيرة كريد حين خرجوا عن الطاعة  
سنة ١٨٦٥ ويتشوق الى مصر :  
أخذ الكرى بمعاهد الأجنان  
وهفا السرى بأعنة الفرسان



فوق المتالع والربي بجران  
الا اشتعال أسنة المران  
تسمو غواربها على الطوفان  
تهدار سامرة وعزف قيان  
وتصيح أجراس ويهتف عاني  
فتسللوا من طاعة السلطان  
غير التماع البيض والخرسان  
والبحر أشكال والرماح دوان  
لطراد يوم كريبه ورهان  
يتكلمون بالسن النيران  
عيناي بين ربي وبين مجان  
د أعنة والماء أحمر قاني  
لتهاب فامتنت على الأرسان  
تحنانها شجن من الأشجان  
ماء بمصر منازل الرومان  
خلفا بأول صاحب ومكان  
في مصر كل مرنة مرنان  
شتى النماء كثيرة الألوان  
وطرحت في يمني الغرام عناني  
ألمى الظلال وزهرها متداني  
والمرء طوع تقلب الأزمان  
ان الأمائل عرضة الحدثان  
ان الشجاعة حلية الفتيان  
عن مصر ولتهداً صروف زماني  
بالله أعلمت الزمان مكاني  
وحفظت منه مغيبه فرماني

والليل منشور الذوائب ضارب  
لا تستبين العين في ظلمائه  
نسرى به ما بين لجة فتنة  
في كل مربأة وكل ثيبة  
تستن عادية ويسهل أجرد  
قوم أبي الشيطان الا خسرهم  
ملأوا الفضاء فما يبين لناظر  
فالبدر أكدر والسماء مريضة  
والخيل واقفة على أرسانها  
وضعوا السلاح الى الصباح وأقبلوا  
حتى اذا ما الصبح أسفر وارتمت  
فاذا الجبال أسنة واذا الوها  
فتوجست فرط الركاب ولم تكن  
فزعت فرجعت الحنين وانما  
ذكرت مواردها بمصر وأين من  
والنفس لاهية وان هي صادفت  
فسقى السماك محلة ومقامة  
حتى تعود الأرض بعد ذبولها  
بلد خلعت به عذار شيبتي  
فصعيدها أحوى النبات وسرحها  
فارقتهما طلبا لما هو كائن  
حمل الزمان على ما لم أجنه  
تقموا على وقد فتكت شجاعتى  
فليهنأ الدهر الغيور برحلتى  
فلئن رجعت فسوف أرجع واثقا  
صادقت بعض القوم حتى خانتى

زعم النصيحة بعد أن بلغت به  
فليجر بعد كما أراد بنفسه  
وكذا اللئيم إذا أصاب كرامة  
فليعلمن أخو الجهالة قصره  
فلربما رجح الخسيس من الحصى  
شرف خصصت به وأخطأ حاسدي

غشا وجاز الحق بالبهتان  
ان الشقى مطية الشيطان  
عادى الصديق ومال بالاخوان  
عنى وان سبقت به قدمان  
بالدر عند تراجع الميزان  
مسعاته فهذى به وقلانى

وقال أيضا مجاريا قصيدة « أراك عصى الدمع شيمتك الصبر » :

طربت وعادتنى المخيلة والسكر  
كأنى مخمور سرت بلسانة  
صريع هوى يلوى بى الشوق كلما  
إذا مال ميزان النهار رأيتنى  
يقول أناس انه السحر ضلة  
فكيف يعيب الناس أمرى وليس لى  
ولو كان مما يستطاع دفاعه  
ولكنه الحب الذى لو تعلقت  
على أننى كاتمت صدرى حرقة  
وكفكفت دمعا لو أسلت شئونه  
حياء وكبرا أن يقال ترجحت  
وانى امرؤ لولا العوائق أذعنت  
من النفر الغر الذين سيوفهم  
إذا استل منهم سيد غرب سيفه  
لهم عمد مرفوعة ومعائل  
ونار لها فى كل شرق ومغرب  
تمد يدا نحو السماء خضية  
وخيل يرج الخافقين صهيلها  
معوّدة قطع الفيافي كأنها

وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجر  
معتقة مما يضمن بها التجر  
تلاؤأ برق أو سرت ديمة غزر  
على حشرات لا يقاومها صبر  
وما هى الا نظرة دونها السحر  
ولا لامرئ فى الحب نهى ولا أمر  
لألوت به البيض المباير والسمر  
شرارته بالجمر لا حترق الجمر  
من الوجد لا يقوى على مسها صدر  
على الأرض ماشك امرؤ أنه بحر  
به صبوة أو فل من غربه الهجر  
لسلطانه البدو المغيرة والحضر  
لها فى حواشى كل داجية فجر  
تفزعت الأفلاك والتفت الدهر  
وألوية حمر وأفنية خضر  
لمدرع الظلماء أسنة حمر  
تصافحها الشعرى ويلثمها الغفر  
نزاع معقودة بأعرافها النصر  
خدارية فتخاء ليس لها وكر



أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر  
تضوع بريها الأحاديث والذكر  
ويثنى برياه على الواابل الزهر  
يعد طليقا والمنون له أسر  
يحل بها سفر ويتركها سفر  
ولكنه يسعى وغايتة العمر

وتولى الصبر عنه فشكا  
علة الشوق فكانت مهلكا  
مهبط الحكمة حتى انتهكا  
ثم أغراها فكانت شركا  
وسقته أدمعى حتى زكا  
بين جنبى من النار ذكا  
فاحتوى البين على ما تركا  
فى سبيل الشوق حتى هلكا  
ليت شعرى أى واد سلكا  
لج فى نيل المنى فارتبكا  
كلما جدّد وعدا أفكا  
قبلة فازور حتى فركا  
بيد السحر لضمى شبكا  
انه حق على من ملكا  
بعد ما تيمته فهو لكا  
فيك واستولى على الضحك البكا  
من غرام واليك المشتكى  
لم تدع فيه لغيرى مسلكا

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم  
فلم يبق منهم غير آثار نعمة  
وقد تنطق الآثار وهى صوامت  
لعمرك ما حى وان طال سيره  
وما هذه الأيام الا منازل  
ولا تحسبن المرء فيها بخالد

وقال فى النسيب :

غلب الوجد عليه فبكى  
وتمنى نظرة يشفى بها  
يا لها من نظرة ما قاربت  
نظرة ضم عليها هدبه  
غرست فى القلب منى حبه  
آه من برح الهوى ان له  
كان أبقى الوجد منى رمقا  
ان طرفى غر قلبى فمضى  
قد تولى اثر غزلان النقا  
لم يعد بعد وظنى أنه  
ويح قلبى من غريم ما طل  
ظن بى سوءا وقد ساومته  
يا غزالا نصبت أهدابه  
قد ملكت القلب فاستوص به  
لا تعذبه على طاعته  
غلب اليأس على حسن المنى  
فالى من أشتكى ما شفنى  
سلكت نفسى سبيلا فى الهوى

## طائر على غصن

ونبأة أطلقت عيني من سنة  
 فقلت أسأل عيني رجع ما سمعت  
 ثم اشأبت وألفت طائرا حذرا  
 مستوفزا يتنزي فوق أيكته  
 لا يستقر له ساق على قدم  
 يهفو به الغصن أحيانا ويرفعه  
 ما باله وهو في أمن وعافية  
 اذا علبات في خضراء ناعمة  
 يا طير نفرت عنى طيف غانية  
 حوراء كالريم الحاظا اذا نظرت  
 زالت خيالتهما عنى وأعقبها  
 فهل الى سنة أن أعوزت صلة  
 كانت جباله طيف زارنى سحرا  
 أذنى فقالت لعلى أبلغ الخبرا  
 على قضيب يدير السمع والبصرا  
 تنزى القلب طال العهد فادكرا  
 فكلما هدأت أنفاسه نقرا  
 دحو الصوالج فى الديمومة الأكرا  
 لا يبعث الطرف الا خائفا حذرا  
 وان هوى ورد الغدران أو نقرا  
 قد كان أهدي لى السراء حين سرى  
 وصورة البدر اشراقا اذا سفرا  
 شوق أحال على الهيم والسهرا  
 عود ننال به من طيفها الوطرا

\* \* \*

كان رحمه الله حين ذهب الى حرب الروس ( ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧ م )  
 كتب لأبناء وده كتباً لم تصل اليهم وظن وصولها وتقصيرهم عن المبادرة  
 بالاجابة ، وقد وصل الى الشيخ حسين المرصفي أحد كتابين كتبهما  
 له يوم قدومه الى مصر بعد مدة طويلة من كتابته ، وهذه أبياته :

يا ناعس الطرف الى كم تنام  
 أو شك هذا الليل أن ينقضى  
 الله فى عين جفاها الكرى  
 قد رحم العاذل حالى فما  
 ويلاه من ظبى الحمى انه  
 يغضب من قولى آه وهل  
 لا كتبه تترى ولا رسله  
 أسهرتنى فيك ونام الأنام  
 والعين لا تعرف طيب المنام  
 فيكم وقلب قد براه الغرام  
 يرضى لذلى فى الهوى بالمنام  
 جرعنى بالصدّ مر الحمام  
 قولى آه يا ابن ودى حرام  
 تأتي ولا اللطيف يوافق لمام



بشاشة العيش وساء المقام  
والبرء لى فيه معا والسقام  
أو ريشة بين خوافى الحمام  
أقضى بها فى الله حق الذمام  
فكل يوم مر بى ألف عام  
الا جماهير وخيلا صيام  
ارجع وراء انه لا أمام  
وينقضى النور ويأتى الظلام  
ولا أخو صدق يرد السلام  
ليس بها غير بغاث وهام  
سواد جيش مكفهر لهام  
فكيف أتم بعدنا يا هام

طال النوى من بعدكم وانقضت  
ارتاح ان مر نسيم الصبا  
ياليتنى فى السلك حرف سرى  
حتى أوافى مصر فى لحظة  
مولاي قد طال مرير النوى  
أنظر حولى لا أرى صاحبا  
وديدبانا صارخا فى الدجى  
يقبىل الصبح ويمضى الدجى  
ولا كتاب من حيب أتى  
فى هضبة من أرض دبريجة  
من خلفنا البحر وتلقاءنا  
فتلك حالى لا رمتك النوى

وقال يجارى قصيدة أبى نواس فى مدح الأمير محمد بن الرشيد ،  
وسنذكر هنا قصيدة أبى نواس اتماما للفائدة ثم نعقبها بقصيدة البارودى .

قال أبو نواس :

لم تبق منك بشاشة تستام  
بك قاطنين وللزمان عرام  
الا مراقبة على ظلام  
وأسمت سرح اللهو حيث أساموا  
فاذا عصارة كل ذاك أئام  
هوجاء فيها جرأة اقدام  
صف تقدمهن وهى أمام  
فظهورهن على الرجال حرام  
فلها علينا حرمة وذمام  
قمر تقطع دونه الأوهام

يا دار ما فعلت بك الأيام  
عرم الزمان على الذين عهدتهم  
أيام لا أغشى لأهلك منزلا  
ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم  
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه  
وتجشمت بى هول كل تنوفة  
تذر المطى وراءها فكأنها  
واذا المطى بنا بلغن محمدا  
قربنا من خير من وطىء الحصا  
رفع الحجاب لنا فلاح لناظر

ملك اذا علقت يداك بجبله  
ملك توحد بالمكارم والعلی  
ملك أغر اذا شربت بوجهه  
فالبهو مشتمل بيدر خلافة  
سبط البنان اذا احتبى بنجاده  
ان الذى يرضى الاله بهديه  
ملك اذا اعتبر الأمور مضى به  
داوى به الله القلوب من العمى  
أصبحت يا ابن زبيدة ابنة جعفر  
فسلمت للأمر الذى ترجى له

وقال البارودى فى الوزن والروى :

ذهب الصبا وتوالت الأيام  
تالله أنسى ما حييت عهدده  
اذ نحن فى عيش ترف ظلاله  
تجرى علينا الكاس بين مجالس  
فى فتية فاض النعيم عليهم  
ذهبت بهم شيم الملوك فليس فى  
لا ينطقون بغير آداب الهوى  
من كل أبلج يستضاء بنوره  
سهل الخليفة لا يسوء جليسه  
متواضع للقوم تحسب أنه  
ترنو العيون اليه فى أفعاله  
فاذا تكلم فالرءوس خواضع  
نلهو ونلعب بين خضر حدائق  
حتى انتبهنا بعد أن ذهب الصبا

فعلى الصبا وعلى الزمان سلام  
ولكل عهد فى الكرام ذمام  
ولنا بمعترك الهوى آثام  
فيها السلام تعانق ولزام  
ونماهم التبجيل والاعظام  
تلعبابهم هذر ولا ابرام  
سمح النفوس على البلاء كرام  
كالبدر حلى صفحته غمام  
بين المقامة واضح بسام  
مولى لهم فى الدار وهو هام  
وتسير تحت لوائه الأقوام  
واذا تناهض فالصفوف قيام  
ليست بغير خيولنا تستام  
ان اللذاذة والصبا أحلام



هيهات ليس على الزمان دوام  
لمع السراب وتنقضي الأعوام  
أو صادر تجرى به الأيام  
يبقى وعاقبة الحياة حمام  
بالكأس فهي على الهموم حسام  
الا اذا دارت عليه الجمام  
بعد اشتعال الشيب وهو غلام  
شجا تهافت دونه الأوهام  
فلكا تحف سماء الأحرام  
وتزل عند لقاءها الأقدام  
ساروا وان زال الضياء أقاموا  
نور ولم يسرح عليه ظلام  
وثبت فلم تثبت لها الأجسام  
بالماء بعد الماء شب ضرام  
برد على شرابها وسلام  
غرا تطيش بلبله الآلام  
والدهر فيه صحة وسقام  
داء له لو يستين عقام  
خلدت وهل لابن السبيل مقام  
بعد النظام وهذه الأهرام  
في الدهر تنكل دونها الأحلام  
وأتى على النقض والابرام  
د تلهب واذا السكوت كلام  
تحيا بها الأجساد وهي رمام  
عنه فصلح تارة وخصام  
والبدء لو فكرت فيه ختام

لا تحسبن العيش دام لمترف  
تأتى الشهور وتنتهى ساعاتها  
والناس فيما بين ذلك وارد  
لا طائر ينجو ولا ذو مخلب  
فادراً هموم النفس عنك اذا اعترت  
فالعيش ليس يدوم في ألوانه  
من خمرة تذر الكبير اذا انتشى  
لعب الزمان بها فغادر جسمها  
حمراء دار بها الحجاب فصورت  
لا تستقيم العين في لمعانها  
تعشو الركاب فان تبلج كأسها  
حبست بأكلف لم يصل بفنائها  
حتى اذا اصطفت وطار فدامها  
وقدت حميتها فلولا مزجها  
تسم العيون بنورها لكنها  
فاصقل بها صدأ الهموم ولا تكن  
واعلم بأن المرء ليس بخالد  
يهوى الفتى طول الحياة وانها  
فاطمح بطرفك هل ترى من أمة  
هذى المدائن قد خلت من أهلها  
لا شيء يخلد غير أن خديعة  
ولقد تبينت الأمور بغيرها  
فاذا السكون تحرك واذا الخمو  
واذا الحياة ولا حياة منية  
هذا يحل وذاك يرحل كارها  
فالنور لو بينت أمرك ظلمة

ولأبى نواس قصيدة أخرى مدح بها الخصيب بن عبد الحميد  
العجمي أمير مصر من طرف الرشيد ، وكان قصده من بغداد :

اجارة بيتينا أبوك غيور  
فان كنت لا خلما ولا أنت زوجة  
وجاورت قوما لا تزاور بينهم  
فما أنا بالمشغوف ضربة لازب  
وميسور ما يرجى لديك عسير  
فلا برحت دوني عليك ستور  
ولا وصل الا أن يكون نشور  
ولا كل سلطان على قدير

وهي قصيدة طويلة وقد نظم شاعرنا قصيدة في وزنها  
ورويها ، قال :

تلاهيت الا ما يجن ضمير  
وهل يستطيع المرء كتمان أمره  
فياقاتل الله الهوى ما أشده  
تلين اليه النفس وهي آيية  
نبذت له رمحي وأعمدت صارمي  
وأصبحت مغلول المخالب بعدما  
فيا لسراة القوم دعوة عائذ  
لظال على الليل حتى ملته  
ألا فرعى الله الصبا ما أبره  
اذ العيش أفواف ترف ظلاله  
واذ نحن فيما بين اخوان اذة  
تدور علينا الكاس بين ملاعب  
فألحاظنا بين النفوس رسائل  
عقدنا جناحي ليلنا بنهارنا  
وقلنا لساقينا أدرها فانما  
فطاف بها شمسية لهيية  
اذا ما شربناها أقمنا مكاننا  
وكم ليلة أفنيت عمر ظلامها

وداريت الا ما ينم زفير  
وفي الصدر منه بارح وسعير  
على المرء اذ يخلو به فيغير  
ويجزع منه القلب وهو صبور  
ونهنهت مهري والمراد غزير  
سطوت ولي في الخافقين زئير  
أما من سميع فيكم فيجير  
وعهدى به فيما علمت قصير  
وحيا شبابا مر وهو نضير  
علينا وسلسال الوفاء نمير  
على شيم ما ان بهن نكير  
بها اللهو خدن والشباب سمير  
وريحاننا بين الكؤوس سفير  
وطرنا من اللذات حيث تطير  
بقاء الفتى بعد الشباب يسير  
لها عند الباب الرجال ثور  
وظلت بنا الأرض القضاء تدور  
الى أن بدا للصبح فيه قدير



شغلت بها قلبي ومتعت ناظري  
صنعت بها صنع الكريم بأهله  
فما راعنا الا حفيف حمائم  
تجاوب أترابا لها في خمائل  
نواعم لا يعرفن بؤس معيشة  
توسد هامات لهن وسائدا  
كأن على أعظافها من حبيكها  
خوارج من أيك دواخل غيره  
اذا غازلتها الشمس رفت كأنما  
فلما رأيت الصبح قد رف جیده  
خرجت أجر الذيل تيهها وانما  
ولى شيمة تأبى الدنيا وعزيمة  
اذا سرت فالأرض التي نحن فوقها  
فلا عجب ان لم يصرنى منزل  
همامة نفس ليس ينفى ركبها  
معودة ان لا تكف عنانها  
لها من وراء الغيب أذن سمیعة  
وفيت بما ظن الكرام فراسة  
وأصبحت محسود الجلال كأننى  
اذا صلت كف الدهر من غلوائه  
ملكتم مقاليد الكلام وحكمة  
فلو كنت فى عصر الكلام الذى اتقضى  
ولو كنت أدركت النواسى لم يقل  
وما ضرنى أنى تأخرت عنهم  
فيا ربما أخلى من السبق أول

ونعمت سمعى والبنان طهور  
وجيرته والغادرون كثير  
لها بين أطراف الغصون هدير  
لهن بها بعد الحنين صفير  
ولا دوائر الدهر كيف تدور  
من الريش فيه طائل وشكير  
تمائم لم تعقد لهن سيور  
زهاهن ظل سابغ وغدير  
على صفحتها سندس وحرير  
ولم يبق من نسج الظلام ستور  
يتيه الفتى ان عف وهو قدير  
ترد لهام الجيش وهو يمور  
مراد لمهرى والمعاقل دور  
فليس لعقبان الهواء وكور  
رواح على طول المدى وبكور  
عن الجدد الا أن تتم أمور  
وعين ترى مالا يراه بصير  
بأمرى ومثلى بالوفاء جدير  
على كل نفس فى الزمان أمير  
وان قلت غصت بالقلوب صدور  
لها كوكب فخم الضياء منير  
لباء بفضلى جرول وجير  
أجارة بيتينا أبوك غيور  
وفضلى بين العالمين شهير  
وبز الجياد السابقات أخير

وقال النابغة الذبياني واسمه زياد يصف المتجردة زوج النعمان بأسره ، ويقال ان النعمان مع ذلك لما سمع القصيدة غضب على النابغة وجفاه وظن به حتى اختفى منه ثم ظهرت براءته له وعاد الى موضعه من منادته :

أمن آل مية رائح أو معتد  
أفد الترحل غير أن ركابنا  
زعم الهمام بأن رحلتنا غدا  
لا مرجبا بغد ولا أهلا به  
حان الرحيل ولم تودع مهددا  
في اثر غانية رمتك بسهمها  
غنيت بذلك أذهم لك جيرة  
ولقد أصاب فؤاده من حبها  
نظرت بمقلة شادن متربب  
والنظم في سلك يزين نحرها  
صفراء كالسیراء أكمل خلقها  
والبطن ذو عكن لطيف طيه  
مخطوطة المتين غير مفاضة  
قامت تراءى بين سجنى كلة  
أو درة صدفية غواصها  
أو دمية من مرمر مرفوعة  
سقط النصيف ولم ترد اسقاطه  
بمخضب رخص كأن بنانه  
نظرت اليك بحاجة لم تقضها  
تجلو بقادمتي حمامة أيكه  
كالأقحوان غداة غب سماءه  
زعم الهمام بأن فاهها بارد

عجلان ذا زاد وغير مزود  
لما تزل برجالنا وكان قد  
وبذاك تنعاب الغراب الأسود  
ان كان تفريق الأجرة في غد  
والصبح والامساء منها موعدى  
فأصاب قلبك غير أن لم تقصد  
منها بعطف رسالة وتودد  
عن ظهر مرنان بسهم مصدر  
أحوى أحم المقلتين مقلد  
ذهب توقد كالشهاب الموقد  
كالغصن في غلوائه المتأود  
والأتب تنفجه بشدى مقعد  
ريا الروادف بضة المتجرّد  
كالشمس يوم طلوعها بالأسعد  
بهج متى يرها يهل ويسجد  
بنيت بأجر يشاد وقرمد  
فتناولته واتقتنا باليد  
عنم يكاد من اللطافة يعقد  
نظر السقيم الى وجوه العود  
بردا أسف لثائة بالأثمّد  
جفت أعاليه وأسفله ند  
عذب مقبله شهى المورد



عذب إذا ماذقه قلت ازدد  
يشفى بريا ريقها العطش الصدى  
من لؤلؤ متتابع متسرد  
عبد الاله ضرورة متعبد  
ولخاله رشدا وان لم يرشد  
لدنت له أروى الهضاب الصخد  
كالكرم مال على الدعام المسند  
متحيزا بمكانه ملء اليد  
رابي المجسة بالعبير مقرمد  
ونزع الحزور بالرشاء المحصد  
عض الكبير من الرجال الأرد  
بلوافح مثل السعير الموقد  
عنها ولا صدر يحور لمورد

زعم الهمام ولم أذقه أنه  
زعم الهمام ولم أذقه أنه  
أخذ العذاري عقده فنظمنه  
لو أنها عرضت لأشمط راهب  
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها  
بتكلم لو تستطيع كلامه  
وبفاحم رجل أثبت نبتة  
وإذا لمست لمست أجثم جاثما  
وإذا طعنت طعنت في مستهدف  
وإذا نزعت نزعت عن مستحصف  
وإذا يعض يشد من أعضائه  
ويكاد ينزع جلد من أصلى به  
لا وارد منها يحور لمصدر

وقد مشى البارودي على أثر النابغة وقال على روى قصيدته ، وسلك  
فيها مسالك العرب فيما كانت تتمدح به من مباشرة الحروب وارتياح  
المنابت وركوب الخيل وشرب الخمر ومزاولة النساء :

حيران يكلاً مستنير الفرقد  
ليظل ملقى بين أيدي العود  
سرفا وتارات يميل على اليد  
مشمولة أو ساغ سم الأسود  
خوف التفرق أن أعيش الى غد  
معمودة ان لم تمت فكان قد  
أدعوكم يا قوم دعوة مقصد  
قلبي فردوه على لأهتدى  
حتى ترد الى نفسى أو تدى  
ان أنت لم تحم النزيل فأغمد

ظن الظنون فبات غير موسد  
تلوى به الذكرات حتى انه  
طورا يهيم بأن يزل بنفسه  
فكأنما افترست بطائر حلمه  
قالوا غدا يوم الرحيل ومن لهم  
هى مهجة ذهب الهوى بشغافها  
يا أهل ذا البيت الرفيع مناره  
انى فقدت العام بين بيوتكم  
أو فاستقيدونى ببعض قيانكم  
بل يا أخا السيف الطويل نجاده

هذي لحاظ الغيد بين شعابكم  
من كل ناعمة الصبا بدوية  
هيفاء ان خطرت سبت واذا رنت  
يخفضن من أبصارهن تختلا  
فاذا أصبن أخا الشباب سلبنه  
واذا لمحن أخا المشيب قلبنه  
فلئن غدوت دريئة لعيونها  
ولقد شهدت الحرب في ابانها  
تتقصف المران في حجراتها  
عصفت بها ريح الردي فتدققت  
مازلت أطعن بينها حتى اثنت  
ولقد هبطت الغيث يلمع نوره  
تجري به الآرام بين مناهل  
بمضمّر أرن كان سراته  
خلصت له اليمنى وعم ثلاثة  
فكأنما انتزع الأصيل رداءه  
زجل يردد في اللهات صهيله  
متلفتا عن جانبيه يهزه  
فاذا ثبيت له العنان وجدته  
واذا أطعت له العنان رأته  
يكفيك منه اذا استحسن نبأه  
صلب السنايك لا يمر بجلمد  
نعم العتاد اذا الشفاه تقلصت  
ولقد شربت الخمر بين غطارف  
يتلاعبون على الكؤوس اذا جرت  
لا ينطقون بغير ما أمر الهوى

فتكت بنا خلصا بغير مهند  
ريا الشباب سليمة المتجرد  
سلبت فؤاد العابد المتشدد  
للنفس فعل القاتات العبد  
ورمين مهجته بطرف أصيد  
وسترن ضاحية المحاسن باليد  
فلقد أفل زعارة المتمرد  
ولبئس راعي الحي ان لم أشهد  
ويعود فيها السيف مثل الأورد  
بدم الفوارس كالأتمى المزبد  
عن مثل حاشية الرداء المجسد  
في كل وضاح الأسرة أغيذ  
طابت مشاربها وظل أبرد  
بعد الحميم سبيكة من عسجد  
منه البياض الى وظيف أجرد  
سلبا وخاض من الضحى في مورد  
دفعاً كزمزمة الحبى المرعد  
مرح الصبا كالشارب المتغرد  
يمطو كسيد الردهة المتورد  
يطوى المهامه فدفا في فدفا  
شدا كالهوب الاباء الموقد  
في الشدّ الا رض فيه بجلمد  
يوم الكريهة في العجاج الأربد  
شم المعاطس كالغصون الميّد  
لعبا يروح الجد فيه ويغتدى  
فكلامهم كالروض مصقول ندى



قمر توسط جنح ليل أسود  
والنجم يطرف عن لواظ أومد  
فارجع لشأنك فالرجال بمرصد  
وطويتها طى الحبيرة باليد  
حتى لقد بتنا بليل الاتقد  
ترفا وتجزع من صياح الهدهد  
زيم الكواكب كالمها المتبدد  
الا وقد أبقيت عار المسند  
ونفيت روعتها برأى محصد  
مثلثا والسيف يلمع في يدي  
ولنعم هذا العيش ان لم ينفد  
ونعيمه والمرء غير مخلد

من كل وضاح الجبين كأنه  
بل رب غانية طرقت خبائها  
قالت وقد نظرت الى فضحتي  
فخلبتها بالقول حتى رضتها  
مازلت أمنعها المنام غواية  
روعاء تفزع من عصافير الضحى  
حتى اذا نم الصبا وتتابع  
قالت دخلت وما أخالك بارحا  
فمسحتها حتى اطمأن فؤادها  
وخرجت أخترق الصفوف من العدى  
فلنعم ذلك العيش لو لم ينقض  
يرجو الفتى في الدهر طول حياته

وقال الشريف محمد الرضى يفتخر ويمدح أسلافه من أهل البيت :

ولولا العلاما كنت في الحب أرغب  
فما الناس الا عاذل أو مؤنب  
من الدهر مفتول الذراعين أغلب  
فلى من وراء المجد قلب مدرّب  
وأنى الى غر المعالى محجب  
ولكن أيامى الى الحلم أقرب  
ويعجم فى القائلون وأعرب  
لواعج ضغن أنتى لست أغضب  
وميض غمام غائر المزن خلب  
ولا تمكر الصهباء بى حين أشرب  
ولا أنطق العوراء والقلب مغضب  
كأن معيد المدح بالذم مطنب

لغير العلامنى القلا والتجنب  
اذا الله لم يعذرك فيما ترومه  
ملكى بحلمى فرصة ما استرقها  
فان تك سنى ما تطاول باعها  
فحسبى أنى فى الأدعائى مبغض  
وللحلم أوقات وللجهل مثلها  
يصول على الجاهلون وأعتلى  
يرون احتمالى غصة ويزيدهم  
وأعرض عن كأس النديم كأنها  
وقور فلا الألحان تأسر عزمى  
ولا أعرف الفحشاء الا بوصفها  
تحلم عن كر القوارض شيمتى

لسانى حصة يقرع الجهل بالحجى  
ولست براض أن تمس عزائى  
غرائب آداب حبانى بحفظها  
تريشنا الأيام ثم تهيضنا  
نهيتك عن طبع اللئام فانتى  
تعلم فان الجود فى الناس فطنة  
تضافرنى فيك الصوارم والقنا  
نصحت وبعض النصح للقوم هجنة  
فان أنت لم تعط النصيحة حقها  
سقى الله أرضا جاوز القطر روضها  
ذكرت بها عهد الشباب فحسرة  
ويعجبنى منها النسيم اذا هفا  
سكنتك والأيام بيض كأنها  
وبرق رقيق الطرتين لحظته  
نظرت وألحاظ النجوم كيلة  
فما الليل الا فحمة مستشفة  
أمن بعد أن جللتها ورق الدجى  
وعدنا بها ممغوطة بنسوعها  
كان تراجيع الحداة وراءها  
تهز ظنونى فى المآرب أربة  
وردنا بها ماء الظلام سواغبا  
تنفر ذود الطير عن وكراتها  
ونلتذ رشف الماء رتقا كأنه  
أذعنا لها سر الكرى من عيوننا  
حرام على المجد ابتسامى لقربه  
ودهماء من ليل التمام قطعتها

اذا نال منى العاضة المتأوب  
فضالات ما يعطى الزمان ويسلب  
زمانى وصرف الدهر نعم المؤدب  
ألا نعم ذا البادى وبئس المعقب  
أرى البخل يأتى والمكارم تطلب  
تناقلها الأحرار والطبع أغلب  
ويصحبنى منك العذيق المرجب  
وبعض التناجى بالعتاب تعتب  
فرب جموح كل عنه المؤدب  
اذ المزن يسقى والأباطح تشرب  
أفدت وقد فات الذى كنت أطلب  
ألا كل ما سرى عن القلب معجب  
من الطيب فى أثوابها تتقلب  
اذ الجو خوار المصاييح أكهب  
وهيهات دون البرق شاو مغرب  
وما البرق الا جمرة تتلهب  
سراعا وأغصان الأزمة تجذب  
كما صافح الأرض السراء المعجب  
صفير تعاطاه اليراع المثقب  
ويجنب عزمى فى المطالب مطلب  
ولليل جو بالدرارى معشب  
وكل اذا لقيته متغرب  
مع العز ثغر بارد الظلم أشنب  
وسر العلى بين الجوانح يحجب  
وما هزنى فيه العناء المقطب  
أغنى حداء والمراسيل تطرب



ولكننى من ماء عيني أشرب  
أحاديث تبدو طالعات وتغرب  
رأيت ألد القول ما كان يطرب  
أميناً على جلبابه المتجلبب  
وطيف الكرى في العين يطفو ويرس  
إليه كما استرخى على النجم هيدب  
تجد بها أيدي المطايا وتلعب  
كما يلتقى في السير ظلف ومخلب  
وسيرى فيها يا ابنة القوم أعجب  
وأثوى وبيتى بالعوالى مضنب  
مراح لأطراف الرماح وملعب  
يطارحها قرن من الشمس أعضب  
وجو بحمراء الأنايب مذهب  
على الجو غرب من دم يتصبب  
بأرواقه جون الملاطين أخطب  
وراعى نجوم الليل حيران مغرب  
وراء لثام الليل يوم عصبب  
خفيف الشوى والموت عجلان مقرب  
كما جمت الغدران والماء ينضب  
لغنم فاما فائز أو مخيب  
فلا الماء مورود ولا الترب طيب  
إذا غاض منها كوكب فاض كوكب  
جهاراً وما كل الكواكب تنسب  
ومن علق الأقران ما لا يخضب  
فأصدق في حسن المعاني وأكذب  
يرام وبعض القول ما يتجنب

ولو شئت غنتنى الحمام عشية  
أقول إذا خاض السميران في الدجى  
ألا غنيانى بالحديث فانتى  
غناء إذا خاض المسامع لم يكن  
ونشوان من خمر النعاس ذعرتة  
له مقلة يستنزل النوم جفنها  
سلكت فجاج الأرض غفلاً ومعلماً  
وما شهوتى لوم الرفيق وانما  
عجبت لغيرى كيف ساير نجمها  
أسير وسرجى بالنجاد مقلد  
ومصقولة الأعطاف في جنباتها  
تجر على متن الطريق عجاجة  
نهار بلاء السيوف مفضض  
ترى اليوم محمر الحواشى كأنما  
صدمنا بها الأعداء والليل ضارب  
أخذنا عليهم بالصوارم والقنا  
يراعون أسفار الصباح وانما  
وكل ثقيل الصدر من جلب القنا  
يجم إذا ما استرعف الكر جهده  
وما الخيل الا كالقذاح نجيلها  
دعوا شرف الاحساب يا آل ظالم  
لئن كنتم في آل فهر كواكبا  
فنعنى كنعى البدر ينسب بينكم  
صحبتهم خضاب الزاعبيات ناصلا  
أهدب في مدح اللثام خواطرى  
وما المدح الا في النبى وآله

وأولى بمدحى من أعز بفخره  
أرى الشعر فيهم باقيا وكأنما  
وقالوا عجيب عجب مثلى بنفسه  
لعمرك ما أعجبت الا بمدحهم  
أعد لفخرى فى المقام محمدا

ولا يشكر النعماء الا المهذب  
تحلق بالأشعار عنقاء مغرب  
وأين على الأيام مثل أبى أب  
ويحسب انى بالقصائد معجب  
وأدعو عليا للعلا حين أركب

قال البارودى وترجم لها بقوله : « وقال يروض القول على روى

قصيدة الشريف » :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب  
وما أنا ممن تأسر الخمر لبه  
ولكن أخوهم اذا ما ترجحت  
نفى النوم عن عينيه نفس أيبة  
بعيد مناط الهم فالغرب مشرق  
له غدوات يتبع الوحش ظلها  
همامة نفس أصغرت كل مأرب  
ومن تكن العلياء همة نفسه  
اذا أنا لم أعط المكارم حقها  
ولا حملت درعى كميث طمرة  
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة  
فلست لأمر لم يكن متوقعا  
أسير على نهج يرى الناس غيره  
وانى اذا ما الشك أظلم ليله  
صدعت حفاى طرتيه بكوكب  
وبحر من الهيجاء خضت عجاجه  
تظل به حمر المنا وسودها  
توسطته والخيلى بالخيلى تلتقى  
فما زلت حتى بين الكر موقى

وغيرى باللذات يلهو ويعجب  
ويملك سمعيه اليراع المثقب  
به سورة نحو العلا راح يدأب  
لها بين أطراف الأسنه مطلب  
اذا ما رمى عينيه والشرق مغرب  
وتغدو على آثارها الطير تنعب  
فكلت الأيام ما ليس يوهب  
فكل الذى يلقاه فيها محب  
فلا عزنى خال ولا ضمنى أب  
ولا دار فى كفى سنان مذرب  
لدى يدا أغضى لها حين يغضب  
ولست على شىء مضى أتعب  
لكل امرىء فيما يحاول مذهب  
وأمتت به الأحلام حيرى تشعب  
من الرأى لا يخفى عليه المغيب  
ولا عاصم الا الصفيح المشطب  
حواسر فى ألوانها تتقلب  
وبيض الطبى فى الهام تبدو وتغرب  
لدى ساعة فيها العقول تغيب



على غيب من ساطع النقع غيب  
لأمرح في غي التصابي وألعب  
خباء بأهداب الجفون مطب  
بنشر الخزامى والندى يتصب  
سراعا كما وافى على الماء ررب  
ضواري سلوق عاطل وملب  
يضرسه والصيد أشهى وأعذب  
الى الوحش لا يألو ولا يتصب  
له بنت ماء أو تعرض ثعلب  
من العصب موشى الجبائك مذهب  
ويصبو اليه ذو الحجى وهو أشيب  
ريئنا سربا فقال ألا اركبوا  
من الضمرخوط الضيمران المشذب  
بزاة وجالت في المقاوذ أكلب  
قدور وفار اللحم وانفض مأرب  
قصارى بنى الأيام أن يتشعبوا  
إذا استقبلته العين أسود مغضب  
إذا ما استقلته الأنامل كوكب  
وحتى رأينا الأفق ينأى ويقرب  
وقد كادت الشمس المنيرة تغرب  
به لأخى اللذات واللهو ملعب  
ومخدع أكواب به الخمر تسكب  
أساريره زهوا وجاء يرحب  
فعندى لكم ما تشتهون وأطيب  
وشيب فوديه من الدهر أحقب  
من الخمر تطفو فى الاناء وترسب

لذن غدوة حتى أتى الليل والتقى  
كذلك دأبى فى المراس واننى  
وفتيان نهو قد دعوت وللكرى  
الى مربع يجرى النسيم خلاله  
فلم يمض أن جاءوا مليون دعوتى  
بخيل كآرام الصريم وراءها  
من اللاء لا يأكلن زادا سوى الذى  
ترى كل محمر الحماليق فاغر  
يكاد يفوق البرق شدا اذا انبرت  
فملنا الى واد كان تلاعه  
تراح به الآمال بعد كلالها  
فينا نرود الأرض بالعين اذ رأى  
فقمنا الى خيل كأن متونها  
فلما انتهينا حيث أخبر أطلقت  
فما كان الا لفته الجيد ان علت  
وقلنا لساقينا أدرها فانما  
فقام الى راقود خمر كأنه  
يسج سلافا فى اناء كأنه  
فلم نأل ان دارت بنا الأرض دورة  
الى أن تولى اليوم الا أقله  
فرحنا نجر الذيل تيهامنزل  
مسارح سكير ومربض فاتك  
فلما رأنا صاحب الدار أشرقت  
وقال انزلوا يا بارك الله فيكمو  
وراح الى دن تكامل سنه  
فما زال حتى استل منه سبيكة

يحوم عليها الطير من كل جانب  
فيا حسن ذلك اليوم لو كان باقيا  
يود الفتى ما لا يكون طماعة  
ولو علم الانسان ما فيه نفعه  
ولكنها الأقدار تجرى بحكمها  
نظن بأنا قادرون واننا  
مرحمة رب العالمين على امرئ

وقال في منفاه :

ردوا على الصبا من عصرى الخالى  
ماض من العيش ما لاحت مخائله  
سلت قلوب فقرت في مضاجعها  
لم يدر من بات مسرورا بلذته  
يا غاضبين علينا هل الى عدة  
غبتم فأظلم يومى بعد فرقتكم  
قد كنت أحسبني منكم على ثقة  
لم أجن في الحب ذنبا أستحق به  
ومن أطاع رواة السوء نفره  
أدهى المصائب غدر قبله ثقة  
لا عيب في سوى حرية ملكت  
تبعث خطة آبائي فسرت بها  
فما يمرّ خيال الغدر في خلدي  
قلبي سليم ونفسي حرة ويدي  
لكننى في زمان عشت مغتربا  
بلوت دهرى فما أحمدت سيرته  
حلبت شطريه من يسر ومعسرة

ويسرى عليها الطارق المتأوب  
ويا طيب هذا الليل لو دام طيب  
ولم يدر أن الدهر بالناس قلب  
لأبصر ما يأتى وما يتجنب  
علينا وأمر الغيب سر محجب  
نقاد كما قيد الجنيب ونصحب  
أصاب هواه أو درى كيف يذهب

وهل يعود سواد اللمة البالى  
في صفحة الفكر الا هاج بلبالى  
بعد الحنين وقلبي ليس بالسالى  
انى بنار الأسى من هجره صالى  
بالوصل يوم أناغى فيه اقبالى  
وساء صنع الليالى بعد اجمال  
حتى منيت بما لم يجر فى بالى  
عتبا ولكنها تحريف أقوال  
عن الصديق سماع القيل والقال  
وأقبح الظلم صد بعد اقبال  
أعنتى عن قبول الذل بالمال  
على وتيرة آداب وآسال<sup>(١)</sup>  
ولا تلوح سمات الشر فى خالى  
مأمونة ولسانى غير ختال  
فى أهله حين قلت فيه أمثالى  
فى سابق من لياليه ولا تالى  
وذقت طعميه من خصب وامحال

(١) الآسال الرماح • يريد انه جمع بين الآداب العلمية والآداب الحربية •



ولا فرحت بوفر بعد اقلال  
بلوثة من غبار الذم أذيا لى  
قلبي الى زهرة الدنيا بميال  
الا صحابة حرّ صادق الخال  
والصدق فى الدهر أعياء كل محتال  
فضل الحديث ولا خل فيرعى لى  
مثل القطامى فوق المربأ العالى  
فى الدهن يرسمها نقاش آمالى  
برد الظلال يبرد منه أسمال  
وفى الفضاء سيول ذات أوشال  
معقودة فوق طامى الماء سيال  
بدائعا ذات ألوان وأشكال  
لخلتنى فرخ طير بين أدغال  
فى جوف عيناء لا راع ولا وال  
ولم يصن نفسه من كيد مغتال  
خفية الدرز قد علت بجريال  
نقع الصدى بين أسحار وآصال  
من وكره بين هابى الترب جوآل  
كأنما هو معقول بعقال  
فضلته بجوى حزن واعوال  
يا للمحبة من غدري واهمال  
وقد أكون وضافى الدرع سربالى  
وكان طوع بنانى كل عسال  
فالدهر مصدر ادبار واقبال  
بصدق ما كان من وسمى واغفالى  
بصيرتى فيه ما يزرى بأعمالى

فما أسفت لبؤس بعد مقدرة  
عفافة نزهت نفسى فما علقت  
فاليوم لارسنى طوع القياد ولا  
لم يبق لى أرب فى الدهر أطلبه  
وأين أدرك ما أبغيه من وطر  
لا فى سرنديب لى الف أجاذبه  
أبيت منفردا فى رأس شاهقة  
إذا تلفت لم أبصر سوى صور  
تهفو بى الريح أحيانا ويلحفنى  
ففى السماء غيوم ذات أروقه  
كأن قوس الغمام الغرّ قنطرة  
إذا الشعاع تراءى خلفها نشرت  
فلو ترانى وبردى بالندى لثق  
غال الردى أبويه فهو منقطع  
أزيغ الرأس لم يبد الشكير به  
كأنه كرة ملساء من آدم  
يظل فى نصب حران مرتقبا  
يكاد صوت البزاة القمر يقذفه  
لا يستطيع انطلاقا من غيابته  
فذاك مثلى ولم أظلم وربتما  
شوق ونأى وتبريح ومعتبة  
أصبحت لا أستطيع الثوب أسجبه  
ولا تكاد يدي تجرى شبا قلمى  
فان يكن جف عودى بعد نصرته  
علام أجزع والأيام تشهد لى  
راجعت فهرس آثارى فما لمحت

فكيف ينكر قومي فضل بادرتي  
أنا ابن قولي وحسبي في الفخار به  
ولى من الشعر آيات مفصلة  
ينسى لها الفاقد المحزون لوعته  
فانظر لقولي تجد نفسى مصورة  
ولا تغرنك في الدنيا مشاكلة  
ان ابن آدم لولا عقله شبح

وقد سرت حكى فيهم وأمثالى  
وان غدوت كريم العم والخال  
تلوح في وجنة الأيام كالخال  
ويهدى بسناها كل قوآل  
في صفحتيه فقولى خط تمثالى  
بين الأنام فليس النبع كالضال  
مركب من عظام ذات أوصال

الكتاب الاول

الاعمال الصالحة





الفصل الأول

صبري في حبه

الكتاب الثاني

إسماعيل صبري

AMERICAN LIBRARY  
WASHINGTON, D.C.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
مَجْلَدٌ فِي كِتَابِ

## الفصل الأول

### صبرى فى صباه

لكل أرض أطيّار تغرد لها بين أرضها وسماؤها ، وجداولها وأشجارها ،  
ولكل جيل شعراء يحملون لواءه بين شبابه وشيبه ويسيرون بهم الى  
الغايات فى أقطار الكمال •

كان البارودى يحمل اللواء فى الوقت الذى كان صبرى فيه يتعلم  
الرماية • درج صبرى وشب فى أيام اسماعيل وكان يميل بفطرته الى  
الشعر والأدب وقد وجد فى بيئته وهو تلميذ ما يساعده على تعاطى  
صناعة الشعر فكان من هذه الوجهة أسعد حظا من البارودى (١) •

(١) ولد المرحوم اسماعيل باشا صبرى فى ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤  
وتوفى فى منتصف الواحدة من صباح ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بالغا من العمر  
٦٩ سنة وشهرا ويومين • وكان دخوله فى المدرسة فى ٢١ جماد آخر  
سنة ١٢٨٣ هـ وخروجه من مدرسة الادارة بعد المبتديان والتجهيزية فى  
٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ أو ١١ شوال سنة ١٢٩١ أى فى الثامنة عشرة من عمره  
وأرسل فى ١٧ مايو من السنة عينها تلميذا بالارسالية المصرية بفرنسا  
حيث حصل فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٧٦ على شهادة البكالوريا فى الحقوق  
من كلية ايكس ، وعلى الليسانس فى ١٣ أبريل سنة ١٨٧٨ ثم عين مساعدا  
للىابة العمومية لدى المحاكم المختلطة ، ووكيلا لها بالمنصورة فى ١٧ فبراير  
سنة ١٨٨٢ ، ووكيلا لمحكمة طنطا الابتدائية الأهلية فى ٣٠ ديسمبر سنة ٨٣  
ورئيسا لمحكمة بنها الابتدائية الأهلية فى سنة ٨٥ ، ورئيسا لمحكمة  
اسكندرية الأهلية فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٦ ، وقاضيا بمحكمة الاستئناف  
الأهلية بمصر فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٩١ ، ونائبا عموميا من الحضرة  
الحديوية لدى المحاكم المذكورة فى ٢١ أبريل سنة ١٨٩٥ ، ومحافظة لشغر  
الأسكندرية فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦ ، ووكيلا لنظارة الحقانية فى ٣ نوفمبر  
سنة ١٨٩٩ ، واستقال من الخدمة لبلوغه المرتب الكامل لوظيفته فى  
٢٨ فبراير سنة ١٩٠٧



بدأت في ذلك العصر حركة أدبية مباركة محورها مجلة « روضة المدارس المصرية » التي أنشئت في ١٥ محرم سنة ١٢٨٧ هـ . وكانت « تظهر في الأسبوعين مرة واحدة » تحت ادارة رفاة بك أولا ، ثم تولى شؤونها « نانظر قلم الروضة ومطبوعات المعارف على بك فهمى نجل رفاة بك » وكان آخر ظهورها في سنة ١٢٩٤ هـ .

كانت هذه المجلة تصدر خصيصا للمدارس وكانت قبل « الوقائع المصرية » الصحيفة الأدبية الوحيدة التي تتبارى فيها أقلام الطلبة الناشئين جنبا لجنب مع أقلام فحول هذا العصر أمثال رفاة بك ، والشيخ حسين المرصفي أستاذ البارودي والمدرس بدار العلوم الخديوية الذي كان ينشر في هذه المجلة دروسا في الأدب ، وصالح مجدى ، وعبد الله فكرى ، ومحمد قدرى ، والشيخ حسين والى ، واسماعيل الفلكى وغيرهم فكان الشبان يجدون خير منشط لهم في هذه المجلة التي كانت تنشر شعرهم وكانت لهم في الوقت نفسه أستاذا يحتذون على مثاله :

نشرت « روضة المدارس » في عامها الأول في عدد غاية شوال سنة ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م قصيدة « تهنئة بالعيد الأكبر لحضرة الخديوى الأعظم أدام الله علاه بقلم اسماعيل صبرى افندى » وكان عمره وقتئذ ستة عشر عاما :

سفرت فلاح لنا هلال سعود  
وجلت على العشاق روض محاسن  
قسما بنور جبينها وبخالها  
وبقوس حاجبها وسهم لحاظها  
ليطيب لى في جها ذلى كما  
ومنها :

أبدا يحن الى خصال الجود  
سمح تراه اذا حلت بجيه

يبدو صبرى الكبير من هذا البيت كما يبدو قرن الشمس من خلل  
الغمام وقد بدأت تتفتق له المعانى الغريبة فيجتنبها، وتتهادى أمامه الألفاظ  
العذبة فيقتنصها ، وهذه لفظة « حى » ستتنقل فى شعره من بيت الى بيت  
تنقل الأقمار فى منازلها •

ومنها مخاطبا « آل مصر » :

هيا اجتتوا ثمر العلى من روضه وتفيأوا فى ظله الممدد  
هذا البيت يبين لنا عن منتج خياله ناشئا ، وقوله « يا آل مصر »  
يذكرنا قوله « يا آل ودى عودوا ... » والقصيدة فى مجموعها تقليد  
لكنه يشف عن شخصية فى طور التكون •

ونشر قصيدة أخرى فى ربيع الآخر سنة ١٢٨٨ هـ ( ١٨٧١ م ) مطلعها :  
أغررتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر  
ونشرت « روضة المدارس المصرية » فى يوم السبت ١٥ الحجة  
سنة ١٢٨٨ هـ ( ١٨٧١ م ) :

« تهنئة للحضرة الخديوية بعيد الأضحى من نظم اسماعيل افندى  
صبرى من تلامذة مدرسة الادارة والألسن » :

لا والهوى العذرى والوجد عذل عذولى فيك لا يجدى  
انى مع الصد وطول الجفا باق على الميثاق والعهد  
يا عاذلى أقصر وكن عاذرى ولا تطل لومى على سهدى  
فشعره مهما تخيلته أظل أبكى فى الدجى وحدى  
أفديه من حلو مليح البها تاه على الأغصان بالقد  
نشوان من خمر الكرى لحظه فى قتلتى فاق على الحد  
ماس دلالا ورناء قائللا بيض الظبى والسمر من جندى



وقد قلبى وانشى معجبا  
وقال للورد أما تستحى  
تغزلى فيه ومدحى لمن  
من مثل اسماعيل آراؤه  
وقال لى كيف ترى قدى  
منى اذا فتحت فى خدى  
رقى الى العلياء فى المهدي  
باقية تهدي الى الرشدي

لقد عرتنى هزة حين وصلت الى قوله : « تاه على الأغصان بالقد »  
والى هذا الشطر الآخر : « وقال للورد أما تستحى » لأن كليهما ذكرنى  
صبرى الكبير ، وانها لهزة كالتى تعرفو الانسان حين يلقى رفيق صباح  
بعد طول بين واغتراب ويتفرس فى ملامحه حتى يعرفه لأيا بعد توهم .  
ويظهر أن صبرى بدأ من ذلك الوقت يحتل بفظنته وذكائه مكانة  
فى الأدب يسترعى الأنظار فقد نشرت « روضة المدارس » فى غرة شوال  
سنة ١٢٩١ هـ ١٨٧٣ م . قصيدة أشارت اليها فى الفهرس بقولها  
« تهنة عيدية من نظم حضرة اسماعيل صبرى افندى أحد نجباء الارسالية  
المصرية المقيمة بفرنسا لتعلم العلوم الادارية » ، ومهدت لها فى الصحيفة  
التي نشرت فيها بقولها : « قصيدة للمتفنن فى فنون الأدب حضرة  
اسماعيل صبرى افندى » وهذا نص القسم الغزلى منها :

كلامكما ان كان مثل سهام  
اذا رمتما قتلى بغير لواحظ  
وان رمتما لى بالملام سلامة  
بروحى الذى لولا أغار من الصبا  
وسقيا لدهر بالأمانى محجل  
فيازمننا ما خلته غير سكرة  
الام أقاسى ما أقاسى من الجوى  
وحتام ييدو ما أحب لناظرى  
لعمرك ذا ظلم الحسين بعينه  
أياقلب كم تقوى لحمل الذى أرى  
وكم يا فمى تفنى الزمان تغزلا  
فقلبي كحصن لا يلين لرامى  
دعانى فدون القصد طول صدام  
أرفقكما يرضى صيال حسام  
عليه لما أخرت عنه سلامى  
أدرنا به للانس غرة جام  
مضيك أبقي لى خمار غرام  
ومن معشر هاموا بترك هيامى  
ودون حصول القرب ألف محام  
أرى الماء لكن لا ييل أوامى  
ويا جفن كم تجفون لذيد منام  
ومدح الخديوى فوق كل كلام

ألا تحس معى أن فى هذه الأبيات أثرا من آثار الحنين الذى يساعد  
على نضوج الشاعرية وأن كثرة المران جعلت شاعرنا يصيب الهدف  
فى هذا البيت :

فيا زمنا ما خلته غير سكرة مضيك أبقي لى خمار غرام  
وفى هذا البيت الآخر :

أيا قلب كم تقوى لحمل الذى أرى ويا جفن كم تجفو لذيد منام  
هذا ما وقفنا عليه من نشأة صبرى والذى يعنينا هو أنه كان يقول  
شعرا يشف عن سلامة الذوق وصفاء النزعة ، وقد نشرت « الوقائع »  
فى ٢٩ يونيه سنة ١٨٩١م ١٣٠٨ هـ قصيدة « لاسماعيل بك صبرى رئيس  
محكمة الاسكندرية » يهنئ بها الخديوى توفيق بعيد الجلوس  
مطلعها :

عش للعلا مولى وذخرا واسطع بأفق السعد بدرا  
هذا جلوسك عيده ملاء الملا بشرا وبشرى  
يوم بطالع يمنه وجه الزمان غدا أغرا  
ألبسته مننا تهز معاطف الأيام كبرا  
واياب عباس كساه جلابيا للحسن أخرى  
حت اليه تشوقا مصر فعاد يوم مصرا

وظهرت له حوالى هذه السنة قصيدة أخرى أذكر منها أبياتها  
الأولى :

لم يدر أن ملامه أغراكا اذ لج فى بهتانه ونهاكا  
يا جبذا عدل العذول لو أنه داواك من ألم الهوى فشفاكا  
قف بالديار وحى رعبا دارسا لو يستطيع اجابة حياكا  
واثر دموعك فى ثراه صباية عل البكاء يزيل بعض جواكا  
أترى تنال من البخيلة نظرة تأسو جراحك أو تبل صداكا



مهلا أبا العباس في طرق العلا      واستبق منها فضلة لسواكا  
هل في السماء فضيلة لم تحوها      تبغى لأجل نوالها الأفلاكا

هذا الشعر يبين عن بطة نضوج صبرى الذى بلغ سبعة وثلاثين  
عاما ولكنك تراه يقلد البحرى ويجرى فى غباره فى حين أن البارودى  
جود فى صباه ونضج قبل هذه السن ، وكان « أحمد أفندى شوقى  
أحد موظفى السكرتارية » فى ذلك العهد ينشر شعرا فى « الوقائع  
المصرية » يفضل هذا الشعر • لا أظن أن الأمر فى ذلك يرجع الى المحفوظ  
الذى يستمد منه بعض الشعراء قوة السبك فيسترون بها ضعف النفس  
الشعرى فى أوائل الشباب أو أواخر الكهولة ، أو يرجع الى الذوق  
الذى يقولون ان نضوجه يحتاج الى مران طويل ، واعتقد أن الأمر  
يتوقف من جهة على الاستعداد الفطرى ، ومن جهة أخرى على المؤثرات  
الخارجية فى الحياة ، وهذه عوامل قد يجهلها الشعراء أنفسهم أحيانا •  
ويخيل الى أن صبرى فى هذه الشقة من العمر كان يفتح كتاب  
الوجود ويتلمس فيه الطريقة البكر التى لم يفترعها قبله شاعر ولكنه لم  
يهتد اليها الا بعد أن حال لون النهار وكان مساء ، فجاء شعره كالشفق  
المذهب يلمع نوره فى أفق الحياة عند الغروب •

## الفصل الثاني

### سلامة الذوق

يجدر بنا قبل التكلم عن شعر صبرى أن نقول ان صبرى لم يلقب « بشيخ الشعراء » الا لأنه جمع بين مزايا ثلاث : فضل السبق في السن ، وفضل السبق في قول الشعر والتبريز فيه ، وسلامة الذوق .

وإذا كان لشعر صبرى وأغانيه أثر واضح في تهذيب الأدب العصرى لغة وشعرا فقد كان لذوقه النقاد أثر لا عيب فيه الا اختفاؤه عن أعين الجهال اختفاء الجدول في الفاف الغاب .

نشأ صبرى وهو تلميذ شاب في وقت ارتقى فيه الذوق الأدبى وحسبنا أن نقول ان البارودى كان في ذلك العهد قد جود في الشعر وأن الشيخ حسين المرصفي أحد أئمة النهضة الأدبية في مصر كان ينشر فصولا في الأدب ما زالت منهلا صافيا يرده طلاب الأدب الى اليوم . ويظهر أن صبرى أحب شعر البحترى صغيرا فجاء نظمه في صباه نقى الديباجة حسن النسق يشف عن رقة في الطبع والاحساس والذوق .

إذا أضفنا الى ذلك أنه أتم تعليمه في أوروبا ودرس لغة الافرنج وأدبهم وأن العناصر الأولى التي ألف منها ذوقه قبل سفره كانت سليمة لا تشوبها شائبة أدركنا كيف امتاز صبرى على أهل عصره بذوقه وكان عمدة الشعراء والأدباء يأتون برأيه .

كانوا جميعا يؤمنون داره ، وكانت داره تذكرنا الأندية الأدبية في القرن السابع عشر في فرنسا ، تلك الأندية التي يرجع اليها الفضل في تهذيب اللغة الفرنسية وتجنب الكلمات الحوشية النافرة لأن السيدات كن فيها الآمرات الناهيات يحاسبن على كل لفظة ويتلظفن في الخطاب .



أليس شوقى هو القائل :

أيام أمرح في غبارك ناشئا      نهج المهار على غبار خصاف  
اتعلم الغايات كيف ترام في      مضمار فضل أو مجال قواف  
ومطران :

أى صاحبى لقد قضى      استاذنا البر الحبيب  
فعررا قلاذتنا - وكا      نت زينة الدنيا - شحوب  
وحافظ :

لقد كنت أغشاء في داره      وناديه فيها زها وازدهر  
وأعرض شعري على مسمع      لطيف يحس نبو الوتر  
ولقد صدق الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فيما كتبه (١) :

« ولم يكن في مصر ممن يحسن ذوق البيان ويميز أقدار الألفاظ بعضها من بعض وألوان دلالتها كالبارودى وصبرى وابراهيم المويلحى والشيخ محمد عبده رحمهم الله جميعا • والبارودى يذوق بالسليقة وصبرى بالعاطفة والمويلحى بالظرف والشيخ بالبصيرة النفاذة • وذلك شئ ركبه الله في طبيعة صبرى ولم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالحس ومن أجله كان يفضل البحرى على غيره » •

ومما أذكره أننى عرضت عليه مرة قصيدة كنت نظمتها في العام الهجرى ونشرتها جريدة المؤيد سنة ١٩١٢ فاستحسن منها هذين البيتين :  
مضى العام مذموم الفعال مشيعا      بأنة محزون ودمعة مشفق  
فلا الغرب في ساح اليقين بمهتد      ولا الشرق من رق الاسار بمعتق

ثم قال لى : « أولى بك أن تنظم خمسة عشر بيتا من هذا الطراز بدلا من أربعين » ، من ذلك يتبين حب الرجل للاتقان • وكان كثير الاعجاب بشوقى ، يقول « شوقى ينظم ، وحافظ يبني ، ومطران يتدع » ، ولما

(١) المقتطف فى مايو سنة ١٩٢٣

قال مطران قصيدته الميمية في حرب طرابلس طرب وكاد يجن بها جنونا  
وكان ينشد منها هذا البيت مرارا :

يقول للعلم الخفاق في يده فيء من الأرض ما تختار يا علم  
وقابل مطران بعد ذلك فقال له : « لقد أسكرتني ، انك فت  
الشعراء بستمائة عام » .

ولقد كان صبرى يطالع قليلا كل مساء في دواوين شعراء الافرنج ،  
وكان كلما طالع قصيدة عربية أو افرنجية استكرم ثم قطف . قرأت له  
ذات يوم قصيدة عينية للبحترى فأعجب أيما اعجاب بقوله :

لو أن أنواء السحاب تطيعنى لشفى الريح غليل تلك الأربع  
ما أحسن الأيام لولا أنها يا صاحبي اذا مضت لم ترجع

ومما كان يطرب له من شعر البحترى قوله :

وقفة بالعقيق أطرح ثقلا من دموى بوقفة في العقيق  
وقوله في الفراق :

ولقد تأملت الفراق فلم أجد يوم الفراق على امرىء بطويل  
قصرت مسافته على متزود منه لدهر صباة وعويل

وقوله في مرثية أبي سعيد :

فليهنأ الأروام بعدك انهم هداؤا بأطراف الدروب وناموا  
امنوا وما امنوا الردى حتى انطوى فى الترب ذاك الكر والاقدام

وقوله :

وبود العدو لو تضعف الجيش عليهم وتصرف الآراء

وكان يعجب بقول الآخر :

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة ردى على فؤاد مثلما كانا  
لا بارك الله فى الدنيا اذا افترت أسباب دنياك من أسباب دنيانا



وقول من قال :

لا يهنىء الناس ما يرعون من كلاء  
وما يسوقون من أهل ومن مال  
حسب الخليلين نأى الأرض بينهما  
هذا عليها وهذا تحتها بالي

وقول ابن خفاجة :

يقابلنا الصباح ببطن حزوى  
فينكرنا ويعرفنا الظلام  
فياظل الشباب وكنت تندى  
على أفياء سرحتك السلام

وقول الآخر :

هات يا برق قل حديثك عن نج  
د فحيا الاله عنى نجدا  
قل وان كان ما تحدث زورا  
فلقد تبرد الأكاذيب وجدا  
وكان اسماعيل رحمة الله عليه في جميع حركاته وسكناته مثالا  
عاليا للذوق يتأنق فيها من غير كلفة وتصنع كما يتأنق الربيع في الباس  
الأرض حلة عروس •

ولا ريب أن الذوق من أكبر عوامل النهضة الأدبية واللغوية والاجتماعية  
لا سيما في طور الانتقال ، وقد كان صبرى ذواقا لايدانيه في فن  
الذوق مدانى •

على أن ذوق صبرى الذى زاد صقلا ورونقا مع طول المران  
يتجلى في شعر كهولته ، وهذا شعر خالد ذاع الكثير منه على كل لسان ،  
ومن تأمل فيه رأى دقة الصنع ، وصفاء الطبع ، وسمو الخيال •

## الفصل الثالث

### شعر الكهولة

بدأ شعر صبرى ينضج فى كهولته وقت أن كان البارودى فى منفاه ، وكان شوقى فى صباه يجرى على الأثر « جرى المهار على غبار خفاف » ، وقد نظم شوقى سنة ١٨٩١ م قصيدة فى مدح المغفور له توفيق باشا مطلعها :

مضى وليس به حراك لكن يخف اذا رآك  
جاء فيها :

ما همت فى روض الحمى الا وأسكرنى شذاك  
والقلب مخفوض الجنا ح يهيم فيه على جناك  
جاراه صبرى بقصيدة مطلعها :

وجد يؤججه جفاك ولظى تسعره نواك  
ولكننى لم أعثر على هذه القصيدة ويقال أنها من شعره الجيد ولعلها أول أثر من آثار النضوج الشعرى عند اسماعيل •

ومما يثبت نضوجه فى هذه الآونة قصيدة أخرى نشرتها له « الوقائع » فى ٢٤ ابريل سنة ١٨٩٣ هنا الخديوى عباسا بعيد الفطر ، وكان وقتئذ « اسماعيل بك صبرى وكيل محكمة الاستئناف الأهلية » ، قال :

عباس قد سست البلاد سياسة  
أنفذت حكمك بادها بمسائل  
طربت لحكمتها الشيوخ وأذعنت  
زيفت قول المرجفين مينا  
سيحدث التاريخ عنها الأعصرا  
دقت على الحكماء أن تتصورا  
فلو ان رسطاليس ثم لكبرا  
للحق نهجا كاد أن يتنكرا



وبنيت سدا من ذكائك دونهم  
يا صاحب النيل الذي جرت به  
حققت آمال البلاد وجزتها  
رامتك شبلا كي تعز عرينها  
همم اذا مدت لمفتخر يدا  
وعزيمة ميمونة لو لامست  
لله كيف ركضت في طرق العلا  
لو أن غيرك سالك هضباتها  
لكن جاشك لا يمكن منهجا  
ياليت أصلا أنت خير فروعه  
ويراك تبني المجد مثل بنائه  
وتحير الدنيا بسيرتك التي  
يا ابن الذين سموا لأبعد غاية  
عزز بناءهم الذي قد وطفوا  
وتول تذليل الصعاب فانها

فأريتنا يأجوج والاسكندرا  
مصر على البلدان ذيبلا أخضرا<sup>(١)</sup>  
شأوا وما جزت الشباب الأنضرا  
فأبيت الا أن تكون غضنفرا  
لا ترتضى الا الأعز الأكبرا  
صخرا لعاد الصخر روضا أزهرا  
فقطعتها حيث المجود قصرا  
ورأى مجاهل سبلها لتعشرا  
يفضى الى العلياء أن يتوعرا  
يوما يرد الى الحياة لينظرا  
وتذود عن حوض الجدود مظفرا  
قد سارها قدما فأكبرها الوري  
فتسنموا القنن الشوامخ والذرى  
تشكر وشيده يشد لك مفخرا  
مرهونة حتى تقول وتأمرا

هذه قصيدة بحترية ومن أراد أن ينظر كيف يحاكي الفرع الأصل  
فليتأمل هذه القصيدة ، وقصيدة « فرعون وقومه » ، وقصيدته التي  
هنأ بها المرحوم السلطان حسين حينما أسند اليه منصب السلطنة المصرية  
وقصيدته « الى الأمير عمر باشا طوسن بمناسبة اعانتته جرحى الحرب  
البلقانية » ، وقصيدته التي قالها في حرب طرابلس ، وقصيدته التي  
عزى بها السلطان حسين بفقد والدته سنة ١٩١٧ ، وقصيدته التي هنأ بها  
الخدوي عباس سنة ١٩٠٨

على أن هذه القصائد ليست بحترية بأسلوبها وحده بل بالروح التي  
تشرف عنها ، وهذا يدل على شدة تعلق صبرى بالبحترى ونسجه على  
منواله . وهذا البارودي قد نسج على منوال البحترى ولكنه لم يتعلق به

(١) لا أظن القارئ بحاجة إلى تنبيهه إلى ما في هذا البيت من جمال التصوير .

تعلق صبرى فجاء شعره يحاكي شعر البحترى فى احكام الصناعة ، وصقل  
الديباجة ، ولكن تنقصه هذه الروح التى تطل من شعر صبرى •  
وأذكر مرة أن حافظ حدثنى فى الطريق عن البحترى والمنتبى فقال :  
« البحترى شاعر يفتح ذراعيه فى الطريق لمن يقابله ويأخذه بالحضن ،  
أما المنتبى فيجب أن تقف أمامه زنهار وتضرب سلام » وهذا أحسن  
تصوير للبحترى وروحه ، وكذلك كان صبرى فى حياته وشعره •

\* \* \*

ولكن شخصية صبرى الحقيقية تتجلى فى خمس أو ست قصائد  
أخرى قصيرة وفى مقاطيعه التى ضرب فيها على وترين وتر الحكمة ووتر  
الوجدان • وقد وصف خليل مطران الطريقة التى يجرى عليها فى نظمه ،  
قال : « أكثر ما ينظم فلخطة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها ،  
أو خبر ذى بال يسمعه ، أو كتاب يطالعه •

«ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه اليه  
فالغالب فى أمره أنه يقول الشعر متمشيا وربما قاله بحضرة صديق  
وهو مائل عنه بعنقه وله بين حين وحين أنه بمثل ما تنطق لفظة « ايه »  
مستطيلة • ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة الى أربعة الى  
سته وقلما يزيد على هذا القدر الا حيث يقصد قصيدة وهو نادر •  
شديد النقد لشعره كثير التعديل والتحويل فيه حتى اذا استقام على  
ما يريد ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه • وهكذا  
يمر به الآن بعد الآن فيجيش فى صدره الشعر فيرسل بيتيه اطلاق زوجى  
الطائر فيذهبان فى الفضاء ضاربين من أشطرهما بأجنحة ملتمة شادين  
على توقيع العروض الى أن يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان  
ذلك هو الشعر للشعر » •

كان صبرى فى حياته ينزع كثيرا الى قول الحكمة ولكنه لم  
يوفق فيها كما وفق فى شعره الغنائى الذى امتاز به على جميع  
معاصريه بلا مرأى •



ولا أعرف له في الحكمة عدا المقاطيع الا قصائد « الدواة »  
و « الساعة » و « نجم هالى » و مرثية أمين' باشا فكرى : وفي هذه  
القصائد تنعكس الحياة وساعاتها والوجود وصوره كما تنعكس الظل  
البوالى على صفحة البحيرة الصافية ، ولو أن الدنيا تمثلت شخصا لما  
خاطبها صبرى بأحسن من قول أبى تمام يخاطب عمورية :

ولا الخدود وان آدمين من خجل أشهى الى ناظرى من خدك الترب  
ذلك بأن صبرى شاعر جرب الحياة وذاق حلوها ومرها واشتبهت  
عيناه فى وجوه الأمم والرجال التى حدق فيها طويلا فعلا وجهه منها  
ذالك الشحوب البادى وارتسم عليه ظل من الكآبة كانت تطلقه  
ابتسامة شفقيه ، وهل صور شاعر قبله الحياة بمثل قوله :

وان تجد من بينها ساعة جعبتها من غصص خاليه  
فاله بها لهو الحكيم الذى لم ينسه حاضره ماضيه  
وامرح كما يمرح ذو نشوة فى قلة من تحتها الهاويه  
وهل قال أحد فى الوجود وساكنيه مثل قوله وهو من الأبيات  
الجامعة :

تعب الفيلسوف فى الناس عصرا وتولى السرائر الدين عصرا  
وقوله وهو من السهل الممتنع النادر :

عبر كلها الليالى ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرا  
ثم انظر كيف يخاطب نجم هالى :

هل تلقيت من لدن خاذل البا غى وحامى الضعيف يا نجم سرا  
أغدا تستوى الأنوف فلا ينظر قوم قوما على الأرض شزرا  
أغدا كلنا تراب ولا ما لك خلاف التراب برا وبحرا  
أغدا يصبح الصراع عناقا فى الهولى ويصبح العبد حرا  
ان يكن كل ما يقولون فاصدع بالذى قد أمرت حبيت عشرا  
أبيات تشف عن شغل الحكيم الشاغل فى هذه الحياة ، عن ذلك

المثل الأعلى للحرية والاخاء والمساواة الذي أراقت الأمم دماءها  
على بابه المنكود ، ويريد شاعرنا أن يصل اليه من طريق الموت  
والعالم الأبدى •

وقد تجلى هذا الشغل الشاغل في قصيدة « الدواة » حيث يقول :  
وإذا الظلم والظلام استعانا      يوم نحس بأجهل الجاهلينا  
واستمدا من الشرور مدادا      فاجعليه من قسمة الظالمينا  
وحيث يقول :

وإذا كان فيك نقطة سوء      كونت من خباثة تكويننا  
فاجعليها قسط الذين استباحوا      في السياسات حرمة الأضعفينا  
وحيث يقول للائتراك بعد الدستور :

الحق أبلج سلوا دون بيضته      قبل السيوف سيوفا من براهين  
لا تلبسوا ثوبه بين الأنام غدا      ملوثا بدم القوم المساكين  
ويدخل أيضا في هذا المعنى قوله يخاطب عباس وقد صاغ  
النصيحة في قالب تقرير حقيقة واقعة وهذا غاية في الأدب وحسن  
السياسة :

يأليت أصلا أنت خير فروعه      يوما يرد الى الحياة لينظرا  
ويراك تبني المجد مثل بنائه      وتذود عن حوض الجدود مظفرا  
وقوله :

مستنجدا من بنى مصر الى شمم      اذا رأوا ثلثة في حوضهم جبروا  
ولا يفوتنا أن نقول ان في بيت صبرى :

أغدا يصبح الصراع عناقا      في الهيولى ويصبح العبد حرا  
لمشهدا من أجل المشاهد التى لا يمكن عينا أن تحيط بها • ويظهر  
أن شاعرنا مولع بالمشاهد الواسعة ، وهذه تتجلى في قصيدة « فرعون  
وقومه » • من هذه المشاهد ما يتناوله الحس كقوله :

وآزرته جماهير تسيل بها      بطاح واد بماضى القوم ملان



ومنها ما يتناوله المعنى كقوله في وصف الأهرام :

كأنها والعوادي في جوانبها صرعى بناء شياطين لشیطان

وقوله فيمن شادوها :

بادوا وبادت على آثارهم دول وأدرجوا طي أخبار وأكفان

وخلفوا بعدهم حربا مخلدة في الكون ما بين أحجار وأزمان

ولعل أجود شعر قاله صبرى في الحكمة كان شعر الحياة والموت ،

قال رحمه الله يصف « راحة القبر » :

ان سئمت الحياة فارجع الى الأر ض تتم آمنة من الأوصاب

تلك أم أحنى عليك من الأ م التي خلقتك للاعتاب

لا تخف فالممات ليس بماح منك الا ما تشتكى من عذاب

كل ميت باق وان خالف العذ وان ما نص في غضون الكتاب

وحياة المرء اغتراب فان ما ت فقد عاد سالما للتراب

حدثني حافظ أن هذا البيت الأخير أجود معنى قاله صبرى :

ويخيل الى أن روح أبى العلاء تطل من كل بيت من هذه الأبيات ،

أليس هو القائل :

ضجعة الموت رقدة يستريح ال جسم فيها والعيش مثل السهاد

ولكن أبا العلاء ينظر الى الأرض نظرة أخرى تشف عن

جوى باطن :

خفف الوطاء ما أظن أديم ال أرض الا من هذه الأجساد

ينظر اليها نظرة الشاعر الفرنسى « الفريدى فينى » الى الطبيعة

في قوله : « انهم يسمونك أما وما أنت الا قبر » ، ونظرة شوقى

في قوله :

عقت بنيتها ظاهرا وأظن باطنها أعقا

عند الافرنج نوع من الشعر يدعى Lyrique نسبة الى Lyre

وهي القيثارة ولا أدرى ما الذى يمنعا من تسميته بالشعر الغنائى فان  
هذا الضرب من الشعر كان يغمى به فى القرون الوسطى وهو شبيه  
بالأغانى فى الشعر العربى •

وقد تفنن صبرى فى هذا الشعر الوجدانى ونظم فعلا للغناء أدوارا  
خاصة ، منها : ( الفجر لاح قوموا يا تجار النوم ) •

ومن أدواره المشهورة دور للغناء قديم على نعمات العود :

#### مذهب بياتى

قدك أمير الأغصان	من غير مكابر
وورد خدك سلطان	على الأزهـر
دا الحب كله أشجان	يا قلب حاذر
والصد ويا الهجران	جزا المخاطر

#### دور

يا قلب آدنت حبيت	ورجعت تدم
وصبحت تشكى مارأيت	لك حد يرحم
صدقت قولى ورأيت	ذل المتـمـيم
ياما نصحتك ونهيت	لو كنت تفهم

#### دور

أعرض لحسبك أوراق	واكتب ودون
وأبات صريع الأشواق	واحسب وأخمن
دا هجر وصبابة وفراق	يا رب هـسـون
وارحم قلوب العشاق	دا شىء يجـنـن

وشعره الغنائى أنواع منها النوع المتقدم الذى جعل خصيصا للغناء ،  
وهذا النظم الغنائى ليس شعرا « غنائيا » بالمعنى الصحيح ، وليس من  
أرفعه وأجوده ومنها ماتخلله نزعة دينية ، وقد نظم لامرتين من هذا النوع  
ديوانين ، مثال ذلك قول شاعرنا :



الى الله

يارب أين ترى تقام جهنم  
لم يبق عفوك في السموات العلى  
يا رب أهلنى لفضلك واكفى  
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى  
يا عالم الأسرار حسبي محنة  
أخلق برحمتك التى تسع الورى  
للظالمين غدا وللأشرار  
والأرض شبرا خاليا للنار  
شطط العقول وفتنة الأفكار  
غضب اللطيف ورحمة الجبار  
علمى بأنك عالم الأسرار  
ألا تضيق بأعظم الأوزار

هذه الأبيات من خير ما قيل فى الاستعطاف والرجاء ، وهى من أرقى  
الشعر الغنائى الذى يعلو بالعاطفة الدينية الخالصة الى السماء كما تعلق  
الصلوات لله ، وما أكثر الشبه بين قوله :

ومر الوجود يشف عنك لكى أرى  
غضب اللطيف ورحمة الجبار  
وقول لا مرتين :

Et la nature m'a dit passe.  
Ton sort est sublime, Il t'a vu.

« سعدت أمام وجهه الكريم ، فقالت لى الطبيعة سر فى طريقك ،  
ما أعظم شأنك ، انه رآك » •

فأنت ترى كيف التقى الشاعران فى سمو الخيال وصفائه • على  
أننا اذا قلنا ان شعر صبرى الغنائى كان شبيها بالصلاة التى تذهب  
صعدا نحو السماء فقد كانت الطبيعة له معبدا ، وكانت المرأة فى هذا  
المعبد « تمثال جمال » :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى  
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم  
ان هذا الحسن كالماء الذى  
لا تذودى بعضنا عن ورده  
أنت يم الحسن فيه ازدمت  
أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء  
فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء  
فيه للأنفس رى وشفاء  
دون بعض ، واعدى بين الظماء  
سفن الآمال يزجىها الرجاء

يقذف الشوق بها في مائج  
شدة تمضى وتأتى شدة  
ساعفى آمال أنضاء الهوى  
وتجلى واجعلى قوم الهوى  
أقبلى نستقبل الدنيا وما  
واسفري ، تلك حلى ما خلقت  
اخطرى بين الندامى يحلفوا  
وانطقى ينثر اذا حدثتنا  
وابسمى ، من كان هذا ثغره  
لا تخافى شططا من أنفـس  
راضت النخوة من أخلاقنا  
فلو امتدت أمانينا الى  
أنت روحانية لا تدعى  
وانزعى عن جسمك الثوب بين  
وأرى الدنيا جناحى ملك

نشرت هذه القصيدة لأول مرة في « المجلة المصرية » في يونيه  
سنة ١٩٠١ ، وهذا ما قاله خليل مطران بهذه المناسبة : « كانت الغزليات  
قبل الآن فيها ما يمس الآداب العمومية من ذكر القدود والنهود  
والقم والعناق ورقة الخصر وكثافة الردف ولقد كان هذا من العام  
حتى في قصائد المديح للملوك والأمراء وهو ما لا ترضاه الأذواق في  
هذه الأيام وينكره علينا أدباء الغرب • وقد سئل صاحب السعادة  
المفضل اسماعيل باشا صبرى نظم أبيات تنقل الى اللغة الفرنسية  
وتجعل في كتاب يؤلف الآن في مختار الشعر العربى قديمه وحديثه  
فجادت قريحته الوقادة بهذه الأبيات التى جاءت على الطريقة الصوفية  
من حيث سمو الخيال ونزاهة الشيمة وغرابة الوضع ولعلها أحسن ما جمع  
فيه بين الأسلوبين العربى والغربى فى نظم الشعر •



يجب صبرى المرأة لأنها تمثل الجمال وهو ينظر اليها نظرة المصور  
الماهر الى دمية جميلة يجد في جمالها ظلا ينزوى فيه من هجير الحياة :  
ان هذا الحسن كالماء الذى فيه للائنفس رى وشفاء  
وقد يفتن الجمال المصور أو الشاعر ويسمو به الى أعلى مراقى  
الخيال ، فتتمثل المرأة كأنها قطعة من النور الالهى هبطت على الأرض  
لتلقى عليها عزاء وسلاما • وهنا يقف الشاعر موقف العابد ، وتصفو  
نفسه ، وتعلو كقطعة من نور تلتقى بالأخرى ثم تتلاشيان تلاشى  
الموجتين على ساحل الفناء :

لا تخافى شططا من أنفس  
فلو امتدت أمانينا الى  
وانزعى عن جسمك الثوب بين  
وأرى الدنيا جناحى ملك  
تعثر الصبوة فيها بالحياء  
ملك ما كدرت ذاك الصفاء  
للملا تكوين سكان السماء  
خلف تمثال مصوغ من ضياء  
وأعرف لصبرى أبياتا أرق من نسيمات السحر ، تكاد تبعث ميت  
الهوى ، وتعيد أيام الشباب النضر ، وتفجر الماء من الصخر ،  
قال رحمه الله شاكيا مسترحما :

أبشك ما بى فان ترحمى  
وأشكو النوى ما أمر النوى  
وأخشى عليك هبوب النسيم  
واستغفر الله من برهة  
تعالى نجدد زمان الهناء  
تعالى أذق بك طعم السلام  
رحمت أخا لوعة مات جبا  
على هائم ان دعا الشوق لبا  
وان هو من جانب الروض هبا  
من العمر لم تلقنى فيك صبا  
ونهب ليليه الغر نهبا  
وحسبى وحسبك ما كان حربا  
أجل ، كانت المرأة شغل فؤاده ، وقد بلغ من تعلق شاعرنا بها  
أنه كان يراها فى حاضره ، وكان يراها بعين الذكرى فى ماضيه ، ومن  
ذا الذى يذكر روض الشباب ولا يذكر القمارى ، فينشد :

تمسى تذكرنا الشباب وعهده  
تنب القلوب الى العيون اذا بدت  
حسنا مرهفة القوام فنذكر  
وتظل من حدق العيون وتنظر

وتارة :

أخفق فؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى رد ما كانا  
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصباية فآخفق وحدك الآنا  
وكان صبرى يرى المرأة فى صورة ملك ، وقد يراها غيره فى صورة  
الدنيا التى قال فيها أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق  
والتي قال فيها ابن المعتز : « وعد الدنيا الى خلف ، وبعد أمانها  
الفتح ، طواحة طراحة ، آسية جراحة ، كم راقد فى ظلها قد أيقظته ،  
ووائق بها قد خانتها ، حتى يلفظ نفسه ويودع دنياه » •

وكان يراها فى صورة ريحانة تحسد السماء من أجلها الأرض :

يا راحة القلب يا شغل الفؤاد صلى متيما أنت فى الحالين دنياه  
زينى الندى وسيلى فى جوانبه لظفا يعم رعايا اللطف رياه  
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة من الرياحين حيانا بها الله  
ان غاب ساقى الطلا أو صدلا حرج هذا جمالك يغنيا محياه

أليس يخيل اليك أن هذا الشعر نغمات موسيقية هبطت علينا  
خلسة من السماء هبوط الندى فى ليلة من ليالى الربيع ، تلك نغمات  
تشف عن نفس محزونة تحن الى منازل الكمال فى ذلك العالم العلوى  
كما يحن غريب الدار الى الأوطان ، وهذا الحزن أكبر مميزات الشعر  
الغنائى ، شعر العاطفة والوجدان ، ولعل مطران أشار الى ذلك بقوله :

بلغ الحقيقة شاعر ما غره الوهم الكذوب  
أوفى على عدن وما هو عن محاسنها غريب

كان شاعرنا يفتش عن الحقيقة وهى كظل الرجل فى دنياه كلما تبعها  
أمعنت فى الهرب ، قال من أبيات له يخاطب سيدة تدعى الكسندرا :

انثرى الدر يا سمية اسكد در لا فض عقده فى فيك



واميطى عن الحقيقة ما يحببنا جمالها من شكوك

والشاعر الغنائى أبدا يهيم فى وادى الغرائب ، ويتخذ الجمال  
ومظاهرة فى هذه الحياة الدنيا سلما من ضياء يرقى به أسباب السماء •  
ذلك بأن أزاهير الأرض سريعة الذبول ، ونجومها سريعة الأفول ،  
وجمالها سريع الزوال كالنار لا تلبث أن تحور رمادا ، وهذا الرماد  
الذى يذوقه كل من أحب وجرب وعاش وشب فى حجر الجمال  
يجبب الى الانسان طعم العدم والفناء ، ويدفعه الى مناجاة الموت مناجاة  
الالف أليفه :

يا موت خذ ما أبقت الأيام والساعات منى  
بينى وبينك خطوة ان تخطها فرجت عنى

وقد حدثت لصبرى وهو محافظ الاسكندرية حوالى سنة ١٨٩٧  
رضوض على أثر اصطدام القطار به فى طريقه الى القاهرة فظل غائبا  
عن الوجود خمسة عشر أو عشرين يوما • روى لى حافظ أن صبرى قابله  
بعد ابلاله فقال له ما معناه: «وددت أنى لم أفق فقد ذقت مرارة الوجود» •

على أن هذا الرجل الذى كان يحب فى الموت ذلك « المنقذ  
السماوى » ، كما كان يسميه لامرتين ، ما كان أشد جزعه كلما رأى  
الصراع القائم فى هذه الدنيا بين الموت والجمال ، ورأى البلى يغير  
على حسن الوجوه ، والفناء يدب فى مخضر الشجر •

وهل بكى شاعر حبه للطبيعة ، وود لو نزل منها مكان سمعها  
وبصرها ، وظل بين نحرها وصدرها ، حتى تواريه فى قبرها ، بمثل  
قوله يناجى سرحة الحى :

عار عليك وهذا الظل منتشر فتك الهجير بمثل فى نواحيك  
فمن معيرى جناحى طائر غرد كى أقطع العمر شدوا فى أعاليك

ثم انظر كيف رثى ابنا صغيرا للشيخ على يوسف بأبيات ارتجلها  
يوم دفنه ، وقال عنها المؤيد انها « لصديق » من كبار الشعراء :

يا مالىء العين نورا والفؤاد هوى      والبيت أنسا تمهل أيها القمر  
لا تخل أفقك يخلفك الظلام به      والزم مكانك لا يحل به الكدر  
فى الحى قلبان باتا يا نعيمهما      وفيهما اذ قضيت النار تستعر  
وأعين أربع تبكى عليك أسى      ومن بكاء الشكالى السيل والمطر  
قد كنت ريحانة فى البيت واحدة      يروح فيه ويغدو نفحها العطر  
ما كان عيشك فى الأحياء مختصرا      الا كما عاش فى أكمامه الزهر  
فارحل تشيعك الأرواح جازعة      فى ذمة الله بعد القبر يا عمر

لم يجد المرحوم الشيخ على يوسف فى رثاء ابنه أفضل من نثر هذا  
الشعر لا سيما البيتين : « فى الحى قلبان ... وأعين أربع تبكى عليك  
أسى » • ذلك بأن صبرى أجاب فى بكاء هذا الطفل داعية الجمال ،  
وقد ذوى منه ذلك الفريع المتدلى فى دوحته •

وقصارى القول كان صبرى فى شعره الغنائى ينشد الحب والموت  
والجمال والصدقة فكان يجد فيها ريا للنفوس الظماء ، وكانت الصداقة  
تنزل من نفسه منزلة الحب :

ولما التقينا قرب الشوق جهده      شجين فاضا لوعة وعتابا  
كأن صديقا فى خلال صديقه      تسرب أثناء العناق وغابا

لا أرى رأى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى تعليقه على  
هذين البيتين : « وهذا المعنى على ابداعه فيه متداول وأصله لبشار  
- أظن - فى قوله :

وبتنا جميعا لو تراق زجاجة      من الخمر فيما بيننا لم تسرب  
فأبدع صبرى فى الأخذ وجعل من هذه الزجاجة المنصدعة جوهرة  
تتألق : على أنى لا أستحسن قوله « كأن صديقا » فما هذا بعناق  
الأصدقاء » •



وأرى اذا كان لابد وأن يكون صبرى قد أخذ هذا المعنى من  
أحد قبله ، وهذا مالا أظن ، فقد أخذه من (Montaigne) « موتيني »  
الفيلسوف الفرنسى فى القرن السادس عشر الذى قال فى موقف عناق :  
« وما كنت أدرى أكان هو أم أنا (Je ne sais pas si c'est lui, si c'est moi)  
يشير بذلك الى فناء الشخصين أحدهما فى الآخر •

ثم انظر الى دقة تصوير الذكرى التى تتمثل فى طيف الود وتتدخل  
بلطف بين الصديقين المختصمين فتكسر السهم والقوس :

اذا خاتنى خل قديم وعقنى وفوقت يوما فى مقاتله سهمى  
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فانثيت ولم ارم  
على أن هناك ضربا من الشعر الغنائى أجاد فيه صبرى ، ذلك  
هو حب الديار والأوطان ، قال الشاعر ثرلين : « حب الوطن أول حب  
وآخر حب بعد حب الله » ، وقال صبرى : « أحب الحرية فى ثلاث : فى  
المرأة فى ظل زوجها ، و فى الرجل تحت ظل شريعته ، وفى الوطن تحت  
ظل الله » • وقد يكون هذا الحب حيننا بحثا كقوله عن لسان شوقى  
وهو بالأندلس ( وهى أبيات غير التى أرسلها شوقى اليه وقيل وقتئذ  
أن شوقى بعث بها الى حافظ ) :

يا ساكنى مصر انا لا نزال على عهد الوفاء وان غبنا مقيمينا  
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئا نبل به احشاء صادينا  
كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل الا عن أمانينا

وقد يكون هذا الحب تقريبا مرا لبنى وطنه على العقود عن الذود  
عن حقوق البلاد ، ولكنه تقريع فى قالب هزلى تتجلى فيه تلك النكتة  
المصرية اللطيفة التى تشف عن دقة الملاحظة وخفة الروح (١) • انظر

( ١ ) نذكر المناسبة أن المرحوم صبرى باشا نظم مقطوعات فكاهية  
كثيرة فى حوادث شخصية شتى منها ما نشر وعرف لوقته ومنها ما لا يعرفه  
الا القليلون وذهب أكثره فى عالم النسيان . فمن النوع الأول ما قاله فى  
« مصفوع » :

انا نسل الأولى رفعوا بناء يرى للنسر فوق ذراه بيت  
أريش يراعتى بمداد خبثى وأنى لاح لى هدف رميت  
وان أحد تعرض لى بسوء وقفت وراء صدغى واختفيت

الى قوله على أثر استقالة وزارة مصطفى فهمى عن لسان بعض أعضائها ،  
وقد نشرت هذه المقطوعات فى أهرام ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، قال عن  
لسان « مصطفى » بتوقيع بنتاؤور :

انى أستغفر الله لكم  
فل غربى ما أرى من نومكم  
بح صوتى داعيا مستنهضا  
لم أجد فيكم فتى ذا همة  
رحم الله وزيراً سامه  
آل مصر ليس فيكم من رجال  
ورضاكم بوجود الاحتلال  
صارخا حتى تولانى الكلال  
ان عدا الدهر عدا أوصال  
قومه ما ليس يرضى فاستقال

وقال عن لسان عبانى :

يا جنود البر والبحر اشهدوا  
ذى يدي قد مزقتها لقم  
ذاك جسمى رسم الدهر على  
اننى عفت تكاليف العلى  
رحم الله وزيراً عاملاً  
واسمعوا منى كليمات فصاح  
تجتنى من فوق أطراف الرماح  
كل عضو منه أهوال الكفاح  
بينكم والعيش فى ظل الصفاح  
ملئت فخراً يداه فاستراح

وقد يكون هذا الحب استنهاضاً لقومه وحثاً لهم على الاقتداء بمثل حى  
فى أمة من الأمم الحديثة الناهضة • مثل ذلك :

نشر شوقى فى « أهرام » ١٨ ديسمبر سنة ١٩٠٨ قصيدة فى الدستور  
العثمانى جاء فى ختامها :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب  
صبرت للحق حين النفس جازعة  
نلت الذى لم ينله بالقنا أحد  
ما بين آمالك اللائى ظفرت بها  
حيالك من يبعث الموتى ويحييها  
والله بالصبر عند الحق موصيها  
فاهتف لا نورها واحمد نيازيها  
وبين مصر معان أنت تدريها

كتبت الأهرام فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ ما نصه : « لما وصل  
أحد أعلام الشعر عندنا الى ختام قصيدة شوقى التى نشرناها يوم



الاحتفال بفتح مجلس المبعوثان جاشت قريحته وقال : لو أنصف شاعر  
الأمير لآتم قصيدته بعد قوله يخاطب مجلس المبعوثان :

ما بين آمالك اللائي ظفرت بها وبين مصر معان أنت تدرىها  
بما أقوله على لسانه ثم تناول القلم وقال ، ( الأبيات لصبرى ) :

يا مصر سيري على آثارهم وقفى تلك المواقف فى أسنى مجالىها  
لا يوءسنىك ما قالوا وما كتبوا بين البرية تضليلا وتمويها  
ان يمنعوا الناس من قول فما منعوا أن ينطق الحق بالشكوى ويديها  
الحق أكبر من أن تستبد به يد وان طال فى بطل تماديها  
ما ضيع الله ظلما أمة نهجت الى المفاخر نهجا وهو هاديها  
فقلدوا الأمة الكبرى وقد ركبت متن الفخار وكان الجد حاديها  
تماسكت وهى شتى فهى واحدة فى القصد حين رأت كثيرا أعاديها  
يا آية الفخر هلا تنزلين كما نزلت ثم على مصر وأهليها  
كيما نجر ذيولا منك جررها من قبلنا الترك فى أوطانهم تيهها  
يا عابدين لأنت اليوم مصدرها وفى ذراك باذن الله موحيها

وقد يكون هذا الحب حثا لقومه على الاقتداء بأمة من الأمم الكبيرة  
فى الأعصر الغابرة ، وهل هناك مثل أقرب إلينا من أمة الفراعنة التى  
يخاطبها فرعون بقوله :

لا القوم قومى ولا الأعوان اعوانى اذا ونى يوم تحصيل العلاوانى  
ولست ان لم تؤيدنى فراعنة منكم بفرعون على العرش والشان  
ولست جبار ذا الوادى اذا سلمت جباله تلك من غارات أعوانى  
لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا فمأوه العذب لم يخلق لكسلان

ولهذه القصيدة تاريخ لا يعرفه الا القليلون ، ويجدر بنا أن  
نذكره فان خطر الموضوع لا يخفى على أحد . كان الأستاذ خليل  
مطران بعث بقصيدة دالية الى محمد بك مسعود بالمؤيد من سقاره  
على أثر زيارته لأهرامها ، جاء فى هذه القصيدة عن فرعون :

شاد فاعلى وبنى فوطدا      لا للعلى ولا له بل للعددا  
مستعبدا أمته فى يومه      مستعبدا بنيه للعداى غدا

وجاء فيها عن العمال المصريين الذين بنوا الأهرام :

انى أرى عد الرمال ههنا      خلائقا تكثر ان تعددا  
مجتمعين أبحرا منفرعين أنه      را منحدرين صعدا  
صفر الوجوه ناديا جباههم      كالكلأ اليابس يعلوه الندى  
اكل هذى الأتفس الهلكى غدا      تبنى لفان جدثا مخلدا

اطلع صبرى على هذه القصيدة التى تؤيد نظرية تخالف نظريته فنظم نونيته قائلا أن هذه البنايات لم تتم الا على يد عمال كانوا يطلبون الاتفاق الفنى اكراما للفن لا خوفا ولا طمعا . والحقيقة أن صبرى راعى فى نظريته ما يسمونه « بالوجهة التاريخية الوطنية » ، أما مطران فقد نظر الى الوجهة العلمية التى يؤيدها التاريخ فان بناء الأهرام كان سخرة أرهقت الملايين من المصريين وأثارت السخط فى البلاد مدة قرنين ، وقد نظر أيضا الى الوجهة الاجتماعية القديمة فان الظلم من شأنه افساد الأخلاق التى لا تحيا الأمم بدونها . وربما كان التاريخ لا يؤيد مطران على طول الخط .

على أن شوقى وفق بين النظريتين بطريقة شعرية فلسفية فى قوله :

ولمن هياكل قد علا البانى بها      بين الثريا والثرى تتسق  
هى من بناء الظلم الا أنه      يبيض وجه الظلم منه ويشرق  
لم يرهق الأمم الملوك بمثلها      فخرا لهم يبقى وذكرى يعبق

وقد نظم خليل مطران ردا على قصيدة صبرى نونية أخرى لم يسبق نشرها ، وكان ذلك على أثر مشاهدته بعض الآثار ورؤية تمثال محفوظ لرئيس الثانى فى الأقصر . وفى هذه القصيدة عاد مطران الى نظريته الأولى لأنه يرى أن المجد لا يمس وأن عظمة مصر باقية سواء أكان أصل البنيان الظلم أم غيره وأن الفراعنة نهضوا بمصر وان كان اعتقاد الشاعر أن ضررهم كان أكبر من نفعهم فى جانب شخصية الأمة وتكوينها الحر ، قال مطران :



موت وأكبر به حيا الى الآن  
ما جال في ظن فان أنه فان  
بها مبالغه من رفعة الشأن  
ما تم من فضل اثناء وعمران  
يعلو فتعلو به والخفض للشانى  
اله جند تحاييه وكهان  
تشقى وتهواه فى سر وعلان  
لا صبر عقل ولكن صبر ايمان  
يلوح منه لها معبودها الجان  
وقبلت دمها فى المرمر القانى  
من شوس حرب وصناع واعوان  
من مهد عصمتها فى مضجع الزانى  
ولم يؤب غيره الا بحرمان  
فى مشتري سيد أرواح عبدان

\*\*\*

وذل من قبل الضيزى باذعان  
قد اسعفوه بأموال وفتيان  
فخولوه مدينا حق ديان  
رسومهم منذ باتوا رهن اكفان  
شعثا منكرا فى رسم كتمان  
يعلو بأخلاقها تيار طغيان  
من بارد العيش فى افياء فينان  
ينجو الاذلاء من خسف وخسران  
من خفض عيش الى هيجاء ميدان  
فقد يكون به نفع لأوطان  
تفنى جموع مفاداة لأحدان

أكبر برمسيس ميتا لا يلم به  
لولا تماثيله الأخرى محطمة  
فى مصر عز فراعين فما بلغوا  
ولم يتم لها فى غير مدته  
تخير الخطبة المثلى له ولها  
ما زال بالقوم حتى صار بينهم  
ورب سائمة بلهاء هائمة  
يسومها كل خسف وهى صابرة  
ان بات فى حجب باءت الى نصب  
فجلت تحت تاج الملك مدميها  
مخلدا دون من قاموا برفعته  
مخالسا ذمة العلياء مضطجعا  
بحيث آب وكل الفخر حصته  
كم راح جمع فدى فرد وكم بذلت

كلا وعزته فيما طغى وبغى  
هم الذين على عسر بمطلبه  
وهم على سفه دانوا بمن نصبوا  
فيهم الألى صنعوا انصابه درست  
وما لاسمائهم دون اسمه دفنت  
ليت البلاد التى أخلاقها رسبت  
النار أسوغ وردا فى مجال على  
أكرم بذى مطمع فى جنب مطمعه  
يهب فيهم كاعصار فينقلهم  
بعض الطغاة اذا جلت اساءته  
فى كل مفخرة تسمو الشعوب بها

كم في سنى الكوكب الوهاج مهلكة  
لم ترق في حقبة مصر كما رقيت  
لما رمت كل نائي الشوط ممتنع  
الا ترى في بقايا الصرح كيف مضوا  
وكيف عادوا ورمسيس مقدمهم  
الى الربوع بأوساق وغلمان

كلا الشاعرين في قصيدته يستنبط عبر التاريخ وينظمها درسا  
نافعا لأمته ، وكلاهما يجيب داعى الوطنية وينتصر للحق والعدل وان  
اختلفت وجهتا نظرهما ، وهما متفقان في جوهر الموضوع ، في  
الاشادة بذكر عظمة مصر العابرة ، وعظمة الفراعنة ، وتنبية الخلف  
الى مجد السلف .

\* \* \*

قلنا ان صبرى انفرد بالشعر الغنائى بين معاصريه ونزيد الى ذلك  
أن الفضل الأكبر في ارتقائه الى هذا المنصب العالى في الأدب يرجع الى  
مقاطيعه التى حلق بها في أعلى سماء ، وتمتاز هذه المقاطيع بالروح التى  
تشف عنها ، لا بالمعانى الغريبة أو الجديدة التى لا يفهم بعض الناس  
الشعر بدونها ، تمتاز بتصوير العاطفة والوجدان تصويرا صادقا لا يشوبه  
تعمل ، تصويرا يخاطب القلب قبل العقل ويرد الشعر الى نبعه الصافى  
الأول ، وهل كان الشعر الا شعورا ؟ وهل كانت تقاطيع الأعاريض  
الا غناء .

وقد قال صبرى الشعر فتغنى به الناس ، وكانت أذنه كما قال حافظ  
« تحس نبو الوتر » فأرضى بذلك ذوقه ، وأرضى سجيته ، وأرضى  
الشعر ، وسيبقى شعره خالدا ما بقى في مصر قلب يخفق وشعب  
يسمو الى العلياء .



## الفصل الرابع

### مختارات

#### فرعون وقومه

«لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني  
ولست ان لم تؤيدني فراعنة  
لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا  
ردوا المجرة كدا دون مورده  
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم  
أمرتكم فأطيعوا أمر ربكم  
فالملك أمر وطاعات تسابقه  
لا تتركوا مستحيلا في استحالته

إذا وني يوم تحصيل العلا واني  
منكم بفرعون على العرش والشان  
فماؤه العذب لم يخلق لكسلان  
أو فاطلبوا غيره ريا لظمان  
لا تتركوا بعدكم فخرا لانسان  
لا يثن مستمعا عن طاعة ثاني  
جنبنا لجنب الى غايات احسان  
حتى يميظ لكم عن وجه امكان»

\*\*\*

مقالة قد هوت من عرش قائلها  
مادت لها الأرض من دعر ودان لها  
لو غير فرعون ألقاها على ملاء  
لكن فرعون ان نادى بها جبلا  
وآزرتة جماهير تسيل بها  
يننون ما تقف الأجيال حائرة  
من كل ما لم يلد فكر ولا فتحت  
ويشبهون اذا طاروا الى عمل  
برا بنى الأمر لا خوفا ولا طمعا

على مناكب أبطال وشجعان  
ما في المقطم من صخر وصوان  
في غير مصر لعدت حلم يقظان  
لبت حجارته في قبضة البان  
بطاح واد بماضى القوم ملاك  
أمامه بين اعجاب واذعان  
على نظائره في الكون عينان  
جنا تطير بأمر من سليمان  
لكنهم خلقوا طلاب اتقان

من الصخور بروجاً فوق كيوان  
بما يضعض من صرح وايوان  
ما يأخذ النمل من أركان ثهلان  
صرعى - بناء شياطين لشیطان  
تسعى اشتياقا الى ما خلد الفانى  
وغض بنيانها من كل بنيان  
يثنى على القوم فى سر وعلان  
بأنهم أهل سبق أهل امعان  
وقوم فرعون فى الاقدام كفآن  
فى هیکل قامت الأخرى ببرهان  
أمامها صحف من عالم ثانى  
فصيحة الرمز دارت حول جدران  
صدى يروع صم الانس والجان

أهرامهم تلك حى الفن متخذا  
قد مر دهر عليها وهى ساخرة  
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى  
كأنها - والعوادى فى جوانبها  
جاءت اليها وفود الأرض قاطبة  
فصغرت كل موجود ضخامتها  
وعاد منكر فضل القوم معترفا  
تلك الهياكل فى الأمصار شاهدة  
وان فرعون فى حول ومقدرة  
إذا أقام عليهم شاهدا حجر  
كأنما هى والأقوام خاشعة  
تستقبل العين فى أثنائها صور  
لو أنها أعطيت صوتا لكان له

\*\*\*

وصغروا كل ذى ملك وسلطان  
وأدرجوا طى أخبار وأكفان  
فى الكون ما بين أحجار وأزمان  
عليهم العلم ذاك الجاهل الجانى  
جلال أكرم آثار وأعيان  
إذا هما وزنا يوما بميزان

أين الألى سجلوا فى الصخرة سيرتهم  
بادوا وبادت على آثارهم دول  
وخلفوا بعدهم حربا مخلدة  
وزحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا  
ويل له هتك الأستار مقتحما  
للجهل أرجح منه فى جهالته

وقال يرثى صديقه المرحوم أمين فكرى باشا :

أبعد أمين أخ يصحب  
فأى وداد امرىء أخطب

وهبتك يا دهر من تطلب  
طويت المودة فى شخصه



وأى شمائله أنذب  
فبيني وبينك ما يوجب  
من القلب أو أنت لى أقرب  
وهذا لذا ابن وهذا أب  
ين نديمي جذيمة لا يكذب  
فكان الذى لم أكن أحسب  
ب يموت الفتى الطاهر الطيب  
وتردى الفضيلة أو تعطب  
وعتبي على فعله أعجب  
لكل امرىء أجل يكتب  
ت وكل الى حتفه يسرب  
ب ويدلف بالعلة الأشيب  
ر وأهل الغنى بالغنى أتعب  
ويحرج بالعالم المذهب  
ة فأى موارد الأعداب  
ب وتدرى يد الموت من تضرب  
ن وتاه به الشرق والمغرب  
وأعطى الفضائل ما تطلب  
وتم له فى العلى مأرب  
به أمل مقبل نرقب  
وذكراه فى البال لا تعزب  
لقد زارها الملك الأطيب  
لك حلومع الخلد مستعذب  
لدى منزل برقه خلب  
وقلب الصديق به قلب  
م ولكن هجرانه أصعب

وأى بديل له أرتضى  
أمين اتد فى النوى وارغنى  
أتذكر اذ أنت منى النياط  
واذ نحن هذا لهذا أخ  
ومن قال عنا من الناظر  
حسبت بأنك لى خالد  
أفى ذا الشباب وهذا الاها  
ويودى الذكاء ويقضى الوفاء  
عجيب من الموت أفعاله  
بذا حكم الله فى خلقه  
وجدت الحياة طريق المما  
ويعثر فيه الفتى بالشبا  
ويتعب بالزاد فيه الفقيه  
ويشقى أخو الجهل فى جهله  
موارد مشروعة للحيا  
أتعلم عين الردى من تصي  
أما تكامل نور الأمي  
وأوفى المكارم ما أملت  
ودان له أمل فى الحياة  
طواه الردى علما فانطوى  
فيا نائيا والهوى ما نأى  
هنيئا لدار تيممتها  
وجاورها كوثر من خلا  
تنعمت فيها وخلفتنى  
وداد الصديق به حول  
وصعب على الحرّ فيه المقام

ويا تربة حل فيها الأمين  
حسبت على رحمت الرحيم  
ولا زالت السحب منهلة  
وروتك منى دموع تسيل  
لأنت الفراديس أو أخصب  
وجادك رضوانه الصيب  
وأنت لأذيالها تسحب  
تخامرها مهج تسكب

### الساعة

كم ساعة آلمنى مسها  
فتشت فيها جاهدا لم أجد  
وكم سقتنى المرّ أخت لها  
فأسلمتتى هذه عنوة  
ويحك يا مسكين هل تشتكى  
حاذر من الساعات ويل لمن  
وان تجد من بينها ساعة  
فاله بها لهو الحكيم الذى  
وامرح كما يمرح ذو نشوة  
فهى وان بشت وان داعبت  
عناقها خنق وتقبيلها  
هذا هو العيش فقل للذى  
ياشاكى الساعات أسمع عسى

وأزعجتنى يدها القاسيه  
هنيهة واحدة صافيه  
فرحت أشكوها الى التاليه  
لساعة أخرى وبى مايبه  
جارحة الظفر الى ضاريه  
يأمن تلك الفئة الطاغيه  
جعلتها من غصص خاليه  
لم ينسه حاضره ماضيه  
فى قلة من تحتها الهاويه  
محتالة ختالة عاديه  
كما تعض الحية الباغيه  
تجرحه الساعة والثانيه  
تنجيك منها الساعة القاضيه

### الدواة

يا دواة اجعلى مدادك وردا  
وليكن كالزمان حالا وحالا  
أكرمى العلم وامنحى خادميه  
وابذلى الصافى المظهر منه  
واذا الظلم والظلام استعانا

لوفود الأقلام حينا فحينا  
تارة آسنا وأخرى معينا  
ماءك الغالى النفيس الثمينا  
لهداة السرائر المرشديننا  
يوم نحس بأجهل الجاهليننا



فاجعليه من قسمه الظالمينا  
غضب القاهر المذل كميننا  
نبذ الحق وارتضى المين دينا  
كونت من خبائة تكويننا  
في السياسات حرمة الأضعفينا  
ر جلاميد ترجم السامعينا  
طيت فيه المئين ثم المئيننا  
يصف الداء دأبا مستعينا  
واستطبيى معونة المحسنينا  
نقطة سرها الزكى المصونا  
وهيها رسائل الشيقينا  
ما أعد الاخلاص للمخلصينا  
شرح حالى لسيد المرسلينا

واستمدا من الشرور مدادا  
واقذفى النقطة التى بات فيها  
ليراع امرىء اذا خط سطرنا  
واذا كان فيك نقطة سوء  
فاجعليها قسط الذين استباحوا  
واذا خفت أن يكون من الصخ  
فابخلى بالمداد بخلا وان أء  
فاذا أعوز المداد طبيبا  
فامنحيه المراد منا وعرفنا  
واذا مهجة الحمائم أسدت  
فاجعليها على المودات وقفا  
فاذا لم يكن بقلبك الا  
فاجعليه حظى لأكتب منه

### الفرع الأكبر

ذاك أم حاول المسلم أمرا  
أمم في مفاوز الجهل حيرى  
مد يواتى يوما ويخذل دهرا  
غارة في البلاد من بعد أخرى  
والتدلى بصاعد الجد مغرى  
وتولى السرائر الدين عصرا  
وعقاب يمسى يطارد صقرا  
وهضب كبرى تناطح صغرى  
منك أقوى نابا وأتقذ ظفرا  
لم تنم من روابض الغيل أضرى  
أين من يفتح الكتاب ويقرا

عمر ك الله هل سلام وداد  
عميت عن طريقها أم تعامت  
غرها سعدها ومن عادة السع  
فتجنت على الشعوب وشنت  
نسيت في الصعود يوم التدلى  
تعب الفيلسوف في الناس عصرا  
والورى طارد ازاء طريد  
وجيوش يفل من بعضها البعض  
حاذرى يا ذئاب صولة أسد  
لا تنامى يا أسد ان ذئابا  
عبر كلها الليالى ولكن

أنت نعم النذير يا نجم « هالى »  
ظن قوم فيك الظنون وقالوا  
ان يكن فى يمينك الموت فاخذو  
هل تلقيت من لدن خاذل البا  
أمحيط بكل شىء ومرد  
أغدا تستوى الأنوف فلا ينظر  
أغدا كلنا تراب ولا مل  
أغدا يصبح الصراع عناقا  
ان يكن كل ما يقولون فاصدع

زلزل السهل والرواسى ذعرا  
آية أرسلت الى الأرض كبرى  
ه شواظا على الخلائق طرا  
غى وحامى الضعيف يا نجم سرا  
كل حى وتارك السهل وعرا  
قوم قوما على الأرض شزرا  
ك خلاف التراب برا وبحرا  
فى الهيولى ويصبح العبد حرا  
بالذى قد أمرت حيت عشرا

وقال يهنىء المرحوم السلطان  
السلطنة المصرية :

اليوم آن لشاكر أن يجهر  
ان الامارة لم تزل فى أهلها  
والتاج مقصور عليهم ينتقى  
والعرش ان أخلاه منهم ماجد  
أحسين حبك فى القلوب محقق  
فاحرص عليه فهو ملك آخر  
والملك آل اليك يحذو خطوة  
لم يعد فى ما فات بابك ناسيا  
عزى عن العباس أنك عمه  
وأزال لوعة كل قلب بعده  
يا ناظر الماضى وشاكر عهده  
هذى الحقائق باهرات فاتتبه  
هذا ابن اسماعيل نجم طالع  
الملك من يمناه فى يد حازم  
والنيل لم يبرح على العهد الذى

بالشكر مرتفع العقيرة فى الورى  
شما عالية القواعد والذرى  
منهم كيرا للعلاء فأكبرا  
ذكر الأماجد بينهم وتخيرا  
قد أظهر الاخلاص منه المضمر  
ان شئت ملكا جنب ملك أنضرا  
شوقا اليك وان أتى متأخرا  
بل وانيا حتى يشب ويكبرا  
وأجل من ساس الأمور ودبرا  
ان الدواء لما به بك قدرا  
والحال بين يديه أجمل منظرا  
لا يلهينك طيف ماض فى الكرى  
لهداية السارى فحى على السرى  
ان أورد الأقوام وردا أصدرا  
أخذته قبل عليه ناضرة القرى



متهاديا بين البقاع مناجيا  
والشرع بين الناس ناه آمر  
والبيت بيت محمد قد شاده  
والعم أكبر حكمة ودراية  
حال اذا نظر الأديب جمالها  
أرجاءها بالخصب يكتنف الثرى  
ما زال حكم الله فيه موقرا  
لبنيه لم يستثن منهم معشرا  
بالأمر لو أن المكابر فكرا  
شكر الاله وحقه أن يشكرا

### الشعر الارتجالي

أبى الجهل الا أن يهز أريكة  
فما هز الا كل قلب مروع  
يكاد اذ الأنباء رابته مرة  
ومن كاد للعباس كيدا فانما  
ومن يسع في مصباح نور لأمة  
تقيها يد الله أن تتزعزعا  
يجاور قلبا في الربوع مروعا  
يسيل بوادي النيل كالنيل أدمعا  
يكيد الى مصر وأجابها معا  
ير الله حول النور والناس أجمعا

\*\*\*

قصيدة وجهها الى سمو الخديوى عباس يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨  
مهنتا اياه بالعيد وشاكرنا له نعمة العفو عن المسجونين فى دنشواى ،  
وقد جاراه شوقى بقصيدة مطلعها :

أما العتاب فبالأحبة أخلق  
وجاراه حافظ بقصيدة مطلعها :

سكن الظلام وبات قلبك يخفق  
وسطا على جنبيك هم مقلق

ونشرت مجلة « فتاة الشرق » فى ذلك العهد فصلا لأحد الأدباء  
وازن فيه بين القصائد الثلاث • وهذه قصيدة صبرى :

لو أن أطلال المنازل تنطق  
هل عند ذلك السرب أنا بعده  
ما ارتد حران الجوانح شيق  
فى الحى من آماقنا تتدفق

أو أن أضلنا على ما استودعت  
أمنازل الأقمار أهلك أسرفوا  
لو أنهم قد أنصفوك منازل  
يوم الفراق من الجوى تتحرق  
في النأي اسراف الغنى وأغرقوا  
ما حازهم في الكون بعدك مشرق

★ ★ ★

عيد الفداء الا سعدت بسدة  
هلا رأيت بعابدين مع الملا  
وجمعت من تلك الشمائل طاقة  
ورجعت من نور الأمير مزودا  
أمسى يحيط بها الجلال ويحدق  
ملكا خلأثقه تضرع وتعبق  
تزدان أياما بها وتخلق  
حتى تعود وأنت زاه مشرق

★ ★ ★

أحرزت يا عباس كل فضيلة  
من ذا يجارى أخصيك الى مدى  
ان يرتجل عرف فأنت الى الذي  
سدد سهام الرأي بالشورى يحط  
واسبق به واضرب به وافتح به  
عوذت محددك أن تنام وفي الحمى  
ولرب محل في النهى متحكم  
أرسلت فيه نظرة ضمن الحجى  
وأخذت رأى أولى النهى مستوثقا  
حتى اهتديت الى الصواب ولم يزل  
وأهبت فابتكر النضار سحائبها  
ان أمرت تلك الموات وأورقت

★ ★ ★

وأقلت عشرة قرية حكم الهوى  
ان أن فيها بائس مما به  
في أهلها وقضى قضاء أخرق  
وأرن جاوبه هناك مطوق



وارحمنا لجنانهم ماذا جنوا  
 ما زال يقذى كل عين ما رأوا  
 حتى حكمت فجاء حكمك آية  
 نزلت ترفرف حول كاتب نصها  
 شكرتك مصر على سلامة بعضها  
 ذكرت لك الصفح الجميل ولم تنزل  
 قانون دنشاواى ذاك صحيفة  
 هل يرتجى صفو ويهدأ خاطر  
 ومضاجع القوم النيام أو اهل  
 لن تبلغ الجرحى شفاء كاملا  
 فاحكم بغير العنف واكسر سيفه  
 وقضاتهم ما عاقهم أن يتقوا  
 فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا  
 للناس طى صحيفة تتألق  
 زمرا ملائكة الرضى وتحلق  
 شكرا يغرب فى الورى ويشرق  
 ترمى الى أمر أجل وترمق  
 تتلى فترتاع القلوب وتخفق  
 والموت حول نصوصها يتفرق  
 بمعذب يردى وآخر يرهق  
 ما دام جارحها المهند يبرق  
 فالحلم أجمل والمكارم أليق

\*\*\*

لك مصر ماضيها وحاضرها معا  
 والله عونك ان ركبت الى العلا  
 والأمر أمرك لا يشاب بريبة  
 ولك الغد المتحتم المتحقق  
 طرقا تضل بها الهداة وتفرق  
 والحكم حكمك والاله مصدق

### ياليل الصب

نشرت مجلة « الزهور » أبياتا ارتجلها أمير الشعر شوقي يعارض  
 فيها الأبيات المشهورة التى مطلعها :

ياليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

وهى لأبى الحسن الحصرى الضرير المولود فى القيروان والمتوفى  
 فى الأندلس سنة ٤٨٨ هجرية . فقال المرحوم صبرى باشا من الوزن  
 والروى ، وهى أبيات نظمت للغناء :

أقريب من دنف غده فالليل تمرد أسوده  
 والتفت تحت عجاجته بيض فى الحى تؤيده

حرب عندي لمسرهما  
هل من راق لصريع هوى  
حمام يساوره كمد  
والام يصارعه ألم  
في القصر غزال تكبره  
صفت كفى منه ومضى  
كم صغت التبر له شركا  
وأشاور شوقى بل أدبى  
مولاي أعيدك من ضرم  
أدرك بحياتك من رمقى  
قد بان الحب لذى عينين  
«شوقى» جود فى الشعروقل

شوق ما زلت أردده  
هل من آس يتعهده  
يبلى الأحشاء تجدده  
ان هم يقوم ويقعده  
غزلان الرمل وتحسده  
وقد امتلأت منى يده  
وقضيت الليل أنضده  
هل أقصر أم أتصيده  
لا يرحم قلبا موقده  
ما بات هواك يهدده  
وهذا الشوق يؤكده  
آمنت بأنك أوحده

\*\*\*

وقال يرثى اسماعيل بك ماهر القاضى بالمحكمة المختلطة بالاسكندرية  
الذى توفى فى صيف سنة ١٩١٠ وكان رفيق صبرى فى المدرسة  
وعشير صباح:

أماهر كنت فيما مر أنسى  
برغى أن تقلص منك ظل  
وان نضبت خلال كنت منها  
وان صفت يمينى من وداد  
أخى ما حيلتى الا سلام

فمن لى فى الليالى الباقيات  
وقانى حقة لفح الحياة  
أعب لديك فى عذب فرات  
غنيت به ليالى خاليان  
يزورك فى المساء وفى الغداة

\*\*\*

دمعة على بطرس غالى فى أبريل سنة ١٩١٠

لهف الرياسات على راحل  
لهف العلا قد عطلت من سنا

قد كان ملء العين والمسمع  
بدر هوى من أوجها الأرفع



تبكي المروءات على بطرس  
فتشت لما لم أجد مقلتي  
ف قيل لى قد سار فى اثره  
يا مجريا دمع الملا أبحرا  
يا نازلا بين وفود البلى  
عنى فىك اليوم قبطية  
يهيم من وجد ومن لوعة  
ويحفظ العهد كما شاء  
يا من سقانى الجم من وده  
يا حامل القلب الكبير الذى

ذاك الهمام الماجد الأروع  
كفؤا عن الفضل ليكى معى  
يوم دفناه ولم يرجع  
أدر كهمو يا مرقىء الأدمع  
آنستهم يا موحش الأربع  
تروى الأسى عن مسلم موجع  
فى الجانب الأيسر من أضلعى  
أحمد سمحا واسع المشرع  
هـذا ودادى كله فاكرع  
لم ينقض الميثاق قم واسمع

### حرب طرابلس

بعض هذا الجفاء والعدوان  
قد ملأت الفضاء غدرا وجهلا  
وبعثت السفين ترمى طرابلس  
تخرق البحر والمواثيق والعهد  
سيرتها أضغان قوم لقوم  
من رآها تجرى توهم أن القوم  
لا ورب الأسطول ما حمل الأ  
ان قوم الطليان أحرص من أن  
ليست الحرب للعدو الذى با  
انما الحرب للأولى حفظوا العهد  
وأباحوا أبوابهم حاتميات  
وانالوهمو حقوق بنبيهم  
ويجهم ما لصنعهم أبطر القو

راقبى الله أمة الطليان  
وتسنت غارب الطغيان  
بحرب مشبوبة النيران  
جهارا وذمة الجيران  
سلموا من دناءة الأضغان  
هبوا للشار للأوطان  
سطول جيشا الى حمى الحبشان  
يفضحوا مرتين فى ميدان  
ت عزيزا بالرجل والفرسان  
د فنامت جيرانهم فى أمان  
لمن أمهم من الضيفان  
فعل أهل المعروف باللهفان  
م فعقوا ما كان من احسان

ولماذا تمخض السلم عن حرب  
منح قد بذرن في شر أيد  
هكذا فلتك المروءات في عص  
لا يثق بعضنا ببعض وهذا  
ان تسلم على القريب فسلم  
ربما أصبح العناق صراعا

\*\*\*

وقال يرثي اسماعيل بك نجيب نجل صديقه المرحوم ابراهيم باشا  
نجيب :

الا يا تجار العصر هل فيكم امرؤ  
اذا دلنى منكم على مثله فتى  
ففى الحى قوم عاكفون على لظى  
يخالهم الرائي سكارى من الأسى  
لو ان قلوب الناس طوع ارادتى  
ولو طاوعتنى كل عين قريحة  
وعالجت ابراهيم مما أصابه  
مصابك اسماعيل زعزع شامخا  
وأودى بآمال كبار تصرمت  
على قبرك المطور منى تحية

يبيع على صرعى الهموم عزاء  
خلعت عليه ما يشاء جزاء  
تذبيهم البلوى صباح مساء  
فيكى عليهم رحمة ووفاء  
قلبت الأسى فى بعضهن هناء  
لما ذاب بعض الثاكليين بكاء  
وداهمه حتى ينال شفاء  
وضضع طودا راسيا وأساء  
برغم ذويك البائسين هباء  
فقد ضم غصنا ناضرا وفتاء

\*\*\*

الى الأمير عمر باشا طوسن بمناسبة اعانتة جرحى الحرب  
البلقانية :

لك الامارة والأقوام ما برحت  
لو لم ترثها لما ألفت أعنتها  
يا ابن الأولى لو أطلوا من مضاجعهم  
بكل عالى الذرى فى الكون تأتمر  
الا اليك خلال كلها غرر  
يوما عليك لقالو : ايه يا عمر



حتى توهم قوم أنهم نشروا  
إذا خطرت بأرض مرة خطرنا  
تثنى على أهلها الآصال والبكر  
ان يكشر الدهر عن احداثه كشرنا  
إذا رأوا ثلثة في حوضهم جبروا  
من أن تجود به ايمانكم حذر  
ما بينها الأهل والخلان والأسر  
منهم ومنك صنوف البر تنتظر  
حتى تعجبت الأنهار والغدر  
سحائب الفضل بشرهم فقد مطروا  
الا ابن دوحته ان قام يفتخر  
والأصل بالفرع ان حاكاه يذكر

أعدت أيامهم في مصر ثانية  
وسرت سيرتهم حتى كأنهم  
لله درك كم نبهت من همم  
وكم تعهدت جرحى من أسود وغى  
مستنجدا من بنى مصر الى شمم  
مستهيا هاميا والنيل في وجل  
حتى تفاهمت الأرواح وادكرت  
وآذن البر بالسقيا وما فتئت  
وحركت كل كف بالندى غدقت  
والناس ان قام يستسقى الكريم لهم  
يأبى علاء سعيد أن يشابهه  
ما زال يحمده رائيك مدكرا

### ذكرى الشباب

حسنا مرهفة القوام فنذكر  
أوفى على قدر الكفاية يسكر  
وتظل من حدق العيون وتنظر  
فاذا دنت من نحرها تستغفر  
حتى يسود كبيرهن الأصفر

تمسى تذكرنا الشباب وعهده  
هيفاء أسكرها الجمال وبعض ما  
تثب القلوب الى الرؤوس اذا بدت  
وتبيت تكفر بالنحور قلائد  
ويزيد في فمها اللاكى قيمة

### ساعة الوداع

ديع يا قلب في غد أم نصيرى  
راضيا عن مكانك المهجور  
للمحبين من عذاب السعير  
غدا في صحيفة المقدور

أترى ، أنت خاذلى ساعة التو  
ويك ، قل لى متى أراك بجنبى  
ساعة البين قطعة أنت قدت  
لا تحينى روى الفداء لما حيك

## عبد بلا ثمن

يا من أقام فؤادى اذ تملكه      ما بين نارين من شوق ومن شجن  
تفديك أعين قوم حولك ازدحمت      عطشى الى نهلة من وجهك الحسن  
جردت كل مليح من ملاحظته      لم تتق الله في ظبي ولا غصن  
فاستبق للبدر بين الشهب رتبته      تملكه في أوجه عبدا بلا ثمن

\*\*\*

وقال رحمه الله حين بعث شوقى بك الى الكاتب الكبير الأستاذ  
داود بركات رئيس تحرير الأهرام بيتين وطلب اليه عرضهما على الفقيه  
ليدى رأيه فيهما ، فلما عرضهما عليه جادت قريحته بثلاثة أبيات  
في معنى بيتى شوقى بك ثم بتحية منه •

## بيتا شوقى بك

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا      بعد الهدوء ويرمى عن ماقينا  
ترقرق الماء فى دمع السماء دما      غاض الأسى فحضبنا الأرض باكينا

\*\*\*

## جواب صبرى باشا

يا وامض البرق كم نبهت من شجن      فى أضلع ذهلت عن دائها حينا  
فالماء فى مقل والنار فى مهج      قد حار بينهما أمر المحينا  
لولا تذكر أيام لنا سلفت      ما بات ييكى دما فى الحى باكينا  
يا آل ودى عودوا لا عدمتكم      وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا  
يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا      أزهار أندلس هبى بوادينا

## بين صبرى والشريف الرضى

سمع صبرى بيتى الشريف الرضى وهما :

أرى بعد ورد الماء فى القلب غلة      اليك على أنى من الماء نافع  
وانى لأقوى ما أكون طماعة      اذا كذبت فيك المنى والمطامع



فقال رحمه الله مجاراة له :

يا موردا كنت أغنى ما أكون به  
عندي لمائك والأقداح طوع يدي

وقال في الذكرى :

اقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة  
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنا  
هلا أخذت لهذا اليوم أهفته  
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما  
ولا بشافعة في رد ما كانا  
حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا  
من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا  
في الوصل نارا وفي الهجران نيرانا

وكتب على صورة أنور بن سليم سر كيس :

هذا شبابك يا سليم تزينه  
حاكاك أنور مثلما حاكيته  
أنت الذي علمته نقل الخطى  
تلك الخلال الغر والأخلاق  
فيما مضى فتبارك الخلاق  
وأريته أن الحياة سباق

## الكتاب الثالث

تاريخ الحركة الاستقلالية في إيطاليا





## مقدمة

رسالة من نابغة الأدب الأستاذ خليل بك مطران

ناط بى الأستاذ محمد صبرى فخر تقديم محاضراته الشائقة التى أسماها بموضوعها وهو « تاريخ الحركة الاستقلالية فى إيطاليا » للذين سيطالعونها مجموعة بين دفتى هذا الكتاب ، وهى تلك المحاضرة التى ألقاها على قسمين فى الجامعة المصرية فى يوم ١٠ و ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ ونشرتها على الأثر جريدة الاستقلال الغراء . فتلقيت دعوته بالاجابة عن رضى ، وليست الاجابة عن رضى شأنى فى كثير من مثل هذا التكليف لكننى كنت قد طالعت المحاضرة وان فاتنى التمتع بسماعها فأعجبت بها ولهذا لم أخش سأما ولا تعباً من كتابة المقدمة .

الأستاذ صبرى - ويعرفه الجمهور المصرى حق المعرفة - خريج السربون أكبر معهد علمى أدبى فى فرنسا بل فى أوروبا ، وهو أيضا صاحب كتاب « الثورة المصرية » الذى صدر فى مجلدين بالفرنساوية وهذا السفر قد أتاحت لى مطالعته فوجدت فيه مصداق الأماديح المتنوعة التى تلقته بها جرائد فرنسوية متعددة وأدباء فرنساويون من علية القوم وجلة ذوى المكانة فى عالم البيان والتفكير ، على أن فيه داعين آخرين للثناء على المؤلف : ذلك أن الأستاذ ، بتبيينه للأجانب حقائق ما جرى فى تلك الأيام العظيمة بمصر قد خدم أمته فى وقت من أوقاتها خدمة لا تقوم بضمن ، وانه بقوة وطنيته المتدفقة فى كل نقطة وفى كل جملة من سفره تدفق السيل بباعث لا يواقفه شىء يعترض طريقه هو الاخلاص ، كان قدوة ونعمت القدوة لمن فهم من فتیان قومه بكل جوارحه أن لا أمة عزيزة بلا وطن عزيز .



على أنه ليس هنا مكان التقريظ للأستاذ صبرى بأكثر من الامناع  
الى ماله من المنزلة التي كسبها بوسع عرفانه وصدق وطنيته معا ، وانما  
أحب قبل الشروع فى الكلام على محاضراته ، التي أجده حين يجررها مؤرخا  
مدققا صافى الذهن شامل النظر للحوادث عجيب الفطنة للمتأملات منها  
جوهرها وان تخالفت عرضا ، أن أعيد على ذهن من يقرأ هذه السطور شيئا  
من نقثات قلمه أديبا محض أديب .

وهناك آية أخرى من آيات الذكاء المخدوم بالتحصيل المتدارك  
بالتهذيب ، قال من مقال سبق نشره فى الأهرام الغراء سنة ١٩١٣ تحت  
عنوان « دقائق الساعة » ما يعنى تصفحه عن التعرض لوصفه وقد ينقص  
الوصف أبلغ ما يكون أشياء من معانى الموصوف قال :

« تنصف الليل ومر بعد وهنه ساعتان كما خبرتنا ( ناعية الزمن )  
فتذكرت قول مدرس العربية منذ ستة أعوام ترجمت وترادفت ترادف  
الموج فى محيط السنين والأيام أن من أقسام المفعول المطلق ما يكون بيانا  
لعدده نحو دقت الساعة دقتين .

« أجل ، كرر الأستاذ مرارا هذا المثل فما كنت لأهتم له وكم دقت  
الساعة فى ذلك الأمس الدابر فكان وقع دقائقها فى أذنى كتغريدة الطائر  
ورنات العيدان حين كنت أرتع فى خمائل الشباب النضر وما الشباب  
عندى الا زمن الجهل والغفلة يوم لم ندخل بعد ميدان الكفاح ولم ندق  
صاب الحياة ولا علقمها .

« وانى لأتمثل الدهر يومئذ وهو كالصبي الغشوم يتعلم الرماية  
وأنا كالدائرة التى مركزها الغرض وما الغرض الا القلب وسهامه دقائق  
الساعة يرسلها فتطيش وتحلورنة القوس وهى تطلقها .

« أما وقد تبدلت الأيام وجرت جوار بالنحس بعد السعد وشبنا  
من هول الزمان وصار فتانا كهلا من طوارق الحدثان وجاء زمن اليقظة  
فليخفق القلب فان كل ساعة تمر ترسل اليه سهما من جعبة الآلام لا يشد

عن الرمية حتى اذا تبينت الخيط الأبيض من الخيط الأسود ودرج الليل في أكفان الصباح أحسست بأن في فؤادي اثني عشر سهما فوهبت الى نسمات الصبح زفراتي والى نداء عبراتي « الخ •

هذا مثال من بيانه الشائق فلنجل الآن الطرف قليلا في المحاضرة • أوجز الأستاذ صبرى تاريخ الحركة الاستقلالية الايطالية ايجازا قضيت له عجا لأنه أول ما شاهدته من نوعه بلساننا العربى الشريف • من المتصددين للكتابة فيمن عرفت مجرم بلا عمد يقتل الموضوع بتلخيصه اياه ومنهم نصف بصير يبقى من الموضوع رمقا في جزء أو أجزاء مما اتفق له تصوره حق تصوره • أولئك اتخذوا من التلخيص مطية لاركاب جهلهم أمام الجمهور مركبا علميا • وما لمثل هذه المهانة خلق التلخيص الذى هو كنه الأمر ولباب البلاغة • انما التلخيص أو الايجاز أو التحصيل عمل القادرين المحيطين بالشيء يقتلونه علما لا جهلا ويدركون كلياته وجزئياته وينظرون على هدى أيا كان الجانب الذى ينظرون اليه منه فاذا وسع ذهنهم غرضا بكل مشتملاته واعتقدوا الفائدة في تحصيله لحسن تمثيله صوروه لك من عال فوجد المطالع فيه كل شيء ولكن مصغرا ولم يفقد الباحث عن جوهره شيئا مهما قل من ذلك الجوهر وأخذ منه كل على قدر قريحته وفهمه ، كذلك فعل صبرى في تحصيله للحركة الاستقلالية الايطالية ووفق ما شاء حسن الأداء تحصيليا • صاحب هذه المحاضرة انما وضعها خدمة لمصر فيما يفهم بالبداهة لأنه ليس ايطاليا ولا يعنيه أن يجعل أسماء أعلامها الأحرار وأبطالها الكبار في نظر المصريين يتغنون بها لغير ما طائل يحلى به سوى تمجيد قوم غرباء عنهم ولكن من كياسة صبرى أنه لم يمتن على أمتة بنيته هذه بل كد وجد ودارس وراجع وحرر كتابا قيما ممتعا مشوقا الى الاستقلال الصحيح مغريا بعظائم الأخطار مهونا على النفوس تحمل المشاق مهما طال بها الأمد دون الوصول الى الضالة المنشودة ، حرره ليأخذ منه كل مصرى بلا سأم من امتداد المطالعة ولا غرق في البحر الخضم من الأخبار التى لا تهمة كل ما ينفعه الامام به ويكون له مرشدا ومسعدا



في طريقه الى غايته الوطنية المصرية دون سواها وبهذا قد أحسن صبرى  
احسانا ثانيا .

حشر صبرى جلائل الحوادث في سلسلة متصلة محكمة الربطة ولكنه  
لم يفته التفصيل حيث للتفصيل قيمة الأمر الكلى بل رب جزئية فاقت أعظم  
الكليات ونزلت من عهد تاريخى بتمامه منزلة اللفظة الخاصة التى يهبط بها  
الالهام من عامة الكلام وههنا سأضرب مثلا بنقلى سيرة يجدر بها أن تقدم  
في سير الأبرار بأوطانهم ، قال يذكر واقعة جرت لشابين ايطالين كانا في  
البحرية النمسوية أوائل أيام الثورة في بلادهما وابان النهضة التى نهضها  
مازىنى بتلك البلاد :

« وقد حدث أنه في عام ١٨٤٣ وجد شابان ضابطان في البحرية  
النمسية من أعيان فينيسيا كانا متشبعين بتعاليم مازىنى وجمعيته وكانا  
يعتقدان أن ايطاليا بحاجة كبرى الى مثل عال من الشجاعة والتضحية  
فأليا على نفسها أن يعطيا ذلك المثل وأن يذهبا الى جبال الآبين الجنوبية  
لتنظيم حرب عصابات ضد القوة العاشمة .

« وعبثا حاول مازىنى أن يقنعهما بالعدول عن رأيهما ، وما عتما أن  
اتجها نحو الجنوب بعد أن أرسلا اليه خطتهما التفصيلية فأمكن الحكومة  
الانجليزية الوقوف عليها وابلغها سرا الى حكومة نابولى التى أخذت  
أهبتها .

« وما كاد الضابطان يضعان قدمهما على اليابسة حتى قبض عليهما  
وأعدما رميا بالرصاص وهما يهتقان « لتحى ايطاليا ! » ، وقد كان لهذا  
الهتاف صدى رددته ايطاليا فأصابها منه هزة كهزة الكهرباء لأنه مثل عال  
للتضحية والموت فداء الوطن » .

أما لغة المحاضرة فقد جعلت كما هى في السطور الآتفة سهلة قريبة  
التناول شفاقة الظواهر عن أبعد البواطن يتبين القارىء من خلالها المقاصد  
بلا اعمال روية ويتأثر بمؤثرات المحرر كأن احساسهما بالبداهة مشترك  
وتلك غاية في البلاغة وما البلاغة الا مطابقة الكلام لمقتضى المقام .

ذليل مطراه

مصر في ٢٢ يونيه سنة ١٩٢٢

# الباب الأول

## عصر النهضة والثورات

١٨١٥ - ١٨٤٨

ابتدأت الحركة الاستقلالية الكبرى في إيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر وبلغت غايتها في سنة ١٨٧٠ ، وهذه الغاية كانت تنحصر في تحقيق وحدة إيطاليا وطردها دولة النمسا المحتلة .

• أما الطرق فكانت ثلاثة : الثورة ، والحرب ، والسياسة .

والأسباب التي ساعدت على تحقيقها :

١ - انتشار مبادئ الثورة الفرنسية .

٢ - وجود ما يمكن تسميته بالوحدة الروحية التي هي مادة الشعور القومي : فاللغة واحدة ، والدين واحد ، والعوائد واحدة ، وذكرى الماضي العظيم الذي يحن إليه واحدة .

٣ - وجود ولاية كبيرة مستقلة تحكمها أسرة قديمة وطنية مستقلة هي ولاية سرديانية المكونة من : ييمون ، وسافواي ، ونيس ، وجزيرة سرديانية .

٤ - وجود زعماء كبار في ميدان الفكر وفي ميدان العمل .

في ميدان الفكر : دانت ، الفييري ، دازجليو ، روسيتي ، مانزونى ،

جيوبرتى .

في ميدان العمل : مازيني ، كافور ، جارييلدى ، فكتور عمانويل .

٥ - وجود محالفات أجنبية وأهمها محالفة نابليون الثالث .



ويمكن تقسيم الطريق الذي قطعتة الحركة الاستقلالية الايطالية الى مرحلتين :

الأولى منهما بين ١٨١٥ - ١٨٤٨ ، تغذت فيها الحركة بالنهضة الفكرية الشعرية الجديدة التي كانت تبعث ميت الأمل في ظلمة اليأس ، وبالحرركات الثورية في أنحاء ايطاليا المختلفة وما صحبها من سفك دم ، ونفى وسجن وتعذيب ، ولقد كان مازينى في هذا الطور الأول ، طور شباب الحركة ، الزعيم الأكبر الذي يشخص ويلخص الوجهة الفكرية الوجدانية الخيالية (Romantique) من الحركة والوجهة الثورية منها •

أما المرحلة الثانية بين ١٨٤٨ - ١٨٧٠ فقد تغذت فيها الحركة بالاصلاحات النافعة والحروب النظامية •

وقد كان كافور في هذا الطور الثانى ، طور كهولة الحركة ونضوجها ، الزعيم الأكبر والسائس المحنك الذى يقود الثورة العملية المنظمة التى تخدع أعين الرقباء وتتمشى خفية فى طريق الاصلاحات والتعمير ثم تخرج منه فجأة فى صورة حرب •

## الفصل الأول

### إيطاليا لغاية مؤتمر فيينا

كانت إيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر كألمانيا مقسمة الى ولايات تتجت من تفكك الامبراطورية الرومانية في القرون الوسطى ، وكان معظم الولايات في الشمال وفي الوسط في قبضة النمسا : لومبارديا ، وبارم ، ومودين ، وتوسكانه ، وكان للنمسا فوق ذلك حماية مستترة في بعض الولايات الأخرى . وكانت الحكومة الوطنية الوحيدة المستقلة في ذلك الوقت حكومة سرديانية وأهم أجزائها ييمون .

ييمون واقعة في الشمال الغربي من إيطاليا تحت سفح جبال الالب ، أهلها أشداء كسكان الجبال يحبون العيشة الخشنة بين ممارسة الحروب ، فهم جند مدربون ، وبين تعهد أشجار الكرم والتوت .

وكان عدد سكان مملكة سرديانية يربو على الثلاثة ملايين وعاصمتها تورينو من أجمل العواصم ، وكان الملك يختار حاشيته وكبار الوزراء والموظفين والضباط من الأشراف فكانوا طوع بنانه .

وكان الكهنة والقساوسة أصحاب الثروة الآمرين الناهين مع الأشراف في ييمون ، لهم اليد العليا على المدارس والتعليم ، ولهم محاكم خاصة مستقلة تفصل في كل الأمور المتعلقة بالزواج والمسائل الدينية ، وقد بلغ عددهم في ييمون وحدها ٢٠٠٠٠ قسيسا ، و ١٢٠٠٠ راهب وراهبة ، وكانت في إيطاليا حكومات أخرى مستقلة غير حكومة سرديانية ولكنها لم تكن حكومات قومية ، مثل ذلك :

حكومة البابا في الولايات المسماة « ولايات الكنيسة » وهي مارش ، والرومانية ، والابروز في شرقي وسط إيطاليا ومركزها روما ، وكان



البابا رئيسا دينيا عاما للكاثوليك الطليان والنمساويين والفرنسيين وغيرهم على السواء فكان يتأثر بارادة حكوماتهم جميعا ، ولت الأمر وقف عند هذا الحد فانه لم يكتف بالسلطة الروحية بل وضع يده على السلطة المدنية وجعل الحكومة دينية بحتة في جميع مظاهرها فكان جميع الوزراء والحكام والموظفين من رجال الدين ، حكومة هذا شأنها موزعة بين مسائل الدين ومسائل الادارة ما كانت لتعنى بترقية الشعب بل كان أكبر همها الاستئثار بالسلطة والمحافظة عليها وجباية الأموال فانتشر الفساد خصوصا في روما وامتلات الطرقات بالآلاف الشاذين والكسالى والعاطلين .

فلا عجب ان رأينا ييمون في الشمال — بفضل وجود حكومة قومية فيها ووجود طبقة من الشعب نشيطة بين الأشراف والفقراء تشتغل بالزراعة والصناعة والتجارة ووجود جند أشداء قد أصبحت محور الحركة الوطنية في المبدأ والنهاية ، بينما كانت حكومة روما حتى آخر لحظة العقبة الكأداء التي تعوق الحركة عن اتمام دورتها .

أما في الجنوب فقد كانت ولاية نابولي وصقلية أكبر ولاية مستقلة ولكن الأسرة الحاكمة كانت أجنبية اسبانية . وزيادة على ذلك فان أرضها كانت أقل خصبا من أرض ييمون الشمالية وأهلها أقل جددا على الحروب ودراية بها ، وأقل علما ونبوغا .

هذا مجمل حالة ايطاليا في أواخر القرن الثامن عشر قبيل الثورة الفرنسية . كانت ايطاليا في مجموعها كمعظم دول أوروبا في ذلك الوقت ساكنة خامدة كأنها في ذهول ، والصفة الوحيدة التي امتازت بها هي كما يقول المؤرخ بيتر أورسى : « الولع بالتمثيل والفنون والآداب ولاسيما الموسيقى » ، وقد استخدم الفييري ( ١٩٤٩ — ١٨٠٣ ) وهو من نبغاء ييمون الروايات التمثيلية ليوقظ شعور الطليان بقوميتهم بين عظمة الماضي البائدة وعظمة المستقبل المأمول . وقد ألف رسالة في « الطغيان » . وكان شعره ينم عن رجولة وخيال قوى .

وبينما كانت إيطاليا على تلك الحال مكسالا ترتع بين الدين والجهل غافلة تلهو بالشعر والنأي اذا بالثورة الفرنسية تعلن على ملاء العالم حقوق الانسان وحقوق الشعوب ، ولاشك في أن أثرها كان عظيما في الحركة الايطالية ، وكذلك أثر غزوات نابليون ( ١٧٩٦ - ١٨٠١ ) والاحتلال الفرنسي الذي انتهى في سنة ١٨١٤ وتلك هي أهم أسباب وتناجج الانقلاب الذي أحدثته في إيطاليا الثورة والاحتلال :

١ - كثرة الحروب بين نابليون والنمسيين وما صحبها من انتصارات وهزائم أحدثت هزة عامة نهت الشعور القومي لاسيما وان الفرنسيين أثناء حروبهم كانوا يعدون الطليان بالحرية والاستقلال ، وقد تكونت وقتئذ في إيطاليا أحزاب صغيرة ثورية في ولايات مختلفة ضد الحكومات المحلية ، طالبة قسما من الحرية والاصلاحات ، معتمدة على مساعدة الجنود الفرنسية لها كما حصل في روما سنة ١٧٩٧ حيث أعلنت « الجمهورية الرومانية » .

٢ - ( ١ ) ضم الولايات الآتية للامبراطورية الفرنسية : بيمون التي كانت مستقلة - وقد هربت الأسرة الوطنية الحاكمة في جزيرة سرديانية - وجنوى ، وتوسكانة ، وبارم ، وروما .

(ب) تكوين مملكة في شمال إيطاليا من فينيسيا ، ولومبارديا ومودين ، والرومانية ، ومارش دعيت « مملكة إيطاليا » وعين أوجين بوهارنيه زوج ابنة نابليون حاكما لها .

ويلاحظ أن الموظفين في جميع الولايات التي ضمت لفرنسا كانوا فرنسيين ، أما في « مملكة إيطاليا » فكانوا وطنيين ، ولا ريب أن اندماج خمس ولايات في هذه المملكة الجديدة ووضعها لأول مرة تحت نظام ادارة عامة موحدة مستقلة بالفعل أكبر مثل محسوس مشجع للحركة الايطالية على تحقيق الوحدة والاستقلال .

٣ - تغيير مظاهر الحياة الاجتماعية ونظمها بفضل :

( ١ ) الغاء امتيازات الأشراف والقساوسة وتقرير مبدأ المساواة .



(ب) حلول مجموعة القوانين المدنية الفرنسية محل آلاف القوانين  
والعوائد المتناقضة في البلد الواحد وفي البلدان المتفرقة •

(ج) وضع نظام واضح للضرائب •

(د) تنظيم الإدارة وتوحيدها •

(هـ) إنشاء الطرق والجسور وغير ذلك من الأعمال المادية الكبرى  
الحديثة التي ساعدت على انماء الرفاهية والثروة •

(و) الاهتمام بالتعليم ونشر المدارس واخراجها من يد القساوسة  
وتشجيع الزراعة والصناعة والتجارة •

ولكن فداحة الضرائب التي كان يجيها الفرنسيون وموت  
عشرات الآلاف من الطليان الذين حاربوا قسرا في صفوفهم في بلاد بعيدة  
وراحوا ضحية قضية لا يهمهم أمرها — فقد قتل منهم ٦٠٠٠٠٠  
في حروب روسيا واسبانيا — خلقا في نفوس جميع الطبقات من قس  
وأشرف وفقراء وغيرهم كراهية الحكم الفرنسى •

على أنه من العدل أن نقرر أن هذا الحكم قد أتى بالخير العميم ،  
وحسبه أنه ساعد على تكوين « حياة قومية » جديدة باعتراف المؤرخ  
المعاصر سيراز بلباؤ اذ قال : « انه منذ ذلك العهد بدأ الناس ينطقون  
بحب وفخار أكثر من ذى قبل اسم ايطاليا » ، وباعتراف مازينى اذ قرر  
« أن النهضة الفكرية ونماء الرفاهية الوطنية ، والشعور بالاخوة الذى  
تولد من المحاربة جنبا لجنب ، كل هذه حقائق أصبحت متجلية خصوصا  
بين سنة ١٨٠٥ و ١٨١٣ ، ورغمنا من تبعيتنا للامبراطورية الفرنسية  
وخضوعنا للاستبداد السياسى والحروب القاسية فان شعورنا بقوميتنا  
الذى تمثل فى جيشنا الباسل قوى عزائنا ورسم لنا على البعد  
وحدة ايطاليا التى هى غاية الجميع فى جهادهم » •

ظهور هذه الحياة القومية يعد أكبر ثمرة للاحتلال الفرنسى فى ايطاليا ،  
وقد انتهى فى سنة ١٨١٤ ، وكان الحلفاء وقت محاربتهم لنابليون يعدون

الطليان بالحرية والاستقلال فلما ابتسم لهم الدهر ونفى نابليون في جزيرة  
النبه قلبوا لهم ظهر المجن فما كان من أحرار الطليان الا أن اتصلوا  
بنابليون في منفاه طالبين اليه العودة لبناء وحدتهم بسيفه ، ولما هرب  
نابليون من منفاه جازف مورات وهو حاكم نابولي ومن أشهر قواد  
نابليون ، فألقى دلوه في الدلاء وسار بجيشه الى الشمال لمحاربة النمسا  
ونادى في طريقه باستقلال ايطاليا ولكنه لقي الهزيمة والموت •

**مؤتمر فينا -** بعد عودة نابليون حدثت موقعة واترلو الشهيرة  
ونفى نابليون ثانية في جزيرة سانت هيلين فاجتمعت دول النمسا وانجلترا  
والروسيا وبروسيا وفرنسا في مؤتمر فينا لتقرير المصير في خريطة أوروبا  
التي كانت الثورة الفرنسية وحروب نابليون سببا في تحويلها وتبديلها •  
كان ممثل النمسا الوزير الأول مترنج من أكبر أعداء الثورة  
وأنصار النظام في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، والمراد  
بالنظام بقاء البلاد على ما هي عليه من ظلم واستبداد لاسيما في الولايات  
التي تتكون منها النمسا •

وكان غرض مؤتمر فينا الأساسي فيما يختص بايطاليا هدم نتائج  
الثورة الفرنسية وارجاع الحال الى ما كانت عليه قبل الثورة  
Restauracion فاقترض ذلك تجزئة ايطاليا من جديد وتوزيع ولاياتها  
بين أسرتي الهابسبورج النمسوية والبوربون الاسبانية ووضعها ثانية  
تحت سلطان الأمراء والأشراف والاكليروس والبوليس وهذه أهم  
نتائج المؤتمر :

١ - استردت بيمون استقلالها لأنها كانت عوناً للحلفاء في حربهم  
ضد نابليون •

٢ - كسبت النمسا :

(١) امتلاك ولاية لومبارديا وحل مملكة ايطاليا •

(ب) نشر نفوذها بواسطة أمراء نمسويين في توسكانة ومودين ،

وبارم •



(ج) تعهد فرديناند - وهو من أسرة البوربون وحاكم نابولي الجديد - بأن لا يمنح شعبه حرية أكثر من الحرية التي تتمتع بها ولاية لومبارديا النمساوية •

وبالاجمال بسطت النمسا نفوذها من جديد على ايطاليا •

ولكن المؤتمر ارتكب غلظة كبرى اذ اتبع رأى مترنخ الذي كان يعد ايطاليا « شكلا جغرافيا » ولم يقيم وزنا لمبدأ القومية الذي أعلنته الثورة الفرنسية وبدأ يتأصل في الأمم كافة وفي الطليان •

وارتكب الملوك والأمراء الذين رد المؤتمر اليهم عروشهم التي ثلثتها الثورة الفرنسية والاحتلال الغلظة عينها فلم يحسبوا حسابا لتطور السكان ، وكان أكبر همهم هدم ماشاده الفرنسيون من عمل نافع والرجوع بالبلاد الى الورااء • بلغ من حنقهم على الفرنسيين أن دمرت « حديقة النبات » في تورينو لأنها من صنع الاحتلال الأجنبي ، واضطر المجلس البلدى الى بناء كنيسة فوق الجسر الممتد على نهو البو حتى لا يكون نصيبه الهدم وهدمت في روما مصابيح الاضاءة لنفس السبب •

ولم يكن من الطليان بعد أن ذاقوا بعض ثمار الحرية الا التفكير في أمرين :

( أولهما ) طرد الغاصب النمساوى الذى ينشر بينهم العيون ويحكمهم بالبوليس والقوة العاشمة •

( ثانيهما ) التخلص من ظلم الأمراء الأجانب أو الوطنيين الذين يحولون بينهم وبين التمتع بالحرية الفردية والاجتماعية ويقفون أمامهم سدا في طريق الاصلاحات • ولأجل تحقيق هذه الغاية اضطر الطليان الى تكوين الجمعيات السرية وبدأت فكرة الثورة تختمر في رؤوسهم وتتمخض عن حركات ثورية متفرقة الى أن حان الزمن وظهرت في أجلى مظهر عام ١٨٤٨ حيث ثارت معظم شعوب ايطاليا •

قلنا ان الثورة الفرنسية أرادت تحرير الفرد وتحرير الشعوب المظلومة  
وقد بذرت بذورها في أوروبا فكانت تنمو ببطء أو على عجل بحسب  
استعداد البلدان وتهيؤ الظروف ، وكانت لها مظاهر ثلاثة :

( المظهر الأول ) قيام الشعوب ضد ملوكهم المستبدين ومطالبتهم  
بالحرية والدستور كما حدث في فرنسا واسبانيا والنمسا .

( المظهر الثاني ) قيام الشعوب المظلومة لطرد الدول الأجنبية المحتلة  
لها وتحقيق وحدتها واستقلالها كما حدث في ايطاليا .

( المظهر الثالث ) قيام شعوب لتحقيق وحدتها فقط كما حدث  
في ألمانيا .

ولأجل مقاومة مظاهر الثورة والعمل على قتلها تحالفت الدول  
الكبرى وكان عميدها مترنخ عدو الثورة اللدود الذي صرح بأن  
« السياسة العصرية في أوروبا يجب أن يكون أساسها الراحة » ومعنى  
الراحة الجمود وعرقلة التقدم والحركة .

كانت نتيجة المؤتمر في أوروبا تعطيل سير الحركات الوطنية  
أو القومية الحرة وتحويلها الى حركات ثورية عنيفة كما حدث في اسبانيا  
سنة ١٨٢٠ وفي فرنسا سنة ١٨٣٠ و ١٨٤٨ وقد كان لهذه الثورات  
الأجنبية صدى في ايطاليا اذ قامت هناك حركات ثورية استفاد منها  
« مترنخ » وجعل الدول تقرر مبدأ « التدخل المسلح » في الممالك التي  
تحدث فيها اضطرابات ضد النظام والتعاون بواسطة جيوشها على  
قتل كل حركة .



## الفصل الثاني

### الحركات الثورية

قام بالحركات الثورية في ايطاليا بين سنة ١٨٢٠ و ١٨٣٠ جمعية الكربونارى ، وبين سنة ١٨٣٠ و ١٨٤٨ مازيني وجمعيته « ايطاليا الفتاة » ثم دخلت الثورة في طور نظامى عملى في صورة حرب •

جمعية الكربونارى — ان النظام الجديد في ايطاليا بين سنة ١٨١٥ و ١٨٢٠ وما اشتمل عليه من مساوىء — كاستئثار القساوسة بالتعليم ووضع حقوق جمركية تعرقل التجارة بين الولايات وارجاع الامتيازات — أغضب الأحرار الذين كانوا عقدوا آمالهم على نابليون لتحرير بلادهم ، وقد أدى ذلك الى تقوية جمعية الكربونارى وانضمام الكثيرين اليها حتى أصبحت كحزب وطنى •

وكان الكربونارى مذ سنة ١٨٠٧ منتشرين في جنوب ايطاليا ، ومعظمهم من فحامى الكلابر (Charbonniers) ، هربا من يوسف بوناپرت الذى كان يضطهدهم ومن الاحتلال الفرنسى ، وكانت غايتهم من حيث استقلال البلاد مبهمة ، وذلك لأن الفكرة الاستقلالية عندهم كانت متولدة من كراهية الظلم على أن كراهية الظلم عندهم لم تكن وليدة التربية السياسية أو التربية الوطنية بل كانت وليدة التربية الدينية والمبادئ الروحية (Mysticism) التى كانت خليطا بين الماسونية وفلسفة القرن الثامن عشر ، ومن مآثور أقوالهم : « ان المسيح أول فريسة للظالمين » فكان الصليب منصوبا في جميع مراكزهم ، وكان نظامهم أشبه بنظام الماسونية يشرف المراكز الرئيسى في روما على مراكزهم العديدة •

وقد انتشر نفوذ الكربونارى شيئا فشيئا في بلاد الشمال حيث تكون

حزب اصلاحي تحت رئاسة كانفالونيري : أوجد هذا الحزب المراكب التجارية وأدخل آلات النسيج وغيرها من طرق الاصلاح ، وأنشأ في سنة ١٨١٩ مجلة « كونسلياتوري » وهي لسان حال النهضة الأدبية الجديدة « الرومانتيزم » التي بها يتحرر الفرد من قيود الماضي وتبرز شخصيته ، ولكن السلطة النمسوية لم تحتمل وجودها وصادرتها فاضطر الحزب الى العمل في الخفاء والاتصال بالكربوناري جنوبا لاشعال الثورة . وقد ظل رئيسه في السجن خمسة عشر عاما ( ١٨٢١ - ١٨٣٦ ) .

**ثورات سنة ١٨٢٠ و ١٨٢١** — كان فرديناند ملك نابولي مستبدا مكروها من جميع الطبقات لاسيما الجيش حيث وجد الكربوناري معظم أنصارهم .

ما كادت تحدث في اسبانيا الثورة العسكرية للمطالبة بالحرية والدستور وتصل أنباؤها الى نابولي — وبينهما روابط قديمة متينة — حتى هب الضابطان موريللى وسلفاتي على رأس فرقة من الفرسان يطلبان ملكا وطنيا ودستورا ( ٢ يولييه سنة ١٨٢٠ ) : في أقل من ثلاثة أيام امتدت الثورة على مسافة عظيمة بين كابيتيناتا وبازيليكاتا وكان في أفيلينو وحدها ١٢٠٠٠ جندي دستوري ، خلاف ٥٠٠٠٠ جندي آخر تحت قيادة بيب (Pepe) ، عضو الكربوناري ، وكانت هذه الجنود قبل الثورة مخصصة لمقاومة قطاع الطرق واللصوص .

رأى الملك فرديناند الخطر المحدق به فقبل منح الدستور وتنازل عن الحكم لولى العهد ، ثم تألفت وزارة جديدة لم يكن فيها من حزب الثورة الا القائد بيب فنتج نزاع مستمر بين الوزارة والكربوناري ستستفيد منه النمسا .

وفي يوم ١٤ يولييه ثارت جزيرة صقلية التابعة لنابولي مطالبة بالانفصال عنها وبالدستور ، ولكن هذه الثورة كانت حربا مدنية أكثر منها قومية نظرا لانقسام أهل صقلية على أنفسهم .



وفي أثناء ذلك كان عدو الثورة والحرية مترنخ يرغى ويزيد ويدعو  
الدول الى الاجتماع والتدخل لتوطيد دعائم النظام بينما كان أهل  
نابولي في شغل شاغل من أمورهم الداخلية التي ارتبكت للأسباب  
الآتية :

١ - عدم الثقة بالملك الأجنبي •

٢ - استبداد حزب الثورة الكربونارى ورغبته في الحلول محل  
البرلمان •

٣ - وجود أعضاء كثيرين في البرلمان تظن في رؤوسهم مشاريع  
الاصلاحات ولكن تنقصهم التجارب •

٤ - وجود وزراء غير أكفاء ينتعدون عن الشعب ويتقربون الى  
الملك ومترنخ خوفا من الثورة في الداخل والغزو من الخارج أما الشعب  
فكان من جهته مترددا بين الثورة ضد الملك وضد النمسا والتعرض لخطر  
الغزو وبين السكوت والتعرض لخطر ضياع الدستور •

وسرعان ما اجتمعت الدول بناء على دعوة مترنخ في لياخ وقررت  
ارسال جيش في نابولي للقضاء على الثورة والدستور ( ٢٣ مارس  
سنة ١٨٢١ ) •

ولكن في نفس الوقت الذى أخدمت فيه ثورة نابولى في الجنوب  
قامت ثورة أخرى في الشمال في بيمون حيث انتشر الكربونارى  
خصوصا بين طبقات الجيش وكان اتصالهم بالأمير شارل ألبير ونى العهد  
مشجعا لهم •

وأول شبوب الثورة في الأسكندرية فتورينو ، وأهم مطالبها  
دستور كالدستور الاسبانى وتكوين « مملكة ايطاليا » التى كان  
أنشأها نابليون بحيث تمتد على جميع أنحاء ايطاليا ، وكان زعيم الثورة  
الجرىء سانتاروزا •

أجاب الملك على ذلك بأن تنازل عن الملك لأخيه شارل فيلكس

الذي كان غائبا في مودين ، وفي أثناء غيابه عين الأمير شارل الير صديق الكربوناري وصيا فانتهاز هذه الفرصة ومنح الدستور وحلف اليمين ، ولكن الملك شارل فليكس استنكر الدستور عند عودته وطلب الى اسكندر ملك روسيا أن يمدّه بجيش لمقاومة الحركة فأعلن وزير الحرية في العهد الجديد ساتتاروزا زعيم الثوار أن الملك أسير النمساويين وسار بالجيش والطلبة المتطوعين للقاء الجيوش الأجنبية •

ولسوء الحظ هزمه النمساويون في نوفار فهرب الزعماء في جنوى والخارج ، وحكم بالاعدام على ٢٠٠ نفس ورفقت ٢٢٠ ضابطا وأغلقت جامعتا جنوى وتورينو لأن أساتذتهما وشيبيتهما لعبوا دورا كبيرا في الحركة ، وأخذت النمسا تبت الارصاد في جميع أنحاء ايطاليا وتشدد الرقابة على الصحف والكتب والأغاني حيث كانت تمحى كلمة «الحرية» (Liberté) وتستبدل بها كلمة الولاء (Loyauté) ، ثم عملت على اقامة الدعاوى السياسية وتسميم الجو أملا في قتل الحركة خصوصا في لومبارديا وفينيسيا ، وحكم بالاعدام على كثيرين من الزعماء الوطنيين في البلدان المختلفة بحجة التآمر ، وبلغ من تدخل النمساويين في جميع شؤون الولايات الايطالية في ذلك الوقت أن قال أحدهم : « ان الطليان يأكلون من النمسا حتى في خبزهم » •

ولكن هذه الاجراءات الاستبدادية كانت خير سماء تبت فيه الحركة نباتا طيبا •

وقد نقل الكربوناري بعد فشل ثورة نابولي مركزهم من الجنوب وجعلوا مركزهم الرئيسي في باريس ومن هناك اشتغلوا على بعد •

وكان مترنخ بين سنة ١٨٢١ - ١٨٣٠ يطغى ويستبد باسم الدفاع عن العروش في ايطاليا فترتب على ذلك أن الملوك والأمراء بدأوا لا يطيقونه واتصلوا سرا بالكربوناري للتخلص من الحكم النمساوي ، وبدأت الحركة تنتشر ثانية في الرومانية والولايات المتحدة التابعة للكنيسة التي كانت بعيدة عن الثورة ، وما كاد يحل عام ١٨٣٠ حتى كان



الكربونارى ، وهم فى باريس ، قد أعدوا حركة ثورية منظمة فى شمال  
ايطاليا ووسطها •

ثورة سنة ١٨٣١ : — كانت الحركة السياسية فى ايطاليا بين  
سنة ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ضعيفة تئن تحت مظاهر الضغط والاستبداد وكان  
الكربونارى طريدين مشردين فى كل مكان فلجأ منهم عدد كبير الى  
الولايات التى لم تحدث فيها الثورة : وهى مودين وبارم وولايات  
الكنيسة فى وسط ايطاليا وأسسوا فيها جمعيات سرية •

ولما حدثت ثورة سنة ١٨٣٠ انتهزت هذه الجمعيات فرصة موت  
البابا بيوس الثامن فى السنة عينها واتفقت على القيام بالثورة وتنصيب  
ملك مكان البابا فى روما فأحس بذلك حاكم مودين وأمر بالقاء  
القبض على المتآمرين فى مملكته وعلى زعيمهم مينوتى فثار جميع المتآمرين  
الآخرين فى ولايات الكنيسة ونجحوا فى تكوين حكومات جديدة  
بموظفين مدنيين حلوا محل القساوسة ، واشترك الجيش وكثيرون من  
الموظفين فى الحركة فعمت فى مدة لا تتجاوز الثلاثة أسابيع الولايات  
الشرقية : وقد أعلنت الحكومة المؤقتة فى بولونيا عاصمة مودين التى  
كانت منبع الحركة بفضل جامعتها انتهاء سلطة البابا المدنية واجراء  
انتخابات عامة فانتخبت جمعية وطنية قصدها نواب من جميع ولايات  
الكنيسة — مما دل على قومية الحركة — اجتمعوا وأعلنوا أنفسهم  
« جمعية نواب المقاطعات الحرة بايطاليا » ولقبوا المقاطعات الثائرة  
المجتمعة « بمقاطعات ايطاليا الموحدة » ، وسرعان ما تدخلت النمسا  
وبددت شمل هذه الولايات وأرجعت الحال الى ما كانت عليه واكتفت  
الدول التى اجتمعت وقتئذ بارسال مذكرة الى البابا تنصحه باحداث  
اصلاحات منعا للثورة ، ولكن البابا لم يعمل بنصيحتها واستأجر  
فرقتين من العساكر السويسرية وأعد جيشا من المتطوعين لمحاربة جميع  
مظاهر الحرية والتقدم ، وبلغ به الأمر أنه كان يعد البرقيات والسكك  
الحديدية وجميع مستحدثات القرن التاسع عشر أعمالا عدائية  
ضد الكنيسة •

وعلى ذلك تكون الحركات الثورية في سني ١٨٢٠ ، ١٨٢١ ،  
و ١٨٣١ قد فشلت • ويلاحظ :

١ - أن هذه الحركات الثلاث كانت تسير على نهج الثورات الأجنبية  
في اسبانيا وفرنسا فلم يكن لها طابع وطني أو قومي جلي •

٢ - أن الحركتين الأوليين في نابولي وبيمون كانتا عسكريتين  
أكثر منهما شعبيتين ، أما الثالثة التي حدثت في ولايات الكنيسة بالوسط  
فكانت سلمية بحتة ، وقد امتدت الحركات الثلاث على أقاليم واسعة  
من ايطاليا ولكن امتدادها كان سطحيا غير عميق •

٣ - أن الفكرة الاستقلالية لم تنضج بعد والفكرة الدستورية  
أيضا ، ورغمما من ذلك فإن فكرة الوحدة القومية بدأت تتجلى بطريقة  
جزئية محسوسة تبشر بالمستقبل سواء كان ذلك في الشمال حيث كانت  
أمنية الغالبية من الطليان تكوين « مملكة ايطاليا » من جديد ، أو في  
الوسط حيث ثارت ولايات الكنيسة وانضم بعضها الى بعض تحت  
اسم « مقاطعات ايطاليا الموحدة » •

ولكن النمسا القوية صاحبة النفوذ والسلطان حالت دون تحقيق  
هذه الفكرة ، خصوصا وان عدم وجود برنامج وطني محدود للكربوناري  
لم يكن من شأنه تقوية الحركة وتعميمها بطريقة جدية شعبية ، أضف  
الى ذلك عدم وجود زعيم وطني بالمعنى الصحيح •

كانت الخلافات حول البرنامج الوطني كثيرة أهمها :

١ - هل ستكون ايطاليا مملكة واحدة تندمج فيها جميع الولايات  
الايطالية أو مملكتين مثلا احدهما في الشمال والأخرى في الوسط ،  
أو هل ستكون ايطاليا مجموعة ولايات متحدة ؟ •

٢ - هل ستكون حكومة ايطاليا المقبلة ملكية أو جمهورية ؟ •

٣ - هل سيعتمد الطليان على أنفسهم أو على مساعدة أجنبية  
من الخارج ؟ •

كل هذه المسائل كانت تجول في رؤوس الطليان المفكرين قبل ان  
ينزل مازيني وجمعيته في الميدان •



## الفصل الثالث مازيني

ولد مازيني عام ١٨٠٥ في مدينة جنوى وكان زمن الدراسة مولعا بالآداب الوجدانية الخيالية (Romantique) وكان محبا لبلاده بكل ما وهبه الله من قوة وعافية فاندمج صغيرا في الكربوناري وسرعان ما قبض عليه بحجة التآمر وألقى في السجن ، وهناك أخذ يفكر مليا في الحركة وكان واقفا على دخالها فساقه ذلك الى التنبه الى أسباب ضعفها التي تنحصر في عدم ارتكازها على الشعب الذي هو عمود كل حركة قومية ، وعدم وجود غاية واحدة وطنية بحيث تحل محل صيغ الكربوناري المبهمة ، وقد رأى انه لن تستمد الحركة قوتها من الشعب ، الا اذا بدىء بتعليمه وغرس العقيدة الوطنية في فؤاده .

قضى مازيني ستة أشهر في السجن ثم نفى الى مرسليا وهناك شرع مع بعض قرنائهم من الشبان المنفيين في تأسيس جمعية « ايطاليا الفتاة » . في أثناء ذلك تولى شارل الير صديق الكربوناري في صباه الملك في بيمون فشخصت اليه جميع الأبصار ولاسيما الأحرار ، فاغتنم مازيني هذه الفرصة وأرسل اليه كتابا ينم عن شجاعته ووطنيته العالية يبلغ العشرين صفحة طبع خلصة وتداولته الأيدي في جميع أنحاء ايطاليا ، وكان يشتمل على برنامج الجمعية الجديدة واننا نجتزىء منه بما يأتي :

« لم يعد الشعب يقنع بالقليل من المنح ، وانما يريد أن يعترف بحقوقه الانسانية التي حيل بينه وبين التمتع بها زمنا طويلا ، انه يريد الحرية والقانون والاستقلال والوحدة ، وهو اليوم مقسم منقسم مظلوم ، ولقد يعز عليه ويؤلمه أن يسمع الزائر الأجنبي يدعو أرضه أرض أموات ،

ولئن تجرع كأس العبودية الى آخر نقطة فقد آلى على نفسه أن لا يحملها  
ثانية الى شفثيه فليكن الملك ذلكم البطل المحامى عن قضيتنا فى ييمون  
وفى ايطاليا جميعها •

مولاي :

« اذا لم تكن لك يوم ألقيت اليك مقاليد الحكم من غاية سوى  
البقاء فى دائرة من الذلة والمسكنة ، دائرة الملوك الذين تقدموك فظل  
مكانك وطأطىء الرأس تحت عصا العدو •

« أما اذا سمعت فى نفسك صوتا يناديك أنك ولدت لغاية كبرى  
فاتبع ذلك الصوت ، فانه صوت النبوغ والالهام ، صوت ايطاليا  
من أقصاها الى أقصاها •

مولاي :

« ان ايطاليا جميعها تنتظر كلمة منك ، كلمة واحدة لتهب نفسها  
لك ، فانطق بهذه الكلمة وكن على رأس هذه الأمة ، وليكن شعارك  
وشعارها : الوحدة والحرية والاستقلال ، ثم أعلن حرية الفكر وصرح  
بأنك المطالب بحقوق الشعب المنادى بها ، الباعث ايطاليا من لحدها ،  
وشيد المستقبل واجعل اسمك يتلأأ فى جبين عصر جديد ، وليكن يومك  
فاتحة ذلك العصر وما عليك الا أن تسلك السبيل التى تنفق مع اردة  
الأمة وأن تثبت وتصبى فالنصر لا بد لاقيك •

مولاي :

« اذا فعلت ذلك التفننا حولك وفدينناك بأرواحنا وسقنا تحت لوائك  
الولايات الايطالية ، وبيننا لآخواننا ومواطنينا مزايا الوحدة وسعينا فى  
فتح اکتتاب عام ، وعلت فى كل ناد تلك الصيحة التى تخلق الجيوش •  
« ضم شتاتنا ، يامولاي ، وابن وحدتنا فاننا لآشك غالبون » •  
ذلك هو النداء الذى صم الملك أذنيه عن سماعه ، ولكن الشعب



أصاخ له وجرى الناس للاندماج في جمعية « ايطاليا الفتاة » التي كان هذا النداء بياناً عاماً لخطتها •

أما البرنامج المرسوم فيتلخص في النقاط الآتية :

الغاية — تحرير ايطاليا من الاستبداد الخارجى والداخلى وتكوين وحدتها في ظل حكومة جمهورية •

الوسائل — نشر التعليم والثورة في نفس الوقت بواسطة حرب العصابات المسلحة (Guerilla) اذا اقتضت الضرورة •  
الشعار — الله والشعب •

الراية — في جهة منها : الوحدة والاستقلال ، وفي الجهة الأخرى : حرية ، اخاء ، مساواة •

هذا برنامج الجمعية ، أما الصلة الحقيقية التي كانت تربط أعضاءها بعضهم ببعض فهي صلة العقيدة الوطنية ، تلك العقيدة الايجابية التي كانت تدفعهم الى تحقيق مطمح سام هو وحدة ايطاليا واستقلالها ، فلم تكن سلبية كعقيدة الكربوناري التي تعمل على تقويض دعائم الظلم القائم ولا تفكر فيما يجب عمله بعد ذلك •

وكان مازينى يعتقد في فائدة الحركات الثورية — وان كانت في الظاهر غير منتجة — ويقول : « اننى صوت يصيح العمل » ولكنه أمام قوى النمسا المنظمة لم يستطع القيام الا بمؤامرات وحركات عديمة الجدوى في مجموعها •

على أننا لا يجوز أن ننسى أنه نجح في نشر المبادئ الوطنية وتعميمها بين طبقات الشعب بقوة الشجاعة والعقيدة والاخلاص التي كان يحبها الشعب ويخضع لسلطانها •

وقد أنشأ حوالى سنة ١٨٣٢ جريدة لنشر الدعوة لمبادئه وجمعيته كانت تهرب وتوزع سرا في ايطاليا فلم يمض زمن طويل حتى تكونت فروع كثيرة للجمعية في جنوى ولغورن وسواهما من مدن ايطاليا

الكبرى ، وكان ذلك كما يقول مازيني « انتصار المبادئ فان هذه الحقيقة المجردة - وهي أنه في مدة ما كان أقلها قامت جماعة صغيرة من الفتيان لا تملك شيئا فوجدت نفسها على رأس جمعية قوية تطاردها سبع حكومات - دليل على أن اللواء الذي كانت تحمله هو لواء الحق » •

وفي أغسطس سنة ١٨٣٢ طلبت حكومة بيمون نفى مازيني من فرنسا فاختمى عاما في مرسيليا وغادرها سنة ١٨٣٣ الى سويسرا وفي سنة ١٨٣٦ نفى من سويسرا فقصد انجلترا التي كان يعدها وطنا ثانيا وذاق فيها صنوف الآلام ، وكان هو في فقره المدقع يرسل الكتب والرسائل الى خلانه واتباعه في ايطاليا ويدير الحركة من بعيد •

ولكنه والحق يقال لم يبلغ النجاح الذي كان عمله خليقا به لأسباب عديدة أهمها :

١ - بعد مازيني عن مركز الحركة •

٢ - عدم حسابه حسابا كافيا للحقائق فكان يخيل اليه أحيانا في سورة غضبه انه في امكانه أن يسير شعب ايطاليا تحت لواء الثورة في يوم أو أيام •

٣ - التجاؤه الى المؤامرات التي كان يبغضها الكثيرون والتي اضطر اليها اضطرارا •

٤ - صعوبة ايجاد حركة عامة في وقت واحد بسبب تيقظ النمسا وتفرق الولايات وعدم وجود « مركز قيادة عام » •

كل هذه العوامل جعلت الجمعية بصفتها قوة عاملة منظمة ضعيفة النفوذ ولكنها كانت كبيرته بصفتها مبدأ ساميا اعتنقته النفوس ، بل لقد كان ضعف هذه الجمعية في معظم الأحيان سببا في تعزيز المبدأ الذي تمثله وتقويته قال مازيني : « ان الطريق الوحيد الى الانتصار هو طريق التضحية والثبات في التضحية » •



وقد حدث أنه في عام ١٨٤٣ وجد شابان ضابطان في البحرية النمساوية من أعيان فينيسيا كانا متشبعين بتعاليم مازيني وجمعيته وكانا يعتقدان أن إيطاليا بحاجة كبرى الى مثل عال من الشجاعة والتضحية فأليا على نفسها أن يعطيا ذلك المثل وأن يذهبا الى جبال الأبينين الجنوبية لتنظيم حرب عصابات ضد القوة العاشمة •

وعبثا حاول مازيني أن يقنعهما بالعدول عن رأيهما ، وما عتما أن اتجها نحو الجنوب بعد أن أرسلا اليه خطتهما التفصيلية فأمكن الحكومة الانجليزية الوقوف عليها وابلغها سرا الى حكومة نابولي التي أخذت أهبتها •

وما كاد الضابطان يضعان قدمهما على اليابسة حتى قبض عليهما وأعدما رميا بالرصاص وهما يهتفان « لتحيى إيطاليا ! » •

وكان لهذا الهتاف صدى رددته إيطاليا فأصابها منه هزة كهزة الكهرباء لأنه مثل عال للتضحية والموت فداء للوطن ، على أن اخفاقهما وموتهما تلك الميتة العاجلة الشنيعة أحدثا رد فعل في النفوس أضر بسمعة مازيني وجمعيته التي أخذت تضمحل خصوصا في ذلك الوقت الذي بدأ الطليان يشعرون فيه بضرورة الالتجاء الى وسائل أخرى غير وسائل التآمر أو الحركات الثورية الانفرادية التي كانت تكلف كثيرا وتنتج قليلا •

ويمكننا أن نقول أنه منذ سنة ١٨٤٣ بدأ نجم مازيني في الأفول وأخذ المعتدلون من مفكرين وساسة أمثال جيورتي وبالبو وكافور يمسكون بزمام الحركة الوطنية فدخلت بفضلهم في طور تحقيق واصلاحات سادت فيه السياسة العملية الحكيمة الى الغاية •

على أننا اذا ذكرنا المعتدلين وفضلهم على الحركة فان ذلك لا ينسينا فضل مازيني ، وكما أنهم مدينون له فانه مدين للكربوناري فالكربوناري أول من حارب الظلم باسم العدل السماوي ومازيني أول زعيم كبير قام في وجه الغاصب النمساوي ، الذي يشخص الظلم ، باسم الوطنية

الصحيحة ، باسم المبدأ الذي غرسه في نفوس الطليان وحوله الى عقيدة ثابتة عند شبانهم وشيوخهم متطرفيهم ومعتدليهم على السواء ، فلا عجب اذا لقبوه « بنبي الوطنية » .

وقد أعطى مازيني لأمته المثل الأعلى للاخلاص والتضحية فانه رغما من كونه جمهوريا صميما كان متسامحا مع خصومه وقد آبت نفسه أن ترغم الناس على اتباع مذهبه تاركا اختيار شكل الحكومة النهائي الى ما بعد الوحدة التي هي الغاية الكبرى ، يقول مازيني : « اننا سنطأطئ الرؤوس ونقبل أى شكل للحكومة يختاره الشعب بتصويت عام لأنه من واجب الرأى الفردى أن يخلى السبيل أمام رأى الأمة » .

بهذه الحكمة الوطنية العالية صان مازيني الوحدة التي كان يسعى الى تحقيقها والتي كانت لا تقوم الا على أساس من وحدة القلوب ، ومنع الانقسام أن يمتد اليها .

وهو أول من سعى لجعل فكرة الوحدة والاعتماد على النفس جزءا جوهريا أساسيا من الحركة الاستقلالية ، ومن كلامه « ان طرد النمساويين المكروهين أول غرض لنا فلا مناص اذن في القريب العاجل من حرب دموية لا رحمة فيها » .

« ولا يجوز لنا أن نعتمد على الحكومات الأجنبية أو على مجهودات السياسة ، ويجب أن نطرح جانبا جميع الآراء المتعلقة بالنظام الاتحادي (Fédéralisme) أو بالاستقلال بدون الوحدة فان غاية « ايطاليا الفتاة » تحقيق الوحدة ، ولا يصح أن يلتف الطليان الا حول راية واحدة ، راية ايطاليا جميعها » .

وكل ما يعاب على مازيني هو أنه كان خياليا أكثر منه عمليا وكانت تعاليمه الوطنية في معظم الأحيان تلبس الألفاظ الدينية والأخلاقية المتداولة ، مثل ذلك تعريفه لجمعية ايطاليا الفتاة : « أنها رابطة اخاء بين الطليان الذين يعتقدون في نظام من الواجب والتقدم ، والذين



يعتقدون كل الاعتقاد أن إيطاليا ستصبح أمة ، والذين سيعملون جهدهم لبناء إيطاليا من جديد أمة مستقلة ذات سيادة يتمتع بنوها بالحرية والمساواة » ولعل هذه الألوان الدينية التي صبغت بها مبادئ مازيني هي أثر من آثار تعاليم الكربوناري والآداب الوجدانية الخيالية التي ولع بها صغيرا •

ومهما كان من الأمر فقد صرح مازيني بأن المسألة مسألة دينية وكان لابد أن تكون كذلك في ذلك العصر الذي كانت فيه الروح المادية « المكيفيلية » متسلطة على النفوس قاتلة لكل عاطفة شريفة وكل تعلق بالمبادئ العالية التي هي منبع الحياة والتجدد عند الأمم إذ كانت إيطاليا مجموعة أفراد وولايات يسعى كل منها في سبيل مصلحته الخاصة الضئيلة •

ولاشك في أن مازيني أدى إلى أمته أصدق الخدمات بالصبغة الدينية التي نهرت فيها معظم مبادئه فقد أكسبها ذلك قوة وساعد على تعميمها وغرسها في نفس الشعب لاسيما في وقت كانت فيه الحركة في طور الشباب ، طور الحماسة والحمية ، طور الهتاف باسم الوطن ، ولكن الذي يمكن أن ينتقد عليه هو أنه لم يتطور مع الحركة التي تطورت ونضجت ، ولم يغير أساليب العمل فظل إلى آخر حياته يعمل على خلق الحركات الثورية والمؤامرات ، وأصبح ثائرا بل متآمرا بعد أن كان في البداية زعيما وطنيا •

فطن كافور للأمر من زمن فكان يعتقد سنة ١٨٣٠ أن إيطاليا لم تنضج بعد للثورة فقام للعمل حوالي سنة ١٨٤٣ هو وجماعة من المعتدلين متفقين مع مازيني في المبدأ الذي ساعد على تأصله في النفوس مختلفين معه في الوسائل •

وكان جل غرضهم وهم مفكرون معتدلون وساسة عمليون بعيدو النظر أن يدخلوا الثورة في طريق اعتدال واصلاحات علما بأن هذا الطريق وحده هو الذي يوصل إلى الثورة الصحيحة المنظمة التي لا تقهر •

## الفصل الرابع

### المعتدلون ( ١٨٤٣ - ١٨٤٨ )

هيمنت جمعية الكربوناري على الحركة الاستقلالية بين سنة ١٨١٥ و ١٨٣٢ وجمعية ايطاليا الفتاة بين سنة ١٨٣٢ و ١٨٤٣ ، ثم اضمحلت هذه الجمعية الأخيرة وحل مكانها بين سنة ١٨٤٣ و ١٨٤٨ جماعة المعتدلين أو المصلحين وعلى رأسهم زعماء ثلاثة : جيوبرتى ، دازجليو ، بالبو ، وجميعهم من رجال الفكر والعمل فأصبح بفضلهم للمعتدلين الذين كانوا منتشرين في ايطاليا من زمن شخصية محترمة ورأى يعتد به وصاروا أشبه بحزب منظم •

كانت الحركة في هذا العهد تتنازعها قوى ثلاث : الاصلاحيون ، والرجعيون ، والمزينيون •

كان الحزب الرجعى مكونا من الأشراف واليسوعيين في الولايات المختلفة ، وكانوا هم الأيدى التى تستعملها النمسا في الخفاء لمحاربة الحركة وقتلها ولذلك أطلق عليهم اسم « الحزب النمسوى » •

أما المزينيون فقد كانت الحركات الثورية الفردية التى بدأ الناس يميلون عنها سببا في اضعاف شأنهم وتقوية حزب المعتدلين ، ذلك لأن العدو كان يستفيد منها فيحتل البلاد بحجة النظام ويسفك الدماء ويشدد الرقابة ، وكانت هذه الحركات في جملتها مظهرا من مظاهر الشجاعة التى لا يصحبها رأى الحازم •

أما المعتدلون أو المصلحون فكانوا متفقين مع المتطرفين في مبدأ الاستقلال ، لا الوحدة ، لأنهم ما كانوا يعتقدون في امكانها وجل مطمعهم تكوين « ولايات متحدة مستقلة » ، وكانوا متفقين مع المزيبين في مبدأ الاعتماد على النفس لا المحالفات الأجنبية •



ولكن الوسائل تختلف اختلافا بينا فالمعتدلون يعملون في دائرة القانون على التوفيق بين الأمراء والشعب باللين والرفق وحضهما على السير معا في طريق الاصلاحات فباتجاههما في العمل تقوى الحركة ، ويهيا الشعب أحسن تهيئة للقيام في وجه العدو ، وتحل الثورة الشعبية الموحدة الغاية محل الثورات المحلية العديمة الجدوى التي تنسى الغاية القومية الكبرى .

وكان المعتدلون متشبعين بمبادئ مازينى الوطنية التي تركت أثرا واضحا في كتاباتهم ، وهم قوم عمليون يستغلون كل نتيجة يصلون اليها بالحيلة والطرق السلمية المشروعة .

واليهم يرجع الفضل في التجاء الأمة الى الوسائل السلمية العلنية كالصحافة والمظاهرات والمؤتمرات العلمية التي انتشرت في هذه الآونة وكانت من أكبر العوامل التي بعثت الحركة بعد أن كادت تختنق في كهوف المؤامرات السرية وعممتها ونشرتها بعد أن كانت مبعثرة طريدة الأمراء الوطنيين والنمساويين على السواء فجعلتها تتطور تطورا لم يسبق له مثيل في مدة لا تتجاوز الأربعة أعوام بين سنة ١٨٤٣ و ١٨٤٨ سنة الحرب والثورة القومية .

وكانت معظم المؤتمرات العلمية تحت رعاية الأمراء يؤمها الطليان من كل جاب للبحث في أحسن الطرق لترقية الشؤون الزراعية والعلمية والاجتماعية ، ولكن البحث كثيرا ما كان يتطرق الى الأمور السياسية العامة فانقلبت المؤتمرات الى برلمانات قومية بالمعنى الصحيح<sup>(١)</sup> .

ومن بين الاصلاحات التي كانت الشغل الشاغل في ذلك العصر مد السكك الحديدية لربط الولايات بعضها ببعض نظرا لأهميتها المادية والسياسية من حيث انماء الرفاهية وتكوين الوحدة .

(١) عقد مؤتمرات في بيز سنة ١٨٣٩ ؛ وتورينو سنة ١٨٤٠ ؛ وفلورانس سنة ١٨٤١ ؛ وبادو سنة ١٨٤٢ ؛ وليك سنة ١٨٤٣ ؛ وميلانو سنة ١٨٤٤ ؛ ونابولي سنة ١٨٤٥ ؛ وجنوى سنة ١٨٤٦ ؛ وفينيسيا سنة ١٨٤٨ .

كان حزب المعتدلين الاصلاحيين حوالى سنة ١٨٣٢ ينقسم الى  
شعبتين : الشعبة الأولى وعلى رأسها الفيلسوف جيوبرتى كانت تولى  
وجهها شطر روما والبابا • والثانية ، وعلى رأسها بالبو وآزجليو ،  
كانت تولى وجهها شطر ملك ييمون شارل ألبير •

وكانت الشعبتان تعملان معا لاكتساب عطف البابا والأمراء واشراكهم  
في الحركة الاصلاحية •

**جيوبرتى ( ١٨٠١ - ١٨٥٢ )** - كان جيوبرتى ، رئيس القساوسة  
الأحرار ، فى صغره من أتباع مازينى وكان يكتب فى مجلة « ايطاليا الفتاة »  
نقى من تورينو سنة ١٨٣٣ فقصد بروكسل وألف فيها كتابا قيمة  
كان لها أثر عظيم فى تطور الحركة ، فى سنة ١٨٤٣ ظهر له كتاب انتشر  
بين جميع الطبقات عنوانه « أولية الطليان الخلقية والمدنية » ، فكرته  
الأساسية التوفيق بين الدين والمدنية الحديثة ، وقد امتدح المؤلف فيه  
البابا ورجاه أن يكون زعيم الحركة الاصلاحية ، ومن أقواله :  
« بالارادة وصادق العزيمة يمكننا أن نصبح من غير هزات وثورات فى  
طليعة شعوب العالم » وكان يقول كمازينى : « انه لمن العار أن ييأس  
المرء من عشرين مليون رجل » وبالجملة أراد جيوبرتى أن يؤلف بين  
النظريات الثورية والحقائق الراهنة •

**سيزار بالبو** - أحد أتباع جيوبرتى ألف فى السنة عينها ( ١٨٤٣ )  
كتابا اسمه : « آمال ايطاليا » ولكنه لم يضع آماله فى روما بل فى تورينو ،  
ومن أقواله : « لا حياة بغير الاستقلال القومى وأن بقاء الغاصب  
الأجنبى فى ولاية واحدة كاف للقضاء على كرامة الولايات الأخرى  
وافساد أخلاق الأمة جميعها » وكان بالبو لا ييأس ويقول كمازينى  
وجيوبرتى : « ان أمة مكونة من عشرين مليون نفس أمة لا تقهر  
إذا اتحدت وكان لها أخلاق » •

**آزجليو** - روائى شهير من ييمون ومن أكبر أنصار ملكها شارل  
ألبير ذهب الى الرومانية فى سنة ١٨٤٥ ودعا الناس الى الالتفاف حوله



وترك الحركات الثورية السرية والمطالبة الجهرية بالاصلاحات ، وقد وضع رسالة شهيرة عن « حوادث الرومانية الأخيرة » ذكر فيها الحوادث الثورية العظيمة التي حدثت بعد مغادرته تلك الولاية والقمع الاستبدادي الذي صحبها •

وفي هذه الرسالة ندد أزجليو بحكومة البابا وحكومة النمسا ونصح الشعب أن يلجأ في كل فرصة الى الاحتجاجات العلنية السلمية فان التآمر في وضح النهار أنفع وأفضل لكسب الرأي العام الذي ما اتحد في المطالبة بشيء الا وناله ، وعلى هذا الرأي العام وحده يجب على حكومة البابا أن تركز اذا أرادت البقاء » • وكان لكتابات أزجليو أثر كبير في تكوين « الرأي العام » وفي صقله وتهذيبه •

ولما مات البابا جريجوار السادس عشر انتخب فيراتي أو بيوس التاسع بدلا من لامبريشيني الذي كان يرشحه الحزب النمساوي فعم السرور في كل مكان وظن الناس أن البابا المصلح الذي كان يحلم به جيوبرتي هبط ايطاليا خصوصا وأنه بدأ حكمه بالعفو العام فرجع الى وطنهم ٧٠٠ من الأحرار المنفيين والمسجونين تلهج له ألسنتهم بالدعاء ، ومهما كان من الأمر فمن الثابت أن البابا الجديد لعب في الحركة الاستقلالية بين يونيه سنة ١٨٤٦ وديسمبر سنة ١٨٤٧ دورا كبيرا فكان لا يكاد يمر يوم بدون مظاهرات وهتاف للبابا ، وانتعشت النهضة الاصلاحية في الولايات المختلفة فأعدت مشاريع اصلاحات كبيرة في بيمون واكتب أهل الرومانية من ولايات الكنيسة بمبالغ عظيمة لفتح المدارس وتشجيع التعليم فانزعجت النمسا وهددتها بالاحتلال ، وكان اشتراك البابا في الحركة ، نظرا لمركزه الديني في العالم وفي ايطاليا ، أكبر مشجع للملك شارل ألبيير على الدخول في زمرة المجاهدين واتباع سياسة قومية اصلاحية أتت بالخير العميم في بيمون ، وقد سار ليوبلد الثاني أمير توسكانة على نفس النهج وحقق مطالب شعبه وأهمها حرية الصحافة واصلاح الادارة •

في أثناء ذلك كان مترنخ يرسل المذكرات التهديدية وما عتم أن احتل فيراري بجنوده فاحتج الطليان في جميع الولايات على هذا العمل الذي كان لظمة لكرامتهم القومية ، ولما عقد المؤتمر الزراعي في سنة ١٨٤١ تلا الكونت كاستاجنيتو في الجلسة الأخيرة كتابا جاءه من الملك شارل البيير يقول فيه : « اذا من الله علينا بحرب استقلالية كنت وحدى على رأس جيشها ، وما أجمل ذلك اليوم الذي ترن فيه صيحة الحرب في سبيل استقلال البلاد » فرد عليه المؤتمر وطلب اليه أن يضع نفسه على رأس الحركة وأن يستل في الحال سيف الاستقلال من عمده •

وفي ذلك الوقت — أى في سنة ١٨٤٧ — تطورت الحركة وانقلبت من حركة اصلاحية الى حركة دستورية ، لأسباب ثلاثة :

١ — ان المعتدلين كانوا في مبدأ الأمر مستسلمين طوعا أو كرها أملا في كسب الأمراء ، ثم حلت الجرأة محل الاستسلام وهي نتيجة التطور الطبيعي •

٢ — ان حزب الرجعيين وخصوصا الموظفين منهم في روما والولايات الأخرى كانوا يعرقلون تنفيذ القوانين الاصلاحية فكانت تظل معظمها في الدائرة النظرية بدون تطبيق ، ومن ثمة كانت الحاجة الى برلمان يراقب السلطة التنفيذية •

٣ — ان الاصلاحات التي عملت لم تكن كافية فكان لابد من وجود برلمان للقيام بجميع أنواع الاصلاحات الضرورية •

وقد أسس كافور في سنة ١٨٤٧ ، وكان عمره وقتئذ ٣٧ عاما ، بالاشتراك مع بالبو وسانتا روزا وكاستيلي وغيرهم في تورينو جريدة البعث (Risorgimento) وكانت لسان حال النهضة الحديثة التي تنحصر أغراضها في اظهار مزايا النظم الدستورية والمطالبة بها لتهيئة البلاد للانقلاب المنتظر ، وفي تحقيق استقلال ايطاليا ، والتوفيق بين الأمراء والشعوب ، والتحالف بين الولايات الايطالية •



في سبتمبر سنة ١٨٤٧ ثار الأحرار في ريجو ومسينى بجزيرة صقلية التابعة لولاية نابولي صائحين : « ليحيى بيوس التاسع ! ليحيى الدستور » وسرعان ما امتدت الثورة واضطر فرديناند الى منح الدستور .

ولما عقد الصحفيون في جنوى في أوائل سنة ١٨٤٨ اجتماعا حضره عدد كبير من رجال السياسة لتعضيد مطالب أهل جنوى المتعلقة بالحرس الوطني وطرد اليسوعيين قام كافور بكل جرأة وقال : « ان الذي يجب عليكم أن تطلبوه قبل كل شيء هو الدستور فالدستور وحده هو الذي يوطد دعائم السلطة باعطائه اياها قاعدة جديدة تتفق مع روح العصر » وايد جميع الاصلاحيين كافور ولكن شارل البير تردد زمنا ثم منح الدستور في ٤ مارس وعين بالبو زعيم المعتدلين وصديق كافور رئيسا لأول وزارة دستورية .

وفي توسكانة قام الشعب بمظاهرات كبيرة للمطالبة بالدستور فمنحه ليوبولد الثاني في ١١ فبراير سنة ١٨٤٨ ، وقامت المظاهرات في روما أيضا وأرسل سكان ولايات الكنيسة من متطرفين ومعتدلين آلاف الامضاءات للمطالبة بالدستور متبعين في ذلك خطة الزعيم الارلندي أوكونل الذي يستند الى العرائض والمظاهرات السلمية والرأى العام ، وأخيرا منح البابا الدستور في ١٥ مارس .

والخلاصة أن الحزب الاصلاحى نجحت سياسته في بيمون وتوسكانة وروما حيث قامت حكوماتها على قواعد دستورية وبدأت السلطة المدنية تحل محل السلطة الدينية التي كانت تعرقل الاصلاحات . وكان لهذه الحركة الاصلاحية صدى كبير في الولايات الخاضعة للنمسا لا سيما لومبارديا حيث كان زعيم المعارضة في ميلانو الجمهورى الكبير مانان رجلا عمليا يجب النظام ويعتقد أنه لا يمكن القيام في وجه النمسا الا في حالة نشوب حرب أوربية وأن المعارضة السلمية المنظمة تربي الشعب وتضمن احترام أوروبا لايطاليا وكان « وهو قانونى

واقف على أسرار القانون ودقائقه يريد أن يثير النفوس بالطرق  
القانونية وأن يسوقها بحركة نظامية مستمرة الى نقطة تتمكن فيها  
الحماسة المتولدة من الظروف من خلق الثورة » •

وكان رادسكى قائد جيوش الاحتلال فى ايطاليا وقتئذ يتمنى  
أن يلجأ الطليان الى وسائل العنف ليتخذ منها ذريعة لسحقهم وهو القائل :  
« ان ثلاثة أيام دموية تريحننا ثلاثين عاما » •

وقد اجتهد أهل ميلانو انتقاما لأنفسهم من الظلم النمساوى فى تقليد  
أهل بوستون وطريقة مقاطعتهم للبضائع الانجليزية ، فصمموا على  
مقاطعة الدخان فى رأس السنة الجديدة لضرب المالية النمساوية ضربة  
جديدة واعطاء مثل عال من التضحية لأن الطليان كانوا جميعا مولعين  
بتدخين السيجار •

ولما جاء اليوم المضروب خلت الشوارع من المدخنين فوزعت السلطة  
النمساوية على جنودها كميات وافرة جدا من السيجار وأمرتهم بالسير  
فى الشوارع وتفخ الدخان بكثرة فى وجوه المارة ، فلما أعتهم هذه  
الحيلة أعملوا الحراب فى العمال وهم عائدون الى منازلهم وأطلقوا  
الرصاص على عزل من السلاح ، وتكررت هذه المناظر الوحشية فى مدن  
أخرى كباغى وبادو وسجن الزعيم مانان وكثيرون من الأحرار فاستمرت  
مظاهرات الاحتجاج ليل نهار ضد الحكومة واستقال عدد كبير من  
الموظفين وعبثا حاولت الحكومة أن تجد آثار مؤامرة « انها كانت ،  
كما يقول أزجيلو ، مؤامرة شعب بأسره » •

وبالجملة كانت الولايات الايطالية على العموم قبل حرب  
سنة ١٨٤٨ الاستقلالية فى حالة ثورة ، وكان الرأى العام قد اشتد ساعده  
للمطالبة بالدستور والحرية والاستقلال •

فى فبراير سنة ١٨٤٨ حصلت الثورة الباريسية وخلع لويس فيليب  
الذى اشتهر هو ووزيره جيزو باتباع سياسة الجمود ، سياسة عدو



العصر مترنخ ، فكان لاعلان الجمهورية الثانية ونجاح الثورة أثر كبير  
في تحريك الثورات الكامنة في نواحي أوروبا •

وفي ١٧ مارس ثار الشعب في فينا « حصن الاستبداد » ووصلت  
الأبناء مساء الى فينسيا فهاج الشعب وأخرج مانان من السجن وكون  
حرسا وطنيا للمحافظة على النظام ، وثار في اليوم نفسه ميلانو  
وأقيمت المتاريس في كل مكان ، ونشبت بين لومبارديا جميعها وبين  
النمسيين حرب عنيفة اضطرتهم الى التقهقر الى خط المنسيو •

وفي ٢٢ مارس نادى مانان زعيم الثوار في فينسيا بانتهاء الاحتلال  
الأجنبي واعلان الجمهورية •

وقد تحمس أهالي بيمون من أول ساعة لنصرة اخوانهم في لومبارديا  
وفينيسيا فكتب كافور في جريدة البعث يقول : « أمام حوادث لومبارديا  
وفينسيا لا يجوز أن نتردد لحظة واحدة ، واننا نحن أصحاب الذكاء  
الهادىء الذين تعودنا العمل بمشورة العقل لا بدافع الأهواء والعواطف  
نرى من واجبنا أن نصرح مطمئنين أنه لم تبق الا سبيل واحد للأمة ،  
للملك : تلك سبيل الحرب العاجلة » •

وفي يوم ٢٩ مارس وضع شارل البير نفسه على رأس الحرب  
الثورية وأصدر بيانا الى شعوب لومبارديا وفينيسيا يقول فيه : « لنا  
الثقة بالله الذى وهب لايطاليا بيوس التاسع والذى أيقظها وجعلها  
تعتمد على نفسها » •

وسرعان ما سالت سهول لومبارديا الشمالية بألاف المتطوعين يأتون  
أفواجا من الولايات المختلفة ، وقد أرسل أمير توسكانه بلاغا الى  
جنوده يقول فيه : « أيها الجنود : ان قضية استقلال ايطاليا المقدسة  
سينفصل فيها في سهل لومبارديا ، وقد اشترى أهل ميلانو حريتهم  
بدمائهم ، وهاهى جنود بيمون تسير تحت لواء مليكها ، وان أبناء  
ايطاليا وورثة عظمة السلف من العار عليهم أن يظلوا في منازلهم في هذه

الساعة العصبية ، فامضوا سراعا وضموا صفوفكم الى صفوف المتطوعين  
تحت راية واحدة » •

وقد بادرت ولايات لومبارديا وفينيسيا وبارم ومودين وأعلنت  
بتصويت عام انضمامها الى ولاية ييمون •

ولكن مما يؤسف له أن الشقاق دب في صفوف الأمة وتسربت  
روحه الى الجيش لأن أنصار مازيني من جمهوريين وديموقراطيين كانوا  
في ميلانو مثلا يحرضون السكان على التصويت ضد الانضمام الى  
ييمون ومليتها وجروا على سياستهم تلك حتى بعد التصويت ، والعدو  
واقف على الأبواب ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فان البابا  
ظل على الحياد ، وآخر أمير نابولي ارسل الجيش الذي وعد به ،  
وحل البرلمان في ١٥ مايو سنة ١٨٤٨ وكان أول من خان الثورة •

وفي ٥ أغسطس سنة ١٨٤٨ هزم شارل البير تحت أسوار ميلانو  
فأرادت المدينة تجديد ثورة مارس ولكن القواد أجمعوا رأيهم ضد  
الحرب فعقد ملك ييمون الهدنة وأخذت صحف الديموقراطيين والمتطرفين  
ترميه بالخيانة وتظعن عليه فأصدر الملك بيانا جاء فيه : « اننى لا أجهل  
التهم التى يريد البعض أن يدنس اسمى بها ولكننى أترك الحكم  
للتاريخ العادل ، ولطالما خفق قلبى لاستقلال ايطاليا ولكن ايطاليا  
لم تثبت لآن أن فى مقدورها أن تعتمد على نفسها • أى شعوب ايطاليا !  
كونوا أقوياء فى هذه النكبة الأولى واستغلوا النظم النيابية الحديثة  
العهد ، وثقوا بملككم فان قضية الاستقلال لا تزال قائمة » •

حدثت بعد ذلك حركات ثورية فى روما حيث فر البابا هاربا الى  
مدينة جيت بولاية نابولى فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ فأجريت فى غيابه  
انتخابات لاختيار شكل الحكومة الجديدة بواسطة جمعية وطنية ،  
وفى ٥ فبراير سنة ١٨٤٩ انعقدت الجمعية وكانت الغلبة فيها للمتطرفين  
الذين قرروا اعلان الجمهورية •



وكان الطليان عموما وخصوصا الجمهوريون في الولايات وفي ييمون يلحون صباح مساء في استئناف الحرب فأعلنت في ٢٠ مارس سنة ١٨٤٩ وهزم القائد النمساوي رادتسكى الملك شارل البير شر هزيمة في نوفار فما كان من الملك الا أن ترك صولجانه لفكتور عمانويل الثانى الذى ستحقق ايطاليا على يديه وحدتها واستقلالها •

وبعد نكبة نوفار أراد البرلمان الرومانى تقوية الحكومة فسلم مقاليد السلطة التنفيذية الى مازينى ، وسافى ، وأرميلينى ، ولكن البابا استنجد بنابليون الثالث رئيس الجمهورية الفرنسية الذى كان فى هذا الوقت يعمل على كسب ثقة الجيش والقساوسة ليعاونوه على هدم الجمهورية فجاء أودينو على رأس جيش فرنسى واحتل روما بعد أن دافع جارييلدى عنها دفاعا مجيدا (٣ يوليه سنة ١٨٤٩) •

وظلت فينيسيا وحدها تقاوم النمسا حتى النهاية مقاومة خلد التاريخ لها ولزعيمها الأكبر مانان أجمل الذكر •

وتتلخص أسباب فشل ثورة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ فيما يأتى :

١ - ان ايطاليا دخلت الحرب القومية قبل أن تتم الاصلاحات وقبل أن يتيسر للبرلمانات الجديدة أن تصلح الحكومة وتخرج منها جميع الموظفين الرجعيين الذين كانوا ألد أعداء الثورة والاصلاح •

٢ - ان بقاء البابا على الحياد بعد أن كان معقد آمال الجميع وبعد أن هتف باسمه الأمراء والشعب قبل الحرب وفى أولها كان ضربة قاسية لها •

٣ - ان ايطاليا التى دخلت الحرب لم تكن ايطاليا الكهله الناضجة بنت التجارب والسياسة ، بل كانت ايطاليا الفتاة التى تمكن خيالها السامى من فؤادها فغلبها على أمرها •

وسرعان ما عجلت النمسا بعد انتصارها ببسط نفوذها على البلاد حتى خيل للبعض أن ايطاليا فى سنة ١٨٤٨ ما زالت فى موقف سنة ١٨١٥ ،

والحقيقة أن إيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر كانت بفضل شعرائها وأدبائها الوطنيين وبفضل المبادئ التي أعلنتها الثورة الفرنسية على ملاء العالم كالجنين وسط الظلام ، ولكنها في نهاية الاحتلال الفرنسي سنة ١٨١٤ وجدت حياة قومية جديدة فنزلت هذه الطفلة الى الوجود فتجاهل مترنخ في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ وجودها ، ثم ثارت في سنة ١٨٢٠ وفي سنة ١٨٢١ وفي سنة ١٨٣١ تحت لواء الكربوناري فأثبتت أنها تريد أن يعترف بوجودها ، ثم جاء مازيني وغرس في فؤادها المبدأ وحوله الى عقيدة ثابتة فعملت « إيطاليا الفتاة » على تحقيق خيالها السامى وتقلدت سيفها في أخريات شبابها سنة ١٨٤٨ فهزمتها النمساوى ولكن هذه الهزيمة كانت تجربة كبرى وكانت نتائج هذه التجربة ثلاث :

١ - ان مبدأ الاعتماد على النفس الذى أعلنه مازيني واعتنقه شارل البيير كان لا بد أن يسير جنباً لجنب مع مبدأ الاعتماد على مخالفة أجنبية - وهو ما سيسعى في تحقيقه كافور بين ١٨٤٩ و ١٨٥٩

٢ - ان مبدأ الاستقلال قبل الوحدة ، الروحية على الأقل ، لا يصلح ، ولا بد من ترك فكرة النظام الاتحادي .

٣ - أصبحت ييمون بحكم الفعل بين ١٨٤٩ و ١٨٥٩ الولاية الوحيدة المستقلة الدستورية فبينما كانت الحركة الرجعية تطارد الأحرار والحرية في كل ولاية كانت ييمون ملجأ لعشرات الآلاف من أبطال الثورة المنفيين ( يقال انهم كانوا خمس سكان مدن ييمون ) وكان برلمان ييمون خير ضمان للتقدم والرقى : كل ذلك جعل الأسس التي ستقوم عليها إيطاليا الحرة متينة في ييمون .

٤ - ظهر عدم صلاحية فكرة مازيني الأصلية القائلة بثورة ٢٠ مليون إيطاليا بواسطة حرب العصابات ، لأن ثورة سنة ١٨٤٨ التي قام بها الشعب بأسره وبلغ عدد الجيش فيها من نظاميين ومتطوعين ٨٠٠٠٠٠ لم



تنجح ، وكان عدم وجود نظام متين يحل محل النظام الذي ترتجله  
الوطنية من أكبر عوامل الهزيمة ، فوجب من ذلك الوقت العمل على  
تنظيم الجيش بعدد وعديد وادخال الثورة في طريق الوحدة المتماسكة ،  
في طريق العمل الصامت الذي لا يعلن عن نفسه ، في طريق السياسة  
التي تحتال ، في طريق الاصلاحات الاقتصادية التي هي دعائم  
الاستقلال السياسي ، حتى تخرج منه الثورة في صورة حرب منظمة  
أداتها جيش منظم •

## البَابُ الثَّانِي

### عصر الحروب والاصلاحات

قطعت الحركة الاستقلالية مرحلتها الثانية بين سنة ١٨٤٨ و ١٨٧٠ :  
وقد نضجت الحركة في العشر سنوات الأولى ( ١٨٤٨ - ١٨٥٩ )  
ودخلت بفضل مساعدة نابليون الثالث في طور تحقيق •

### الفِصْلُ الأوَّلُ

#### القوى الرئيسية في الحركة

لأجل تفهم المرحلة الثانية نبتدىء بكلمة اجمالية عن القوى الفكرية  
الرئيسية في الحركة : هذه القوى يمثلها مازيني وجيوبرتي ، وفكتور  
عمانويل ، وكافور ، ومانان ، ولافارينا ، وجاريلدي ، ونابليون •

مازيني - أصبح مازيني بعد سنة ١٨٤٨ صعب الاحتمال صعب  
القياد لأنه لا يتطور فبينما كان الطليان يعقدون آمالهم على ييمون  
وجيشها ظل مازيني متعنتا في التمسك بوسائله الثورية وعدم الانتظار  
هو وأنصاره الذين ما فتئوا يرمون ملوك ييمون بالخيانة والتهاون  
في حقوق البلاد ، ويمكن القول أن نفوذ مازيني قد ضعف بعد  
ثورة ٤٨ •

جيوبرتي - تطور جيوبرتي بعد ثورة ٤٨ ووضع في سنة ١٨٥١  
كتابا جديدا في « النهضة » ( Rinomovamento ) فيه تركه لسياسته السابقة التي  
كانت ترمي الى جعل البابا زعيم الحركة واعتنق مبدأ سيادة مملكة سردانية



بصفتها الأساس الذي لا بد منه للاستقلال الايطالى ، وكان لهذا الكتاب  
أثر كبير فى السياسة العامة •

**فكتور عمانويل** — هو الذى أمضى صلح سنة ١٨٤٩ ؛ وقال  
فى أثناء مفاوضته مع رادتسكى : « اننى بدلا من قبول هذه الشروط  
أفضل ضياع ألف تاج ، ان اليمين التى حلفها أبى لا بد أن أحافظ عليها ،  
وان بيتى ليعرف طريق المنفى لا طريق العار » هذا هو خلق الرجل الذى  
كان من أكبر بناء الوحدة والاستقلال أما سياسته فقد أعلنها فى أول  
بيان أصدره الى شعبه : « كل مجهوداتنا يجب أن توجه الى تضييد  
الجروح التى أصابت بلادنا وتقوية دعائم النظم النيابية » ، وقد نجح  
فى توطيد المملكة وانتشال التاج من الوهدة التى كان فيها •

**كافور** — يكاد يكون كافور أكبر ساسة القرن التاسع عشر ، سياسته  
عملية تغتتم كل فرصة وتتجنب بواسطة الاصلاحات الثورة فى الداخل ،  
وتعمل فى الوقت نفسه على تهيئة الثورة الصحيحة ضد الأجنبى المحتل  
تحت ستار السلم والنظام ، وهو الذى كون مملكة ايطاليا الشمالية  
سنة ١٨٥٩ بمساعدة فرنسا ، واليه يرجع الفضل الأكبر فى بناء  
وحدة ايطاليا •

**مانان** — مانان من أكبر رجال ثورة ٤٨ اشتهر فيها بدفاعه الخالد  
الذكر عن فينيسيا ، وكان جمهوريا صميما من أنصار الثورة فى دائرة  
القانون والحكمة • نفى فى باريس بعد سنة ٤٩ فعاش فيها وذاق أنواع  
الفقر ، وهو أول من وضع برنامجا مرسوما للحركة فصرح للصحافة  
فى ١٩ مارس ١٨٥٤ « بأن استقلال ايطاليا ووحدها غير منفصل  
أحدهما عن الآخر يكفلان لها راحتها وطمأنينة أوروبا » •

وكان مانان سنة ٤٩ يريد جمهورية مكونة من ولايات متحدة  
مستقلة ولكنه وهو رجل عملى يضحى بأرائه الشخصية فى سبيل  
الصالح العام تطور • ولما بلغه أن نابليون يرغب فى تعيين ابنا لميراث  
ملكا على نابولى كتب الى الصحف فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٥٥ يقول :

« اذا كانت ايطاليا الجديدة لابد أن يكون لها ملك فيجب أن يكون ملك بيمون » •

فمانان هو رافع لواء الوحدة لتندمج تحته جميع الأحزاب في حزب قومي واحد ، واليه يرجع الفضل في اقناع كافور في سنة ١٨٥٦ باتباع برنامجه الوطني المحدود الذي يتلخص في هاتين الكلمتين : « ايطاليا وفكتور عمانويل » •

وقد أسست تحت رعايته وهو في منفاه في سنة ١٨٥٧ « الجمعية الوطنية » (Société-Nationale) التي لعبت دورا كبيرا في الحركة زمتا طويلا •

**لافاريننا** — كان لافاريننا من رجال ثورة صقلية في سنة ٤٨ وكان رأيه المقاومة الى النهاية فنفى في ٢٣ أبريل سنة ١٨٤٩ ، وألف في سنة ١٨٥٦ ، بمناسبة دسائس نابليون في نابولي ، رسالة عنوانها « ميراث والوحدة الايطالية » أيد فيها ، بالرغم من كونه جمهوريا ، برنامج مانان ، برنامج الوحدة والاستقلال قبل كل شيء •

ولافاريننا من أكبر الرجال المتحركين العاملين فهو الذي لم شتات حزب مانان في « الجمعية الوطنية » التي كان هو سكرتيرها ، وبفضل نشاطه صار للجمعية لجان فرعية في أنحاء ايطاليا المختلفة وأمكنها أن تمسك بزمام الحركة •

**جارييلدي** — كان وطنيا مخلصا من أنصار حرية الشعوب وهو رجل السيف الذي ضم جنوب ايطاليا الى شمالها •

**نابليون** — لعب نابليون الثالث رئيس جمهورية فرنسا وامبراطورها دورا كبيرا في الحركة الايطالية مدة ٢٠ عاما • كانت سياسته مملوءة بالمتناقضات خليطا بين الخياليات والعمليات وهو من أكبر الرجال الذين عملوا على تطبيق مبدأ القومية في أوروبا وخصوصا في ايطاليا ولكنه شوه هذا المبدأ بوقوفه في طريق وحدة ايطاليا — أقول الوحدة



لا الاستقلال - لتكون الدولة المجاورة لفرنسا ضعيفة مقسمة ، وبوضع  
بده على نيس وسافواى ثمنا لمساعدته •

وقد لعبت بيمون بعد ثورة ١٨٤٨ أكبر دور في الحركة ، وتاريخها  
في العشر سنوات الأولى هو تاريخ الحركة التي رفع لواءها هؤلاء  
الزعماء وأولهم كافور •

## الفصل الثاني

### كافور ( ١٨١٠ - ١٨٦١ )

ولد كافور في تورينو حاضرة بيمون في ١٠ أغسطس سنة ١٨١٠ واشتغل بالسياسة حوالي سنة ١٨٣٩ ، وقد اعتقد من وقت حدوث ثورة يوليه الباريسية في مزايا الملكية الدستورية التي هي وسط بين حكومة مستبدة وحكومة جمهورية ، ودرس في شبابه المسائل الاقتصادية والزراعية في فرنسا وانجلترا وعاد سنة ١٨٤٧ الى تورينو حيث انضم الى المعتدلين الاصلاحيين وأسس جريدة ( البعث ) للمطالبة بالدستور الذي كان هو أكبر عامل على ايجاده وتوطيد دعائمه .

وبالرغم من فشل ثورة ٤٨ - ٤٩ فانه لم ييأس وكان يقول : « ان مستقبل ايطاليا مكفول ما بقى الدستور في بيمون » وانتخب عضوا في أول برلمان وكان أكبر همه تأييد وزارة أزجليو في سياستها الاصلاحية ، واشتهر في سنة ١٨٥٠ بخطبته البرلمانية المتعلقة بقوانين « سيكاردى » وهذه القوانين هي بدء النزاع الكبير الذي دام عشرين عاما بين ملك بيمون زعيم السلطة المدنية وبين البابا زعيم السلطة الدينية .

أما سبب النزاع القائم فيتلخص في افتتاحات السلطة الثانية على الأولى فان البابا كانت له ولايات في ايطاليا هو الأمر الناهى فيها وكانت روما ، بسبب استثثار القساوسة واليسوعيين بالسلطة المدنية ومحاربتهم الاصلاحات ، بؤرة الحركة الرجعية ، وفوق ذلك كان القساوسة والرهبان في جميع الولايات الأخرى حكومة داخل الحكومة ، ففى بيمون مثلا كان عددهم يبلغ ١٨٠٠٠ ، وكان للكنيسة وحدها



الحق في تطبيق القانون عليهم في محاكمها الخاصة وحق مراقبة التعليم وما شاكل ذلك من الامتيازات المعرقله للاصلاح ، وكان دخلها أكبر من دخل الحكومة مما دعا الى تدمير الأهالي وكان لابد من وضع حد لتلك الحال : أرسل فكتور عمانويل الكونت سكاردي الى البابا فأبى أن يحدث أقل تغيير في العلاقات بين الكنيسة والحكومة في ييمون فما كان من الحكومة الا أن ألغت أكبر محكمة للكهنوت وكثيرا من الامتيازات ، وألقى كافور ، تأييدا لهذه السياسة ، في ٧ مارس سنة ١٨٥٠ ، خطبته الشهيرة التي جاء فيها :

« اذا أردتم أن تتجنبوا الثورة فاعملوا الاصلاحات في ميعادها ، ولا تظنوا أنها تزعزع العرش الدستوري فالأمر على الضد ، انها تقويه وتمكنه في أرض الوطن حتى اذا هددتنا الثورة ثانية كان العرش الدستوري هاديا والتفت حوله جميع القوات الحية في ايطاليا وسار على رأس هذه الأمة الى الغاية الكبرى » •

وفي أكتوبر سنة ١٨٥٠ عين كافور وزيرا للزراعة والتجارة مكان سانتا روزا فعمل على تنفيذ اصلاحات كبيرة لانماء رفاهية البلاد واعلاء شأنها فنظم الجيش والأسطول ، ومد السكك الحديدية ، وعقد معاهدات تجارية مع فرنسا وبلجيكا وسويسرا وألمانيا كانت عاملا كبيرا في تنشيط التجارة وزيادة الثروة وكانت أول خطوة في سبيل المحالفات السياسية •

وفي سنة ١٨٥٢ عين كافور بعد استقالة أولى تبعته سياحة في الخارج وزير ييمون الأول فرسم برنامجه في خطبة له : « على ييمون أن تبدأ بترقية نفسها فتهيء لها في أوروبا وفي ايطاليا مكانة رفيعة تتناسب مع مطامعها ، ولتكن سياستها المقبلة واحدة في غايتها مرنة متنوعة في وسائلها فيما يتعلق بنظام الجيش والسياسة الدولية والمسائل الدينية » •

ولأجل تحقيق هذه السياسة كان كافور يسعى في :

١ - نشر عوامل التقدم والنهضة في ييمون تحت ظل الحرية والدستور والنظام •

٢ - عدم الظهور في أوروبا بمظهر زعيم ثوري لأن أوروبا كانت تكره الثورة خصوصا وان النمسا كانت تدعى أن ييمون ملجأ مشعل النار في أوروبا •

كان كافور في داخل ايطاليا يحارب فكرة الثورات المحلية الانفرادية التي تفتح الأعين ولا تأتى بشمرة تذكر ، ولكنه كان في الوقت نفسه يعمل على الاستفادة منها سياسيا في الخارج فيتهم النمسا بأن سياستها الخرقاء تهدد السلم في ايطاليا وتولد الثورة فيها •

٣ - العمل على جعل تورينو مركز الحركة في ايطاليا جميعها فكان في خطبه يذكر ايطاليا كلما ذكر ييمون ، وكان يظهر في صورة المحامى عن الظليان المظلومين في الولايات المختلفة ، وكان يسهل لآلاف المنفيين في ييمون طرق المعيشة سواء كان ذلك باعطائهم كراسى في الجامعة أو وظائف في الحكومة ، وكان في الوقت نفسه متصلا في السر بجميع قوى الثورة المنظمة في ايطاليا ويشجعها ويدير حركاتها في الخفاء •

٤ - التقرب من الدول والتحالف مع فرنسا لمساعدة ييمون على طرد النمسا من شمال ايطاليا •

وكانت مسألة المحالفة أساسية في سياسة كافور ليضمن النجاح أمام النمسا الكثيرة العدد والعدد ، فلما حدثت الحرب الشرقية في القرم وأرادت انجلترا وفرنسا محاربة روسيا سعتا في اشراك ييمون معها ووعدتها انجلترا باقراضها مليون جنيه فقبل كافور بشرط أن تكون ييمون ممثلة في جميع المؤتمرات التي تعقد بسبب الحرب وبشرط أن تعتبر ييمون حليفة لا مأجورة ، ولم يتمكن كافور من انفاذ خطته



الجريئة الا بفضل وقوف فكتور عمانويل بجانبه ضد المعارضة التي كانت تعد عمله جنونا ، وقد أرسل كافور لامرمورا منظم الجيش الى انقرم ومعه ١٧٠٠٠ جندي ابلوا بلاء حسنا فيه شرف وفخار لبلادهم .  
وفي سنة ١٨٥٦ عقد « مؤتمر باريس » ومثل فيه كافور بيمون فاحتل فيه بفضل سياسته الحكيمة المتفوقة مكانة أعلى من المكانة التي تتناسب مع ولايته الصغيرة ، ورسم للمؤتمر أثناء انعقاده صورة الظلم السائد في ولايات البابا وفي ولاية نابولي وصرح « بأن السبب الأساسي هو النمسا عدوة استقلال ايطاليا والخطر الذي يهدد كيان الأمة الوحيدة الحرة فيها ، تلك الأمة التي لى الشرف بتمثيلها » .  
ورغما من تأييد النمسا وانجلترا لكافور أبى ممثل النمسا أن يعد باجراء أى اصلاح فى ايطاليا .

وبعد انفضاض المؤتمر قدم كافور مذكرة الى ممثلى فرنسا وانجلترا الكونت والفسكى واللورد كلارندن ألقى فيها كل المسؤولية على النمسا المتعنتة التي تعمل بسياستها على خلق الثورة فى ايطاليا .  
ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المقام أن النمسا بين سنة ١٨٤٩ وسنة ١٨٥٦ كانت مهيمنة على جميع ايطاليا وقد عقدت مع أمراء ولايات الوسط معاهدات تخول لها حق التدخل بالقوة عند حصول ثورة من السكان وحق احتلال البلاد فى حالة حرب .

حاول نابليون الثالث أثناء انعقاد المؤتمر مساعدة كافور على الخروج منه بمكسب ماضى كضم بعض البلاد الايطالية الى بيمون فلم يفلح ، على أن هذا المؤتمر يعتبر ، رغما من ذلك ، نقطة أساسية جديدة فى تاريخ بيمون ارتكزت عليها المسألة الايطالية فى الأفق الأوربى ، واعترفت الدول عمليا بوجودها ، فصححت بيمون مركزها ، بصفتها صاحبة الحق فى الدفاع عن الطليان الذين هضمت النمسا حقوقهم ، وتقرر مبدأ شرعية الثورة التي لجأ وسيلجأ اليها الطليان ثانية تحت لواء بيمون لهدم الظلم القائم .

لما عاد كافور الى بيمون خُطب في مايو سنة ١٨٥٦ خطبة قال فيها :  
« ان القضية الايطالية أصبحت الآن أمام محكمة الرأي العام »  
فاحتجت النمسا ضد ادعاء كافور التكلم باسم ايطاليا واتهمت الوزير  
الجسور بالتحريض على الثورة •

وقد كان لعمل كافور في المؤتمر أثر عظيم في نفوس الأحرار  
في ولايات ايطاليا فأرسلت اليه ولاية البابا مدالية ذهبية مكتوبا  
عليها بيت شعر لبتراارك معناه : « ما تصنع هنا هذه السيوف  
الأجنبية العديدة ؟ » •

وكانت النمسا في آخر سنة ١٨٥١ أرادت تغيير سياستها فأرسلت  
الى مملكة لومبارديا وفنيسيا ما كسمليان حاكما عليها لاجراء  
بعض الاصلاحات ولكن ذلك ما كان ليهدىء ثائرة الأحرار الذين  
قال بلسانهم مانان وهو في منفاه في باريس : « اننا لا نطلب الى  
النمسا أن تكون أكثر رحمة بنا من ذى قبل وانما نطلب اليها أن  
تجلو عن ديارنا » •

استمر كافور بعد عودته من المؤتمر في تنفيذ سياسته فبنيت حصون  
جديدة في الاسكندرية ، ودعت جريدة وطنية في تورينو الى فتح  
اكتتاب عام لشراء ألف مدفع توضع في حصونها فوردت مبالغ  
جسيمة من الطليان في جميع أنحاء العالم ، وفتح سرداب مون سيني  
وهو أجل الأعمال النافعة ، وأصلحت أرصفة ميناء جنوى فتجددت  
رفاهيتها ، وبلغ ما مد من السكك الحديدية بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٨  
٩٩٠ كيلو ، ونظم الجيش والأسطول •

كان مانان زعيم فينيسيا في باريس يقول : « ان في ايطاليا قوتين  
حيتين : جيش بيمون والرأي العام » ولاشك في أن سياسة كافور  
كانت تدور حول هاتين النقطتين اذ بينما كان يعد الجيش في بيمون  
ويزيده عمل جهده ليحوطه بقوة الرأي العام الايطالى ، هذه القوة  
الأدبية التى لا بد منها لتحقيق الغاية •



ولكن لأجل كسب الرأى العام كانت الحاجة شديدة الى قوة منظمة روحها العقيدة والالهام : كانت هذه القوة ممثلة أحسن تمثيل فى مانان وفى « الجمعية الوطنية » التى انشئت فى تورينو تحت رعايته وكان كافور اطلع على سرها عند تأسيسها بواسطة لافارينا • كان شعار الجمعية : « الاستقلال والوحدة وطرد النمساويين والبابا » وكان كافور يرى كل صباح قبل طلوع الفجر لافارينا ويتفق معه على خطة السير • وفى سنة ١٨٥٧ عين بالافيسينو صديق مانان وناشر مبادئه فى ايطاليا رئيسا للجمعية وجاريدى وكيلا لها ، فأكسبها اسم بطل موتفديو قوة وحياة بين طبقات الشعب •

وفى يناير سنة ١٨٥٨ جرى حادث « أورسينى » الذى حاول أن يقتل نابليون الثالث فى طريقه الى الأوبرا زاعما أن خلاص ايطاليا متوقف على موت ذلك الرجل المستبد ، ويظهر أن هذا الحادث أثر فى نفس الامبراطور فاعتزم العمل ودعا كافور للقائه سرا فى بلومبير بجبال القوج فى ٢٠ يوليه سنة ١٨٥٨ واتفق معه شفويا على مساعدة ييمون بجيش قدره ٢٠٠٠٠٠٠ ضد النمسا بشرط ألا تكون الحرب لخدمة فكرة ثورية اذ لا بد من مبرر سياسى فى أعين الدول ، وبشرط أن تضم سافواى ونيس الى فرنسا •

من ذلك الوقت استخدم كافور « الجمعية الوطنية » لنشر الدعوة لليمون وجمع المتطوعين من جميع أنحاء ايطاليا استعدادا للحرب المقبلة ، وأشار كافور على الجمعية منعاً لكل خلاف بابدال شعار الوحدة بالاستقلال ولعل هذا التغيير كان فى الظاهر ، وفى سنة ١٨٥٨ قدم لافارينا جاريلدى الى كافور ليكون واقفا على ما يحدث وليأخذ أهفته •

وكان الأحرار فى الولايات وخصوصا فى لومبارديا تغتلى فيهم الوطنية ويترقبون بفارغ الصبر حرب الحرية والاستقلال •

وفي أثناء استقبالات رأس سنة ١٨٥٩ أظهر الامبراطور لسفير النمسا في باريس أسفه لأن العلائق بين البلدين ليست حسنة كما كانت من قبل فكان لهذا التصريح في الدوائر السياسية مغزى كبير .

وفي ١٠ يناير ألقى الملك خطبة أعدها له كافور بمناسبة افتتاح البرلمان جاء فيها : « ان الحالة ليست خالية من الأخطار واننا وان كنا نحترم المعاهدات ولكننا لا يمكننا أن نصم آذاننا عن صيحة الألم (Grido di Dolore) التي تصعد إلينا من بلاد بعيدة في ايطاليا . « أقوياء في بلادنا ، واثقين بعدالة قضيتنا ، ها نحن أولاء تترقب بالحكمة وصادق العزم أمر الله سبحانه » .

كان لهاتين الكلمتين « صيحة الألم » صدى رددته ايطاليا واهتز له الرأي العام من كل جانب .

ولكن نابليون بدأ يتردد تحت تأثير الدول وطلب الى كافور المجيء للقائه في باريس ( ٢٦ مارس ) ورجاه أن لا يعجل بالحرب فخشى كافور أن تفلت الفرصة من يده وهدده بخوض غمار الحرب وحده وبافشاء أسراره ومما قاله له : « عندنا اليوم قوة أدبية تعدل جيشا ، اذا فقدناها لم نجد من يردنا إلينا » ، هذه القوة الأدبية التي يعيها كافور هي قوة الرأي العام .

ومن ثمة كان شغل كافور الشاغل ايجاد « المبرر السياسي » الذي اشترطه نابليون ، وكأنما أرادت النمسا أن تتكفل هي بخلقه اذ طلبت الى بيمون ايقاف التسليح فأخذ كافور في مراوغتها ومضايقتها بأساليبه السياسية الدقيقة حتى ضاق ذرعها وأرسلت في ٢٣ أبريل الى حكومة بيمون بلاغا تتقدم اليها فيه بنزع السلاح في الحال والرد في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام .

كان هذا البلاغ بمثابة اعلان حرب وغلظة سياسية كبرى حملت النمسا وزرها ، روى أن كافور قال عند استلامه البلاغ لبعض



أصدقائه : « قضى الأمر وكتبت لنا صحيفة في التاريخ ، فلنمض  
الى العشاء » •

وفي ١٣ مايو تقابل الملك في جنوى مع الامبراطور الذي جاء  
« ليحرر ايطاليا من جبل الالب الى الادرياتيك » ، وفي ٤ يونيه  
انتصر الحلفاء على النمسا في ماجنتا ودخلوا ميلانو في الثامن منه ،  
وفي يوم ٢٤ انتصروا انتصارا كبيرا في سولفرينو وسان مارتينو ، وهنا  
وقفت رحى الحرب فجأة وذهب نابليون على غرة للقاء الامبراطور  
فرنسوا جوزيف في « فيلا فرانكا » حيث عقدت بينهما هدنة تقرر  
بمقتضاها ضم لومبارديا الى بيمون وترك فينيسيا للنمسا •

آلم هذا النباء غير المنتظر جميع أحرار الطليان في فينيسيا ومودين  
وتوسكانة وعد كافور هذا العمل من الامبراطور خيانة وحاول أن  
يقنع الملك بعدم الموافقة على شروط الهدنة فلم يفلح فاستقال ومضى  
الى مزارعه في اليرى ، ويقال ان هذه أول مرة تغلب فيها سلطان  
الغضب على ذلك العقل الراجح •

ذهب كافور بعد ذلك الى سويسرا وهناك وسع برنامجه وجعله  
كبرنامج مانان : « انهم يتهموننى - يقول كافور - بأنتى رجل ثورى  
ولكن يجب قبل كل شىء أن نسير الى الأمام ، وسنسير » •

ولما عاد الى وطنه ، وكانت « الجمعية الوطنية » قد تكونت من جديد  
- بعد انحلالها في أول الحرب لترك زمام الحركة لحكومة بيمون -  
أخذ يعمل بواسطتها على نشر الدعوة فى امليا وتوسكانة للانضمام  
الى بيمون •

وفي ٢٠ يناير سنة ١٨٦٠ دعاه الملك لرئاسة الوزارة اجابة لرغبة  
الرأى العام ، ويمكن القول بأن كافور بعد صلح فيلافرانكا مسك  
بزمام الثورة صراحة وعدا بها عدوا جريئا فى طريق الوحدة والاستقلال ،  
أعانه على ذلك تقرير نابليون فى الصلح مبدأ عدم التدخل ، واحتجاج

انجلترا على سياسة النمسا وسعيها في جذب الحركة الايطالية اليها لاسيما وأن الطليان أصبحوا ساخطين على فرنسا ، وقد عرف كافور كيف يستفيد من الخلاف بين الدولتين وأجرى في الحال استفتاء عاما (Plebiscite) في ولايات الوسط تأكيدا لمبدأ القومية الذي نادى به نابليون وارضاه له فأعلنت ولايات توسكانه والرومانية ومودين وبارم بواسطة جمعيات منتخبة انضمامها الى مملكة الشمال في ظل عمانويل •

وفي ٢٤ مارس سنة ١٨٦٠ أمضى كافور — والأسى ملء فؤاده — مع مندوب فرنسا معاهدة تعطي مقاطعة سافواي ، مهد الأسرة الحاكمة ، ونيس وطن جاريلدى الى فرنسا بشرط أن يوافق سكان المقاطعتين والبرلمان الايطالى على ذلك ، وفعلا تمت هذه الموافقة في أبريل فدل الطليان بهذه التضحية على تشبعهم بالروح السياسية العالية •

**كافور وجاريلدى** — أخذت أنظار الطليان بعد اندماج ولايات الشمال والوسط في مملكة واحدة تتجه الى الجنوب ، وبينما كان البابا يحشد الجند تحت قيادة لامورسيير استعدادا للطوارئ ، وفرنسا الثانية ملك نابولى يتهيأ لمساعدة البابا لاسترداد الولايات المفقودة أشعل المزيينون الثورة في مدينة بالرم بجزيرة صقلية فاتفق لافارينا سرا مع كافور على ارسال حملة الى الجنوب يرأسها جاريلدى وأمدته بالمال اللازم وبعدد كبير من بنادق الحكومة ، وقد بذل كافور جهده في تغطية مسؤولية حكومة بيمون أمام الدول المحتجة •

ويجدر بنا الآن أن نقول ان كثيرا من المزيينين كانوا يتوهمون أن كافور ليس من أنصار الوحدة الذين يعتمد عليهم ، والحقيقة أن سياسة كافور كانت عملية تتنوع بحسب الظروف فاذا رأى أن في امكانه مثلا الذهاب في طريق الوحدة الى مدى أبعد مما كان يعتقدده لم يتردد لحظة واحدة ، وكافور هو الذى قال بعد معاهدة فيلافرانكا : « انهم منعونى من بناء ايطاليا بالسياسة من الشمال وسأبنيها بالثورة من الجنوب » •



وفي مساء ٥ مايو غادرت حملة جارييلدى المسماة « حملة الألف »  
مدينة جنوى الى بالرم التي كانت خير عون للثائرين ، وفي يولييه  
امتدت الثورة في صقلية وقلبت حكومة البوربون فيها ، وأعلن جارييلدى  
فيها دكتاتوريته باسم الملك فكتور عمانويل فأعلن نابليون استيائه  
فأوعز كافور الى الملك بارسال كتاب رسمى الى جارييلدى ينصحه  
فيه بالعدول عن عبور بوغاز مسينى ، ولكن كافور فى الوقت نفسه  
أرسل فى السر الى جارييلدى بواسطة صديقه القائد برسانو كتابا يقول  
له فيه : « انه لا يجوز الوقوف فى منتصف الطريق » وسرعان ما عبر  
جارييلدى البوغاز فى ليلة ١٩ أغسطس •

وفى أثناء ذلك كان كافور يعمل بكل الوسائل على خلق الثورة  
فى مملكة نابولى مستعينا بسفير ييمون فيها ، وفعلا ثارت ولايتها واضطر  
ملكها فرنسوا الى الفرار فى مدينة جيت فى ٦ سبتمبر ١٨٦٠  
وفى غد ذلك اليوم دخل جارييلدى نابولى دخول الفاتحين والناس  
بين مهلل ومكبر •

ولما كانت الدول هائجة تحتج أرسل كافور الى جارييلدى ينصحه  
بالتعجيل باعلان ضم مملكة نابولى الى ييمون لتكون الدول أمام  
أمر واقع فأبى جارييلدى ، الذى كان وقتئذ ألعوبة المزيين المحيطين به ،  
بحجة أنه يريد انقاذ روما أولا — مع علمه بوجود جيش احتلال فرنى  
فيها — واسترداد نيس من فرنسا •

ولقد صدق مازونى اذ قال : « ان الذى يعطى لسياسة كافور  
هذا الشأن الأول هو أنها جمعت بين التبصر وعدم التبصر » وهل أدل  
على ذلك من كون كافور لما رأى أن سياسة جارييلدى وحزب الثورة  
قد تنكبت سبيل الحكمة وأصبحت تهدد القضية قرر فى الحال  
— رغما من المركز الدولى الدقيق — أن تمسك حكومة ييمون نفسها  
بزمam الثورة لتحسن سياستها وتوصلها الى غايتها •

وفي أقل من عشرين يوما في سبتمبر خرج جيش ييمون من الحدود واحتل ولايتي مارش وأومبريا من ولايات الكنيسة وهزم جيش البابا ، وقد اقتنع جارييلدي أخيرا بضرورة الضم وبعد تصويت عام في مملكة نابولي وصقلية أعلن أهلوها الانضمام الى مملكة فكتور عمانويل في ٦ أكتوبر سنة ١٨٦٠ وقضى على حكم البوربون فيها •

وكانت إنجلترا هي الدولة الوحيدة التي اغتبطت بانتصار الثورة الايطالية فبعث وزير خارجيتها الى السفير الانجليزي في تورينو كتابا ذكره المؤرخ بيترو اورسي في مؤلفه جاء فيه : « يجب أن نعترف بأن الثورة الايطالية سيست بروح تسامح واعتدال لا نظير لهما ، فان سقوط الحكومات القائمة لم يعقبه كالعادة انطلاق سورة غضب شعبي ، ولم تتغلب في بلد ما آراء الديموقراطيين المتطرفة بل حال الرأي العام دون مظاهر المغالاة التي تصحب كل انتصار شعبي ، ولقد دقت حكومة جلالة الملك النظر في مقدمات الثورة الايطالية ونتائجها فلم تجد فيها ما يبرر التأنيب الشديد الذي وجهته حكومات النمسا وفرنسا وبروسيا الى أعمال ملك ييمون ، وان حكومة جلالة الملك لتفضل أن ترى ذلك المنظر الرائع ، منظر شعب يعلى بناء حريته ويوطد دعائم استقلاله وسط عطف أوروبا ودعواتها الطيبات » •

وفي أواخر أكتوبر قصد فكتور عمانويل مدينة نابولي فذهب جارييلدي للقاءه في طريقه ببلدة في اقليم كازرتا ثم ذهب معا الى نابولي ودخلاها في ٧ نوفمبر بين الهتاف والتهليل ، وهناك أعطى ذلك الجندي العظيم مثالا عاليا للوطنية الصادقة اذ سلم القيادة الى ملك ييمون وعاد وحده للانزواء بجزيرة كابريرا •

وبعد ذلك أتم الجيش النظامي العمل الذي قام به المتطوعون فاحتل الجهات والحصون القليلة الباقية •

وفي فبراير سنة ١٨٦١ اجتمع في تورينو أول برلمان ايطالي ،



وفي ١٤ مارس نودى بفكتور عمانويل « ملكا لاطاليا » فأصبح حاكما  
على ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ نفس •

**فينيسيا وروما** — لم يبق الآن أمام الطليان لتحقيق وحدتهم  
واستقلالهم الكامل الا فينيسيا وروما وهما مشكلتان صعبتان لأن  
الأولى منهما تستدعى حربا جديدة مع النمسا بدون نابليون الذي وقع  
تحت تأثير الاكليروس أعداء الوحدة ، والثانية وعورة الطريق نظرا لمركز  
البابا في العالم الديني ووجود جيش فرنسي في روما •

أخذ كافور لأجل حل مشكلة فينيسيا يفكر في محالفة جديدة  
وكان قد أرسل في سنة ١٨٦١ الفونس لامرمورا الى غليوم ملك  
بروسيا ليخبره « بأن الطليان اعتادوا على اعتبار بروسيا حليفة طبيعية  
لهم » ، وزيادة على ذلك فان كافور في تلك السنة عينها التقى مع  
زعيم الثورة المجرية في سنة ١٨٤٩ كوسوت وتحالفا على تحرير المجر  
وفينيسيا معا من قبضة النمسا •

أما المشكلة الثانية فيظهر أنه اعتمد في حلها على السياسة  
وأساليبها المرنة •

في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٦٠ أعلن كافور في البرلمان « أن روما التي  
ورثت مجد ٢٥ قرنا لا بد وأن تصبح عاصمة مملكة ايطاليا » • وتناقش  
البرلمان في المسألة لغاية ٢٧ مارس فألقى كافور في ذلك اليوم خطبته  
الشهيرة التي أعلن فيها مبدأ « الكنيسة الحرة في الحكومة الحرة »  
وأيد البرلمان الوزير الكبير في خطبته •

ولكن بينما كان كافور يعمل على اتمام البناء مرض فمات  
في ٦ يونيو سنة ١٨٦١ مبكيا عليه من مواطنيه الذين جمع شملهم ورفع  
لواءهم وجعلهم أمة ، وبعد موت ذلك الرجل الذي قال عنه مازيني :  
« انه وطني في صميم القواد » ، وقال عنه سير روبرت بيل « انه أكبر  
رجل قاد أمة في طريق الحرية » سار الوزراء الذين خلفوه — وما أبعد  
المدى — على النهج الذي رسمه لهم •

وفي ١٥ سبتمبر سنة ١٨٦٤ اتفقت فرنسا مع إيطاليا على جلاء الجنود الفرنسية عن روما بشرط أن لا يتعرض لها وأن يجعل الطليان عاصمتهم فلورانس ، وقد تم ذلك سنة ١٨٦٥ وهى السنة التى احتفلت فيها إيطاليا من أقصاها الى أقصاها بالعيد المئوى السادس لميلاد دانت أول شاعر ايطالى كان له أثر فى الحركة الاستقلالية .

ولما كان بسمارك يريد طرد النمسا من ألمانيا سعى فى الاتفاق مع إيطاليا فتحققت بذلك فكرة كافور وعقدت محالفة سرية بين بروسيا وإيطاليا فى ٩ أبريل سنة ١٨٦٦

ابتدأت الحرب فى ٢٠ يونيه فهزم الطليان فى البر والبحر ولكن انتصار بروسيا ساعدهم على الخروج من الحرب بالغنيمة ففى ١٤ أغسطس أمضيت معاهدة براج التى سلمت النمسا بمقتضاها فينيسيا الى نابليون الثالث الذى قرر بصفته وسيطا تركها لإيطاليا بشرط موافقة السكان ، وقد وافقوا بالاجماع فى ٢١ و ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٦ .

اهتم الطليان بعدئذ بحل مشكلة روما التى تعقدت منذ القانون الذى كان أصدره البابا فى ديسمبر سنة ١٨٦٤ ضد حرية الصحافة وحرية التعليم وجميع مظاهر التقدم الحديث ، ولما يئس الطليان من سياسة اللين ذهب جارييلدى مع فرقة المتطوعين للهجوم على روما رغما من تهديد نابليون بالتدخل لحماية البابا فاضطرت الحكومة الى القبض عليه فتمكن من الهرب وعاد ثانية قاصدا روما والتقى بالفرنسيين فى طريقه فسالت الدماء وهزمت حملته واضطرت الحكومة الايطالية من جديد الى ارساله الى كابريرا .

وعبثا حاول الطليان اقناع نابليون بالتزحزح عن موقفه ازاء المشكلة الرومانية ، صرح روهر وزير فرنسا فى ذلك الوقت بأن فرنسا « لن تتحمل أى اعتداء على شرفها وعلى الكاثوليكية وان إيطاليا ستجد فرنسا فى طريقها الى روما يوم تغزو ولايات البابا » .



فلم يكن بد من الانتظار حتى حرب السبعين وسقوط الامبراطورية ،  
وقد كتب فكتور عمانويل ثانيا الى البابا يرجوه رجاء بنويا أن يتخلى  
عن السلطة المدنية فلم يقبل ، فعول الملك على الالتجاء الى القوة ،  
وفي ٢٠ سبتمبر كانت الجنود الايطالية في روما نفسها ، فبادر سكان  
ولايات البابا باعلان انضمامهم الى حكومة فكتور عمانويل في ٢ أكتوبر  
سنة ١٨٧٠ وزالت بذلك أكبر عقبة في طريق الوحدة التي كانت أساس  
الحركة الاستقلالية في ايطاليا •

## الكتاب الرابع

### الفصول

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY  
WASHINGTON, D.C. 20057



فصل في بيان حكمه  
والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب  
بما في هذا الكتاب

مكتبة  
الشيخ  
المرجع

## دقات الساعة

الآن وقد عسعس الليل وهمس النسيم في آذان الربى وأخذ الكرى  
بمعاقد الأجنان طويت الكتاب طلبا للهجعة كى أصبح موفور البدن  
فما كدت أطفىء المصباح وتأخذنى سنة من النوم حتى أرنت الساعة  
الدقاقة فنابتنى رعشة ونبا بى المضجع ونفى السهاد أثارة من الكرى  
علقت بأجفانى بعد ما هجع الطير والحيوان •

تنصف الليل ومر بعد وهنه ساعتان كما خبرتنا « ناعية الزمن »  
فتذكرت قول مدرس العربية منذ ستة أعوام تجرمت وترادفت ترادف  
الموج فى محيط السنين والأيام ان من أقسام المفعول المطلق ما يكون  
بيانا لعدده نحو : « دقت الساعة دقتين » •

أجل ، كرر الأستاذ مرارا هذا المثل فما كنت لأهتم له وكم دقت  
الساعة فى ذلك الأمس الدابر فكان وقع دقاتها فى أذنى كتنغريدة  
الطائر ورنات العيدان حين كنت أرتع فى خمائل الشباب النضر  
وما الشباب عندى الا زمن الجهل والغفلة يوم لم ندخل بعد ميدان  
الكفاح ولم نذق صاب الحياة وعلقمها •

وانى لأتمثل الدهر يومئذ وهو كالصبي الغشوم يتعلم الرماية  
وأنا كالدائرة التى مركزها الغرض ، وما الغرض الا القلب ، وسهامه  
دقات الساعة يرسلها فتطيش وتحلورنة القوس وهى تطلقها •

أما وقد تبدلت الأيام وجرت جوار بالنحس بعد السعد وشبنا  
من هول الزمان وصار فتانا كهلا من طوارق الحدثنان وجاء زمن اليقظة  
فليخفق القلب فان كل ساعة تمر ترسل اليه سهما من جعبة الآلام  
لايشذ عن الرمية حتى اذا تبينت الخيط الأبيض من الخيط الأسود  
ودرج الليل فى أكفان الصباح أحسست بأن فى فؤادى اثنى عشر سهما  
فوهبت الى نسمات الصبح زفراتى والى نداءه عبراتى •



لو لم يكن في دقائق الساعة الا تذكرة بما مر من نهار الحياة  
وتهديد بما سنلقاه لقلت حسبى بذلك ألما ، وما أنس لا أنس قول  
بعض الغافلين : « علام تبكى الماضى وتحن اليه بعد ما تفضت يديك  
من ترابه ، ورجع المشيع ، وفي الآتى كفاية » •

أجل ، رجعنا فراغ الأيدي ملاء القلوب ، ولو علموا أن المستقبل  
ان هو الا جزء من الماضى ، وأنا اذا بكينا الماضى فانما نبكى على  
المستقبل ، وان الغد أخو اليوم ، والساعة أخت الساعة والدهر  
أبو الجميع ، وقد تحالفت جميعا على الغدر لقالوا معنا انا الله وانا اليه  
راجعون •

تروعنى دقائق الساعة وأشعر منها بوحشة وانقباض ويخيل الى  
أنها صدى أقدام عدو شديد البأس صعب المراس خلقه الله شفافا  
كالهواء ، كما خلق بعض الحيوان بلون الصخر والرمال ، الا أن الأمر  
على الضد فالأول يتخفى ليصيد والثانى أجل أن لا يصاد وما نشعر  
الا وقد أصمى سهمه فى الساعة الأخيرة فأجهز على البقية الباقية :  
ذلك هو الموت •

الأهرام فى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٣

## موليير

غدا ١٤ يناير يحتفل رسميا في السربون وفي فرنسا من أقصاها الى أقصاها بذكرى موليير الذى ولد فى ١٥ يناير سنة ١٦٢٢ وستمثّل فى مسرح « الاوديون » بباريس حتى آخر هذا الشهر كل ليلة رواية لموليير ، أما باقى المراسح فى باريس والمقاطعات فستمثّل على الأقل فصلا كل مساء •

وفى شهر أبريل تقام حفلات الذكرى فى أنحاء أمريكا كلها فوجب علينا ، نحن المصريين ، أن نحى ذكراه لأنه ليس نابغة الفرنسيين فحسب ، بل أحد النوابغ الذين يفخر بهم العالم فجميعهم ماء تحدر من غمام واحد وان افترق نسبهم •

وما أصدق كلمة الفيلسوف تين فى كتابه الفذ عن « لافوتتين وقصصه » اذ قال : « ان موليير ولافوتتين هما غير مدافع العبقرى اللذان يمثلان أحسن تمثيل الفكرية اللاتينية والروح الفرنسية الأصلية » ومعنى ذلك أنك تجد فى قصص لافوتتين — التى ترجمها عثمان جلال وسماها العيون اليواقظ — وفى روايات موليير — وقد ترجم منها الى العربية الشيخ متلوف ومدرسة النساء ومدرسة الأزواج والزواج القهرى — أكبر علامات النبوغ اللاتينى وهى الوضوح وحسن الترتيب وأكبر مميزات الروح الفرنسية (Esprit gaulois) ، وهى تشبه الروح المصرية المولعة بالمزاح ، المستهترّة فى الظاهر بكل شىء ، الهازلة فى مواطن الجد وربما كان هزلها جدا ، تلك الروح التى اذا حملتها من الحوادث أثقلها ابتسمت وفرجت عن همها وكان ذلك منها عنوان الجلد والثبات ، الضاحكة أمام الموت •

وهل أدل على نبوغ أمة من هذه النكات التى تفيض بها المجالس



وتقع من نفوس الحضور مواقع الماء من ذى الغلة الصادى فلطالما  
حوت الحكمة العالية التى يغوص عليها الكاتب والشاعر أو الوصف  
الجامع البليغ لحادث من الحوادث أو لرجل من الرجال أو لحالة من  
الأحوال أو لأمة من الأمم •

تلك المعانى الجليلة التى تخاطب الروح قبل الأذن هى ثمرة الذكاء  
الفطرى والتجارب والمشاهدة ، وهذه الصفات الثلاث اجتمعت فى مولير  
فأحسن تعهدها واستثمارها فعم خيرها وحصادها فإذا أردنا أن  
نتفهم قليلا سر ذلك النبوغ العظيم وجب علينا أن نستعرض عصر  
مولير وحياته وأعماله •

### عصر مولير

عاش مولير فى باريس ( ١٦٥٨ - ١٦٧٣ ) فقضى فيها أعوام المجد  
الوارفة ظلالة وذاق مر العيش وحلوه فى وقت كان فيه لويس الرابع عشر  
يرتفع فى بحبوحة الشباب وشباب الملك فلقد كان العصر الأول  
( ١٦٦٨ - ١٦٧٥ ) من حكمه هادئا لم تكدر صفاءه ويلات الحروب  
وفادح الدين وما أشبهه بأوائل حكم اسماعيل •

كان الملك وأتباعه من حاشية وأعيان لاهين بين الناي والعود وكان  
الشعب على دين أمرائه يلهو بما يسوقون اليه من أعياد وأفراح ،  
وكان مولير مقربا من الملك فنزح مع الغواة بدلوهم وكان خير من لها  
ومتع بالحياة ، ولكن عصارة لهود كانت ألما ، فانه وهو اللبيب الثاقب  
البصر قلب طرفه فى ذلك المجتمع فاخترق نظره تلك الحجب الكثيفة ،  
المدهونة بالظلاء ، الملونة بالرياء ، فاذا الحية كامنة فى الرياض ، واذا عامر  
النفوس كان خرابا ، واذا المجتمع كالبعى قد انطوت نفسها على الحقد  
والبغضاء ولكنها تقبل عليك فى أحسن حلة تضحك وتعنى •

وقد صور مولير ذلك المجتمع أحسن تصوير فى قالب هزلى يشف  
عن ألم دفين ، ومما ضاعف الألم أن مولير لم ينكب بحياة المجموع الذى

كان حوله فحسب ، بل في حياته الفردية ، في داره ومعاشه اذ خاتته  
زوجه ومات له طفلان ف ضرب الأسي على جميع أوتار فؤاده لا سيما في  
آخر العمر وقد مال ميزان النهار واشتبه الأمر •

### حياة مولير

ولد جان باتست بوكلان في باريس في ١٥ يناير سنة ١٦٢٢  
وكان أبوه جان بوكلان تاجر أبسطة وخداما في غرفة الملك ، وقد تعلم  
في صغره مبادئ الفلسفة والحقوق ، ولكن علمه الصحيح كان ثمرة  
التجارب والمشاهدة ، وكان في شبابه شديد الميل الى التمثيل فتعلق به ،  
ويقال أنه صحب لويس الثالث عشر في سياحته في جنوب فرنسا  
سنة ١٦٤٢ وتعرف في طريقه بالمثلة « مادلين بيجار » التي عشتمها زمانا  
ثم تزوج ابنتها •

ولم تكن مادلين محمودة السيرة ولكن مولير افتتن بها وتبعها  
أيما حلت وأسس معها في باريس سنة ١٦٤٣ « المرشح الشهير »  
ولكنه لم يوفق في عمله فذهب الى مقاطعة « الجويان » حيث انتظم  
هو ومن معه في سلك جوق التمثيل الذي كونه الدوق « دبيرنون »  
ثم ذهب في سنة ١٦٥٣ الى مدينة ليون وأخذ ينتقل بعدئذ بين المقاطعات  
الفرنسية ومدنها الكبرى كليون ومونبلى وافنيون وديجون وجرينوبل  
للتمثيل الهزلي تارة أمام الأمير والأميرة دي كوتتى ، وأخرى أمام  
مجالس المديرية التي كانت تجتمع من وقت لآخر ، وكانت في زمن  
انعقادها بحاجة الى اللهو والسرور •

في سنة ١٦٥٨ عاد مولير ومادلين بيجار وجوقتهما الى باريس فشملهما  
أخو الملك بعنايته ومدهما بماله وقوته ، فما كاد ينصرم عام حتى مثل  
مولير أمام الملك والجمهور الباريسى رواية « المتصنعات السخيفات »  
(Les Précieuses Ridicules) وهي أول صورة لمجتمع ذلك العصر رسمها مولير  
وشهر فيها بالنساء اللواتي كن يتكلفن في مشيتهن وخلقهن وحديثهن ،



وكانت هذه الرواية أول كوميديا حقيقية تمثل الحياة المرئية المحسوسة ،  
وفاتحة عصر روائى جديد •

وفى سنة ١٦٦٤ تزوج موليير بابنة صاحبه مادلين واسمها « ارماند  
بجار » وكانت فى العشرين من عمرها ، أما زوجها فقد جاوز الأربعين •  
وكان هذا الزواج مدعاة للقليل والقال ولاشك أن هذه الغلطة قد  
نفعت على موليير حياته فكانت فى الخارج مطعنا ظفر به أعداؤه  
وهم كثر وفى الداخل مبعثا للأسى والألم لا ينضب له معين • ولقد  
خاتته زوجه وبقيت فى عزلة عنه أربعة أعوام كاملة فأتى على موليير  
حين من الدهر كان يتجلد ويسعى جهده فى نسيان آلامه وأحزانه  
مرخيا لنفسه العنان طورا فى ميدان العمل ، وطورا فى ميدان اللهو  
والتصابى كما يفعل رجال المسارح ولكنه فى آخر عمره وقع صريع  
الحزن والمرض •

روى جريمارست فى كتابه « حياة موليير » أن موليير أفضى لصديق  
له سنة قبل موته ( ١٦٧٢ ) بما يأتى :

« لقد تزوجت بدون تبصر فاستحق كل ما أصابنى ، ان امرأتى  
خفيفة مجرى الروح ، لعوب ، مولعة باظهار رشاقتها وكل ذلك يولد  
فى نفسى القلق واليقظة المتناهية على الرغم منى ، تلك المرأة التى هى  
أرجح منى عقلا مائة مرة تريد أن تمتع بالحياة ، وهى تسلك سبيلها  
معتمدة على طهارة نفسها لا تعباً بارادتى واحتياطاتى فما أشد لوعتى  
وأحزانى ، ولظالما سعت جهدها كالنساء كافة فى اجتذاب ثناء الناس  
واعجابهم ، وليس لها غرض خاص ، فكانت تضحك من ضعفى » •

وفى ١٧ فبراير سنة ١٦٧٣ — أى ثلاثة أيام قبل موته — كان  
موليير يشكو ويتوجع أمام امرأته : « ظالما كانت حياتى ممزوجة على  
السواء بالألم والسرور كنت أخالنى سعيدا ولكن اليوم وقد أعيانى  
الداء ، ولم أجد ساعة حلوة فيها عزاء وسلوى ، أرانى مضطرا الى ترك  
باب الرجاء وليس فى مقدورى الآن احتمال صدمات الآلام المتتابعة التى

لا تفتأ تهجم على ، ولكم تألم الانسان قبل أن يفارق الحياة ، وهأنذا  
أشعر بأنى أخطو آخر خطوة بينى وبين الموت » •

ورغما من مرضه فان مولير فى ذلك اليوم طلب أن تمثل للمرة  
الرابعة رواية « المريض الخيالى » فأرادت زوجه أن تمنعه فأجابها :  
« ماذا تريدن ؟ أن هناك خمسين عاملا فقراء يتكسبون قوت يومهم  
فما يصنعون حال امتناعنا ، وهل تريدن أن أحرمهم من القوت  
يوما واحدا ؟ » •

وسواء أكان الدافع الحقيقى الى ذلك الرحمة المتدفقة من فؤاده  
أم حب العمل كما يقول اميل فاجيه « فان مولير كان غنيا وكان فى  
امكانه دفع أجر اليوم للخمسين عاملا بدون تحمل المشقة والعناء »  
فمن الثابت أن مولير كان محبا للعمل وكان كبير النفس رحيمًا •

ولقد تغلب الداء عليه أثناء التمثيل فحملوه الى منزله فأخذ يقىء  
دما الى أن صعدت أنفاسه الأخيرة فى ٢١ فبراير سنة ١٦٧٣ •

تلك حياة مولير المترعة بالألم والعمل فلقد ألف فى ثلاثة عشر عاما  
ما يزيد عن خمس وعشرين رواية أكثرها من الخالدات ، والانسان ،  
كما يقول الفريد دى موسيه ، تلميذ أستاذه الألم ، وكذلك الشعوب  
لا يهذبها ولا ينضج مواهبها الا الألم •

فاذا كنا اليوم نحى ذكرى مولير فاننا نعطى بتلك الذكرى للشعب  
المصرى المثل الأعلى للعمل الباقي الذى تنتجه التجارب والآلام ،  
والانتباه الى حقائق الحياة دقيقها وجليلها ، والجلد على الشدائد ،  
والصبر على المكاره •

وما أحوجنا اليوم الى احياء ذكرى ذلك الرجل العظيم الذى عاش  
فعمل ولم ييأس ، ومات فأخذنا من موته معنى الحياة •

الأهرام فى ١٤ يناير سنة ١٩٢٢



## مصر حيرى

من المؤلم جدا أن يدقق الانسان النظر فى حالة مصر اليوم فمهما  
حملنا أنفسنا على حسن التفاؤل بالمستقبل ومهما حاولنا الوصول الى  
استنباط حسن العاقبة مما يحيط بنا من الحوادث ، فالحقائق التى تصدمنا  
اليوم ، والتى صدمتنا أمس وأول أمس ، ربما تضعف فىنا روح الأمل ،  
ولقد أصبح الكثيرون منا على مذهب بعض الفلاسفة المحدثين الذين  
لا يرجون كثيرا من الحياة الدنيا ، ولكنهم أقوياء النفوس والعزائم  
لا يثنيهم ضعف رجائهم عن العمل •

أجل ، ليكن شعارنا العمل فى ظلمة الأمل ، فالعمل خير مؤنس فى  
تلك الوحشة ، وأخلق بمن وطنوا النفس على احتمال أذى الدنيا فى  
سبيل أصعب الغايات منالا أن يعملوا فصعب العلاء فى الصعب •

ولقد كان أحد قياصرة الدولة الرومانية ، ولعله سبتيم سيفير ،  
يقول « لنعمل » (laboremus) ، وكان لقوله مغزى كبير فى ذلك الوقت  
الذى رأى فيه بعينه تلك الدولة العظمى وقد ظهرت فيها عوامل  
الفساد . ودبت فيها روح الانقسام ، ورأى بعينه فى وجهها تسرب المشيب  
خلال بقايا الشباب ، فما كان أشد لوعته ولكن ما كان أكبر شجاعته وهو  
يقول : « لنعمل » •

أجل ، لنعمل مهما داخل الشك نفوسنا ، ولنعمل للعمل فى ذاته ،  
للعمل الصامت الذى يستمد وحيه من الواجب ، للعمل المنتج الذى  
لا ينتظر جزاء ولا شكورا ، للعمل الصحيح الذى ينتسب الى الوطنية  
الصحيحة •

وان من يرجع البصرة كرة فى حالتنا فى الداخل والخارج لا يسعه  
الا أن يأسى على مافات ، ويتوجس خيفة من الغد ، وما مثل مصر

اليوم الا مثل السفينة ألحت عليها الأنواء والرياح من كل جانب فهى مضطربة حائرة ، والمصريون فى أثناء ذلك ، بدلا من أن يفكروا فى نجاتهم ويعملوا على خلاصهم فى ذلك المضطرب الواسع ، تتجاذبهم الشهوات الحزبية وتلعب بهم لعب النكباء بالعود حتى ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت ، وأصبح أفقهم أضيق من سم الخياط لأنه أفق رسمته لهم السياسة الشخصية التى تسد على الناس سبل الحق المسيحة ، وتضلهم من حيث لا يشعرون •

وكل منهم يريد أن يكون ربانا ، وكل منهم اذا رفع اللواء رأيته تحت اللواء زعيما ، وكان لا بد أن يسود النظام وسط هذه الفوضى ، النظام كما نفهمه نحن - لا كما يفهمه الخصم - النظام الذى يجمع الكلمة ويوحد الغاية والذى لا تقوم له قائمة الا اذا كان هناك تيار من الرأى العام قوى منظم لا ينشعب عند كل ملمة ، ولا يحدث فيه فلولا كل مضلل خداع •

ولبتق الله حملة الأقلام فى مصر فان على أكتافهم تقع المسئولية الكبرى ، وليحاسبوا ذمتهم على كل سطر وكل كلمة يخطونها لأن مصر تجتاز ساعة عصيبة فى تاريخها ، قرب كلمة تهور أو كلمة استسلام أدخلت السم فى عقلية فريق من الأمة فألحقت بها ضررا بليغا •

فمن الاستسلام المنكر أو ما يشبهه قول بعضهم أن ليس عندنا جيش ولا أساطيل نرغم بها الخصم على رد ما اغتصبه من حقوقنا ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم فانتا نعلم ذلك علم اليقين ، والخصم أيضا يعلم ذلك ، ولكنه لا يمكنه أن يتجاهل أبد الأبدىين ارادة أمة ، وقد مضى الزمن الذى يعيش فيه المحتل قرير العين منعم بالال وسط شعب يريد أن يعيش حرا •

ومن الاستسلام المنكر أن نسكت على الضيم بحجة أنه مؤقت وأن نتجاوز عن كل ما تفعله المحاكم العسكرية وقد وضعت الحرب أوزارها من ثلاثة أعوام خلت وهى باقية تدور رحاها ، أو أن نسكت



على كل قانون يعجل بصدوره بحجة أن الدستور آت لا ريب فيه ،  
وأنة كفيل بنقض ما أبرم اذا اقتضى الأمر ، وما دروا أن ذلك مضاد  
للفكرة المعقولة القائلة بتمهيد الطريق للدستور ، ذلك الطريق الذى  
ملئ الآن حشا وشوكا ، وما دروا أنهم بذلك ينزلون على درج من  
التراخى الى وهدة الاستسلام المطلق الذى يهدد الروح الوطنية  
بالاضمحلال شيئا فشيئا فما نشعر الا وقد تلاشت نواة المعارضة  
الصحيحة فى النفوس الأبية المعتدلة من الجانبين •

ومن التهور المنكر أن يقوم فريق من الكتاب الخياليين الذين  
زجوا بأنفسهم فى صفوف المعارضة ويتهموا لجنة الدستور بأنها « لجنة  
رجعية » وأنها تسير على النهج الذى رسمته لها السياسة الانجليزية ،  
ولو أنصفوا أنفسهم وأمتهم لكلفوا أنفسهم مؤونة البحث والاحتكاك  
قليلا بأعضاء اللجنة — وهذا أول واجبات الصحفى المرشد الأمين —  
وعرفوا اذا كان « كليشيه » التسمية التى أطلقوها عليهم حقا  
أو باطلا •

اننا لا ننكر أن فى لجنة الدستور أعضاء رجعيين يؤثرون عاجل اللذات  
على آجلها ، ويعرضون للخطر الجسيم مصالحنا القومية الخالدة فى  
سبيل مصالحهم الشخصية الضئيلة الزائلة ، ولكنهم قليلون يعدون  
على الأصابع والأمة رقية على ما يعملون •

ومما يؤسف له أن فى صفوف المعارضة أناسا يتظاهرون بالوطنية  
وهم ليسوا على الدستور أقل خطرا من الرجعيين ، أولئك نفر تارة  
يعملون على الايقاع بين لجنة الدستور وبين الأمة بانتقادهم أشياء عرضية  
فى النصوص لا جوهرية ، انتقادا أقرب الى التضليل بالرأى العام منه  
الى الارشاد ، وتارة يريدون الايقاع بين اللجنة وجلالة الملك بحجة أن  
الدستور فى بعض المواطن يفتت على حقوقه كأن سيادة الأمة التى على  
رأسها الملك تتعارض مع حقوق جلالته ، أو كأن جلالته تجهل أنه كلما  
عظمت سيادة الأمة التى يمثلها وتحققت عظمت هى فى أعين شعبها وفى  
أعين الأجانب •

دعونا يا قوم من الشخصيات واتقوا الله في بلدكم فان الوطنية  
الحقة تقضى علينا أن نجعل الدستور يمر سليما وسط العاصفة التي  
أثارتها أهواؤنا الحزبية ، فان جميع البلاد الغربية تشتجر فيها الأحزاب  
وتتنازع على الوسائل وتتطاحن ، ولكنها وسط الجلبة والضوضاء  
والصراحة المطلقة قد تكتم أمورا دقيقة ترى في اذاعتها أو في وضعها  
هدفا للجدل والمناقشة اضارا بالصالح العام .

وخطة الرأي العام هذه في هاتيك البلاد هي خير دليل على وجود  
روح النظام في الرأي العام ، فما أحوجنا الى هذه الروح وما أحوج  
هذا البلد الى المرشدين الأمناء .

الأهرام في ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ .



## الذكريات

للحياة غاية لا بد أن تنتهي إليها ، فما أقصرها وان شئت فقل انها وجود في حكم العدم ، على أننا اذا نظرنا الى مسافة العمر التي قطعناها ، بمنظار « الذاكرة الحساسة » التي هي القلب ، راعنا طولها وقلنا ما أطول الحياة ! •

وكأني بها تزداد طولاً على مر المدى ، ذلك بأن الأيام والليالي عند مرورها يخيل لنا أنها على وتيرة واحدة ، حتى اذا ولت وتقادمة قليلاً ظهر كل يوم منها ، في مرآة الذاكرة ، في صورة مختلفة عن صورة اليوم الآخر ، وأوجد هذا الاختلاف مسافة بين اليوم وأخيه فنعددت المسافات ، وأصبحت الساعة يوماً ، واليوم شهراً ، والشهر عاماً •

ذلك بأن لكل انسان في الواقع ، في اليوم الواحد ، حالة بل حالات نفسية خاصة تتأثر بمظاهر الحياة الخارجية التي تتبدل تبديل أوقات النهار دون أن نحس بها ، ثم تتكون من مجموع هذه الحالات صورة شخصية يومية للانسان تختلف عن صورة الغد ، ولهذا السبب نظن أننا اليوم غيرنا بالأمس ، وأننا في هذا العام غيرنا في العام الماضي ، وأننا أصبحنا غرباء عن أشخاصنا السابقين رغماً من قرب العهد •

وقد يزداد هذا الاختلاف والتباين اذا حدثت حوادث كبرى كالحروب والثورات لأنها توجد انقلاباً في مظاهر الحياة الخارجية يؤثر في النفس ، ولذلك ترى الأوروبي الذي عاش الحرب وعانها يخيل اليه أنه قد مضى على سنة ١٩١٣ ، سنة السلم ، قرن كامل ، وترى المصري بعد الثورة غيره قبلها ، وكأن هناك شخصين مختلفين •

ومما يساعد على اطالة مسافة الماضي شدة حساسية الذاكرة اذا كانت متصلة بالقلب وكثرة الذكريات المؤلمات وليت شعري من منا

لا يذكر في مختلف الجهات التي قضى فيها طفولته أو صباه وشبابه  
الأماكن التي ولع بها صغيرا فلا يحن إليها ! •

كم من رفيق صحبناه ساعة أو بعض ساعة صحبة المسافر ، ثم ودعناه  
على أمل التلاقى ولما نلتق ، ونحن في هذه الدنيا بين مشرق ومغرب •  
أنى مضى أولئك الصحب الذين التقينا بهم في طريق الحياة ، كما  
يلتقى الراكب بالراكب ، ورأينا وجوههم السمحة ، ثم افترقت أسباب  
دنياهم من أسباب دنيانا فأصبحوا لنا أمواتا وهم على قيد الحياة ،  
أولئك نحزن لهم لأننا فقدناهم •

وانى لأذكر صديقا كان زميل دراستى في باريس ، وكان خير مؤنس  
لى في وحشتها فان باريس للناظر المدقق ، كما وصفها روسو ، « صحراء  
من الرجال » ، وكان على ذكاء عظيم ، شديد الفطنة ، قوى الملاحظة ،  
كثير المطالعة والتأمل في وجوه الرجال ، لا تفارق شفثيه ابتسامة ،  
ولا يعرف الحزن الى قلبه سبيلا •

دار الفلك دورته وأصيب هذا الصديق بداء عضال في عتاه فعاد  
الى قريته في مصر ثم مات ولم نمتع به كثيرا •  
فما انضر ذلك العيش الذى هوى في قرارة الزمن وأقسم أن  
لا يؤوب ! •

وما أكثر الذكريات المؤلمات ! •

وما أكثر الأصدقاء الذين نفجع بفقدهم أحياء وأمواتا •

السياسة فى ١٠ يناير سنة ١٩٢٣



## إسماعيل صبرى

بالأمس دفنك يا اسماعيل وودعنا صافى العيش فيما ودعنا ، ولكنى  
ما زلت الى الساعة يعرونى الذهول لفقدك ، ولا أكاد أصدق ما رأته  
عينى لما أودعوك الرمس وسووا عليك !

لقد صدق لاروشفوكو « شيئان لا يمكن للانسان أن يحدق  
فيهما ببصره : الشمس والموت » ولكنى أعجب لموتك ، ولو لم تمت  
بعلة لسألت بأية علة • وأعلم علم اليقين أن الموت قد حصد الملايين  
من بنى الانسان ، وجندلهم ، وبدل الديار ديارا ، ولكنى لا أكاد  
أصدق أنك كنت أمس ، حين أسلموك الى القبر ، تحت الأرض وكنت  
عليها ، وأن شبرا واحدا من التراب حال بينى وبينك ، فما أبعد  
شقتك ، وما أشد وحشتنا !

وما أنس لا أنس تلك الشجرات التى صادفناها فى طريق جنازتك ،  
وكانت تنثر علينا ظللا ليتها كانت تقينا لفحات الحياة ولذعات الجوى ،  
وما أنس لا أنس ذلك الرجل الذى أقبل نحوى ونحن وقوف على  
حافة القبر ، وفى يده كسرة من فص خاتم اسماعيل وهو يقول « تلك  
ذكرى » ، ولكن من ذا الذى يحصى الذكريات التى تركتها فى قلوب  
الباكين والباقيات عليك ! لقد كان فى كل حركة منك وكل سكنة  
ألف ذكرى بل ألف حياة ، ففى ذمة الله يا اسماعيل •

أعرف صبرى من ثلاثة عشر عاما ، وكنت أغشى مجلسه كثيرا  
وأتردد عليه ، وكانت بيننا صلة الابن بالأب البار والتلميذ بأستاذه  
وكان يفيض علينا أدبا وفضلا ومكارم أخلاق ، وكان حلو السم عذب  
الحديث •

ما كنت أدري أطعم عافيتى أعذب أم أطعم ذلك السم

ولعل السر في ذلك هو أن صبري كان في حياته ، كما كان في شعره  
فنانا ، وكم مرة استرعى نظره في الطريق منظر رائع من تلك المناظر  
الدقيقة التي لا يلتفت إليها أحد فوقف واستوقف يمتع منها  
ناظريه ، حتى أن المرء ليتساءل أيهما كان أشعر : الرجل في حياته ،  
أم الشاعر في شعره ؟

كان صبري باشا يحب النور والجمال ، وكان يحب من أجلهما  
الحياة ويقف منها موقف المتعبد ، وكان كثيرا ما يذكر الموت ويخشاه ،  
لا جبا ولا فرقا ، بل جبا في الحياة والنور والجمال ، ولقد بلغ من  
كراهيته للموت أن أصبح يتمناه فقال :

يا موت خذ ما أبقت الـ أيام والساعات مني  
بينى وبينك خطوة ان تخطها فرجت عنى

وقد نعص عليه داء القلب آخر سنى حياته وكان يتعسر عليه  
الفهم وهو يقرأ كتابا أو صحيفة سيارة ، ويتعب من القراءة اذا أطال ،  
ورغما من ذلك فقد كنت أرى له أحيانا وهو يحدثنا عن الحركة الوطنية  
ورجالها حكما كالبرق الخاطف من ذكائه يلوح ثم ينطفىء .

أما شعر صبري فهو كحياته سمر المسافر ، وأنس المقيم ، وكما كان  
في حياته يمل سماع الموسيقى طويلا كان في شعره يكره القصائد  
الطوال ، وينظم المقاطيع الرائعة ، والبيت والبيتين ، وهو فنان يفضل  
نحت الدمية الجميلة على تشييد هرم جليل .

من منا لا يذكر قوله مخاطبا القلب :

سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصباية فاحقق وحدك الآنا  
وقوله فى ساعة الوداع :

ساعة البين قطعة أنت قدت للمحبين من عذاب السعير  
وقوله فى لقاء الحبيب :

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجين فاضا لوعة وعتابا



كأن صديقا في خلال صديقه  
تسرب أثناء العناق وغابا  
وقوله في شجرة :

عار عليك وهذا الظل منتشر  
فمن معيرى جناحي طائر غرد  
وفوله :

يا آسى الحى هل فتشت في كبدى  
أواه من حرق أودت بمعظمها  
ياشوق رفقا بأضلاع عصفت بها  
وفوله :

إذا ما صديق عقتى بعداوة  
تعرض طيف الود بينى وبينه  
فكسر سهمى فانتثيت ولم أرم  
تلك أبيات سارت مسير الشمس في كل بلدة وناد ، وقد وضع  
صبرى باشا أغاني كثيرة هي أرقى ما نظم من نوعها ، وهو في مجموعه  
شاعر نسيج وحده انفرد بين الشعراء القدماء والمحدثين بطراز  
من الشعر المسمى (Lyrique) وهو شعر يطير بجناحين في فضاء الطبيعة  
والخيال ، ويسمو بالعاطفة والوجدان الى أبعد غاية ، وكانوا ينغنون  
به قديما .

سألته مرة أيهما يفضل الشعر العربى أم الشعر الافرنجى ؟ فقال  
قد يكون الشعر الافرنجى أغنى من الشعر العربى ولكن العربى فاق  
الافرنجى بالبيت والبيتين .

وكان يفضل البحترى على جميع الشعراء وهذا يدل على حاسته  
الفنية فان أسلوب البحترى أنقى الأساليب وأكثرها دقة وطلاوة .

هذه كلمة صغيرة نقولها اليوم عن الفقيه الراحل الذى كان شعره  
وحياته مؤتلفين ائتلاف الزهر والخضرة في الروض النضير .

رحمة الله عليك يا اسماعيل ، وألهم الله مصر العزاء على أبر بنيتها .

السياسة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٢٣

## خاطر في العيد

### يوم شم النسيم

أحب من الركب المصرى أن يقف هنيهة يستنشق فيها سيم الحياة  
وطيب روائحها ، وأحب من الطبيعة أن تهش وتبسم في وجوه أطفالها  
الباكين الذين لا يرقأ لهم دمع بين خرير مائها وحفيف شجرها ، بين  
نحرها وصدرها •

وأحب من قومى في هذا اليوم أن ينسوا ما أصاب الوطن من جروح  
وأن يخرجوا من منازلهم صغارا وكبارا الى المروج الخضراء التى يختال  
بينها النيل فى حلة من سندس ، وأن يعود الآباء أبناءهم « فتح الأعين »  
والنظر الى مظاهر الجمال دقيقتها وجليلها ، فى تلك الأرض المصرية التى  
قيل أنها جنة الله فى أرضه ، ولكن قل من يعنى بتأمل غضارتها ونضرتها  
وادراك سر هذا الجمال •

وقد نشأ عن ذلك الملل من الطبيعة فى مصر لأن حبها ظل مبهما  
فى فؤاد الرجل منذ نعومة أظفاره فأصبح ينظر اليها كما ينظر الفلاح  
الى حقله صباح مساء ، اذا سألته عن ذلك قال : ان الطبيعة سهل أخضر  
يجرى فيه النيل وانها على وتيرة واحدة ، ولو أنه عود نفسه النظر  
اليها لوقف منها موقف الذى يقول :

يزيدك وجهه حسنا اذا ما زدته نظرا

أو الذى يقول :

لأسرحن نواظرى فى ذلك الوجه النضير  
ولأكلنك بالمنى ولأشربنك بالضمير

أجل ، ان الانسان يجب أبدا الأرض التى درج فى ثراها ويحن اليها



إذا فارقها ، ولكن حبه يقوى بمقدار تفهه جمال مسارح الطفولة والشباب  
ومنازل الذكرى التى تنطبع فى فؤاده فتساعد على تذكر الماضى وغرس  
عاطفة الوطنية وتعهدا •

ولا ريب أن هذه الذكريات اذا تحركت عند شعب بأسره  
أخرجت من الأرض صورة الوطن الحى فانتفض الجميع تحت  
لوائه خفافا •

وما أحوجنا اليوم الى الوقوف ساعة فى ظل الطبيعة ، علنا نجد  
فى جمالها معيننا لنا على البأساء ، فقد مضى زمن اللهو وجددنا وأصبحنا  
نطلب الراحة قليلا فى ذلك الطريق الوعر لتزود منها قوة  
نصل بها الى الراحة الكبرى ، ولكن أتى هذه الراحة ، وأنى الشعوب  
السعداء ؟ •

مثل الشعب المستعبد الذى يستسلم للهوان مثل الجاهل الذى ينعم  
فى الشقاوة فاذا استيقظ وفهم معنى الحياة كتب الشقاء عليه وكان نعيمه  
حلما فى الكرى أو خلسة المختلس •

فأولى بمن اشتد ساعده ، ودخل ميدان الكفاح ، أن يوطن النفس  
على احتمال الأذى ، وأن يستعين بحب الجمال على مقارعة كتائب  
الحوادث أبد الدهر •

وإذا كنا اليوم نحى ذلك العيد فانما نحى الراحة بين الجد والعمل ،  
نحى الورد والرياحين ، نحى مهد النور والجمال ، نحى أرضك  
يا مصر •

السياسة فى ١٠ أبريل سنة ١٩٢٣

## خطرات فى الطريق

- ١ -

الآلام

كان بعض القدماء ينعون عن ركوب البحر الذى لا يسلم راكبه من الأخطار ولكننا فى عصر أصبح يحلو فيه تجشم الأسفار وصار الخطر كل الخطر فى القعود عن ركوب الشدائد •

كان لى الشرف فى طريقى الى باريس باصطحاب علمين من أعلام النهضة المصرية فى أجلى مظاهرها أولهما أمير الشعر أحمد شوقى بك والثانى الزعيم المحنك محمد بك حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى فتجاذبنا أطراف الحديث •

وبينما كان الثانى يفكر فى خير الوسائل التى تحل المسألة المصرية حلا عاجلا يتلخص فى الجلاء ومداواة الجروح التى تسيل فى جسم الوطن ، كان الأول يصف الألم ويقول « كبر الألم بطولة » ويقول « من لم يتألم لم يتعلم » ويقول « الألم صاحب قديم وثالث اثنين هبط الأديم » ويقول « الآلام جراح شتى الأغوار ، كنه يدرك بالصبر وكنه يترك للقبر » •

ثم جرى ذكر الألم فذكرت قول رينان وهو على فراش الموت وقد زاره القسيس « لابرين » وسأله : « ألا تعتقد فى امكان وجود قانون حب ووفاء فى هذا العالم بجانب قانون الضرورة ؟ » فأجاب رينان من فوره : « انى أتمثل الطبيعة عادة حسناء متجملة بأحسن الثياب وأفخرها ، ولكنها تمشى معرضة ، بينما يسحق ذيل ثوبها النمل التى لا تبصرها ، وما أنا الا احدى هذه النمل وسأسحق » •



تلك الكلمات المحزنة التي تشف عن ألم دفين قالها رجل كد وجد  
وترك بعده آثارا خالدة وكان من المتشائمين الأقوياء • وقد تجلى  
هذا الشعور في صورة مذهب عند بعض الشعراء الفرنسيين وعلى  
رأسهم « ألفريد دي فيني » الذي قال : « أحب جلالة الآلام الانسانية »  
فان هذا الشاعر أجاد تصوير ذلك الشعور الذي يجمع بين القوة  
والألم في ست أو سبع قصائد جعلته على قلتها من الشعراء المعدودين •  
ولهذا الشاعر قصيدة في الذئب من خير ما قاله : في هذه القصيدة  
تكلم فيني عن رجل ذهب للصيد فصادفه الذئب وشمله فقتل الشمل ،  
عندئذ وقف الذئب جريحا لا يتكلم وهو يودع الحياة فقال الشاعر  
عن لسانه يخاطب الانسان : « أسلك بعزيمة صادقة وجلد ذلك الطريق  
الطويل الوعر الذي دعاك فيه القدر ، ودع البكاء والعيول ، ثم تألم  
كما تألمت ومت صامتا » •

وهذه القطعة درس من دروس الشجاعة المقرونة بالألم يلقيه  
الحيوان على الانسان ، وهي من خير ما يحفظه الشبان الفرنسيون لأنها  
تبعث الهمة وتشد العزيمة وتحصن الخلق فتمنعه أن ينهار من صدمات  
الشك واليأس •

ولم يكن هذا الشاعر كالذين سبنوه ممن يجدون عزاء وسلوى  
في الطبيعة التي يخاطبها بقوله « انهم يسمونك أما وما أنت الإ قبر »  
فلم يخدعه زخرفها وكان كل عزائه في قوته ، على أن كراهيته للمجتمع  
لم تكن لتحول دون حبه للانسانية التي تربطه بها أو اصر من لحم ودم ،  
وكانت نفسه كنفس المعري تفيض عليها رقة وحنانا ، وكأنهما قالا معا  
هذا البيت :

فلا هظلت على ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا  
ومن غريب المصادفات اتنا ما كدنا نصل الى مرسيليا حتى لقينا  
حضرة على بك الشمسى فنعى الينا المرحوم سعيد بك زغلول فأسفنا

على نلك الخلال الغر التي انطوت وتلك البشاشة التي ذوت وبكينا  
فيه الوداعة واللين ، والأدب الجم ، والعقل الراجح ، والخلق العالى  
الذى أبى له أن يعلن عن نفسه حياء وكبرا •

وان مصر لتشييع فيه أحد أبنائها البررة الذين كانوا زين الشباب ،  
وتألم لفقده ألم الشكلى فقدت واحدها ، وكم فجعت مصر فى بنيتها ،  
وكم فجعت مصر فى آمالها وهى تمد يدا لاجتناء الثمر فتسبقها اليه  
يد الموت الخفية •

ولكن عزاء بنى مصر عزاء ، فما أفلحت الشعوب والأفراد دون أن  
يكون لها الألم مهذبا ومربيا فالألم صيقل النفوس يجلوها ويصفيها  
من كدرة الضعف والخور •

وهل تجلت الروح المصرية وظهرت قدرتها الا فى الألم ، وهل  
ثبت وجود الروح القومية الا فى الثورة ، فانه رغما من أن نماذجنا  
فى الثورات والحركات كانت كلها أجنبية لم نلجأ الى التقليد وظهرت  
حركتنا فى ألوان مصرية بحنة يعبر عنها أدباء الافرنج « بالألوان المحلية »  
والا فليقولوا لنا أى حركة فى التاريخ قامت فيها المظاهرات فى هذه  
الصورة المهيبة التى يخفق فوقها جلال الموت ، صورة جنازات ضحايا  
الحرية ؟ أى حركة ظهرت فيها المقاومة السلبية فى صورة افعال فى النفوس  
من المقاطعة التى قام بها شعب بأسره ، ولم يتمكن الخصم بخيله  
ورجله وحيلته من احداث ثلثة واحدة فى تلك الكتلة العريضة  
المتماسكة ؟

ألم تكن النكتة ، التى هى من مشخصات الروح المصرية ، علامة  
الخفة والنزق والسرور قبل الحرب والثورة ؟ وهى اليوم تفرج  
كرب أخى البأساء وتبسم عن مرارة العيش ، وهى ستر يخادع به المصرى  
عن نفسه المحزونة المضناة التى تعيش فى جو الحقائق السياسية بعد  
أن كانت هادئة مطمئنة •



ليفهم الجيل الحاضر أن شعاره الوحيد يجب أن يكون التضحية  
فإننا جسر تسيير عليه مصر بين الماضي والمستقبل •

نحن جيل معذب ، وما أشبهنا بالجيل الفرنسي الذي أعقب الثورة  
وحروب نابليون فقد عرف ذلك الجيل ما أطلق عليه الكتاب « مرض  
العصر » وهو نوع من الحزن والكآبة يظهر على النفوس القلقة التي  
ورثت عن الماضي القريب كل ما يبعث الألم وأجاد كتاب العصر تصوير  
ذلك الداء وتشخيصه •

فلنوطن النفس على احتمال الآلام ، فالآلام مدرسة الحياة ، وهي  
ميدان كفاح لا يخرج منه بالغبلة الا القوى •

## خطرات في الطريق

- ٢ -

### بلاغة العرب

قلت لأمير الشعر ، والحديث شجون ، أن خير ما قرأته في العزاء كتابا أرسله شيشرون الى أحد أصدقائه يعزيه في فقد ابنته : « خطرت لي فكرة وجدت فيها عزاء ولعلها تخفف من لوعتك • بينما كنت أتجه بسفينتي من جزيرة ايچينه الى مدينة ميچار حانت منى التفاتة الى البلاد حولي ، كانت ميچار أمامي وايچينه ورائي ، والبيريه على يميني ، وقورنثة على شمالي ، مدائن كانت قديما زاهرة زاهية فغفت ولم يبق الا رسمها وأنقاض مبعثرة فعجبت حيال هذا المنظر كيف نجرؤ ، نحن الهالكين الضعفاء ، على الشكوى كلما انتزع الموت واحدا من أهلنا وذوينا ، بينما نرى في طرفة عين كبريات المدائن صرعى هامدة ، وكانت عامرة أهلة بالسكان ثم أضحت خلاء ••• فتعز عن ابنتك بفقد هاتيك المدائن والناس » •

أعجب شوقى بهذا الخيال الرائع ولكنه قال من فوره ان العرب قالت أبلغ من ذلك : سأل أعرابي اعرابيا فقد ابنه « أكان يغيب كثيرا » قال : نعم ! قال : « اتركه غائبا » فهل رأيت أيها القارىء تعبيرا أبلغ من ذلك في أداء المعنى مع السلاسة والوضوح والايجاز •

يدرس الآن في جامعات أوروبا ما يسمى بالطريقة العلمية التاريخية ، وهي تتلخص في تحليل الوثائق والنصوص وسرد الوقائع مع الايجاز والوضوح ، ولأجل تعرف هذه الطريقة والتمكن منها يدرّب الطلبة عنى ايجاز الرسائل وجلائل الحوادث في صحائف معدودة وافية بالعرض ، وشيخ هذه الطريقة الأستاذ سنيوبوس المعلم الأول في السربون • ولكن العرب لم يتعلموا هذه الطريقة بل كانوا يجرون عليها بفضرتهم ،



وهل الايجاز الالباب الفصاحة والبيان ؟ وهل نسينا بلاغة القرآن  
وفصاحة العرب الذين بلغوا بالبديهة ما لم يبلغه غيرهم بالكد واجهاد  
القريحة ؟ \*

وصف عبد الله الجماز أبا نواس فقال : « كان أظرف الناس منطلقا  
وأغزرهم أدبا وأقدرهم على الكلام وأسرعهم جوابا وأكثرهم حياء وكان  
أبيض اللون جميل الوجه مليح النعمة والاشارة ملتف الأعضاء  
بين الطويل والقصير مسنون الوجه قائم الأنف حسن العينين والمضحك  
حلو الصورة لطيف الكف والأطراف وكان فصيح اللسان جيد البيان  
عذب الألفاظ حلو الشمائل كثير النوادر وأعلم الناس كيف تكلمت  
العرب راوية للأشعار علامة بالأخبار كأن كلامه شعر موزون » \*

فهل رأيت وصفا أدق من هذا المنشور الذي يصور لك شاعرنا  
من جميع الوجوه في كلام رائع ؟ كان عمرو بن حجر ملك كندة ،  
وهو جد امرىء القيس ، أراد أن يتزوج ابنة عوف بن محلم الشيباني  
فوجه اليها امرأة يقال لها عصام لتتنظر اليها وتمتحن ما بلغه عنها فلما عادت  
أقبلت الى الحرث فقال : أخبريني ، قالت « رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة  
يزينها شعر حالك كأذنان الخيل المقصورة ، ان أرسلته خلته السلاسل ،  
وان مشطته قلت عناقيد كرم جلاها الواابل ، ومع ذلك حاجبان كأنهما  
خطا بقلم ، وسودا بحمم ، قد تقوسا على مثل عين العبهرة ، التي لم يرعها  
قانس ولم يدعها قسورة ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ،  
لم يخنس به قصر ولم يعض به طول ، حفته به وجنتان كالأرجوان ،  
في بياض محض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر  
ذوات أشر ، وأسنان تعد كالدر ، وريق كالخمر له نشر الروض بالسحر ،  
يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزينه عقل وافر ، وجواب حاضر ،  
يلتفي بينهما شفتان حمراوان كالورد ، يجلبان ريقا كالشهد ، تحت ذلك  
عنق كابر يق الفضة ، ركب في صدر تمثال دمية ، يتصل به عضدان ،  
ممتان لحما ، مكتنزان شحما ، وذراعان ليس فيهما عظم يحس ،

ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان ، ريق قصبهما ، لين عصبهما ، تعقد  
ان شئت بينهما الأنامل • وقد تربع في صدرها حقان ، كأنهما رمانتان ،  
من تحت ذلك بطن طوى كطى القباطى المدمجة ، كسى عكنا كالقراطيس  
المدرجة ، تحيط تلك العكن بسرة كمدهن العاج المجلو ، خلف ذلك ظهر  
كالجدول ينتهى الى خصر لولا رحمة الله لانخزل ، تحته كفل يقعدها  
إذا نهضت وينهضها إذا قعدت ، كأنه دعص رمل لبدته سقوط الطل ،  
يحملة فخذان لفاوان كأنهما نضيد الجمان ، تحملهما ساقان حدلجتان  
كالبردى ، وشيتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزرد ، ويحمل ذلك قدمان ،  
كحذو اللسان ، تبارك الله مع صغرها كيف تطيقان حمل ما فوقهما » •

حسب هذه القطعة أنها دليل على حب الجمال والفن عند العرب ،  
وهى لا تنقل فى دقتها وروعيتها عن تمثال أبدعه صانعه أو لوحة مصورة ،  
وما على القارىء — وهذا مثل واحد نضربه — الا أن يتأمل فى وصف  
القدمين • « ويحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، تبارك الله مع صغرها  
كيف تطيقان حمل ما فوقهما » فانى لا أعرف لذلك نظيرا الا قول  
فكتور هييجو « كانت تسير الى جانبى وقدمها الفتاة تسخر بصغرها  
من الأقدار وتضحك بجوار قدمى ! » •

Et de sa petitesse étalant l'ironie

Son pied charmant semblait rire à côté du mien.

فأخلق بنا أن نرجع بلغتنا الى ذلك النبع الصافى الأول وأن نبذ  
البديع والتكلف والاطناب وما شاكلها من ضروب البلاغة الكاذبة التى  
جاء بها أئمة الكتاب فى العصور المتأخرة •

ويحسن بنا أن نرجع الى الأغانى قبل أن نرجع الى الجاحظ  
أو الهمذانى ، وأن نفتش عن كنوز اللغة والأدب فى صهاريج العرب •

الأهرام فى ٢٧ يولية سنة ١٩٢٣



## القديم والجديد

سيدي صاحب ليالى رمضان •

وضعتنى فى زمرة أنصار الجديد وليس لى أن أنقض حكمك وقلمك  
ينهم عن أدب جم • وانى مع احترامى للقديم وأنصاره أستأذنك فى تحديد  
معنى القديم والجديد حتى يكون القارىء على بينة •

القديم درجات والجديد درجات ، ولكل منهما أنصار يختلفون  
أذواقا ، ولكن ليس من اليسير أن نفضل بينهم ونجعل منهم طبقات  
تحمل ألوية مختلفة •

وأعرف للقديم أنصارا كالسيد المرصفى وغيره لا يحسون بجمال  
غير جمال الشعر العربى القديم ، فاذا ذكرت لهم شعر العباسيين والمحدثين  
لم يطربوا له ، وكأنك تنادى منهم صخرة لا تحركها الأغاريد •

وأعرف للجديد أنصارا كالريحاني وغيره من أصحاب « الفلسفات »  
و « الطيارات » تتجلى العجمة والركاكة فى أساليبهم التى تشف عن سقم  
الخيال والمعانى وهى ماثلة كالهيكل العظمى •

ان كان هذا ما يقصد بالقديم والجديد فلست من أنصارهما •  
وان كان المقصود بالقديم أن نرجع بالشعر والكتابة  
الى عصر الجاهلية ، وأن تكون أغراضنا فى الأدب أغراض القدماء ، نبكى  
على الدمن والأثافي ، ونستوقف الركب ، ونمدح ونهجو ، ونشكو الزمان  
فلست من أنصار القديم ، ذلك لأن لكل عصر أغراضا وأساليب يتجلى  
فيها طابع العصر ، وقد تتشابه العصور فى جوهرها ، وكيف لا تتشابه  
والانسانية لم تتغير ، وما زال الكاتب والمصور والمثال ينشدون المثل  
الأعلى للحقيقة والجمال •

ولكن قبل البحث عن هذا المثل الأعلى لابد أن يرجع الكاتب  
أو الشاعر في طور التكون — وقد كان هذا رأى البارودي رحمه الله —  
الى القديم يقتله بحثا ثم ينحت بعد ذلك من صخره دمية ساحرة •

وفي القديم من الشعر والكتابة آيات قد لا وجود بمثلها الدهر ،  
وهل هناك شعر غنائى أصفى جوهرها وأقل كلفة وتعملا من الشعر القديم  
الذى كان يرتجله الأعرابي من فوره حرا طليقا في فضاء حر طليق فتتحرك  
له أوتار القلوب وتهتز له القبائل طربا •

أما الكتابة فمن شاء فليرجع الى الأغاني والعقد الفريد أو زهر الآداب  
ليرى كيف كانت بلاغة العرب الأولين فريدة في ايجازها ودقة التصوير ،  
وحسن الانسجام ، خالية من البديع والتكلف والأطناب التى أفسدت  
اللغة في العصور المتأخرة مع أن الايجاز أول أغراض الكتابة في البلدان  
الراقية وبه يمتاز كبار المؤرخين الحديثين وتتفاوت أقدارهم •

فلنرجع اذن باللغة الى ذلك النبع الأول ، ولن يمنعنا ذلك من انتقاء  
اللفظ الذى يلائم العصر ويجرى في سلك الكلام لا نافرا ولا حوشيا •  
قلنا ان القديم والجديد قد يتفقان جوهرًا ، ولكن لكل عصر  
شخصيته ، وكل شخصية تحمل في طياتها القديم والحديث ، وهؤلاء  
شكسبير وموليير وجوت قد سماوا سماوا واحدا في تصوير المجتمع رغما  
من اختلاف العصور والبلدان ، ولكنك اذا نظرت الى كل منهم على حدة ،  
وفصلته تفصيلا ، تجلت لك الرابطة القوية التى بينهم وبين الجيل الذى  
عاصروه ، ورأيت في تصويرهم أشخاصا عاشوا معهم ولكنهم أحياء في كل  
جيل رسمتهم ريشة مصور ماهر فأبدع في صنعه تلك الوجوه التى تعرف  
فيها الانسانية جمعاء •

وهؤلاء شوقى والبحترى والمنتبى يسمون سماوا واحدا في تصوير  
العواطف البشرية ، ولكنهم يختلفون في أساليبهم ومناحيهم لأن كلا منهم  
يختلف عن الآخر في البيئة والوسط ، وهل يصلح اليوم أسلوب شكسبير ،  
ومديح البحترى ، أو هجاء المنتبى ؟ •



على أن الأديب الناقد يرى في كل شاعر عظيم صورة من صور الجمال  
ان لم تمل نفسه اليها فليس أقل من أن يوفيهما حقها اجلالا ، وقد أخطأ  
من قال : « هل غادر الشعراء من متردم » فان الذكاء البشرى لا ينفد وان  
تباينت أشكاله بتباين الأزمنة والأفراد والجماعات •

ولو أمكن طائفة من الناس أو أمة من الأمم الاستئثار بالذكاء والتفرد  
بالنبوغ في جميع أطوار حياتها لاختل نظام هذا العالم ، وما أصدق  
البحرني الذي يقول :

لولا التباين في الطبائع لم يقيم ببيان هذا العالم المجهول  
فلكل فرد ، ولكل أمة ، ولكل جيل شخصية يجب أن تظهر في أعماله  
وآثاره • ولكل فرد ، ولكل أمة ، ولكل جيل مثل أعلى في الحياة •  
وقد تتجلى الشخصية في التجديد الحر الذي يتلاءم مع الذوق السليم •  
ويحسن بكل أديب منا في حياته الأولى أن يدرس الأدب العربي  
القديم والأدب العربي الحديث درسا وافيا يهذب ذوقه ويهيئه للابتكار  
والتجديد •

وقد قطع بعض المعاصرين من أئمة البيان شوطا بعيدا في هذه السبيل  
ولكننا مازلنا بعيدين من الغاية •  
فلنجدد فان في ذكائنا ، وفي لغتنا وآدابنا ، وفي أرضنا كنوزا دفينه  
لم تهتد العبقريه اليها فتخرجها لنا سبائك من الذهب المصفى •  
ولنجدد فان في التجديد مظهرا من مظاهر الشخصية القوية ومعنى  
من معاني الحياة •

السياسة في ١٦ أبريل سنة ١٩٢٥

## إلى أى طريق نحن مسوقون

### مهزلة فى ماتم

وهل يقيم الماتم الا الرجل الحر بينما نرى بأعيننا المهزلة القائمة فى مصر بئد العجائب ، كما يقول هيرودوت ، وبلد المضحكات كما يقول المتنبى ، ولكنه ضحك كالبكا ، حالة تملأ النفس أسى فلقد أصبحنا نشاهد كل يوم وفى كل آونة ممثلا جديدا ، وفصلا جديدا ، وشاهدا جديدا ، وبين هذا وذاك المصنف المأجور •

وقد يظهر هذا الممثل تارة فى صورة سياسى ، وتارة فى صورة أديب ، وتارة فى صورة صحفى • ولكل منهم من الأثواب المستعارة مالا عدد له ، ضاحك لعوب والبلاد فى محنة •

ولقد يدور الانسان بعينيه فى هذا السواد الأعظم فلا يرى الا الفوضى السياسية والخلقية والعلمية ضاربة أطناها فى جميع مظاهر الحياة •

ولست أريد أن أتعرض للسياسة الا من الوجهة الاجتماعية البحتة ، فقد تقلبت على مصر المحن فى هذا العصر الأخير ، ورأت فيه على قصره العجب العجيب ، ولو طلب الى مؤرخ أن يصف حكومتنا فى الطور الذى أعقب ثورة سنة ١٩ ، وأن يحدد بالدقة شكلها ونوعها كما يحدده الواقع لحر فى أمره ، فقد خضعت فى وقت من الأوقات لحكم الدكتاتورية المستترة أو غير المستترة ، وخضعت لحكم الأقلية ، وخضعت لحكم الأكرية ، وقد كان هذا الحكم فى بعض الأحيان أقرب الى الديماغوجية منه الى الديمقراطية ، واتفق أن اجتمعت هذه الأشكال فى وقت واحد فى حكومة واحدة ، وكانت هذه القوى المتجاذبة حول الدستور كالوصى الذى يأكل مال اليتيم ، أناس يهزلون وخلف الستار يجد المجد •



هذه المهزلة السياسية يمثلها السياسى المصرى ، واذا كانت الرجال  
توزن بأعمالها ، والأعمال بنتائجها ، فقد عرفنا الدور الذى لعبه ذلك  
اللاعب ، وعرفنا كيف يضحى بمصالح بلاده فى سبيل المصلحة الخاصة ،  
وكيف يثبت على مبدئه ، وينتقل من حزب الى حزب ويلبس لكل  
حالة لبوسها •

\*\*\*

وللأدب مهزلة وأى مهزلة : كل من ترجم كتابا فى التاريخ صار مؤرخا ،  
وكل من ترجم كتابا فى الفلسفة صار فيلسوفا ، وكل من كتب كتابا فى  
الأدب صار أديبا عالما ، وقد يرجع ذلك الى أن الموازين والمقاييس التى  
توزن بها أعمال الرجال قد خضعت فى مصر للأهواء فانقلبت وسط المهزلة ،  
ويظهر أن نفسية الشعوب — وبالأخص الشعب المصرى — طفنة سريعة  
التأثر والتحول من الضد الى الضد ، وهذا ما جعل كثيرين من كتابنا  
لا يعبأون بالرأى العام ولا يحسبون له حسابا •

ولكن الذى نأسف له أن الكتاب أنفسهم ورجال السياسة يتأثرون  
بما يكال لهم من مديح — لو غربلته كان ملقا — ويتوهمون أنهم بلغوا  
عليا مراتب الأنبياء فيتيهون فى الأرض صلفا •

والواقع أن الخيرين بالكتابة والبحث والشروط العلمية التى يجب  
أن تتوافر فيهما ثلاثة أو أربعة ، على الأكثر فى مصر ، وقد ألف بعض  
كتابنا المعدودين رسائل وكتبا مختلفة فى مواضيع شتى أعجب بها الجمهور  
والأدباء ، ولكنك لو نظرت اليها من وجهة البحث العلمى ألفتيتها جوفاء  
مزوقة ، ذلك أننا لم نتعود عناء البحث والغوص على اللباب ، وقل أن تجد  
فى مصر من فى مقدوره الحكم على كتاب حكما صحيحا ، والتمييز فى  
الأدب بين الكتاب السطحي والكتاب العلمى •

فأخلق بمن يتصدون للأدب أن يعلموا أنه فن صعب وطويل سلمه ،  
فلقد صار كل من يستظهر شيئا من المنشور والمنظوم زينة المجالس وأديبا  
يشار اليه بالبنان •

ومن عجائب هذا البلد أنه لا تكاد تتألف فيه جمعية تاريخية أو أدبية حتى يحتل المكان الأول فيها أصحاب الأبهات لا الأخصائيون « أصحاب المصالح » الحقيقية فيها .

ومن عجائب هذا البلد أنك لا تجد عالما يعترف بالفضل لعالم أو أدبيا يعترف بالفضل لأديب ، وإذا وجد اجماع أو شبه اجماع على الاعتراف بمنزلة رجل في العلم أو الأدب انبرى له من ينال من شرفه وكرامته بالطعن في شخصيته واختلاق الأكاذيب عليه .

\* \* \*

والصحافة مهزلة وأية مهزلة ، وحسبك أن تلقى نظرة واحدة في الصحف المصرية لترى عجبا ، كلها تظن بالشتيم والطعن بجميع أساليبه ، فكل صحيفة تطعن في حزبين أو ثلاثة وفي طوائف وأفراد لا عدد لها ، وتراها ينهش بعضها بعضا .

وقل أن تجد صحفيا يدين بمبدأ فهو يتلون تلون الحرباء بين بياض نهاره وسواد ليله وهو في معظم الأحيان ، وله العذر ، يضطر الى مجاراة الرأي العام في كثير من آرائه وأهوائه ، وهو اما يضلل بالرأى العام أو يضلل الرأي العام به طوعا أو كرها ، وهو على أية حال كالخطيب والسياسي يستند الى الرأي العام في مهنته والرأى العام ، كما قال لامرتين ، بغى لا وفاء لها .

وليس أشد ايلاما للنفس من اندماج بعض من لا خلاق لهم في زمرة الصحفيين الذين جعلوا أمناء على الأمة ومصالحها ، ولكن قدر لكل مهنة في مصر أن تلوث ، وقدر لكل رجل عامل أو مصلح أن لا يسلم من الأذى .

الواقع أننا هازلون وسيسدل الستار على مأساة .

الأهرام في ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٥ .



## البنون والحياة الدنيا

من أمير الشعراء إلى رئيس تحرير السياسة

يعزيه في فقد ابنه

الضلوع تنقد	والدموع تطرد
أيها الشجي أفق	من عناء ما تجد
قد جرت لغايتها	عبرة لها أمد
كل مسرف جزعا	أو بكى سيقصد
والزمان سننته	في السلو بجهتهد
قل لثاكلين مشى	في قواهما الكمد
لم يعاف قبلكما	والد ولا ولد
الذين ميل بهم	في سفارهم بعدوا
ما علمتما أشقوا	بالرحيل أم سعدوا
ان منزلا نزلوا	لا يرد من يرد
كلنا اليه غدا	ليس بالبعيد غد

\*\*\*

البنون هم دمننا	والحياة والورد
لا تلذ مثلهمو	مهجة ولا كبد
يستوون واحدهم	في الحنان والعدد
زينة ومصلحة	واستراحة ودد
فتنة اذا صلحوا	محنة اذا فسدوا
شاغل اذا مرضوا	فاجع اذا فقدوا
جرحهم اذا انتزعوا	لا تلمه الضمد

العزاء ليس له آسيا ولا الجلد

\*\*\*

قل لهيكل كلما  
لم يشب مهذبها  
قد عجبت من قلم  
أنت ليث معركة  
والسيوف نخوتها  
أنت ناقد أرب  
ما تقول في قدر  
وهو في الحياة على  
يعثر الأنام به  
ينزل الرجال على  
القضاء معضلة  
كلما نقضت لها  
أتعبت معالجها

من ورائها رشد  
باطل ولا فند  
ثاكل وينجرد  
وهو صارم فرد  
في الوطيس تنقد  
والأريب ينتقد  
بعض سنه الأبد  
كل خطوة رصد  
ان سعوا وان قعدوا  
حكمه وان جحدوا  
لم يحلها أحد  
عقدة بدت عقد  
واستراح معتقد

\*\*\*

عالم مدبره  
من بلى كوائنه  
لا تقل به إدد  
تلتقى نقائضه  
الفناء فيه يد  
اتلافه رشد  
جد في عمارته  
ذو الغنى لخدمته  
وهو في أعتته

بالبقاء منفرد  
كائناته الجدد  
ان حسنه الادد  
غاية وتتحدد  
للبقاء أو عضد  
واختلافه سدد  
منصف ومضطهد  
كالفقير محتشد  
ممعن ومطررد



والحياة حنظلة  
هيكل الشقاء له  
قامت النعوش على  
عرسه ومأتمه  
في حروفها شهد  
من مدامع عمد  
جانبيه والوسد  
غائتاها نقد  
(شوقى)

## النقد

الموضوع : عزى شوقى صديقه هيكل فى فقد ابنه ،  
وما كان الموضوع جديدا ولكن الموقف أكسبه جلالا وروعة • كلاهما  
يحمل قلبا كبيرا يفيض عاطفة وان كان يخاله الرائي معرضا عن الدنيا  
وآلامها •

على أن هذه العاطفة سرعان ما تتحول الى فكرة تسمو بصاحبها  
فوق هذا العالم وهمومه ، ولعل هذا منشأ الأعراض البادى على الرجلين ،  
ومصدر هذه الابتسامة التى تعلوهما فيحسبها الناظر تهكما وما هى  
بالتهكم ، ولكنها ابتسامة مفكر مجرب خبر الأيام وذاق حلوها ومرها ،  
ونفثة مسدور •

وقد عرف الشاعر فى هذه القصيدة كيف يعزى صديقه ، فخطب منه  
الناحية « الحساسة » ناحية الفكر ، وعرف بأسلوبه الفلسفى الرائع  
كيف يهون على صديقه مصابه فى ولده ازاء مصاب بنى الدنيا ، ثم سما به  
على جناح الفكرة الى أعلى سماء •

\* \* \*

هذه القصيدة فى قصر بحرهما واطراد رويها صورة من صور الحياة  
العاجلة ، وقد أثبت شوقى أنه فنان مبدع أطلال أو أوجز فاذا قال :  
بسينك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب  
أو :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء



رأيت أهراما في جلالها وروعتها •

وإذا قال :

نجا وتمائل ربانها وزف البشائر ركبانها

أو :

حف كأسها الحجب فهي فضة ذهب

أو :

الضلوع تنقد والدموع تطرد

رأيت تماثيل صغرى في جمالها وفتنتها •

وهذه القصيدة الأخيرة آية من آيات أحمد شاعر الجلال والجمال

وباقت القوافي من خير مقطع •

وقد امتاز شوقى في هذه المرثية بوجه خاص ببناء موضوعه بناء محكما

وحسن تقسيمه ، ولم تكن عنايته بالمواد أقل من عنايته بالشكل •

كانت سنة العرب في أغلب الحالات قصر اهتمامهم على المطلع الذى

هو باب القصيدة ، وكانوا يبنون قصائدهم بناء صناعيا مفككا ،

يستقل فيه البيت عن البيت ويرتبط فيه المديح بالنسيب ارتباطا ظاهرا

فطن اليه البحرى فأهمله :

وثبا كوئب البحرى من النسيب الى المديح

ولكن شوقى يقيم قصيدته كلها على أساس من الوجدان الصادق

والفكرة الواسعة العميقة التى تربط الموضوع ربطا محكما فى جزئياته

وكلياته •

قسم شوقى هذه القصيدة الى أربعة أقسام يشد بعضها بعض :

فى القسم الأول - ويحتوى على أحد عشر بيتا - تعزية الصديق

للصديق :

الضلوع تنقد والدموع تطرد

أيها الشجر أفق من عناء ما تجد

♦♦♦ ♦♦♦ ♦♦♦ ♦♦♦ ♦♦♦

وفي القسم الثاني تعزية الوالد للوالد •

البنون هم دمننا والحياة والورد  
لا تلذ مثلهمو مهجة ولا كبد  
... ..

وفي الثالث تعزية الأديب للأديب أو تعزية الشاعر الحكيم للكاتب  
الحكيم :

قل لهيكل كلما من ورائها رشد  
لم يشب مهذبها باطل ولا فند  
قد عجت من قلم ثاكل وينجرد  
... ..  
ما تقول في قدر بعض سنه الأبد  
... ..

وفي الرابع تعزية الانسان للانسان في فناء هذا العالم المتقلب .

عالم مدبره بالبقاء منفرد  
من بلى كوائنه كائناته الحد  
... ..

وقد أظهر الشاعر في أرق ديباجة احساس الصديق والوالد والحكيم  
والرجل •

\*\*\*

يلاحظ أن شوقي قدم في البداية العزاء لصديقه ( أيها الشجي أفق )  
ثم سمت به العاطفة وأدبه العالي فقال :

قل لثاكلين مشى في قواهما الكمد  
لم يعاف قبلكما والد ولا ولد

وكأني بالشاعر في هذا الموقف أحس وحشة الموت في بنى الدنيا ،  
وقد مضت قرون نسائل الموت عنهم فلا يرد جوابا ، فصاح جازعا :



الذين ميل بهم في سفارهم بعدوا  
ما علمتما أشقوا بالرحيل أم سعدوا  
ان منزلا نزلوا لا يرد من يرد

ثم انتبه وذكر أنه في موقف عزاء فقال :

كلنا اليه غدا ليس بالبعيد غدا  
بهذا البيت ينتهى القسم الأول من قصيدة شوقى ، وعنده تهادى النفس  
كما تهادى فى أعلى الربى •

\*\*\*

استطرد شوقى فى القسم الثانى الى ذكر البنين والعاطفة الأبوية التى  
نحوظهم ، ونعل أحسن تصوير لهذه العاطفة قول الأعرابى :

وانما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض  
ان هبت الريح على واحد امتنعت عيني من الغمض  
ولكن شوقى ، وهو خير والد ، فصل هذه العاطفة تفصيلا يصور  
الحقيقة التى يحسها كل أب فقال :

لا تلذ مثلهمو مهجة ولا كبد  
فتة اذا صلحوا محنة اذا فسدوا  
شاغل اذا مرضوا فاجع اذا فقدوا  
جرحهم اذا انتزعوا لا تلمه الضمد  
العزاء ليس له آسيا ولا الجلد

وقد امتاز شوقى فى كثير من مراثيه بتصوير الحقيقة والاشارة بلطف  
الى حالة خاصة تزيد الشعر رونقا وجمالا لأن الشاعر يكشف لنا عن  
ناحية من نواحي الحياة التى ترخى الستور عليها ، من ذلك قوله فى رثاء  
سديق له توفى عن بنات كثر ... وقد دعاه الموقف الى ذكر فضل النساء :

الباقياتك حين ينقطع البكا والذاكراتك بالعراء البائى

وقوله في المرحوم عبد الحى المغنى وقد ترك أما شيخة كان يعولها :  
كسرت عصاها اليوم فهى بلا عصا ومضى فتاها الأجود المسماح  
ويعجبني من شوقى أن ولعه بالحقيقة المعنوية لا يقل أحيانا عن ولعه  
بالحقيقة الماثلة أمام أعيننا ، وهل أدل على ذلك من صراحته اذ يصف  
الجرح الذى يتركه بفقده الابن الراحل :

العزاء ليس له آسيا ولا الجلد  
وهذا ولا ريب من خير أنواع التعزية •

أخذ الشاعر الحكيم بعد ذلك يدعو صديقه الكاتب الحكيم الى  
التفكير فى القضاء الذى لا مرد له ، ولكنه مهد لذلك بالثناء على شجاعة  
صديقه الذى لم يحل هول المصاب بينه وبين قلمه :

قد عجبت من قلم تاكل وينجرد  
أنت ليث معركة وهو صارم فرد

وصف القلم بالصارم والشجاع بالليث من الأوصاف القديمة التى  
تعلق بالشعر الحديث ، وهى من بقايا القديم التى يسميها الافرنج  
Réminiscences وقد تأتى عفوا ويصعب التحرر منها ولذلك تجدها  
عند أكبر الشعراء المحدثين فى الغرب •

أجاد شوقى فى قوله بعد ذلك :

أنت ناقد أرب والأريب ينتقد  
ما تقول فى قدر بعض سنه الأبد  
وهو فى الحياة على كل خطوة رصد  
يعثر الأنام به ان سعوا وان قعدوا  
ينزل الرجال على حكمه وان جحدوا

ولكن شوقى أبدع فى قوله وقد بسط جناحيه واستعرض معضلة  
القضاء :

القضاء معضلة لم يحلها أحد



كلما تقضت لها عقدة بدت عقد  
أتعبت معالجها واستراح معتقد

صور شاعرنا في هذه الأبيات الثلاثة موقف الفلاسفة والشعراء على  
اختلاف عقائدهم أمام معضلة القضاء منذ القدم ، ولا ريب أن لكل شاعر  
حالتين : حالة شك وحالة يقين ، ومهما بلغ ايمان الشاعر فان في الحياة  
ساعات يتمنى الموت فيها لأن تجارب الأيام تحتوى المر في قراراتها •  
ويلوح لى أن يقين شوقى يغلب على شكه لأن العقيدة الدينية متمكنة  
من فؤاده ، وهو فى معظم شعره كثير الايمان يجد فيه ظلا وراحة  
ومأوى •

\* \* \*

يخيل الى أن الشاعر بعد أن حلق فى سماءه وقلب معضلة القضاء على  
وجوهها فلم يهتد الى حل لها هبط الأرض ثانية ونظر فى هذا العالم نظرة  
فيلسوف فقال ، وكأنى أسمع منه صوت أبى العلاء •

عالم مدبره بالبقاء منفرد  
من بلى كوائنه كائناته الجدد  
تلتقى نقائضه غاية وتتحدد

لا ريب أن التناقض الذى يبدو فى جميع مظاهر الحياة دقيقها وجليلها  
مما يسترعى الذهن •

ومن مליح التصوير قول شوقى فى هذا المقام :

الفناء فيه يد للبقاء أو عضد  
ومن دقيق التصوير :

الحياة حنظلة فى حروفها شهد

وقد انتهى بشاعرنا المطاف الى صور من صور التناقض تعرض لنا  
كل يوم فى هذه الحياة الدنيا ويراها الشاعر فى « هيكल الشقاء » :

هيكل الشقاء له من مدامع عمد  
قامت النعوش على جانبيه والوسد  
عرسه ومأتمه غايتها قد

بهذه الصورة الملموسة الرائعة التي خلعت الحقيقة عليها جمالها  
ختم شوقي قصيدته وقد نزلت الحكمة من آياتها منازل الأقمار فكانت  
عزاء ورحمة للثاقلين ♦

السياسة في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٥



## نقد الأمير شكيب

نشرت « كوكب الشرق » الغراء المقال الآتى بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٩٢٦ لأمير البيان الأمير شكيب أرسلان نشرها اتماما للفائدة :

\*\*\*

لا يقال فى شعر شوقى « هذا أحسن من هذا » فكله نسج واحد وكله نسيج وحده ، وما أحراه بهذا الأثر الشريف - والله المثل الأعلى - وهو أنه كالغيب لا يدرى أوله خير أم آخره ؟ أو هو كماء المزن لا يقال فيه هذا أصفى من ذلك .

وانما تلهج الألسن بجديد شوقى أكثر من قديمه ، لما فى الجديد من الطلاوة لا غير ؛ فلهذا ملهج الألسنة اليوم قصيدة شوقى فى توت عنخ آمون التى وان كانت مما لا يخلق جدته المملوان ، تبقى حديث الأندية وموضوع المسامرات ولا يزال انشادها فاكهة مجالس الأوس ، ونقلها نقل الندامى اذا دارت الكأس ، الى أن يأتى شوقى بجديد غيرها ، ولا يجىء الا ببدع ولا يظهر الا بفض .

وكذلك تعزيتة لحسين بك هيكل فى وحيدته كانت وحيدة فى بابها ، وقد رأيت لها وصفا شائقا فى « السياسة » تحت امضاء « محمد صبرى » ، وفاها فيه حقها من التنبيه الى الرقائق ، والتتويه بالجلائل من الدقائق ، بحيث لا احتاج أن أضيف الى ذلك شيئا ، وانما لا يمكننى الا أن أردد اعجابى بما فيها من الفلسفة العليا لا سيما عند قوله :

عالم مدبره      بالبقاء منفرد  
من بلى كوائنه      كائنااته الجدد

ما رأيت من يجمع التوحيد الى الفلسفة في شعره مثل شوقي ؟  
ولو كان أبو العتاهية حيا لبكى وناح ، أكثر مما له عادة أن ينوح ويبكي ،  
على كون شوقي جاء بمثل قوله :

الذين ميل بهم في سفارهم بعدوا  
ما علمتما أشقوا بالرحيل أم سعدوا  
ان منزلا نزلوا لا يرد من يرد

المرحوم أبو العتاهية مع نبوغه في الوعظ وعبقريته في ذكر ما وراء  
الحياة والبعث ؛ لم يأت بأحسن من هذا في زهدياته مع أنه كان لا يجيد  
هذه الاجادة المستولية على الأمد الا في هذا الباب وحده ، وشوقي  
يجيد في كل باب •

واني لأبى العتاهية أن يقول عن الأولاد :

فتنة اذا صلحوا محنة اذا فسدوا  
شاغل اذا مرضوا فاجع اذا فقدوا  
جرحهم اذا انتزعوا لا تلمه الضمد  
العزاء ليس له آسيا ولا الجلد

فان فيه فصاحة لغة أبي العتاهية ودرره في العربية ، ويزيد عليه في  
المنزع العصري والشعر العملي عند قوله :

شاغل اذا مرضوا فاجع اذا فقدوا  
لم أعب من هذا البيت الا ضعف لفظتي « شاغل » و « فاجع » وأنهما  
صارتا مبتدلتين من كثرة الاستعمال ، ولو أنه قال :  
شاده اذا مرضوا محرق اذا فقدوا

أو شيء آخر أقوى من شاغل وفاجع اللذين فلهما طول الضراب لكان  
أحجى •

وان كل وصف ليقصر دون بلاغة قوله « اذا انتزعوا » كأن فقدهم  
أشبه بالاقطاع ، لا تأخذه المنية من أكباد الآباء الا بالكلايب أو المناقش •  
وما أَلطف قوله بعد ذلك « لا تلمه الضمد » ان هذا هو القول الذي



تنقطع دونه الأعناق كما قيل ، ومثل هذه البلاغة الشافية لما في كل نفس  
قوله في القدر :

يعثر الأنام به ان سعوا وان قعدوا  
ينزل الأنام على حكمه وان جحدوا

والله ان هذا لهو الحق ، كما رأينا ممن يكابر في القضاء والقدر ، ويزعم  
أن ليس ثمة الا خطأ وصواب ، أو نقص وكمال ، وتأتى عليه أحداث  
لا يقدر أن يعللها الا بقوة غير منظورة أو غير منتظرة ، فيخر أمامها ويعنو  
صاغراً ، وتضيق عليه وجوه التعليقات الأخرى ، ولو نشر المنتبى لتمنى  
هذين البيتين لنفسه وكان بهما فخوراً .

وأما الآية الكبرى التي جمعت فأوعت فهي قوله :

القضاء معضلة لم يحلها أحد  
كلما نقضت لها عقدة بدت عقد  
أتعبت معالجها واستراح معتقد

وهل حل مسألة القضاء أحد ؟ أفليس كلما أتى فريق من المتكلمين  
بوجه رأيت عليه اعتراضاً لا تقدر أن تحتقره ؟ أفليس الاعتقاد هو الراحة  
لمن آمن إيمان العجائز ؟ .

ولكن شوقى عوذ محاسن هذه القصيدة التي لا تجارى بهفوة  
فقال :

هيكل الشقاء له من مدامع عمد  
قامت النعوش على جانيه والوسد  
عرسه ومأتمه غايتاهما نقد

وقد أطنب صبرى في استلطاف هذه الأبيات التي ختم بها شوقى  
قصيدته ولكن فات شوقى وصبرى أن جملة « هيكل الشقاء » غير مناسبة  
هنا نظراً الى أن القصيدة موجهة الى رجل اسمه « هيكل » وهو من  
الأدباء الألباء ، ومن الأخلاء لشوقى الأحياء .

وما عدا ذلك فالقصيدة درة في تاج الشعر والأدب .

شكيب أرسلان

برلين فى ١١ يناير

## المصرى غريب فى بلاده

كلما أجلنا النظر فى هذا السواد الأعظم اسود الظن وتسرب الشك الى اليقين ورأينا شعبا يعامل معاملة الغريب ، يطالب بحقوقه فلا ترد اليه ولكن تمنح له ، وتمنح بقدر ، ويحسب حساب لمصالح الغير قبل مصالحه كأن الدار ليست دار أبيه وجده فهو غريب الديار •

ومما يزيد هذا الشعور وحشة عند المصرى أنه بينما يجد شعوب الأرض جمعاء بينها وبين بعضها والبعض الآخر صلة مصلحة أو جوار أو رحم أو حلف أو دين أو عصبية أو عطف نرى شعب مصر بين الشعوب غريبا اذا نهض تألبوا عليه وأوقعوا من يده لواء النهضة فى المشرق •

وأخلق بهذا الشعور أن يشد من عزائنا ويخلق لنا من الاعتماد على النفس قوة ، ويظهر نفوسنا من كل درن ، ولكن البلية أن المصرى غريب فى بلاده ، لا لأن الأجنبى فيها الأمر الناهى ، ولكن لأن المصرى فيها غريب عن المصرى •

وانك لترى بين المصرى والمصرى هوة تنكشف عنها أخلاقنا رغما مما بيننا من أواصر الذكريات والدين واللغة والجنس •

وانك لتجد المصرى غريبا حتى عن نفسه كأنما صور من « طينات » مختلفة غريب الأطوار ، متباين الطباع : وقد تعاشر الفرنسى أو الانجليزى فتفهم أخلاق الفرنسيين أو الانجليز ، وتصل الى أغوار نفسيتهم ، ولكنك تعاشر المصريين فيستعصى عليك أن تدرك كنه مصرى واحد •

وإذا كان لك صديق عاشرته زمانا ، وظننت أنك استبطنت أمره ، وعرفت دخيلته ، وامتزجت نفسا كما امتزاج الماء بالماء انقلب عليك وقد أمنته ، ووثقت به ، وعشت من أخلاقه فى ظل ظليل •



ذلك أن المصرى كتلة أضداد تجمع بين الوفاء والغدر ، والشجاعة  
والجبن ، والحرص والكرم ، وحب الماديات والتعلق بالخيالات ،  
سريع التنقل من النكتة اللطيفة التى تفرج عن النفس الى التهمك  
المر الذى ينضح بالحقد ، ميال الى المصافاة ، ولوع بالنزاع والتقاضى ،  
غريب فى أطواره يأتى بالخسيس وقد يأتى بالمعجز كالبحر ينطوى  
على الدر وتعلو فيه جيفة •

وإذا كان المصرى غريبا عن نفسه وفى نفسيته فهو غريب فى أسرته ،  
لأن الأسرة مفككة يقيم الجهل بين أفرادها حجابا كثيفا فترى الهوة  
بين الرجل وزوجه ، والأب وبنيه ، لا تربطهم الا صلة واحدة ،  
صلة الرحم •

وبينما نجد الرجل فى الغرب يلوذ بيته من المجتمع فيجد فيه راحة  
وسلوى ، وعزاء من هموم الحياة ومتاعبها ، يجد المصرى مشاكل  
الأسرة فى بيته تحول ظله لفحات ، وتنغص عليه عيشته ، فتراه  
يبسم عن باطن متجهم ، ويتنقل بين المجتمع والبيت كمن يتنقل بين  
الرمضاء والنار •

والمصرى غريب فى بيئته إذا سار نظروا اليه نظر العدو الى العدو  
وسلطوا عليه الألسنة ، وإذا جلس يتحدث الى قوم كالوا له الثناء  
بالمكيال ، فاذا فارقهم ذموه بالحق وبالباطل •

ولا نكاد نجد هيئة فى مصر الا وبين كل فرد وآخر هوة ، وترى الهوة  
بين الهيئات المختلفة ، وتراها بين الجيل القديم والجيل الجديد ،  
وبين المتعلمين وأنصاف المتعلمين ، وبين المتعلمين بعضهم وبعض •

ولله ما أشقى المتعلم فى مصر ، وما أشقى الحر ! يرى المتعلم بعينه  
تعالى الأسافل وارتفاع « السطحيين » الى مراتب الكتاب والعلماء  
والمؤرخين والفلاسفة والوطنيين والأساتذة وهم يغمرون الحقيقة بشهرة  
كالطبل الأجوف •

ويرى الحر بعينه كيف يعلو الملق والرياء والتلون أحيانا بأصحابه  
على كل عامل نزيه يؤدى واجبه فى صمت واحتشام وكيف تفسد المبادئ  
وتتستر فيها الأعراض •

وقل أن تجد ادارة مصرية أو معهدا مصرية الا وقد اتسعت مسافة الخلف بين رؤسائه على حساب المصلحة العامة ، هذا يدس لذاك ويؤلب عليه حزبا معيناً ، أو طائفة معينة ، أو نفرا من مرءوسيه ، واننا لنجد معظم الموظفين ، الذين صارت مرتباتهم ثقلا على خزانة الدولة ، يقضون معظم أوقاتهم في الدس أو القضاء على الدسائس المحيطة بهم ، بدلا من التفرغ للمصلحة العامة والتفكير فيها •

وقل أن تجد مصرية يثق بمصرى ويعتقد في كفايته ونبوغه فاذا أتى يبحث طريف أو فكرة جديدة اتهم في أدبه ، ولكننا ننحنى اجلالا أمام « القبعات » ولو كانت الرؤوس التى تحملها خاوية •

ثم تريدون بعد ذلك أن يحترم الأجنبى قوما متخاذلين ، غرباء عنه وعن أنفسهم ! ثم تريدون أن نحفظ بشخصيتنا وكياننا !

لقد حقت كلمة الأفغانى « اتفق المصريون على أن لا يتفقوا » ولكننا رغما من ذلك لانريد أن نستسلم لليأس فان مصر اليوم فى طور من أدق من أطوار الانتقال ، وللانتقال فى كل أمة عيوب ومساوىء لا بد من تحملها •

ان الانقلاب الحديث تناول جميع مظاهر حياتنا الاجتماعية ، واذا كنا الآن نعانى منه ما نعانى فلا بد من وقت يصفو فيه الخلق المصرى الذى يستند الى أعلى ذكاء ، ولا بد من وقت تأخذ الكفايات المصرية المنزوية الآن فى كرامتها ، وما أكثرها ، مكانها فى الصف ، وتهبط الى الدرك القوى الصاخبة التى لا وزن لها •

ولكن يجب علينا عاجلا أن ننظر الى موقفنا الدقيق نظرة تحيط بالحقائق ، وأن نفتش عن عيوبنا وأمراضنا الاجتماعية فنعمل على مداواتها •

فقد آن أن نهض من غفلتنا حتى لا يأكلنا آكل ، وأن تقصر مسافة الخلف بيننا ما استطعنا فنحن أمة ، ولا حياة لأمة اذا لم يقم بنائها على أساس من الخلق المتين •

الأهرام فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٦





الجزء الثاني

الكتاب الخامس

فصول في الأدب



رسالة

رسالة اب لثنا

به لانا راجع

ALFORD

## الباب الأول

### أدب النقد والتحليل

#### امرؤ القيس

قال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب شارح ديوان امرئ القيس في مقدمته : « وليس للشعراء المحدثين من الألفاظ المرتفعة والمعاني المستغلقة ما للجاهليين في أشعارهم وقد قال الجاحظ والزمان زمان : طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يعرف الا غريبه فسألت الأخص فلم يعرف الا اعرابه فسألت أبا عبيدة فرأيته لا ينفذ الا فيما اتصل بالأخبار ، ولم أظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن ابن وهب وغيره » •

والواقع أن هذا الشارح نفسه وجميع الشراح الى يومنا هذا لم يفهموا شعر امرئ القيس ، وبين يدي الآن آخر شرح له وهو مملوء بالأخطاء • وفي اعتقادي أن شعراء الجاهلية وشعراء العصر العباسي قد فهموا شعر امرئ القيس • وقد اعترف البحتري بأنه عاقل الشعر الأول • ولكن أولئك الشعراء جميعا لم يتركوا لنا شرحا لشعر امرئ القيس أو لبعض ابياته كما فعل أبو العلاء مع البحتري في « عبث الوليد » • وقد فتح امرؤ القيس الطريق لجميع الشعراء بعده وخلق مذاهب جديدة وآفاقا تابعوه فيها •

وليست شخصية امرئ القيس بالشخصية الوهمية ، وليس معظم شعره بالشعر المنحول فان للملك الضليل قصائد وعشرات بل مئات من الأبيات التي يبدو فيها طابع الشخصية القوية المجددة • وهي من الشعر الحر العالي الذي لا يجارى •



ولعل أكبر ميزة لشعر امرئ القيس هي قوة التصوير والتصوير غير الوصف • التصوير قوة تفاضة تحيط بالموضوع وتحدده بدقة في خطوطه البارزة الظاهرة وتصل من هذه الخطوط الى جوهره وجوه الروحاني معا وتتغلغل فيهما • وليس أدل على تلك النزعة التصويرية من أنه كان يكتفى في بعض الأحيان برسم خطين أو ثلاثة في غاية من الأحكام على بساطتها المتناهية • وان النظرة الفنية لتعجب كيف تمكن شاعرنا بذلك من الوصول الى لب اللباب ونفخ الحياة في موضوعه فاستوى في أكمل صورة •

واليكم المثل : قال امرؤ القيس :

وما هاج هذا الشوق الا منازل      دوارس بين يذبل فَرِقان  
وغرب على مقطورة بكرت به      غدت في سواد الليل قبل المثاني  
يصرّفها شئن يرى بلبانه      ولحيته نضح من النفيان

يقول شاعرنا في البيت الأول ان رؤية المنازل الدارسة قد هيجت شوقه وان هذه المنازل بين يذبل فرقان • وهنا يظهر حب امرئ القيس لتحديد الأماكن ومنها أماكن الحب التي تشغف بها ، وكلنا يذكر تلك الصيحة المدوية في قلوب الأجيال ( ققانبك من ذكرى حبيب ومنزل ، بسقط اللوى ، بين الدخول فحومل ، فتوضح فالمقراة ••• ) وكيف أنه استعمل فاء التعقيب بدلا من واو العطف رغم انف النحو والنحويين فلم يقل بين يذبل ورقان أو بين الدخول وحومل وتوضح • لأن للشعر أجروميته العليا ، والفاء موسيقية عذبة وهي تؤدي معنى العطف والتعقيب معا • وفيها وقفة اجبارية حلوة على كل مكان من الأماكن المختلفة المحيطة بمنازل الحب والذكرى •

أما البيت الثاني فقد أخطأ الشراح في تفسيره فقالوا ان الغرب هو السيف وقالوا هو الفرس وقالوا ان المقطورة هي الناقة التي قطرت بأختها • وهذا كلام سقيم • والحقيقة أن الشاعر بعد أن ذكر في البيت الأول

المنازل التي هاجت شوقه رؤيتها • ذكر الغرب وهو الدلو الكبير •  
والمقطورة الناقة المطلية بالقطران • وهذا الطلاء تحبه النوق لأنه ضد  
الجرب والحشرات التي تلتصق بالجلد • وقد غدت هذه الناقة في القسم  
الأول من الليل •

وظاهر أن الدلو الكبير الذي تحمله الناقة هو زاد المسافر من الماء  
وأن الناقة المقطورة كانت معدة لرحلة طويلة أو أنها كانت تتابع رحلتها  
فرؤية الدلو والناقة مما يهيج الشجا كما تهيجه رؤية المسافر وأمتعته  
في محطة من محطاتنا الكبرى • والرائع قوله :

يُصْرَفُهَا شَنْ يُرَى بَلْبَانَهُ      ولحيته نضح من النفيان

الشن الخشن واللبان الصدر • والنضح كرشاش الماء • والنفيان  
ليس هو التراب فحسب بل التراب الذي تنفيه الرياح أى تطيره • يقول  
يصرف هذه الناقة رجل خشن يرى بصدرة ولحيته أثر التراب المتطاير  
من الأسفار • وقد أدى شاعر آخر معنى البيت في كلمتين فقال « أشعث  
أغبر » ولكن هذا وصف وذاك تصوير • وشتان بينهما •  
واليك مثل آخر • جاء في المعلقة :

كأنى غداة البين يوم تحملوا      لدى سمرات الحى ناقف حنظل

قال الشراح : سمرات جمع سمرة وهى شجرة أم غيلان • والحنظل  
شجر من نقف ثمره بظفره دمعت عيناه لشدة رائحته ومرارته •

ونقول نحن ان فى هذا البيت البسيط تصويرا سهلا جميلا لا يلتفت  
اليه • وهو تصوير حالة فى قوله « لدى سمرات الحى » مشيرا الى وقفته  
بعد ساعة البين عند شجر الحى • وأروع من هذا « لدى سمرات الحى »  
فان كلمة « لدى » وحدها تصور بؤس الباكى وذل الواقع • وسمرات  
الحى من أعذب الكلم ومن جوهره المتخير •

وهذا التحديد « لدى سمرات الحى » وبين يذبل فرقان وبين الدخول  
فحومل بسقط اللوى لم يأت به الا امرؤ القيس وقد سبق به كتاب



الافرنج جميعا فالتحديد الذي يذكر المكان ويصور الحالة هو الذي  
يجب الينا الرواية الحديثة لأنه يستمد قوته وبهاءه من اتصاله  
بالحقيقة والحياة •

\*\*\*

وفي المعلقة وفي سائر شعر امرىء القيس أبيات تدل على أن شاعرنا  
في تصويره يطير في أعلا أقطار الجمال بقوة الملاحظة والالهام • انظر  
الى قوله :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلع اليدين في حبي مكلل  
قال الشراح : تقدير البيت يا صاحبي ترى برقاً أريك خفقانه في هذا  
الحمى كما تخفق اليد وتتحرك اذا أنذرت أو بشرت • والمكمل : السحاب  
الذي بعضه على بعض • أنتهى

تلك ترجمة حرفية للبيت ولكنها تسدل ستارا على روعته • فان البرق  
اذا خفق أو أضاء في سقف الكون الرهيب ، هاج الحنين والذكرى في  
قلب الغريب النائي ، وهو لمحة مفاجئة الى بعد الديار ووحشة الفراق ،  
وهو نذير خير أو شر ، قد يعقبه غيث ينزل على منازل الأحاب وعلى  
أرضهم فيحييها ، وقد يعقبه سيل منهمر لا يبقى ولا يذر • والمهم هنا  
ذكر الصلة الدقيقة بين حركة البرق وحركة اليد بل بين اضاءة البرق  
واضاءة اليد في حركة مفاجئة •

والمتفرس في وجوه الرجال في ساعات المحنة وما أكثرها ، وفي ساعات  
السعادة والتجلى ، يلمح فيها ضوءا خاطفا لا تراه الا العين الملهمة النافذة •  
وقد كان معظم المصورين الايطاليين وغيرهم من الفنانين اذا رسموا صورة  
عظيم من العظماء ، عنوا قبل كل شيء بابرار الوجه واليد ، للنفاذ الى  
شخصية الرجل ونفسيته ، واظهارها في الصورة • من الملامح واليد • فهما  
دليله وعنوانه •

وقد خلق خيال امرىء القيس وبسط جناحيه على الانسانية والكون

بقوله « كلمع اليدين في حبي مكلل » وقد ذكر البرق في قصيدة أخرى :

وتخرج منه لامعات كأنها أكفٌ تلقى الفوزَ عند المفيض

المفيض هو الذي يضرب بالقداح ويحيلها عند القمار . وقد ذكر الشاعر خاصة الأكف أو الأيدي التي تنتظر الفوز بلهفة عند اجالة القداح أو كما تقول العامة « عند ظهور النتيجة » فهي مضطربة . أقول لمح ذلك الناظر المجرب بعينه النفاذة حركة الأيدي الخفية في اضطرابها وذلك البارق النفساني على الأكف وهي قلقة تترقب الظفر .

وقد صور امرؤ القيس الانسانية البائسة التائهة في هيولى الطبيعة وهي تتعزى عن الحظوظ وتلعب وتقامر وقرن بين خلجات السعد انقلقة المضيفة على أكفها ، وبين خلجات البرق الخافق في الظلماء .

\*\*\*

وكثيرا ما يخرج امرؤ القيس في تصويره ، من الحيز المادى المحدود الى الحيز الروحانى الواسع ، فاذا ذكر المرأة وصف الجسم والأعضاء بالدقة ، وصفا يبرز لنا تمثال جمالها ابراز مثال مقتدر ، ولكنه سرعان ما يخرج من وصفه الى التصوير الحى الذى يرى ما وراء المادة من حياة ، وليست نظرتة الى المرأة كما يخيل الى البعض نظرة مادية بحتة . ان مادة المرأة فى شعره مادة روحانية تشرق بالنور كحجر الماس الصافى . قال فى معلقته :

تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة مُمسى راهب متبتل

وأروع ما قاله فى هذا المعنى :

تنورُها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عال

يقول الشراح : ان الشوق جلا قلبه فأبصر نارها من بعد . وأذرعات بلد بالشام . ويثرب مدينة الرسول عليه السلام . وأدنى دارها نظر عالى : أى اقرب دارها منا بعيد فكيف بها ودونها نظر مرتفع .



وقال أبو العباس لا يقال تنور الا عند أبصار النار . قال  
البحارث بن حلزه :

فتنورتُ نَارَهَا من بَعِيدٍ      بِحِرَانِ هِيَّاتِ مِنْكَ الصَّلَاءِ

والشعراء يحبون مواقد النيران وموقد النار أو النار معنا في اعتقادنا  
رمز للبيت والدار وهي تعادل في قوتها كلمة (Foyer) الفرنسية وأكثر من  
هذا هي النار والنور معا . ومن هنا روعة التصوير وحلاوته في قوله  
« تنورتها من أذرعات » .

ويجب أن لا ننسى بهذه المناسبة أن لغة العرب وبالأخص لغة امرئ  
القيس أشبه باللغة اللاتينية لأنها لغة غنية مركزة تجد الكلمة فيها تجمع  
بين معنيين أو ثلاثة في وقت واحد وهذا ما لم يلتفت إليه فكلمة لمع  
أو لامعات كما تقدم تفيد الحركة والضوء معا وكلمة تنورتها تشير انى  
النور الذى أشرق في قلب المحب النائم والى نار المحبوبة والى نورها .  
واليكم مثل آخر : قال يمدح بنى ثعل وقد نزل فى ديارهم فأجاروه  
وأكرموه :

تظل لبونى بين جو ومسطح      ترعى الفراخ الدارجات من الحجل  
وما زال عنها معشر بقسيهم      يذودونها حتى أقول لهم بجَل

يقول تظل لبونى وهى النوق بين هذين المكانين من جبل طيبىء  
ترعى مع الفراخ الدارجات أى الماشيات ، من الحجل أى من الدجاج  
البرى . وهذا تصوير سهل لمشهد من مشاهد الطبيعة والحياة التى  
يحبها شاعرنا .

وقد قال الشراح عن البيت الثانى : يذودونها أى يدفعونها الى  
مراعيها وبجل أى حسبكم . فاذا فسرنا يذودونها بمعنى يدفعونها الى  
مراعيها فهل يدفعونها بقسيهم ؟ ثم كيف تفسر كلمة ( عنها ) فى قوله  
« وما زال عنها معشر بقسيهم . يذودونها .. » ؟

الواقع أن كلمة ( يذودونها ) هنا لها مدلولان : الأول يذودونها أى بدفعا الى مراعيها بنو ثعل الذين يحمون امرأ القيس ويحرسون ماله فلا تكون مسيبة بغير رقيب • والثانى انهم يذودون عنها بقسيهم أى أن أولئك الرماة يحمونها بسلاحهم من كل اعتداء فهم يذودونها ويذودون عنها • وهذا هو الايجاز اللغوى بعينه والبيان القوى المتعدد الوجوه الذى تميز به امرؤ القيس •

\*\*\*

كثيرا ما تعمق الشراح فى الشرح اللغوى الحرفى فأفسدوا التأويل والمعنى • ذكر أبو بكر فى شرح بيت امرئ القيس فى الفرس ، وهو من معلقته :

يَزَلُ الْغَلَامَ الْخَفِّ عَنْ صَهْوَاتِهِ وَيُلْوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ

الخف يريد الخفيف • وصهوة كل شىء ظهره • ويلوى يسقط • العنيف الذى لا رفق له • معنى البيت أن هذا الفرس اذا ركبه العنيف لم يتمالك أن يصلح ثيابه • واذا ركبه الغلام الخفيف زل عنه وانما يصلح له من يداريه • انتهى

ظاهر أن الأثواب هنا ليست الثياب كما يبدو لأول وهلة ومن السخف القول بأن الرجل العنيف اذا ركب ذلك الجواد السريع لم يتمالك أن يصلح ثيابه وهل عنده وقت للتفكير فى ثيابه وانما الثياب قد تأتى بمعنى الروح أو البدن أو الاثنين معا لأنها تشتمل عليهما قال تعالى : ( وثيابك فطهر ) •

يلوى بأثواب العنيف أى يسقطه • والاشارة هنا قوية الى البدن بصفة خاصة لأن الراكب عنيف ولأنه مثقل بكسر القاف ، وقد ذكرت بالفتح خطأ فى ( اللسان ) وغيره ، لأنه بعنقه وانصبابه بجسمه بغير رفق ولا لبق وهو رجل نَحْمَةٌ أى ثقيل جيس يطرحه الجواد فى طريقه •



والمُثَقَّل بالكسر لا بالفتح تنتظم مع كلمة العنيف وتتساند معها في قوتها  
فيظل البيت في ارتفاعه متماسكا من أوله الى آخره •

والواقع أن الناظر الى ( الجوكى ) أو غلام السبق والى انحناءته  
الرشيقة فويق الجواد وحنوه عليه ، مطلا كالبازى ، مدمج الروح والبدن  
والثوب ، لا هو بالخفيف ولا بالثقل ، يدرك دقة امرىء القيس فى كل  
وصف أو تصوير يخرج من ريشته •

\*\*\*

وبالجملة نجد امرأ القيس اذا وصف السحاب أو المطر أو السيل  
مثلا فى معلقته وفى غيرها من القصائد احاط بموضوعه واختلف تصويره  
فى كل مناسبة باختلاف الحالة والزمان والمكان • فغيره يبالغ ويعمم ،  
وهو يخصص ويعين ويحدد ، وهذا التحديد الذى انفرد به يضى على  
شعره مسحة من جمال الحقيقة سيما وان الشاعر ينظر الى الموضوع من  
كل نواحيه حتى يستقصى كل صورته وألوانه فى اطار واسع •

ويمكن القول بصفة عامة ان امرأ القيس لا يبرز لنا صورة من صور  
الكون أو يلمس عنصرا من عناصره مهما ضوئل دون أن يعلى من شأنه  
فى جو روحانى رفيع صادر عن عاطفته الانسانية الكبرى وعن حسه  
الفياض • وقد ظهرت هذه العاطفة فى تصوير الحيوان والطيور فسبق  
كبار المصورين من الافرنج اليها وأصبحت من أكبر مميزات الشعر  
العربى على الشعر الغربى الذى لم يعن بتصوير الحيوان عناية شعراء  
الجاهلية أو عناية المصورين من الافرنج • وقد فصلنا ذلك فى كتابنا  
عن امرىء القيس •

وحسبنا أن نشير هنا الى وصف صراع القوة الذى حدث بين الذئب  
والعقاب الكاسر التى تتعقبه :

لا كالذى فى هواء الجو طالبةً ولا كهذا الذى فى الأرض مطلوب

والقصيدة كلها غرر ودرر •

والى ظلم القوة فى الطبيعة ، ذلك الظلم الذى يبدو فى اعتداء سباع  
الطير وجوارحه على الحيوان المستضعف •

قال فى عقاب تصيد ذكور الأرناب وتطعم أفرانها فى أوكارها  
قلوب الطير :

كأنى بفتخاء الجناحين لقوة صيود من العقبان طأطأت شملاى  
تَخَطَّفَ خِزَّانَ (الشَّرْبَةَ) بالضحي وقد جُحِرَتْ منها ثعالب أورال  
كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

وله فى الخمر والثيران الوحشية آيات خالديات يتجلى فيها ذلك  
الحس المرهف وذلك الحدب الذى وسع الأرض وكل كائن حى •

ولا يسعنى أن اختم كلمتى دون أن أقول ان شعر امرىء القيس  
معدن بكر من معادن لغة العرب وفصاحتهم جدير بأن يدرسه شبابنا  
وشيوخنا اذا أردنا أن نخلق جيلا قويا مهذبا ••• واننا لنجد فى بكائه  
وغناؤه بلسما لجراحاتنا ونجد حافزا لنا فى روح الرجولة والطماح التى  
تطل من قصيده فى كل أبهتها • أليس هو القائل :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا  
فقلت له لا تبك صاح فانما نحاول ملكا أو نموت فنعدرا

محاضرة ألقىت فى الاذاعة فى ٢/٤/١٩٤٨ •



## بلاغة العرب

### كليلة ودمنة

البيان في لغة العرب ، يجرى في منازلها وأساليبها جرى الماء في فروع  
الدوحة ... ومنذا الذي لا يجب ظل الدوح وثمره المتهدل الذي يملأ  
اليد والعين والقلب ؟ ومنذا الذي لا يحس طراوة العيش وبهجة الدنيا  
في نواحيها ؟ ومنذا الذي لا يحركه السحر الذي يتبرج في كل لون  
نضير ؟ •

ان لكل لفظة ولكل أسلوب لونا ولكل لون فتنة ، وقد جمع  
أسلوب ابن المقفع بين الجزالة والسلاسة ، وكانت كل لفظة منه تنحت  
من خير مقطع ، ومن عجب أن هذه الألفاظ والتراكيب السهلة الممتعة  
كان ينظمها ابن المقفع ، فيخدعك صفاؤها وانسجام نغمها وموسيقاها  
عما تكبده من تعب وجهد •

وأسلوب ابن المقفع في الكتابة كأسلوب البحترى في الشعر : في  
كل منهما تتجلى روعة الفن والصقل والذوق •

قال الطائر فنزة الى الملك في كليلة ودمنة : « ... أنا الفريد الوحيد  
الغريب الطريد قد تزودت عندكم من الحزن عبئا ثقيلا لا يحمله معي  
أحد • وأنا ذاهب فعليك منى السلام » وقال البحترى :  
وقفة في العقيق أطرح ثقلا من دموعي بوقفة في العقيق  
وقال :

أعاب الخل فيما جاء واحدة ثم السلام عليه لا أعاتبه  
هذا نثر منظوم وذاك شعر منشور ينتظمهما نفس واحد وموسيقى  
واحدة تتحد مع المعنى ... الأول يطول نغمه ويمتد كموج البحر

لأنه يدل على ثقل العبء الذي يؤوده ... « قد تزودت عندكم من  
الحزن عبئا ثقيلا » والثاني يقصر نغمه ويطرده لأنه يدل على طرح  
الحمل ... « وقمة في العقيق أطرح ثقلا » .

واني أجتزىء اليوم بهذه المقارنة وأقول : انه يخيل الى أن ابن المقفع  
كان محزون النفس لأن وتر الحزن في كتابته يرن بين آونة وأخرى كلما  
ذكرت الصداقة وكلما ذكر الوطن .

كانت الصداقة عنده كما كانت عند اسماعيل صبرى ظلا يأوى اليه  
كلما كثر النهار ..

جاء في باب الحمامة : « قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد  
سمعت مثل المتحابين .. فحدثني ان رأيت عن اخوان الصفاء ، كيف  
يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض ... » وجاء فيه أن المطوقة  
نادت الجرذ باسمه : « فأجابها الجرذ من جحره : من أنت ؟ قالت :  
أنا خليلتك المطوقة . فأقبل اليها الجرذ يسعى » .

« أنا خليلتك المطوقة » ... أظن كثيرين من القراء يعرفون قصص  
( لافوتتين ) ... ويذكرون باب المطوقتين الراحلتين وسؤال احدهما  
للأخرى : « هل عند خليلتي الكفاف من الزاد والمأوى ؟ » .

وجاء أيضا في باب الحمامة المطوقة : « انه لاشيء من سرور الدنيا  
يعدل صحبة الاخوان ، ولا غم فيها يعدل البعد عنهم » . وقالت  
السلحفاة ترغب الظبي في الاقامة معها وصحبتها : « نحن نبذل لك ودنا  
ومكاننا ، والماء والمرعى كثيران عندنا » . ثم قالت : « لا عيش مع فراق  
الأحبة ، واذا فارق الأليف أليفه فقد سلب فؤاده وحرم سروره  
وغشى بصره » .

والأمثلة كثيرة في مقدور كل قارئ أن يهتدى اليها ، والآن أنتقل  
الى الوطن والوطنية ، وأرجو أن نقف قليلا على باب ( البوم والغربان )  
فان فيه بلاغة وفيه دروسا نافعة .



تتلخص هذه القصة في أن ملك البوم أغار في أصحابه على الغربان فقتل وسبى منها خلقا كثيرا ، وكانت الغارة ليلا ، فلما أصبحت الغربان اجتمعت الى ملكها وأخذت تتشاور معه في الأمر ، فنصح اثنان منهما بالهرب فقال الملك : « لا أرى لكما ذلك رأيا ، أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدونا من أول نكبة أصابتنا فيه ولا ينبغي لنا ذلك ، ولكن نجتمع أمرنا ونستعد لعدونا ونذكي نار الحرب فيما بيننا وبين عدونا ونحترس من الغرة اذا أقبل الينا فنلقاه مستعدين ونقاتله قتالا غير مراجعين فيه ولا مقصرين عنه ، وتلقى أطرافنا أطراف العدو ونتحرز بحصونتنا وندافع عدونا بالأناة مرة وبالجلاد أخرى حيث نصيب فرصتنا وبعيبتنا ، وقد ثنينا عدونا عنا » .

أبى ملك الغربان أن يستسلم للعدو المغير وأن يخلي له وطنه ودياره وأبى الا أن يقاتل وأن « تلقى أطرافنا أطراف العدو ... »

وأفتى الثالث بالصلح مع العدو « على خراج تؤديه اليه في كل سنة ندفع به عن أنفسنا ونظمئ في أوطاننا ... » أو بعبارة أخرى كان يرى في البقاء في الوطن في ظل الاستعباد بعض الطمأنينة ، وقد رد الرابع أنه لا يرى هذا الصلح رأيا « بل أن تفارق أوطاننا ونصبر على الغربة وشدة المعيشة خير من أن نضيّع أحسابنا ونخضع للعدو الذي نحن أشرف منه مع أن البوم لو عرضنا ذلك عليهن لما رضين منا الا بالشطط . ويقال في الأمثال : قارب عدوك بعض المقاربة لتتال حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترى عليك ويضعف جندك وتذل نفسك . ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس ... اذا أملتها قليلا زاد ظلها واذا جاوزت بها الحد في امالتها نقص الظل ... وليس عدونا راضيا منا بالدون في المقاربة ، فالرأى لنا ولك المحاربة ... »

قال الملك للخامس : ما تقول أنت ؟ وماذا ترى ؟ القتال أم الصلح ؟ أم الجلاء عن الوطن ؟ ..

قال : أما القتال فلا سبيل للمرء الى قتال من لا يقوى عليه .

وقد كان هذا الأخير أرجحهم عقلا لأنه خشى مغبة قتال القوى ومقاربتة كل المقاربة والجلاء عن الوطن ... ورأى أن يصيب أبناء جنسه حاجتهم من البوم بالرفق والحيلة قال : « واني أريد من الملك أن ينقرنى على رؤوس الأشهاد وينتف ريشى وذنبى ، ثم يطرحنى فى أصل هذه الشجرة ويرتحل الملك وجنوده الى مكان كذا فأرجو أنى أصبر وأطلع على أحوالهم ومواضيع تحصينهم وأبوابهم فأخادعهم وآتى اليكم لنهجم عليهم وننال منهم غرضنا ان شاء الله تعالى » .

انطلت على البوم حيلة الغراب وأنست له حتى اذا طاب عيشه ونبت ريشه واطلع على ما أراد أن يطلع عليه راغ روغة فأتى أصحابه وقال لهم : « ان البوم بمكان كذا فى جبل كثير الحطب . وفى ذلك الموضع قطع من الغنم مع رجل راع . ونحن مصييون هناك نارا ونلقياها فى أثقاب البوم وتقذف عليها من يابس الحطب وتراوح عليها ضربا بأجنحتنا حتى تضطرم النار فى الحطب فمن خرج منهم احترق ومن لم يخرج مات بالدخان موضعه . ففعل الغربان ذلك فأهلكن البوم قاطبة ورجعن الى منازلهن سالمات آمنات .. »

لقد أرسل الله الى البوم من يهلكها ويبيدها ، لأنها ظلمت القرى والعباد ، واني لأتمثل الغربان وهن يتراوحن على النار ضربا بأجنحتهن حتى تضطرم فى الحطب ... تلك أجنحة ملائكة ... ملائكة الرحمة والانتقام ...

ويعجبني فى هذه القصة حكاية الصفرى الذى طالت غيبته عن مكانه فجاءت أرنب فسكنته فلما عاد الصفرى تنازعا وقرر أن يحتكما الى سنور متعبد بساحل البحر « يصوم النهار ويقوم الليل كله .. » . ما كادا يسألانه أن يقضى بينهما ويقصان عليه قصتهما حتى قال :

« قد بلغنى الكبر وثقلت أذناى فادنوا منى فأسمعانى ما تقولان » فدنوا منه وأعادا عليه القصة وسألاه الحكم . فقال :

« قد فهمت ما قلتما وأنا مبتدئكما بالنصيحة قبل الحكومة بينكما



فأنا أمر كما بتقوى الله وألا تطلبوا إلا الحق فان طالب الحق هو الذى  
يفلح وان قضى عليه . . . » قال صاحب كليله ودمنة :

« ثم ان السنور لم يزل يقص عليهما من جنس هذا وأشباهه حتى  
أنسا اليه وأقبلا عليه ودنوا منه ثم وثب عليهما فقتلها » •

تلك عاقبة المتنازعين الذين يحتكمون الى القوى فيخدعهم برياء  
قوته وجبروته ناسين « أن العاقل لا يغتر بسكون الحقد اذا سكن •  
فانما مثل الحقد فى القلب اذا لم يجد محركا مثل الجمر المكنون مالم  
يجد حطبا فليس ينفك الحقد متطلعا الى العلل كما تبتغى النار الحطب  
فاذا وجد علة استعر استعار النار » ( باب الملك والطائر فنزة ) •

أنظر الى كلمة « المكنون » التى يصف بها الجمر وكلمة « متطلعا »  
التى يصف بها الحقد وكلمة « تبتغى » فى قوله « كما تبتغى النار الحطب »  
هل رأيت أبلغ منها فى مثل هذه المواطن ؟ •

ثم انظر الى قوله فى الحقد :

« فاذا وجد علة استعر استعار النار » تر من جمال التعبير ما يرقص  
له البيان • فان الكلام كان يمشى وئيدا ثم اندفع كالنار فى الجملة الأخيرة،  
وكذلك كان الشأن فى قصة المطوقة :

« فأجابها الجرد من جحره : من أنت ؟ قالت أنا خليلتك المطوقة  
فأقبل اليها الجرد يسعى » فان هذه الكلمات القصيرة المتتابعة « فأقبل ،  
اليها ، الجرد ، يسعى » تنم عن الحركة السريعة المطمئنة وتؤدى المعنى  
خير أداء ، وان من البيان لسحرا •

الرسالة فى ٤ مارس سنة ١٩٤٠

## الحكم على الشعر

### وأساليب النقد والتحليل

الشعر أعلى وأدق تعبير للحياة وقد وصفه أحد شعراء الافرنج بأنه « لآلىء الفكر » ، وهو يتصل بخياله وأوزانه بالتصوير والموسيقى اتصالا وثيقا ، فلا بد من الحس المرهف للحكم عليه ، ولا بد من « الذوق » ، وقليلون جدا من يتذوقون الشعر و « يحسون نبو الوتر » ، وهم لا يتجاوزون عدد أصابع اليد في كل عصر وفي كل جيل • ومهما كان من الأمر فان التذوق درجات تتفاوت وتختلف باختلاف الأمزجة ، والتمرس بالآداب المختلفة ، والخبرة والاستعداد الشخصي • فالشاب المنعم الذي لا يعرف متاع الحياة ويجهل حب البنين ، ليس في مقدوره أن يحس لواعج الحزن وعولة الحياة في رثاء ابن الرومي أو الهذلي لبيته ، ولا يفرق بين غناء العود وأنيته ، وهو لا يستمع الا بأذن صماء الى بكاء الطير في الدوح ، ونحيب البلبل في الغاب ، وحنين الجمال في البيداء •

حينها وما اشتكت لغويا يشهد أن قد فارقت حبيبا  
ان الغريب يسعد الغريبا

والشعر في اعتقادي كالحبة التي أودعها الخالق قوة هائلة مركزة تركيزا عجيبا ماديا وروحانيا ، فمن الحبة تخرج الحياة ، ومن حدودها الضئيلة تنبت وتتفرع وتنتشر الشجرة بظلها وجناها ، فليس في مقدور كل أديب الاحساس بتلك « الهيولى » الساحرة الماثلة في بيت من الشعر ... في غضون كلمات معدودات ... وليس في مقدور كل انسان أن يرى جمال الحقيقة وبهاءها ، وفتنة الحياة وفجيعتها ، وقوافل الانسانية البائسة الصامته المنكسة الرؤوس والأعلام ، وهى تطل من البيت والبيتين ...



وقد بكى شعراء العرب أطلال المنازل التي كانت شاهد حبههم  
وحياتهم في عصر من عصورها ، في لحظة من لحظات السعادة الزائلة ،  
فلم يبك أحدهم الحياة في أوسع آفاقها وجناتها الخاوية مثلما بكأها  
البحثري وهو واقف « بين يدي الايوان » وبين يدي الله . ولم يندب  
أحد بعد امرئ القيس الطلل البالي وسكونه . ووحشته بعد الأوس  
والحياة والحركة والضوضاء وبهجة الألوان ، والوجوه والظلال  
والأشباح ، كما ندبها البحتري في قوله :

تلك المنازل ما تمتع واقفا بزها الشخوص ولاوغى الأصوات  
ولأبي تمام بيت رائع من هذا القبيل كان يتغنى به المرحوم حافظ  
ابراهيم في غاب بولون ، وقد صحبته اليها حين زار باريس :

لا أنت أنت ولا الديار ديار خف الهوى وتقضت الأوطار  
فهذا الشعر يمثل الحقيقة لأنه صادر عن وجدان صادق ، وعاطفة  
وتجارب مرة ، وقوة ملاحظة وتصوير ناطق ، وقد امتاز امرؤ القيس  
بحب الحقيقة وتصويرها في أبهتها وجلالها وروعيتها فأصبح عاهل  
الشعر حقا .

ولا ريب أن أروع شعر أبي تمام هو الشعر الذي ترسّم فيه  
الحقيقة ، لا الشعر الذي ملأه بديعا وتكلفا ، واذا كانت أشهر  
مراثيه قصيدة :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر  
وفيها يقول :

تردى ثياب الموت حمرا فما دجى لها الليل الا وهى من سندس خضر  
فان هناك قصيدة أخرى هي في اعتقادي أروع منها وأجل ، وهي  
القصيدة التي رثى فيها ابنه ، ووصفه وهو يتقلب على فراش الموت  
ويعانى آلامه :

آخر عهدى به صريعا      للموت بالداء مستكينا  
 اذا شكا غصة وكربا      لاحظ أو راجع الأئينا  
 يدير في رجعه لسانا      يمنعه الموت أن بينا  
 يشخص طورا بناظريه      وتارة يطبق الجفونا  
 بنى يا واحد البنينا      غادرتنى مفردا حزينا

وقد ذكر شعراء العرب من جاهليين واسلاميين الطبيعة في شعرهم ،  
 ولكن الجاهليين الذين كانوا يعيشون في البادية والفضاء الرحب ، والماء  
 والغاب والوهاد والنجاد والصخور والكثبان والسيول والأنهار ، كانوا  
 أصدق عاطفة في تصويرها من المولدين ، لأن الآخرين ولعوا بالرياض  
 والزهور ومظاهر الطبيعة « السطحية » المنمقة « كالوشى » و « التطريز » ،  
 أكثر من ولعهم بالرياح التى تهب ، وقوى الطبيعة التى تزخر وتصخب ،  
 وتثور فى أحنائها وأفيائها •••

ولعل أكبر صلة تربط امرأ القيس بالافرنج وتميزه على شعراء العرب  
 كافة هى احساسه العميق بالطبيعة ، وانى وان كنت قد بينت الصلات  
 الأخرى نضا وتصريحا ، فانى تركت هذه الصلة ( صلة الطبيعة ) تبدو  
 « من تلقاء نفسها » شرحا وتحليلا ، والواقع أن امرأ القيس موهبة من  
 مواهب الطبيعة ، يجب أن ندرسها وتعلق بها تعلق الانجليز بشكسبير  
 وتراثه الخالد •

وقد حصرنا الى اليوم همنا فى تغيير الناس من امرىء القيس ، وحصر  
 عبقريته فى الاستعارات بين ( بيضة الخدر ) و ( قيد الأوابد )  
 و ( السججل ) و ( العقنقل ) ، وتركنا جوهر الشعر اللامع الوضاء  
 دفينا تحت الرماد •

وقد أبدع العقاد فى تحليل شعر ابن الرومى ، وكتب صفحات  
 رائعات ، وقد يكون لغيره فى النقد والتحليل نقشات وكل ما نرجوه أن  
 نعمل جميعا على اظهار مكنونات وكنوز الشعر العربى • وأحب هنا أن  
 أذكر أن « كتابة » النقد والتحليل قد ترتفع الى أعلا مراتب الكتابة



والبيان ، لأن شخصية الكاتب تتجلى فيها ، وهذه الشخصية تبدو في  
غضون الكتاب لا في العنوان • والشخصية تشمل المزاج وقوة التصوير  
والقدرة البيانية وتجارب الحياة ، وهي كلها ذات أوشاج وصلات مع  
شعر الشاعر وحياته •

وهذا ( سانت بيف ) أكبر ناقد فرنسي بدأ حياته بالشعر ثم أرصدها  
للنقد ، فساعده خياله وأدبه وسعة اطلاعه على فهم الشعر والمجتمع ،  
وصار الناقد في عبقريته لا يقل عن أكبر شاعر ، كما أن ( بول بورجيه ) ،  
وهو من خيرة الروائيين الذين حللوا الحب والحياة ، ساعده قوة تحليله  
وفلسفته على كتابة صفحات في نقد الشعراء المعاصرين هي آية في الفلسفة  
التحليلية ، واختراق الستار الذي يحجب الحياة والمجتمع في شعر  
الشاعر ، وقد تمكن كل منهما من اظهار تلك الأشعة الدقيقة التي تحيط  
بجوهر الشعر والفكر والخيال •

الرسالة في ٣ أبريل سنة ١٩٤٤

## نونية أبي تمام في رثاء ولده

### لأستاذ جليل

على أثر نشر المقال السابق نشرت ( الرسالة ) تحت هذا العنوان مقالا ردا على مقالنا وقالت انه لاستاذ جليل ( الاستاذ اسعاف النشاشيبي ) :

\*\*\*

للدكتور محمد صبرى أن يرى في مقالته « الحكم على الشعر وأساليب النقد والتحليل » فى الرسالة الغراء ( ٥٦١ ) أن نونية أبى تمام فى رثاء ولده قد فاقت رأيته فى محمد بن حميد الطوسى التى يقول فيها : فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا أن يقال به كبر وللأستاذ عبد الرحمن شكرى أن يستعجب فى احدى مقالاته فى الرسالة كيف أن حبيا - وهو فى الرثاء ما هو - لم يجد فى النونية اجادة ابن الرومى فى الدالية التى رثى بها ولده • غير أن تلك القصيدة فائقة كانت أو مقاربة (١) ليست لأبى تمام وان جاءت فى ديوانه المطبوع وفى المخطوط فى دار الكتب المصرية ( عمرها الله ) ؛ فان أبا بكر الصولى يقول فى مصنفه ( كتاب الأوراق ) فى سيرة ( أبى محمد القاسم بن يوسف ) : « وقال - يعنى القاسم هذا - يرثى ابنه أبا على محمدا » وأورد القصيدة بتمامها ، وروى بعدها دالية للقاسم فى رثاء ابنه محمد وبنين آخرين له تجانسها كل المجانسة • والصولى هو المشغوف بحبيب • وهو صاحب أخباره وجامع أشعاره فيستبعد أن يأخذ منه ليعطى غيره كما يستبعد أن يضل فى الرواية ، وهو الراوية العظيم • وما حدثتنا ( أخبار أبى تمام )

(١) شىء مقارب : وسط



ولا ( هبة الأيام ) للبديعى ولا مؤلفات كتبت سيرة حبيب أن له ابنا ،  
كنيته أبو على ، فجع به فرثاه بشيء ، ولا أن له ابنا اسمه محمد درج  
وأخوة<sup>(٣)</sup> لأبى تمام فى عام واحد فبكاهم بمقطوعة ( أربعة أبيات فقط )  
ختامها :

تتابع فى عام بنى واخوتى فأصبحت ان لم يخلف الله مفردا  
ولا نعرف لحبيب ولدا الا «تماما» ذكره الأنبارى فى «نزهة الألباء»  
فى سيرة أبيه ، والصولى فى كتابه « أخبار أبى تمام » وأورد له هذه  
الحكاية : « لما ولى محمد بن طاهر خراسان دخل الناس لتهنئته ، فكان  
فيهم تمام بن أبى تمام الطائى فأنشده ( وروى الصولى ثلاثة أبيات  
ركيكات ) فاستضعفت الجماعة شعره ، وقالوا : يا بعد ما بينه وبين أبيه !  
فقال محمد لعبد الله ابن اسحاق ، وكان يعرفه الناس وهو على أمره :  
قل لبعض شعرائنا أجبه ، فغمز رجلا فى المجلس ، فأقبل على تمام فقال  
وروى ثلاثة أبيات ثالثها :

فهاك ان شئت بها مدحة مثل الذى أعطيت أعطاكا

فقال تمام : أعز الله الأمير ! ان الشعر بالشعر رباء ؛ فاجعل بينهما  
رضخا من دراهم حتى يحل لى ولك • فضحك محمد وقال : ان لم يكن  
معه شعر أبيه فمعه ظرف أبيه • أعطوه ثلاثة آلاف درهم • فقال عبد الله  
ابن اسحاق : ولقول أبيه فى الأمير عبد الله ابن طاهر :

أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا فقلت : كلا ولكن مطلع الجود  
ثلاثة آلاف أخرى ، قال ويعطى ذلك » •

وأما صاحب النونية التى وهبها الوراقون أو غير الوراقين لعنى  
عنده قناطير — هو القاسم بن يوسف بن القاسم بن صبيح القبطى ،  
وهو أخو أحمد بن يوسف وزير المأمون • قال الصولى : « لما ولى أخاه

(١) كان لحبيب أخ اسمه سهم ، ذكره البديعى فى (هبة الأيام) وكان  
قصدته فى (سر من رأى) المدينة ، ثم عاد الى دمشق

القاسم خراج السواد ، فجباه فضلا مما جباه غيره في سائر أيام المأمون ،  
وكان أحمد بن يوسف اذا عرض على المأمون النفقات قال : يا أحمد ،  
القاسم يجمع ، ونحن نفرق ... » •

وقد اشتهر القاسم بمدح البهائم ( أعنى الحيوانات ) ومراثيها •  
قال المرزباني في ( معجم الشعراء ) : القاسم شاعر ، حسن الافتنان في  
القول ، وهو أشعر من أخيه أحمد وأكثر شعرا ، وهو أرثي الناس للبهائم •  
وقال أبو الفرج في الأغاني في أخبار أخيه أحمد : شاعر مليح الشعر ،  
وكان قد جعل وكده في مدح البهائم ومراثيها ، فاستغرق أكثر شعره •  
وقال الصولي في كتاب الأوراق : القاسم أسن من أحمد ، وأحسن  
شعرا منه ، وأفصح في شعره ، وأشعر في فنه الذي أعجبه من مراثي  
البهائم — من جميع المحدثين حتى انه لرأس فيه ، متقدم جميع من نحاه ،  
وما ينبغي أن يسقط شيء من شعره ، لأنه كله مختار ، وللناس فيه فائدة •  
ثم روى له طائفة كبيرة من مراثيه في الجماعة ... » •

الرسالة في ٢٤/٤/١٩٤٤



## الحكم على الشعر

### وأساليب النقد والتحليل

كتب « أستاذ جليل » في الأسبوع الفائت يقول « للدكتور محمد صبرى » أن يرى في مقاله ... أن نونية أبى تمام في رثاء ولده قد فاتت رأيته في محمد بن حميد الطوسى التى يقول فيها :

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا أن يقال به كبر  
« وللاستاذ عبد الرحمن شكرى أن يستعجب في احدى مقالاته  
كيف أن حبيبا — وهو فى الرثاء ما هو — لم يجد فى النونية اجادة ابن  
الرومى فى الدالية التى رثى بها ولده • غير أن تلك القصيدة فائقة كانت  
أو مقاربة ليست لأبى تمام وان جاءت فى ديوانه المطبوع ، وفى المخطوط  
فى دار الكتب ... » •

ودليل حضرة الكاتب على أن النونية ليست لأبى تمام هو « أن أبا بكر  
الصولى روى القصيدة بتمامها فى ( كتاب الأوراق ) لأبى محمد القاسم  
ابن يوسف ، وروى بعدها « دالية للقاسم فى رثاء ابنه محمد وبنين  
آخرين له تجانسها كل المجانسة » والصولى مشغوف بحبيب ، وهو  
الراوية العظيم ... وما حدثتنا ( أخبار أبى تمام ) ولا المؤلفات التى  
كتبت سيرة حبيب أن له ابنا ، كنيته أبو على ... ولا أن له ابنا اسمه  
محمد ولا نعرف لحبيب ولدا الا « تماما » كان هنا محمد بن طاهر حين  
ولى خراسان الخ » •

قد يكون الصولى راوية عظيما فى عصره ، ولكن كتبه فى اعتقاده  
ينقصها التحقيق العلمى وكلها حلقات من روى فلان عن فلان ،  
وحدثنا ... هذا من ناحية الرواية ، أما ناحية الأدب فيه فلا أظنها كاملة  
من حيث الذوق والصقل ، ولذلك فان كتبه وكتب غيره لم تستوعب  
أخبار أبى تمام ولم تدقق فيها • واننا لانعرف الا القليل من حياة حبيب

ومعاصريه بل من حياة العصر العباسي نفسه ، فالطبرى وابن الأثير  
والمسعودى يكررون نفس الروايات ، والنساختى يسخون أسماء الأعلام ،  
فترى الاسم الواحد يختلف باختلاف المؤلف والناسخ . ومن الصعب  
أن نهتدى الى تاريخ قصيدة أو الى تاريخ موت وزير كبير رثاه شاعر  
بقصيدة معروفة . بل ان البحرى تكلم عن حوادث حربية هامة لا تتفق  
مع رواية تواريخنا الكبرى اذا ذكرت فيها . . . . . بينما تذكر الحوادث  
التافهة بأسهاب وفي غضوناتها الشعر السقيم .

ولو دقق حضرة الأستاذ الفاضل النظر لتبين له أن الصولى لم يكن  
من المدققين لأنه روى دالية للقاسم « فى رثاء ابنه محمد وبنين آخرين »  
ولتبين له أن هذه القصيدة الدالية لا تجانس النونية كل المجانسة ! .

روى الصولى فى كلامه عن شعر القاسم ( وقال يرثى أولاده ) فلم  
يذكر لنا أسماء أولئك البنين ، بل ان المتأمل فى القصيدة يرى عجا ،  
يرى أن البنين ، اذا كان هناك بنون ، هم : محمد ومحمد ومحمد ! .

هلك البنون محمد ومحمد ومحمد  
واستأثرت بهم المنية والمنية موعده

وبعد أن استطرد الشاعر الى ذكر الأجنة والقرناء الذين يطويهم  
الموت فى أبيات معدودات عاد الى رثاء ابنه محمد الذى يكنى بأبى على :

أسفا عليك أبا على فى يوم ضمك ملحد  
كالبدر فارقه النحو س وقارنته الأسعد<sup>(١)</sup>

والقسم الأكبر والأخير من القصيدة لم يذكر فيه الشاعر الا ابنه  
محمد ، وظاهر أنه كان ابنه الوحيد :

هل لى على الحزن الطوي ل سوى ( لبابة ) مسعد  
ثكلى بواحد فلي س لها عليه تجلد  
ألباب ان الصبر أب قى للإله وأرشد

(١) هكذا روى البيت ولعل صحته :

كالبدر قارنه النحو س وفارفته الأسعد



والواقع أنه لا تجانس بين هذه الدالية وبين نونية أبي تمام ؛ فالدالية قصيدة فقيه زاهد ، والنونية قصيدة شاعر • والواقع أنه لم يكن هناك بنون بل ابن واحد هو أبو علي محمد ، والقاسم حين يقول في بدء القصيدة :

هلك البنون محمد ومحمد ومحمد

فانما أراد التهويل من شأن مصابه بطريقة أقل ما يقال فيها انها لاتدل على (شاعرية) كبيرة •

والواقع أن أبا تمام كان له ابن اسمه محمد وكان للشاعر اخوة ؛ وقد رثى الجميع بأربعة أبيات من الشعر الذي تتجلى فيه شخصيته :

فلا يشمت الأعداء بالموت اننا  
ولا يحسبن الموت عارا فاننا  
ولا يحسب الأعداء أن مصيبتى  
تتابع في عام بنى واخوتى  
سنخلى لهم عن عرصة الموت موردا  
رأينا المنايا لم يدعن (محمد)   
أكلت لهم منى لسانا ولا يدا  
فأصبحت ان لم يخلف الله مفردا  
ففى نونته يقول أبو تمام :

بنى يا واحد البنينا غادرتنى مفردا حزينا

وفى هذه الأبيات يقول : ( فأصبحت ان لم يخلف الله مفردا ) •

وقد أخلف الله عليه فرزقه ( تماما ) الذى ورد ذكره فى تهنئة محمد ابن طاهر عند ولايته خراسان ، فمعلوم أن أبا تمام ولد سنة ١٩٢ هـ ومات سنة ٢٣١ • ويمكننا أن نفرض أنه تزوج فى سن العشرين تقريبا أى فى سنة ٢١٢ أو ٢١٥ وأن ابنه محمدا مات صغيرا قبل العاشرة أو حواليها أى فى سنة ٢٢٢ أو ٢٢٥ ، وفى هذه السنة عينها مات اخوته ( تتابع فى عام بنى واخوتى ) •

وانى أكرر أن نونية أبي تمام من رائع الشعر • وانى أدع جانبا الأبيات التى ذكرتها من قبل والتى صور فيها ابنه وهو على فراش الموت،

وأجتزىء هنا بذكر أربعة أبيات أخرى من آخر القصيدة تطل من أسلوبها  
وكلماتها روح حبيب :

تصرف الدهر بى صروفا	وعاد لى شأنه شئونا
وحز فى اللحم بل براه	واجثث من طلحتى فنونا
أصاب منى صميم قلبى	وخفت أن يقطع الوتىنا
فالمرء رهن بحالتيه	فشدة مرة ولينا

• ولم يرو الصولى البيت الثانى •

وقد نظم أبو تمام الأبيات الدالية التى رثى بها اخوته وابنه محمدا  
بعد النونية ، ويظهر أنه عند نظمها كانت امرأته « تحمل » تماما •••  
الذى مات عنه صغيرا ، وقد ولى محمد بن طاهر خراسان فى سنة ٢٤٨ هـ  
فتكون سن تمام وقت تهنئته ابن طاهر ٢٥ سنة تقريبا ، ولا أظن تماما  
روى عن أبيه شيئا ، لأنه لم يكن يتجاوز الثامنة أو التاسعة عند موته •

ولعل فقدان حلقات كثيرة فى حياة الشعراء وعدم وجود ملكة  
التمحيص والتحقيق هما اللذان دفعا الصولى الى نسبة نونية أبى تمام  
الى القاسم لاشتراك ابنيهما فى الاسم والكنية •

ولنعد الآن الى الأبيات التى صور فيها الطائى ابنه وهو صريع

الموت والداء :

آخر عهدى به صريعا	للموت بالداء مستكينا
إذا شكَا غصة وكربا	لاحظ أو راجع الأنينا
يدير فى رجعه لسانا	يمنعه الموت أن يبينا
يشخص طورا بناظريه	وتارة يطبق الجفونا
ثم قضى نجبه فأمسى	فى جدث للثرى دفينا

وقد جاء فى الديوان بعد ذكر القصيدة النونية ما يأتى :

وقال فى أخ له وحضر وفاته :

لله مقلته والموت يكسرهما كأن أجفانه سكرى من الوسن



يرد أنفاسه كرها وتعطفها يد المنية عطف الريح للغصن  
فملكة التصوير واحدة في القطعتين • وملكة التصوير هذه لا تجدها  
الا عند فحول الجاهليين والاسلاميين ، وهي خاتم الجلال العتيق الذي  
يزين ملامح الشعر العربي وميسم الحسن والروعة والجمال •

الرسالة في أول مايو سنة ١٩٤٤

## شوقي

أكبر شعراء العربية على الإطلاق • لا يدانيه من الشعراء القدماء  
والمحدثين في علو النفس وسمو الخيال الا البحترى والمنتبى وابن الرومى  
ومطران وصبرى • ولكنه يمتاز عليهم جميعا بغزارة المادة الشعرية التى  
لا يبلى جدتها الملوان ولا ينضب معينها

فان من الشعر ما يبلى اذا لم يهبط به الوحي والالهام ولم يصن  
نفسه عن المديح والهجاء والنسيب وغيرها من الأغراض التى أفسدت  
أكثر الشعر العربى

وقد يتساوى أولئك الشعراء جميعا فى جودة الشعر • ولكن جيد  
شوقى يربو على جيدهم ، كما أن جيد جوته وهيجو وشكسبير وموليير  
يربو على جيد لامرتين وموسيه وفينى وشيلى وبيرون وشيلر من شعراء  
الطبقة الثانية

ولا يقل شوقى وشعراء العربية الذين ذكرناهم عن شعراء الافرنج  
فى سمو الخيال

ولكن الافرنج يمتازون عليهم بكثرة جيدهم الذى يستمد رونقه  
وبهائه من الوجدان الصادق • مثله مثل الطبيعة فى اختلاف ألوانها  
وأفوافها وصبغها ، وهل يبلى شعر تبدو فيه صورها الرائعة التى  
لا يدركها عد أو نقاد

ولا ريب أن شعراء الافرنج وجدوا الطريق ممهدا فلم يعقهم فيه  
عائق فقطعوا أبعده شوط فى التجديد الحر الذى يلائم العصر • أما شعراؤنا  
فلم يجدوا فى البيئة بغيتهم ، أشار الى ذلك شوقى فى مقدمة الطبعة  
القديمة من ديوانه الأول ، قال :



« والحاصل أن انزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح تجزئة يجلب عنها ... الا أن هناك ملكا كبيرا ما خلقوا الا ليتغنوا بمدحه ويتقنوا بوصفه ، وهذا الملك هو الكون ... »

« فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى .. أو لم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلا حياته العالية ثم يموت عن نحو مائتي صفحة من الشعر تسعة أعشارها لمدوحيه ، والجزء الباقي وهو الحكمة والوصف للناس » .

وقد فطن شوقي الى أن هذا النقد قد يوجه اليه فاعتذر بأنه « لم يجد أمامه غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر الا ما كان مدحا في مقام عال ولا يرون غير شاعر الخديوى » فأخذ يبعث من أوروبا قصائد المديح طمعا في بلوغ هذه المنزلة وضمنها الكثير من « جديد المعاني وحديث الأساليب » وهو وان كان يدرك تماما الحاجة الى التجديد « الا انه لا يريد المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة » .

ومن تصفح ديوان شوقي الذى نظمه بين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٨٩٨ وجد فيه قصائد المديح الكثيرة ووجد الى جانب ذلك قصيدتين أو ثلاثا من عيون قصائده التى تنقع الغلة وتتجلى فيها شخصية الشاعر الذى يفترع الطريقة البكر ، ويرمى عن القوس فيصيب الهدف .

فى هذه الآونة نظم شوقى أبياته الشهيرة :

خدعوها بقولهم حسناء      والغوانى يغرهن الشاء

وقصيدته الهمزية فى تاريخ مصر التى رفعها الى المؤتمر الدولى سنة ١٨٩٤ ، وكان يبلغ من العمر نحو الخامسة والعشرين عاما .

همت الفلك واحتواها الماء      وحداها بمن تقل الرجاء

وقصيدته البائية فى وصف الوقائع العثمانية .

بسينفك يعلو الحق والحق أغلب      وينصر دين الله أيا ن تضرب

وقد بلغ شوقي في القصيدتين منتهى الجودة والاتقان ، وظهرت  
مرايا شعره من رقة لو كانت نسима لانشرت الاموات ، وابتكار ينفث  
السحر وخيال رائع وأسلوب كالغدير الصافي •

على أن آيات شوقي في الوصف والموت والحياة لا يحصيها عد •  
وقد جرت على كل لسان • فمن بدائعہ :

لها مبسم عاش العقيق لأجله وعاشت لآل في العقيق صغار  
وقوله في الموت :

وانما ينه الغا فل عند الغرغرة  
يلفظها حنظلة كانت بفيه سكرة

وقوله :

وترى الجماجم في التراب تشابهت بعد العقول تشابه الأصداف

وقوله في رثاء عبده الحمولى :

يسمع الليل منه في الفجر يالي ل فيصغى مستمهلا في فراره

وقوله في فلسفة الحياة والتقدم الحديث على لسان تولستوى يخاطب

المعري :

قم انظر وأنت المالىء الأرض حكمة أأجدى تنظيم أم أفاد نثير  
أناس كما تدرى ودنيا بحالها ودهر رخی تارة وعسير  
وأحوال خلق غابر متجدد تشابه فيها أول وأخير  
تمر تباعا في الحياة كأنها ملاع لا ترخى لهن ستور  
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى وغش وافك في الحياة وزور  
وقام مقام الفرد في كل أمة على الحكم جم يستبد غفير

ولعل أجود قصائده التي تتجلى فيها شاعريته في أكمل صورة قصيدته

التي قالها في الأندلس وجارى بها سينية البحترى في ايوان كسرى ،  
وكلاهما درة في تاج الشعر •

بدأ شوقي قصيدته بتذكر مصر :

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى



ثم صور حنينه اليها في بيت من الشعر من أبلغ ما قيل في حب الوطن :  
وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه في الخلد نفسى  
ثم عطف على آثار مصر فوصف « أبو الهول » في أبيات من المعجز  
المطرب :

و ( رهين الرمال ) أفضس الا أنه صنع جنة غير فطس  
تتجلى حقيقة الناس فيه سبع الخلق في أسارى انسى  
ركبت صيد المقادير عينى 4 لنقد ومخليه لفرس  
تأمل بعد ذلك شاعرنا في الكون من دول تدول ، ودنيا تحول ، ونعيم  
يزول ، فازعجه السكون المهيب الذى يغمر في طيات الفضاء كل حركة  
وكل صوت ، ولا سميع ولا مجيب :

يا فؤادى لكل أمر قرار فيه يبدو وينجلي بعد لبس  
عقلت لجة الأمور عقولا كانت الحوت طول سبح وغس  
غرقت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاح لحس  
هذه الأبيات من أرقى الشعر الذى يجمع بين روعة الخيال والفلسفة  
العالية وهى فى الظاهر تمثل عجز العقول البشرية أمام المقادير • ولكنها  
فى الحقيقة صرخة مزعج فى وجه الفضاء الأصم الذى لا تنفك لجته تغشى  
القرون والناس •

وقد استرسل شوقى فى خياله فقال :

فلك يكسف الشمس نهارا ويسوم البدور ليلة وكس  
ومواقيت للامور اذا ما بلغت الامور صارت لعكس  
دول كالرجال مرتينات بقيام من الجدود وتعس  
ومن آياته فى جامع قرطبة :

بلغ النجم ذروة وتناهى بين ثهلان فى الأساس وقدم  
مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسى  
وقد تجلت عبقرية شوقى فى وصف خروج العرب من الأندلس :  
خرج القوم فى كتائب صم عن حفاظ كموكب الدفن خرس  
ركبوا بالبحار نعشا وكانت تحت آبائهم هى العرش أمس

السياسة الأسبوعية فى ٣٠/٤/١٩٢٧.

## البَابُ الثَّانِي

### أدب الوحي والتصوير

#### سياحة في الجبل

سافر المؤلف الى أوروبا لطلب العلم في يولييه سنة ١٩١٣ وقد قضى صيف تلك السنة في جبال الدوفيني وهي قرية من مدينة جرينوبل ثم قصد باريس وعاد في أغسطس سنة ١٩١٤ الى مصر بسبب الحرب وبقي فيها لغاية منتصف سنة ١٩١٥ وفي هذه الفترة الأخيرة نشر في جريدة المؤيد رسائل ذكرياته وقد جمعت وقتئذ في كتيب تحت عنوان ( ذكرى الماضي أو سياحة في الجبل ) • والى القراء مقتطفات من هذه الرسائل :

— ١ —

وشعري وان طاب قبل الأوان      فـيران قلبي أنضجته  
واني وان كنت ذاك الوليد      فان الحوادث شـيينه  
في هذا اليوم من حياتي أقف وقفة السائح ببعض الطريق على ربوة  
عالية ناظرا بمنظار الذكرى الى الورا فتتمثل لي هذه الآفاق الممتدة  
التي تسافر العين في أرجائها بين مروج خضراء وغياض مزدهرة وددت  
أن أعود اليها لو لم أكن مسوقا بقوة خفية الى غاية لا وزر منها ولا مفر •  
ولست أريد بالماضي ذكر أخبار أمم الفرس والعرب واليونان  
السالفة • أو مدائن ممفيس ورومة وبابل البائدة • أو فتوحات الاسكندر  
أو وقائع نابليون • وانما أريد الماضي الذي خصصت به فهو على ضؤولته  
أرفع شأننا وأعلى ذكرا عندي من ماضي العالم فان للقلب ميزانا غير ميزان  
العقل ترجح فيه حصة البيت الذي درجت فيه بالدرة العالية •



والماضى بعيد أمده • حوادثه متعددة • وأخباره كثيرة لا يحيط بها  
الفكر دفعة واحدة وانما يختار منها ما يشاء من بقعة يرتع فيها ومورد  
يعل فيه وينهل • فسقيا ورعيا لتلك الأيام التي قضيتها من سنتين خلنا في  
جبال الدوفيني •

سافرت الى فرنسا ونزلت باديء الأمر في ليون ومنها الى الضواحي  
كى لا تعلق بلسانى العجمة التي تتخلق من الاختلاط بأبناء العربية هناك  
فاتفرغ لدرس أصول اللغة ومبادئها بعيدا من كل شاغل غير الجد  
والتحصيل وبعد شهر من الزمان أسعدنى الحظ وأزمت الأسرة التي  
كنت مقيما بها وقتئذ رحلة الى الجبال التي تتصل بالألب في الجنوب  
الشرقى من فرنسا وطلبت الى أن أصحبها • قصدنا جرينوبل فوصلنا  
مساء وأقمنا بها ليلة ، ولما كان الغد ذهبنا بكرة وأخذنا القطار ميممين  
بورجوازان فسلك بين جبلين في واد منبسط نضير اللون كالزمردة  
الخضراء • وهذه أول مرة شهدت فيها الجبل وكانت نفسى تتوق اليه  
من زمن فهزنى طربى وسرحت العين قائلا اليها : « انك طالما رأيت وجه  
من لا أود لقاءه فتألمت تألمك اذا أصابك قذى فهأنذا أكافئك على الصبر  
فتمتنعى بهذا المنظر الذى تحسدك عليه عيون كثيرة وارتعى بين أطايب  
الطبيعة البكر وتزودى من حسنها ما شئت أن تزودى فالحسن لا يدوم » •  
وكان الوقت ضحى والشمس شارقة غير مشرقة فرميت ببصرى الى ذروة  
الجبل فاذا ضباب كثيف عقد عليها كالكلبة ( الناموسية ) خرجت منه  
عروس النهار على مهل وظهرت على مسرح الوجود فتجلت آية الواحد  
الصمد وفاضت الوديان بأنهار من نور وانتشر الدفء ودخل السرور  
على كل نفس • وأخذ الثلج في رؤوس الجبال يذوب ويتدفق ماؤه أبيض  
ناصعا ويتصبب من صلب في جداول من فضة مدلاة بين الصخور •••  
وبينما أتأمل هذا المشهد الجليل وقف القطار في بورجوازان فركبنا منها  
سيارة الى قرية صغيرة تدعى سان كريستوف هي غايتنا ومستقرنا ،  
طاعنين فى مسلك وعر ضيق ، وكان الطريق صاعدا محققرا فى الصخر

ذا تعاريج شبيها بدرج البيت فلما بلغناها وألقينا عصا التسيار ذكرت  
قول تيوفيل جوتيه « مثل الجبل مثل الشاعر حاضر كغائب لا تحفل به  
عامة الناس ولا يعرفون غير السهل الذي يمشون في مناكبه ومنه يرزقون  
ولو أنصفوا لأدركوا أن الجبل هو الذي يظل السهل تحت جناحه ويصد  
عنه الحر والرياح الفاتكة ويرويه بالماء النмир الذي به يحيا ولولاه لما زكا  
نبته وترعرع بينا تذوب ثلوجه كما تذوب مهجة الشاعر وتترقق وهو  
يجود بقصائده السائرة في المشرق والمغرب » •



## مقبرة في الفردوس

يوجد أمام مدخل النزل في سان كريستوف حانوت يرى الناظر من زجاجه الخارجى أصنافا كثيرة من الأقلام والكراريس وأدوات أخرى مدرسية لأطفال المكتب الذين بالقرية ومعظمها طال عليه القدم ، ويرى الداخل عن يساره رجلا رث الهيئة غائر الخدين دؤوبا يلف سجائر ، ينظر إليه نظرة الصقر ويحييه بأحسن تحية فتتهلل أسارير وجهه ، وأمامه دفتر مستطيل الشكل على مكتب صغير لعمل كتابى يخص البريد . والرجل تاجر صغير ارتأت الحكومة الفرنسية أن تنيط به أمر البريد في القرية وعينت له أجرا زهيدا من المال نظير عمله .

ويوجد غربى النزل كنيسة تفصلها عنه قطعة أرض خلاء صغيرة مربعة الشكل ، وهذه الكنيسة تغلق جميع أيام الأسبوع ولا يسمع قرع ناقوسها في غير يوم الأحد الا اذا حدث حادث كموت أحد السكان — وأمامها سور من حائط ارتفع قليلا بحيث يطل الناظر من أعلاه على مقبرة في داخله أخبرنا أهل القرية انه قبل وصولنا بأيام قلائل صعد أحد السياح الى قمة الجبل ومعه الدليل فزلت قدمه فهوى الى أسفل ودفن في هذه المقبرة التى كانت مبعث آلامى وأشجاني .

وقد حدثنى سائح أن مائة وخمسين أمثال هذا العاثر الجدد قضوا في عام واحد في جبال أوروبا كما مات كثير غيرهم من شهداء العلم وما الانسانية الا كشجر الكرم لا يمتد ولا ينمو ويأتى بخير عميم الا اذا قلم في كل عام .

وكانت عادتى فى الليالى المقمرة بعد تناول طعام العشاء الوقوف بجوار هذه المقبرة ، وكان بها شجرة ناضرة مورقة تلقى على الصفائح

في ضوء القمر قطعا من الظلال سوداء بين صغرى وكبرى كبقايا شعرات  
سود في رأس يشتعل شيئا •

أيها الدفين — كلانا غريب وكل غريب للغريب نسيب — ولقد  
غادرت أهلك وبيتك قاصدا الجبل للتمتع بطيب روائحه وصعدت  
يصحبك الدليل فكمن لك الموت في موضع قدمك التي زلت بك فعذرك  
بين يعلمه القدر وعذر الدليل أبين — وسيقول أهلك وصحبك وذووك  
انك ميت في العربة ويضاعف همهم من أجل ذلك فليتهم علموا أن الأرض  
واحدة يسوى البلى بين قاصيها ودانيها • وما أنس لا أنس أخا صغيرا  
كان لي دفنته بيدي في مكان قصي بالصعيد في غير التراب الذي دفنت  
فيه أعز عزيز علي • وسوف يلتقي من بالعراق ومن بالشام يوم نبعث  
أحياء •••

وأنت أيها القمر السائح في السموات العلى الذي لا يعثر ولا ينال  
منه الأين والاعياء • في هذه الساعة ترسل على المقبرة أشعتك البيضاء  
بيننا تحديق فيك أم ثكلى طالت عليها رعيتك وأرملة طاح القدر بواحدتها •  
الآن في ضيائك تعبس أزهير الربى كما تعبس أزهير آمالهم •



## الانسان والنمل

كان ارتفاع الجبل ١٤٠٠ مترا وكانت سان كريستوف تقع في منعطف  
منبسط في أعالي المنحدر • ولقد أطلت ثمت يوما على هوة عميقة بالوادي  
فبصرت بأناس لا تكاد تبين للعين شخوصهم لو وقعت عليهم صخرة  
لظلوا لا حراك بهم فبعث ذلك المنظر على التفكير في أمر الانسان والمقادير  
في هذا الوجود ونظمت القصيدة الآتية :

يدوس الفتى في سعيه النمل غافلا  
ولو نظقت يوما لقلت له اتد  
إذا كنت تسعى للمعاش فكلنا  
وهذي القصور الشم ان تفخروا بها  
لنا قبلكم عش يحار لصنعه  
وفي أزل الدهر القديم خيامكم  
ولو أن فيكم من أطل من الذرى  
وشاهد بالتحديق خلقا كثيرة  
لكان لها مستحقرا غير حافل  
فلا تشتكوا ظلم المقادير انها  
إذا لم ترع سمعا اليكم وأنتمو  
فليس لكم غير الصدى من مجاوب  
كأن ليس يسعى في الثرى مثله النمل  
وفي رأسك العينان والباصر العقل  
خلقنا له والأرض يملكها الكل  
فما لكمو في حسن تنظيمها فضل  
مهندسكم لولا التعصب والجهل  
وأكوأخكم عن صدقنا شاهد عدل  
ذرى جبل نحو السماء العلا يعلو  
تروح دقاقا ما يبين لها شكل  
كما استحقرت في عينه هذه النمل  
تدوس كما دستم فما ينفع العذل  
مساكين لاحول لديكم ولا طول  
ففى سمعكم وقر المغفل من قبل

## في الطريق

قال الكاظمي يصف الموج :

يطالعا من كل فج كأنه جبال شروري أصبحت تتقلع

وقال البحترى :

ألست ترى مد الفرات كأنه جبال شروري جئن في البحر عوما

أحسن الأول في الأخذ وأصاب كلاهما شاكلة المرمى في دقة التشبيه  
وحسن العبارة في ذلك الموج الذي يعتلى بينا يلاطم بعضه بعضا ثم يهوى  
في عرض البحر شعاعا كما تصطدم الحجج الوهن وللرياح زئير في جوانبه  
كأنما ( به الذئب يعوى كالخليع المعيل ) •

الا أن للبحر جلالات وروعة تحدث في النفس أثرا جليلا وشعورا  
فياضا وهو مثل الكتاب مهما استدلوا عليه بالعنوان فلا يدركه الا من  
يفضه فضا ويقلب في صحائفه بصره وبصيرته :

يزيدك وجهه حسنا اذا مازدته نظرا

وكأني ساعة أرمى عيني فيه بعد فراق ذلك المصر أطالع في سفر جليل  
لشاعر فحل كابن الرومي بعد ابن الفارض أو البارودي بعد الساعاتي •  
أقلعت بنا الباخرة الانكليزية ( مرمورا ) في منتصف هذا الشهر وكان  
برفقتي كثير من وجهاء المصريين وفضلائهم فكننا كأنما نحن نزل في  
مدينة انفصلت من الشاطيء ومخرت في العباب • وفي اليوم الثامن عشر  
أوفت بنا الجارية في مضيق مسيني ، وقد تنفس الصبح والجو غير صحو ،  
فأمطرنا غمام مبرد طبقات بعضها فوق بعض ، وما لبث الغيم أن تفتق ،  
وهتكت أستاره الشمس ، وأرسلت أشعتها الذهبية على جانبي البوغاز  
فتجلى لنا في رونق الضحى منظر جبلين ، فذكرت قول الشاعر العربي  
( أيا جبلي نعمان •• ) فاهتبلت الفرصة وطبت نفسا ( بالمنظار ) برؤية  
خضرة جللت أعاليهما ، وطرائق قدد متشعبة بين سماطين من الشجر ،



ومنازل كالحمام البيض جئن ليشربن من مشرع الماء فعكفن على جوانبه،  
وقد بنيت من الحجر الأبيض بسقوف من الطوب الأحمر حولتها لنا  
كيمياء الطبيعة بنور الشمس ذهباً صقيلاً • ولما مررنا بجبل (استرمبولي)  
شهدنا عين ما شهدناه أول مرة إلا أن البحر سكنت ثأثرته والحمد لله  
فلا نكباء زعزع ، ولا عاتية صرصر ، فسرحت الناظر فاذا الكون وقد  
أشرقت أساريه وإذا السماء صافية الأديم لا تحلب لاشداقها ، وما أوشك  
ميزان النهار أن يميل ويرخي الليل سدوله حتى سمعنا قرع أجراس ،  
فخيل لنا أن صاعقة نزلت علينا من السماء أو الصور وقد نفخ فيه •  
أو أن الساعة قد اقتربت فحضر المقدار واضطرب الفلك الدوار ، وراكب  
البحر ، كما قال صاحب كليله ودمنة ، ان سلم من الغرق لا يسلم من  
المخاوف ، أو كراكب الأسد دائماً يتهيبه ، فهو عليه أجبن من صافر ،  
فاذا خدم الباخرة ومعظمهم من الهنود تجمعوا زمرا على أتم نظام وقد  
أخذ كل منهم أهبته فسألنا فقليل انها (مناورة حريق) فمن ماسك بالخرطوم  
مصوباً ، ومن متسلق على قضبان حديدية من الطبقة السفلى الى العليا  
في غاية من السرعة كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة • والانكليز  
لاغرابة اذا كانوا ملوك البحار غير مدافع فلقد كنت أشاهد بعيني رأسي  
الكهل منهم طورا يدور في مطلع الفجر ماشياً (بيجامته) التي تستعمل  
كالجلباب عندنا حافي القدم مكشوف الرأس كأنه موكل بفضاء الأرض  
يذرعه وطورا يسير على الأربع وأبناؤه يتداولونه بالأرجل وتارة  
يثب على الجبل أمامهم فقلت في نفسي بمثل هذا ترقى الشعوب وتحتال  
اذا جد جدها فان في رياضة الجسم ما فيه من اكتساب صحة وعافية كما  
كان شأن الرومان من قبل وقد دوخوا البلاد وفتحوا الممالك وبنوا  
لهم على أكتاف الكواكب دوراً والآن لما ترس الباخرة بعد في (مرسيليا)  
حتى أدخل في زمرة ذلك العالم الحديدي الذي ركب كل صعب جموح  
فدله وتمثل بقول المتنبي :

ذريني أبل ما لا ينال من العسلا فصعب العلاف الصعب والسهول في السهل

الأهرام في ١٩١٣/٧/٣٠

## تحية السياسة الأسبوعية

عادت السياسة الأسبوعية الى الظهور ، وستجد في عهدها الجديد من نفوسنا أهلا وسهلا ، وهامى ذى التفاتة منى الى الماضى لعل الذكرى تنفع ، وان كانت شيمة الانسان أن ينسى وأن يترك الوجوه السمحة التى مرت به فى طريق الحياة دفينه فى قرارة القلب وفى زواياه •

وانى لأطوى الضلوع على حرق ، وأحس كل يوم فى فمى مرارة العيش ، والتجارب ، ومعرفتى بالناس ، وأتذوق الرماد الذى تخلفه الصداقة والحب •• ولكنى أجد عزائى فى الحنين الى الأوطان •• الى أقطار الجمال •• الى حسن الوادى •• الى النيل •

ولما كانت الذكرى تهيج الذكرى ، فقد أخذت أمس أقلب أوراقى المطوية فاذا بى أجد فى بعضها تلك النفحة التى تنشر الحزن من ملابس الميث ومخلفاته ، كتبت فى احداها كلمة عن حظ الأدباء والعلماء فى مصر : « ان شبرا فى شبر فى باطن الأرض أحنى عليهم من ذلك البلد الذى يضيق عليهم بما رحب ولا يبض لهم بقطرة •

« ولست بالناسى جلالك واحسانك أيها النيل ، وقد أصبحت مروجك وجناتك عبرة لمعتبر ، وانقلب هزج سواقيك أنينا ، وغنت بلايلك لأذن بها صمم ، وأخرس شاعرك وجزع الوادى » •

ولقد زهدنا فى الكتابة بعد أن أذيلت كرامة القلم ، ولكن دواعى الأمل والاصلاح لا تزال تدفعنا الى المعركة — وما أحسب ( السياسة ) الا رافعة رايتها الأولى •• باقية على العهد •

السياسة الأسبوعية فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٩



## مارأته عيناي في أوروبا . .

نشرت مجلة ( الرأي العام ) للكاتب ثلاث مقالات وقد نشرت مقدمة للمقال الأول . قالت : « الدكتور محمد صبرى ( السوربونى ) أحد أعلام الأدب والثقافة والتاريخ الذين جمعوا بين ثقافة الشرق والغرب واستطاعوا أن يساهموا فى خلق روح حديثة فى التفكير الأدبى والاجتماعى والتاريخى الحديث . وقد أمضى فى أوروبا شطرا كبيرا من حياته طالبا وباحثا ومديرا للبعثات المصرية قبل أن يعود الى مصر . حيث تقلب فى مناصب كبرى ، كان آخرها منصب مدير المطبوعات . وهو هنا يحدثنا فى سلسلة من المقالات عن ذكرياته ومشاهداته فى أوروبا . . »

— ١ —

أرض إذا استوحشتُ ثم أتيتها حشدت على فأكثر إناسي  
أرض أوروبا ، أرض الذكريات . . . ولظالما استوحشت وهى بعيدة  
منى فأيتها بالضمير وتمثل لى طيفها كأنى فى حلم . . . وتلفت القلب  
وعشت ساعة أو بعض ساعة فى مناقل الشباب العريضة وفى جنات النعيم .  
والواقع أن فى الذكرى لحظات نلمح منها تضوىء الخلود وتتذوق  
لباب لذاته كأنما نأكل من فاكهته ونشرب من عصارتة ، وانى لا أطمع فى  
أن أعيش ألف سنة اذ يخيل الى كلما تمثل لى الماضى وحوادثه وآفاقه  
الضاحكة وسهوله الممتدة وحقوله وكرومه وأشجاره أنى عشت مليون  
سنة وأكثر مما يعدون . . . وسبحان المبدع المصور !

ما هذه « الذاكرة » ؟ وكيف وأنى تسجل الذكريات الحاشدة وهى  
عدد الحصى والنجم ؟ وأنى تكمن وتستقر وقائع وصور ذلك التاريخ  
الشخصى الضخم ، وكيف نستثيرها ونخرجها من مكانها فى لمحة عين ؟  
الواقع أن فى الذاكرة وفى جميع خلايا الجسم الحيوية قوة تركيز هائلة

أشبه بالقوة الذرية هي سر الحياة والوعي ، وهذه القوة هي التي تجعل العين ، وهي أشبه بقطعة من زجاج ، تبصر وتستمتع بالحياة ، وهي التي تجعل الذاكرة تسجل في مقدار « ملليمتر مربع » فيلما يسع الكون ويمتد الى أقصى حدوده وكل دقيق وجليل فيه . . .

ولقد أقف على ساحل اللانهاية من الماضي وذكرياته كما أقف على ساحل اللانهاية من فضاء الله . ولا أدري لماذا أقف على ذلك الساحل كالغريب . أليس في تلك اللانهاية من الماضي ملكي وسلطاني ، ودياري وديار أحبائي ، وطفولتي وشبابي ، ونعيمي وأحزاني ؟ .

ولا أدري لماذا أحس أن شخصي اليوم غريب عن شخصي بالأمس ، وأن شخصي أمس غريب عن شخصي أول أمس ، واني كنت ألبس كل يوم شخصا جديدا ، واني اذا تمثلت الماضي وتمثلت نفسي وأشخاصها ، وجميعها مني ، أحسست بوحشة الغريب وامتدت مسافات الماضي . . . والى ذلك أشار البحترى بحسه المرهف :

والحقني بالشيب في عقر داره      مناقل في عرض الشباب أسيرها  
وهأنذا أحن الى الماضي وأصوّر نفسي اليه هربا من الحاضر المفزع  
ففي الذكرى أجد ندامى وعزائي وسلوتي .

\*\*\*

كانت رحلتي الأولى الى أوروبا في سنة ١٩١٣ وأول أرض أوروبية وطلتها قدماى هي مدينة مرسيليا وهي مدينة صاخبة مضطربة كالبحر ممتلئة الشوارع بالحياة فلا تجد في الصباح ، وفي ساعات العمل ، العاطلين أو الأعيان يلعبون النرد أو « الضمنة » في القهاوى . . . فكان أول أثر تركته في نفسي هو الجد وحب الحركة وقد ترجمت عن ذلك الشعور بيتين من الشعر نشرتهما وقتئذ ضمن مقال ظهر في الأهرام :

وعالم قد جد في تسنمه      غوارب الأطماع اثر مغنمه



يكاد أن يهلك في تجشمه كالطفل يلقي كل شيء في فمه

ولا يزال ذلك الشعر بعد ثلاثين عاما وأزيد يعبر عما يخالج نفسى عند الحكم على المدينة الأوروبية في مظهر من أجل مظاهرها ، مظهر النشاط والعمل ، مظهر الطمع الذى يحفز الغرب ، مظهر الجشع المادى والاستعمارى الذى يحييه ويقتله ، مظهر التواضع والجرى وراء الحياة .

أما الأثر الثانى فقد تجلى لى فى مدينة ليون التى قضيت فيها وفى ضواحيها أشهرها ، وهذه المدينة كثيرة الضباب مشهورة بجمال نسائها وطراوتهن فكنت فى الشارع ، فى القهوة ، فى الترام أرى حسن الوجوه وأمتع عيني بنضارتها فكان الطريق أمامى فى كل ساعة كالليل يبهى بالنجوم أو كالروض الزاهى فى الضباب الذى يغطى المدينة . . . .

ولا شك أن اختلاط الرجال والنساء ، كما هو الحال فى أوروبا ، وكما كان الأمر فى عهد العرب ، من شأنه أن ينشر الحياة والالهام فى كل مكان ، وانك لا ترى فى أوروبا تلك الطرقات التى نراها فى مصر جافة جرداء صحراوية بسبب تزاخم الرجال وحدهم فيها . . . .

واذكر انى قابلت فى ليون وقتئذ فضيلة مصطفى باشا عبد الرازق فسألنى اذا كنت أفضل تحرير المرأة مع ما فيه من أخطار فكان ردى ايجابيا سيما وأن تجنب الأخطار فى كل الحالات من أصعب الأمور .

فالمرأة زينة الحياة بشرط أن لا توضع فى « حق » واذا هذبت وأطلق لها العنان امتلأت الأرض بهجة بجبالها وأمواها وسهولها وبحارها وأطيورها ونسائها . وساعد ذلك على وجود شعب حى ذى ارادة حية ، لبق فى سياسته وتصريف أموره ، وابتهى عنه ذلك الجمود القاتل .

الرأى العام فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤٥ .

## ما رآته عيناى فى أوربا . .

- ٢ -

ولا أدرى لماذا أقلب الماضى وحوادثه بيد مرتجفة كأنى أقلب مخلفات ميت عزيز وأنشر أثوابه وأفتح صناديقه المغلقة فتهب على تلك النفحة المحزنة الموجعة . . . ولا أدرى لماذا تطفو فى ذاكرتى وجوه الصحب الذين وقف بهم ركب الحياة ساعة فى الطريق ثم مر . . . وقد شئت الموت بعضهم وشئت الحياة البعض الآخر . وقد يتفق أن ألتقى بوجه أو وجهين بعد عشرين عاما أو أكثر وأرى فى ملامحهما المتغيرة ميسم الزمن الفاجع ، فتتمثل فيهما مخيلتى مدينة كانت عامرة بالأمس ثم خربت ، بعضها قائم وبعضها منهار ، تطوف العبر حول جدرانها وترابها وأحجارها كما تطوف حول تجاعيد وجه الصديق القديم وتقبضه واسترخائه عند الكبر .

وكيف أنسى وجه ( رامل ) وقد فارقتة سنة ١٣ ثم لقيته سنة ٣٨ ، أى بعد خمسة وعشرين عاما ، سألته عن زوجه فقال ماتت ، وعن خادمته ( سيدونى ) فقال ماتت ، وعن ابنته مارى فقال تزوجت ، ثم حانت منى التناثرة الى وجهه وقد غيرت السن معاملة فكاد يفزعنى التفرس فيه اذ كنت أرى نذير الموت فى سيماه وأحس الفناء يدب فى جسمه المتهدم وفى كل موضع من قدمه الى رأسه ويتمشى فيه ( كتمشى النار فى الفحم ) .

وأول من عرفنى بأسرة ( رامل ) هو الشيخ عزيز مرهم فقد لقيته فى ليون وكنت بحاجة الى تعلم اللغة واتقانها فنصحنى بترك المدينة وتجنب الاختلاط بأبناء وطنى ولغتى فأرسلنى الى قرية بعيدة فى ضواحي ليون تدعى ( أنوازان ) كانت أسرة رامل ( الرجل وزوجه ) تقوم فيها بالتعليم الأولى .



وكانت الأسرة تسكن بيتا يطل على المدرسة وعلى بستان جميل  
يصل بينهما • وكان ذلك البستان يزينه الزهر من كل لون ويسقط فوقه  
النحل ••• وكان الرجل — وهو معلم أولى — على جانب من الثقافة  
يقراً فكتور هوجو وكبار الشعراء والكتاب الفرنسيين • وكانت خادمتها  
تطهى له الطعام الجيد فى « مطبخ » فسيح الأرجاء فى الطابق الأرضى ،  
وكان يؤدى واجبه فى البيت والمدرسة ولا يعرف الا تأدية الواجب  
متباعداً عن سكان القرية وعن استجدائهم أو احداث الواقعة بينهم  
أو التدخل فى شؤونهم • فكان بعد الفراغ من دروسه فى ساعة الأصيل  
يعكف على القراءة أو يخرج معنا للتنزه فى غاب يبعد عن القرية ألف متر  
أو ألفين ويحيى فى أثناء الطريق معارفه •••

وكانت كتب المدرسة من الأدب البسيط السهل والقصص المصورة  
التي تلهم الأطفال حب الوطن وحب أرض فرنسا وتاريخها ورجالها •••  
وشتان بين تلك الروح فى التعليم وبين الروح التي تسود بعض  
مدارسنا الأولية ، فانى أذكر انى كنت فى السنوات الأولى من القرن  
الحاضر فى مدرسة ريفية فحضر المفتش فدعانى المدرس وأملى على  
البيتين الآتين لأكتبهما على السبورة :

علا هلال على تلال      فضاء نور فضاء مهمه  
فقيل نور فقلت نور      فقيل نجم فقلت مه مه

ولولا انى كنت أهوى الأدب والمطالعة من صغرى لأفسدت ذوقى  
هذه الروح التي لا تزال منتشرة فى جميع مراحل التعليم فى مصر ،  
والتعليم فى الصغر ، كما يقولون ، كالنقش على الحجر ، لذلك ترى  
الكثيرين من رجالنا البارزين الذين نالوا أرقى الشهادات عاجزين عن  
كتابة سطرين أو الادلاء بتصريح أو قول متزن فى أى شأن من شؤوننا •  
وبفضل هذه الأسرة بدأت أتسم روائح الأدب الغربى وكان من  
حسن حظى أنها ذهبت لتقضى آخر شهر من شهور الصيف فى جبال

( الدوفيني ) بالقرب من مدينة ( جرينوبل ) فصحبته ، وقد أحدثت في  
رؤية الجبل أثرا عميقا فالجبل كالبحر مظهر من مظاهر عبقرية الأرض  
وسواء عندي مطالعة شكسبير وامرئ القيس وسماع كبار الموسيقيين  
كفاجنر وبتهوفن وشوبير والتأمل في الجبل وجمال سمائه وروعة  
الغروب فيها •

ولا أدري لماذا يجذبني الغروب ويملأ نفسي بألوانه الساحرة وأحزانه،  
وذلك السكون الرهيب الذي يخيم في أعالي الذرا لماذا يجذبني ؟  
هناك برجى العاجى الذى تسكن اليه نفسى المتوحشة ، وتهتز اليه أجنحة  
الشوق ، فى أحضان الطبيعة والجمال •

الراى العام فى ١٤ اكتوبر سنة ١٩٤٥



## ما رأته عيناي في أوربا . .

- ٣ -

قلت انى مررت بمدينة جرينوبل فى طريقى الى جبال الدوفينى ،  
وقد قضيت فى المدينة ليلة لازلت أذكرها ، والواقع أن بعض الذكريات  
لا تزال لها أصدااء قوية تتجاوب فى النفس خلسة وتحركها أقل ربح  
أو أقل صوت أو منظر مشابه فتتعالى أجراسها ، فاذا سمعت مثلاً فى بلد  
أجنبى صوت بائع الصحف وهو يصيح « الماتان » « الجورنال » ذكرتنى  
هذه الصيحة بصيحة أخرى عذبة تدوى فى نفسى صيحة « المؤيد » أبان  
الحرب اليابانية الروسية وصيحة « الأهرام » و « اللوا » . . .

واذا رأيت جدولا فى غاب ذكرت طفولتى وتمثلت « الجنية » ،  
وجداول الماء التى كانت ملعبى « وعم اسماعيل الجينى » . . . لله  
ما أقى الأقدار تطوى الوجوه وتفرق الأحباب . . .

وبعض الذكريات تأتى من بعيد وتبدو كأنما تظللها سحابة كالصور  
التى عفى عليها النسيان أو صور موتانا فان وجوههم تبدو وتضمحل على  
عجل ، ومن أشق الأمور على المخيلة أن تحدد فيها أو تستجمع ملامحها .

أما ليلة جرينوبل فلا تزال ماثلة أمام العين ، وقد تكون أقرب الى من  
ليلة أمس وأول أمس ، ولست بحاجة الى أن أبلغ « آخر حسى » لأراها  
بالضمير ، ليلة من لياالى الهناء الصافية التى ذهبت فيها مع أسرة ( رامل )  
الى القهوة ، وكانت مزدحمة بالوجوه الحسان ، وكانت تتلألأ بالأنوار ،  
وكانت تموج بالموسيقى الرفيعة . جمعت هذه القهوة بين جمال المرأة ،  
وجمال الضوء ، وجمال الموسيقى ، فكانت مشرقة ، وأى اشراق ! وكانت  
نفسى تهيم فى وادى الجمال ، فى ذلك العالم العلوى الذى تحن اليه كما

تحن كل نفس الى وطنها الأول ، وتصفو في تعليلها كما تصفو كل نفس  
تقلت من قيودها الأرضية وتطير بجناحيها •

ولله ما أشقاني وأسعدني اذا سمعت الموسيقى ! يخيل الى ان النفس  
تعيش كالأسيرة في الجسم فوق الأرض ، غريبة عن وطنها ، غريبة عن  
لغتها ، فاذا سمعت الموسيقى طربت وارتفعت في عالم آخر لأن الموسيقى  
لغتها والعالم الآخر وطنها الحقيقي •

ولكنى لا أدري لماذا تطرب نفسى فتحزن ، ولماذا يكون طريق  
السعادة طريق الأشجان ؟ هل هو حزن السعادة التي بلغت أقصاها وتكلم  
عنه بعض الكتاب ، أو لأنى انسان مفجع ؟ فقد فجعت صغيرا فى أحد  
أبوى فخيمت من ذلك الوقت فى سماءى سحابة حزن لا تبددها شمس ،  
وصارت كل نعمة من نعمات قيثارتي شجى وأيننا • ولكن كل انسان  
مفجع ، وكل انسان بائس ، مهما أصاب من جاه ومال ، ومهما أصاب  
من زخرف الحياة وزينتها ، فكل ذلك زائل ، وكل ذلك باطل ، وكل  
نفس ذائقة الموت •••

ولعل النفس ، حين تنعم بالسعادة لحظة فى أعلى عليين ، تتذكر الأرض  
التي درجت عليها واليها المصير ، وتتذكر أليفها الجسم الذى هو رهن  
التراب ••• فتحزن ! •

أيتها الموسيقى ، يا لغة النفس ولغة السماء ، يا لغة الوحي والالهام ،  
لازلت أذكرك وأنت تمرين كالنسيم ، فى الروض ، وتهبين كالعاصف ،  
فى الدوح ، وتترقرقين كالجدول ، وتضطربين بالسحر ، كالبحر الخضم  
فى ضوء القمر •••

أيتها الموسيقى ، يا لغة النفس ولغة السماء ، يا رحمة الله انزلى •  
ان فى مصر قلوبا ، حزينه بائسة ، فأسيها فقد عز التأسى ، ونفوسا جريحة  
فداويها ، لعلها تجد فيك شفاءها ، فأنت الدواء •

الرأى العام فى ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٤٥



## وحي الأدب

في حـديقتي

- ١ -

٢١ فبراير

مكتبي يطل على الحديقة ، ومن نعم الله انى لست مالكا فيحسدنى  
الناس على ملكيتى وحسبى أنها ليست حديقة عامة يزاحمنى فيها كل  
غريب الوجه وانى استمتع بها وحدى فى عزلة هادئة اناجيتها وتناجيني  
وأطرح لدى شجراتها أحزاني ...

وقد غامت السماء وتناوحت الرياح الماطرة فى الشجر فمادت فروعها  
فى فؤادى ثم طلعت الشمس وبدت كرات اللارنج الذهبية تتدلى فى  
أسفلها بعض النقط الكبيرة من الماء الصافى الوضاء كما تتدلى قروط  
الحسان .

وقد أخرجت رأسى من النافذة فى حرارة الشمس فأدفأت شيبها  
ووجدت فى ذلك الدفء متعة من متع الحياة ، والحمد لله الذى جعل  
الشمس شائعة فى الكون ، لا حكرة فيها لانسان ، كما جعل الذكاء  
والمواهب وقفا على البشر جميعا .

أيها الأغنياء . احتكروا المال والمادة ما شئتم فان الشمس لنا . فى  
شعاعها تنتعش آمالنا وتحيا نفوسنا فلا تتزعزع لريب الدهر ولا تلين ...

ايتها الشمس ادقينا وطهرينا بنارك من ادران الحقد والرياء والانانية  
فأنت أعلى وأجل وأنبل ما فى الكون أنت أنت الحياة وبك تتعلق وتسمو  
نفوسنا فى ظرف من نور ، ورحم الله فلوبيير الذى يقول « المثل الأعلى  
كالشمس تجتذب اليها وتمتص كل تنن الأرض » .

خرجت صباح اليوم للتنزه قليلا وكان الجو صحوا ثم عدت الى منزلى وهو فى أقصى الحديقة ويبعد عن الباب الخارجى ، باب الحديقة ، عشرات الأمتار فلا أكاد أدخل وأمشى بين سماطين من الشجر عن يمينى وشمالى حتى أشعر كأنى أمشى بين سماطين من الجند اصطفوا لتحتى • وهذا الشعور بالعزة والجاه يغينى عن السعاة والحجاب والأبهات الزائلة ••

فى السماء رى وصفاء وأمواج من الضوء تضاحك الأعين والورد ، وتكسو الخضرة الهادئة بهجة تسكن اليها النفس ، وتستريح النواظر التى طال ثقلها فى وجوه الرجال من هذا السواد الأعظم •

والآن فى منتصف النهار أسمع تغريد الطير وزقزقة العصفور فيعاودنى طربى ونشاطى وأعود الى المشى بين الأشجار التى تحيط بى وتحنو على كآسرتى ، وحولى من جميع النواحي ايان أتنقل شبكة متحركة من الأضواء والظلال انقلب فى نعمائها ، بين بردها وحرها •

وهاهى الرياح تحرك أعالي النخل الجبار وتغنى فى أذنه كما تغنى أمواج البحر المصطفيق فى أذن الساحل • أغنية حلوة رتيبة تحرك الشجن الدفين • أغنية القوة • أغنية الارادة المنزهة عن كل لينة وضعف • أغنية الطبيعة الشامخة التى تسخر من الانسان — وتعبث بصخبه وضوضائه وحركاته البهلوانية التى تنطمس فى ثناياها •••

## ٢٢ فبراير مساء

عدت مساء ونظرت الى السماء ، وكانت زرقنتها الصافية ضاربة الى الخضرة قليلا ، وكان الهلال وسطها كقوس من فضة ، وقد شاهدته لأول مرة مستلقيا فى اعتدال فى ضجعته الرفيعة طرفاه الى أعلى واوساطه الى أسفل على خط أفقى جميل ، وكان يوزع الحسن والبسمات بين النجوم الزهر كالأمير المؤمر •



ولقد كان المنظر ساحرا حقا بالأخص كلما التقت النظرة بخضرة  
الفاف الشجر وهياكله الريا في ذلك الأفق الأزرق النضير الطامى وبدا  
الهلال في ملكوت الحسن كسابحة بضة استوت بظورها على الماء في بحر  
لازوردى ••

وقد تذكرت قول جوته « من أراد أن يعتقد بالله فما عليه الا أن  
ينظر الى سماء مرصعة بالنجوم » فظلت أسرح ناظري في تلك الأقطار  
المتلألئة بالأنوار « آكلها بالمنى وأشربها بالضمير » •• وكان الخيال يحلق  
بينها فينعم أما الفكر فيشقى ويرتد كلما حاول اجتلاء سر الكون  
والتحديق فيه ولكنه لا يلبث أن يهدأ أمام ذلك الجلال والجمال ، أمام  
تلك القدرة التي أبدعت نظام الكون وجعلته آية للناظرين •

المصرى فى ٢٤/٢/١٩٥٠

## في حديقتي

— ٢ —

٢٣ فبراير مساء

عدت في الساعة العاشرة مساء وكان الهلال مائلا في الأفق يضرب لونه الأبيض الى حمرة رقيقة نضاعة ، وكانت زرقة السماء تشوبها كدرة وغبرة ، وقد خيل الى أن الكون في مأتم •

عندئذ أحسست بوحشة في أفياء الشجر الذي مثلت أشباحه وشخوصه في سكون وانقباض •• فذهبت مسرعا الى مضجعي وتلفعت بهدأة الليل •

٢٤ فبراير

الجو صحو والدينا زاهية لا تعرف احزان الناس وقد تغازل الشمس نوافذ المنازل وتسطع ضحكاتها على زجاجها ولكنها لا تدرى ما تخفى وراءها من سعادة وبؤس ، وكم رفع الانسان عقيرته وعوى فوق الأرض أو وراء الجدران فذهب عواؤه في شبر من الفضاء الواسع ••

وهأنذا في حديقتي تروى اليوم بماء النيل ويجرى الماء في قنواتها الصغيرة فيملؤها روعة • ولا أدري لماذا أحب الغلل (١) وجريان الماء بين الشجر • أن أول صورة تجيش في خاطري هي صورة الحياة وهي تنسرب كالماء وقد كرت أيامها وأعوامها عجلي ، وكان كرها حلوا على الرغم مما صحبها من آلام نسيانها ••

ولا أدري لماذا تحن نفسي الى الماء ويحوم عليه فكري وأحلامي ، أحلام يقظتي ، كلما جرى ؟ الطير فرح طروب وفي نفسي عيد ونشوة • فأى صلة تلك بين الماء والنفس ؟ وما هو سر تلك الجاذبية أو تلك القوة الجاذبة التي تحسها النفس أمام الماء في ضوء الشمس المانع وفي ظلها

(١) الغلل الماء الذي يجري بين الأشجار •



الظليل ، وفي ضوء القمر الساجي ، في القناة ، والنهر ، والبحر والبحيرة ،  
والغدير ؟ تلك الجاذبية الغامضة التي أبدع الألمان في تصويرها ! •

في اعتقادي اننا لن نصل الى اجتلاء كنه ذلك السر الغامض لأنه  
قوة رمزية تستعصى على التحليل ولكنها لا تستعصى على المقارنة بقوة  
رمزية أخرى تلقي ضوءا على هيكلها وان لم ينفذ الشعاع الى داخله •  
تلك قوة الموسيقى : الموسيقى العالية كالماء تجذب النفس وتجربها اليها  
جرا ، وتحرك كوامنها من أشجان وعواطف ، وتنقلها الى عالم علوى •

الماء موسيقى سائلة ، ناعمة ، رقراقة تتألق • متشعبة المذاهب • مؤتلفة •  
منسجمة تفيض • وتجتمع وتفيض • متدفقة • متكسرة • مطردة •  
مأنجة بالسحر رجراجة • تلعب بالنفس وتطغى ، ولها فيها مسارب  
وما رب ، ومنازل ومنعرجات •

ولا أدري لماذا أحزن وأسعد ، كلما سمعت الموسيقى ورأيت الماء ،  
وتتحرك الذكريات فالتفت الى الماضي البعيد ، وكل ماض بعيد ، وأذكر  
أحبائي الذين مضوا وأيام طفولتي في جنات مصر وعيونها وريفها ،  
وانقنات التي كنت ألعب على ضفتها ، والغاب (البوص) الذي ينبت عليها ،  
وكنت أمرح فيه وأتخذ من سيقانه أقلاما •

ها هو الماء يجري في نفسى ويتغلغل كما تتغلغل الموسيقى ، وهامى  
البراعم بدأت تخرج من الشجر المستيقظ في الدفء •

الطبيعة تتجدد ، والانسانية تتجدد ، ولكن الانسان يموت ،  
والشجرة تموت • وفي حديقتي شجرة ميتة ولكنى أتظير منها وأخاف  
أن أقربها ولا أريد منها خطبا • شيخة متهدمة جاثمة بجانب السور  
لا يؤنسها شجر ولا طير ، كأن بينها وبينه فرسخا أو ميلا • • يأتي الماء  
عندها فيقف لا يرويه ، ولا يدب لها في ساق أو فرع ، وتقف الحياة  
فلا ظل ولا جنى • •

٣ مارس

كان « فرهايرن » الشاعر البلجيكي يتغنى بالعدد ويقول « أحب  
غابة العدد » ولعل أبهى متاع للعين والقلب في الجنات والمزارع هو  
الجمال العددي •



قال بول كلوديل : « الله بستان من الورد » • ولو استطعت لكان  
لى فدان من ورد أو من نخيل وأعناب ، وأنهار وجداول تجرى من تحتها  
وتحتى ، وسواق تدور وتهزج ••

وهذا الجمال العددي هو الذى يجب الينا الريف وغيطانه وزراعاته  
الحاشدة حيث تترامى سنابل القمح وشجرات القطن المزهرة ذى البياض  
والحسن ، وينبسط النبات ، ويميل نخيل الوادى الى الأفق كل مميل •  
وهاهى تباشير الربيع تبدو فى الحديقة ، ولكن كرمتى لا تزال نائمة  
على عروشها • أما المشمش والنخيل فقد أخرج نوره ، وهو الشجر الوحيد  
المتهلل فى الحديقة • تكتسى غصونه بالورق الجديد والأكام والزهر  
الأبيض والوردى : اذا عارضت الشمس زها ونضروا اذا غامت السماء  
اخضلت غضارته • لله ما أجمل ذلك النور « الذى تكاد له القلوب تنور » ،  
كما يقول أبو تمام ، ويخيل الى انه ينور وان كنا لا نرى بأعيننا ولا نحس  
تلك الحركات الخفية الدقيقة التى تزخر بها الطبيعة وتنتظم الكائنات الحية  
كلها فى نظام فريد متشاكل •

قال صاحبى : ان شجر المشمش يبكر ويزهر فيروك منظرًا ، ثم  
لا يلبث أن يتساقط زهره ويشمر فاكهة شهية صفراء فاقع لونها يطيب لنا  
اجتناؤها من أغصانها •• فانظر الى صنع اللطيف الخبير •

قلت : هذه الشجرة الفارعة المتفرعة بخشبها ولحائها وزهرها وجناها  
تخرج من نواة أو حبة صغيرة كما يخرج الانسان من نطفة أو علقة ••  
وكلاهما قطعة من حياة تستعصى على الفهم وقوة هائلة فى ضالتها •  
صحيح أن الانسان ، كما يقول باسكال « شجيرة تفكر » •• ولكنه  
يتساوى أمام الكون مع البقلة التى تنبت وتخرج من الأرض •

ولو فلقنا الحبة وأمعنا النظر فيها لما وجدنا أثرا للشجرة وما تحمله  
من زهر وثمر وغصون ، مع أنها جميعا مستسرة مكتنة فيها ، ولكنها  
اذا انفلقت فى باطن الأرض أو مسها فالتق الحب والنوى خرجت الحياة  
من أقطارها ، كما قدر لها ، وتدفقت نضارتها فى كل شكل وكل لون  
بهيج •



قال صاحبي : لقد أودع الخالق الحبة سره كما أودعه الانسان  
والفلك الدائر فانظر كيف تتساوى أدق كائنااته وأصغرهما بأعظمها جرما  
في عالم الذرات والمعجزات •

وهنا تركنى صاحبي وبقيت جالسا تحت شجرات المشمش خافضا  
في ظلها ، شارد الفكر والنظر ، وبينما أنا في تلك الحال أحس طائر كان  
واقعا على شجرة المانجو بنبأة فهب طائرا ، وكانت حركة أجنحته في  
حفيفها الرائع القوي كهبة الموسيقى الرفيعة التي تهبط عليك فجأة ، من  
وراء الغيب والستر ، وأنت تسير وسط البيوت في سكون الليل  
الأقمر (١) •

وها هي صديقتي النحلة قد أنست الى وجاءت ترعى زهر المشمش •  
رقيقة هيفاء مخصرة • تستطيل وتنشئ ، وتحوم وتتأنق وتتناول بخرطومها  
الدقيق أطايب الثمرات • قال علماء الحيوان انها لا تقع الا على كل زهرة  
أنقة ، ولا تبني بيوتها الا اذا اصابته موضعا نقياً ، وتتزده عن الأقدار ،  
ولا تأكل من كسب غيرها ، وانها تأكل من الحلو والمر ثم هو شراب حلو  
كله ، وانها تدين بالطاعة لأمرائها فاذا رأت فيها فسادا عزلتها ، ومن بديع  
الصنعة وعجيب الفطرة أنها تبني بيوتها لها مسدسة الشكل كأنها مستنبطة  
بقياس هندسى ••

فعلام يزهي الانسان ويتكبر ؟ •••

أحب النحلة في رشاققتها وخفة حركتها ، وأحبها عاملة مجدة نهابة  
تنقى وتدخر وتعسل ، وأحبها طائعة وأحبها ثائرة ، وأفضل جمهوريتها  
القيصرية على جمهورية قيصر ، وأحب فيها حكم الفرد وحكم الجماعة  
مؤتلفين لا ينظمهما قانون ولا نص ولا فقه ولا مفاهية •

وأحب النحل ، لله ما أجمل أسراب النحل والطير ، وما أجمل دويها  
في الجو أو في أعالي الشجر وما أجملها وهي تأوى الى بيوتها ، وما أجملها  
وهي تخرج منها •••

المصرى في ١٠/٣/١٩٥٠

(١) الأقمر الأبيض . وليل أقمر فيه القمر مضى •



## في حديقتي

- ٣ -

١٤ مارس

نفض شجر المشمش والخوخ زهره الذي غطى الأرض وزخرفها  
حيناً ثم ذبل ومات وذهبت بشاشته ، وكل يوم يذبل الزهر ويموت دون  
أن تشيعه عين أو تنحدر دمعة أو تصعد زفرة ، وكل يوم يتبرج الروض  
وينشر معالم الزينات بينما تتخفى تحت الزخارف ، في مطاويه وثناياه ،  
مواكب الموت الصغرى الغضة الرقيقة ..

نزلت الى الحديقة وكانت تدوى في رأسى عاصفة من الفكر فسكنت  
وقرت ولكل ثائرة قرار • ولظالما مثلت أمامى بين الشجر صورة النعيم  
الخالد وتساءلت أحالم أنا أم يقظان ؟ أحلم اذا هبط الأرض من جنات  
النعيم وتجسم في روضتى شجرا وطيرا ، وزهرا ونباتا ، وضوءا وظلا ؟

ها هو الشجر تكاثرت أغصانه واعتقت واشتبكت اشتباك الأجاب  
ومال بعضها الى بعض فى استواء والتواء ، واستقامة وتحن ، وميل  
واعتدال ، وتفرع وانتشار فى كل صوب ، وهى ذات حنايا حلوة  
ومنعطفات واستدارات فى الأعلى ••• ذات طاقات وخروق وفروج •  
ولقد يطيب لى أن أنظر الى السماء من شُبَّك الشجر وأن تطل على  
شمسها ، وقت الظهيرة ، وانتشار الضوء والظل ، من أحنائها ونوافذها  
المشرقة الناعمة •

أحب الحديقة المتأشبة وأحب الطيور « خوارج من ايك دواخل  
غيره » متنقلة بين الأغصان خافقة بأجنحتها أو جاثمة عليها ، تغنى  
وتضوضى فى ألفاف الحديقة وأدغالها •

وهاهى القمرية واقعة على شجرة الكمثرى ، دامجة فيها مطمئنة تحت



سقفها المورق ، متلبدة بين أغصانها وأعوادها ، وبودى لو وضعت قلبى  
مكانها لتبرده تلك الظلال وتخفف من لوعته ، وبودى لو تبلغ تلك الرياح  
سلامى الى الأحباب فى الأرض وهم الى معاشهم فارغون ، وفى دنياهم  
غارقون •

وها هو الهدهد يخترق جو الحديقة عجلان ، فى خط أفقى رشيق  
المثانى ، يتهادى فى طيرانه وينساب برفق كما تنساب السفينة على أمواج  
لجية من هواء وضياء ، وقد كان طلوعه المفاجيء علينا كطلوع الطائر من  
وكناته فى السحر •

وها هو البلبل يأتى كل يوم ليغرد ثم يمضى ، وفى كل يوم أجد  
فى غناؤه بلسما لجراحاتى وأحزانى • وسط الجرم لا بالصغير ولا الكبير،  
جميل القوام ، لطيف القد والهيئة ، كله انسجام ، يتباهى بذيل كعرف  
الديك حسنا ، دقيق المنقار ، خفيف الحركة ، يضرب لونه الرمادى الى  
حمرة قاتمة كأياء (١) الشمس عند المغيب ، ومن عجيب أمر هذا الطائر الملمهم  
انه لا يغرد بالنهار الا فى زمان الحب والهيمان وتودد أنثاه ، فانه يظل  
صداحا بالليل والنهار ، فى روث الضحى وفى ضمير الظلام ، ومن عجيب  
أمره أيضا أن غناؤه متسق النغم الى أبعد حد ، متلائم الرنم ، كأنه صادر  
عن سليقة فنان حتى أن بهوفن صاغه فى ألحان خالدة فى قطعه الشهيرة  
( الريفية ) : اذا سمعتها فى وضعها الموسيقى وقف الراعى أمامك بيراعه  
المثقب وقطيعه الذاهب فى البكر والآصال وشربت من شجا صفيه  
وسكرت وهزك الشوق والحنين •

والبلبل اذا زها وترنم كان من أعيان الطير ، وامتد على الحديقة كلها  
سلطانه ، وهزها بيانه ، واستنزل صده الأرواح من عالمها ، فتهافتت على  
ايوانه ، وتزاحمت النفوس الظماء على ألحانه ، وخشعت الأرض وانصتت  
السماء •

أيها البلبل ، يا ملك الشجر والغاب ، لا بارك الله فى دنيانا اذا ولت  
دنياك ، وأققرت ملاعبك الخضراء ، وودعتها نقاتك وظلك الصغير الذى  
كان يمرح فيها ، وصرت فى المهاد هامد الجسم ، جامد النسيم ، أخرسا •

(١) أياء الشمس نورها وحسنها •



أيها البلب ، يا نديمي في وحدتي وأنيسي ، لا أدري لماذا أحزن كلما  
غبت عني ، ولماذا تخافني وتحذرني بنظراتك ، وتنفر مني ولا تستمهل  
كلما حاولت أن أقرب منك ، أنتستوحش من نفسي لأني انسان ! •

نعم أنا الانسان ، أنا الوحش الضاري ، أنا الطاغية المتكبر ، أخدع  
الخلق والخالق « وأعيث مع الذئب وأمشى مع الراعي » ، وأظلم الضعيف  
وأخشى القوى ، أنا الجبار ، الذي تسيطر « أنا » على شخصه وتوسوس  
له في روحاته وجيئاته ، أنا الممثل والكون ملعبي ، ألعب من وراء ستار  
وألعب على المكشوف ، وأغني على ليلاي ، وأمشى في كل ركب وأتعلق  
بكل ركاب •

قال صاحبي : تأمل في وجوه الرجال اذا اجتمعوا تر « أناهم »  
البشعة ماثلة متحفزة في جميع حركاتهم وسكناتهم ، كل منهم يقول أنا  
وينادي بأعلى صوته في ضميره الباطني : أنا الطيب أنا الطيب ، أنا  
المهندس أنا المهندس ، أنا الأديب الأدبائي أنا أنا •• في كلتا الحالتين  
من زهو وخيلاء أو تواضع وتصنع وكل منهم في أعماق سريره يوازن  
بين شخصه وشخص الذي يخاطبه ولو كان أخا وحميما ••

وإذا خلا الى نفسه حدق في المرأة لينظر ملامح « انا » وجمالها  
المتوهم ، وكم خطيب وقف أمام المرأة يعجب بنفسه ويتطوس قبل أن  
يقف أمام الجماهير •

قلت لصاحبي :

لكل انسان وجهان في وجه ونفسان في نفس ، قال كيف ذلك ؟ •

قلت : أنا الانسان ، أنا الفاني ، أنا المرزء ، أنا طريد الجنات ، أفقد  
أبي وأفقد ولدي وأفقد الصحب واللذات ، وأهتصر غصن اللذات فلا أمتع  
بها طويلا ، أجد في فمي طعم الرماد ، ويسكن في قلبي كل داء دخيل  
أكدح وأداجي وأصانع في سبيل عيشي •

قال صاحبي — صدقت فان العاتي المتكبر والوحش الضاري اذا  
جاءه الموت أو خرجت منه صيحة الألم وآهاته كان كأضعف الخلق



والحيوان ، بأسنا عظيما في محنته ، وما رأيت رجلا أخنى عليه الدهر  
وقد الولد والأخلاء الا واحدت به هالة من جلالة الانسانية ، وبدت  
في غضون وجهه طلاس الحياة الفاجعة ورموزها •

أرأيت الانسان والدمعة تنحدر من عينيه ، ألم يخيل اليك وأنت  
تطالع وجهه في تلك اللحظة الرهيبية أن خرائب احدى المدائن البائدة  
تتكشف لك في ضياء البدور أو روعة الفجر وتميط اللثام عن أحزانها  
الدفينة ومغانيتها المقفرة ، وخدها التراب ، لا طائر فيها يصدح ، ولا انسان  
ينادى ، مسرح من مسارح الدهر انفض ومزق البلى أستاره ، واختفت  
معامله وأنواره ، وخف أهله ، وتقضت الأوطار ، لا تدفئه شمس ،  
ولا يزدهيه ليل ولا نهار •

قلت لصاحبي ، ان الانسان ليحمل في وجهه آثار وقائع الدهر  
وما سيه ، وما قلبه الصغير الا مقبرة يرقد فيها عالم الذكريات ، مطويا في  
أدق حيز ، ولو نشر لوسع الكون • وهذا هو السر في اننا اذا استعرضنا  
بالذاكرة أيام الطفولة والشباب خيل لنا اننا عشنا ألف سنة مما يعدون ،  
وامتدت المسافة وراءنا الى حدود الغيب وقصرت أمامنا •

قال صاحبي : دع المخبر وتمتع بالمنظر ، ولا تكثر من المطالعة في كتاب  
الحياة ، وقد جاء الربيع ينمق عنوانه ويتخير له أنضر الألوان •

المصرى في ٢٢/٣/١٩٥٠



## في حديقتي

- ٤ -

بدأ الربيع يخيم في حديقتي ويلبس الشجر حلة جديدة بهيجة رائقة • وأن أحب شيء الى نواظري أن تسبح في بحر مسجور من الخضرة الزاهية ، وأن تجد فيها مرعاها ومأواها • خضرة غزيرة وثيرة ناعمة موطأة ، تستروح فيها بعد الجهد والكلالة ، وكم قذيت عيوني واحترقت من التحديق في وجه الصداقة الخؤون ، وجباه الظالمين •

الآن تنعم عيوني في الألوان المتألقة في الشجر الكاسي ، الذي نضر ورقه وارتف ، وفي النبت المكتهل المتأزر بعضه في بعض ، في الروضة الأكسوم • خضرة واسعة عميقة ضاحكة ، يعب فيها موج من السحر ، تشرب فيه العين وتكرع •

أيتها الخضرة ، يالون الشباب وأعين الغواني الطريفة الخضر التي تتمرمر فيها سطوة الحسن ، ويضل المتيم في شعابها وآفاقها النضرة ، مناك أزود عيوني لاسفار نهارها • الرياح تعانقك في الأغصان وتبتك شجوها ونجواها ، وتداعبك فوق بساط الروض • والنسيم يهمس في أذنك ويلاطفك ، والضياء يقبلك ويزهى في جنابك ، والندى يسقط عليك ، في سكون الليل سقوط العاشق ، وينثر عليك في الصباح لآله •

في الروض الأغن حركة لم يعرفها الشتاء ، فالطير منتشر لا يألو تطريبا ، وتنقلا ، وطيرانا ، وخفقا وتصفيقا بالأجنحة كأنه في حفلة عرس ، فيها الزامر والصارف والهادل والصادح والساجع والهاتف • وطائر يثلف رأسه ، وطائر يكسر جناحيه ، وطائر يرف ، وطائر يهفو<sup>(١)</sup> • وطائر يزق

(١) الخفق : الضرب . صفق الطائر بجناحيه : ضربهما فسمع لهما صوت . الف الطائر رأسه : جعله تحت جناحيه . كسر الطائر جناحيه : ضمهما يريد الوقوع . رف الطائر بسط جناحيه . هفا الطائر : خفق بجناحيه وطار . زق فرخه : أطعمه بمنقاره .



فرخه ، وقريبا يحمله ليعلمه الطيران • وترى الذكور تجرى وراء الاناث  
وتلاحقها تارة ، وطورا تتنادى ويتجاوب حينها في أرجاء الروض ،  
وترى العصافير تحمل في مناقيرها القش لتبنى بيوتها لها • حديقتي غلباء ،  
يعمرها الحب ، ويسبّح فيها الشجر والطير بالآله •

الربيع زمن الحب والشباب • فيه تفتق الذكريات قلبي وترطبه  
كالوردة الندية في الصباح • الربيع زمان الورد ، والتمرحنة  
وحصا البان ، واني لا تغنى به ، وفي ضلوعي حنين لاعج • والله يعلم انى أخدع  
نفسى حين أتغنى بالربيع وجماله المتوهم • لقد كبرت وضعف حسى  
وبصرى ، ومضى اللهو « ومراح لذاتى ومغداها » في ميدانه الأخضر ،  
ومناقله العريضة • كل منازل الشباب وكل أصواته وأصدائه محبوبة  
الى النفس ، واني لأتمثل تلك الأيام التى كنت أقف فيها في أجواء الريف  
وتلاعه وأصيح بأعلى صوتى لأطرب من رجع الصدى •

اليوم لا يدخل الربيع على نفسى كما كان يدخل عليها في شبابى ،  
ولا أمتع به كما كنت أمتع ، يدخل على كالغريب أو كالرفيق القديم الذى  
صحبتناه ساعة ثم افترقنا ، وتشتت السبل وذهبت في الأرض ، ومرت  
سنون أعقبته سنون • وبعدت المسافة بيننا ، ونضبت المودات ، وطوى  
الكتاب ، ثم التقينا فجأة بعد ما فعلت بنا الأيام ما فعلت ، وتنكرت  
معالمها ، وذهبت بشاشاتها •

لقد ولت الأسحار ولم يبق الا الأصيل الذى يسيل أصفره على  
الأفق ، أمس كنت أفرح بكل جديد ، وكانت تعرونى هزة كلما انتفض  
الكرم ، أو لون البسر ، أو امتد البطيخ في المبطخة والخيار والقشاء في  
المقناة حبالا ورافة على وجه الأرض ، أو نبتت النواة التى زرعتها ،  
وزكت الشجرة التى غرسناها • • وقد كانت أفراحي وأحزاني كلها سريعة  
التحول ، وكنت أهنا بلذاتى وأستطرفها وان لم استوعبها •

الآن قيشارتى ساكنة لا تتحرك الا حيننا واستطرابا ، والربيع الذى  
أراه وألمح من خلله ربيعى الأول القاصى يختلط شجره بشجره ، وماؤه  
بمائه ، وغناؤه بغنائه • وظله بظله • وريا زهره برياه • الربيع الذى أراه



كله اصداء وخيالات وانعكاسات للماضى • سريع الحزن بطيء السرور •  
لا يهجم على قلبى منظره كما كان يهجم ، ولكنه يستأذن ، ويستهمل ،  
ويتسلل ويتغلغل ، ويسلسل الذكرى بالذكرى ، ويجس كل وتر قبل  
أن يحركنى •

اليوم يظفون فى كل لحن من ألحان الحياة عالم من عوالم الذكرى •  
ورب صوت هدهد أو نظرة عارضة الى رعرعة<sup>(١)</sup> الماء عادت بنا فى لمحة  
عين الى عهد من عهود الطفولة والشباب بصوره وألوانه وأشباحه •  
قال صاحبى — انك تكثر من التأملات فدع ذا وهات لنا خبزا ساخنا  
وجبنا شهيا نأكله تحت هذه الشجرة الهدباء المتدلية الأغصان من حواليلها •  
فلما جىء بالطعام كان الخبز قد احترق قليلا وسطعت منه رائحة الشواء ،  
فسطعت منه فى الوقت نفسه رائحة كيزان الذرة المشوية ، وتمثلت لى  
حقول الذرة فى الريف ، حين كنا نلعب أو نمر بها فى تطويفنا — وما أكثر  
تطويف الشباب فى عنفوانه — فيستوقفنا الفلاحون ، ثم يصفون لنا  
كيزان الذرة على النار ، ثم يشوونها • ثم نأكلها • ثم نملا منها حجورنا ،  
ثم نعود عود الظافرين •

قلت لصاحبى — كل شىء يذكرنا بالماضى • والمناظر والذكريات  
والأصوات مختلطة كلها مشتبكة ، متصلة الحلقات • ورب صوت بعيد  
النسب غريب عن أصوات الطفولة المحتشدة فى الأعماق ، سمعناه  
فاستيقظت تلك الأصوات فجأة • وتوافدت الينا كأنما صيح فى حجراتها •  
وكانما كان بين ذلك الصوت وتلك الأصوات النائية خيط دقيق يهتز  
كالبرق ، ويجتاز مراحل العمر ••

والعجيب فى أمر الذكريات أنك قد تسمع صوتنا من الأصوات أو ترى  
منظرا من المناظر المألوفة ألف مرة فتصدف عنها أو لاتحركك منها ذكرى ،  
ثم تسمعه أو تراه مرة بعد ألف • فيتحرك خيط الذكريات وينتظم خلجه  
النفس كلها •• ولعل مرجع ذلك الى المصادفة والملابسات والظروف وحالة

(١) رعرع الماء الصافى : اضطرب على وجه الأرض • وربما قيل ترعرع  
السراب على التشبيه بالماء • وترعرع الصبى : تحرك ونشأ وشب •  
والرعرعة : حسن شباب الغلام وتحركه •



الجو النفساني ومبلغ استعداده • مثل ذلك صغير القاطرة ( الوابور )  
ما سمعته مرة الا ورن في أعماق هاوية القلب الزمنية وغار فيها مسرعا ،  
وكان له فيها استطراب غامض ، دون أن يحرك ذكرى أو ذكريات معينة ،  
ولكن على الرغم من أن النفس قد ألقته فانه يفجئها أحيانا ويباغتها ،  
ويشير في دويه الحنان صغير وابور ( سان لازار ) ومناظر الوداع ••  
ووجوه الحسان المشرقات بالأنوار •• ذكرى ومناظر في باريس مضي  
عليها ثلاثون عاما ••

أما أسلاك البرق الممتدة في أعالي السواري حول الأكواب الصينية  
البيضاء فاني ما رأيتها مرة في الريف ، ريف مصر أو ريف فرنسا ، أو ريف  
سويسرا •• الا وتذكرت الأسلاك الممتدة بين تلبانة ، والجوسق ،  
وبليس ••

بلاد بها حل الشباب تماثلي وأول أرض مس جسمي ترابها  
وليت هذه الأسلاك التي تخفق بالقلوب ، بالليل وبالنهار ، تعرف  
شوقى وحنيني ؟ أرض شجراء ، ماؤها غدق ، وطبيها عذق ، فيحاء ، غناء ،  
يرقص الطير في خمائلها •

وكم وجوه صحتها زمانا واختفت وأقسمت ألا تعود ، ولكنها  
تظفو بالذكري • وما أنس لا أنس ( عم اسماعين الجنائني ) الذي كان  
حبيب طفولتي في ( المرج ) • كان اسماعيل أبا روحيا ، صبيح الوجه  
أسمره ، سمح النفس ، طيب القلب وكان يتركني في غوايتي وبطالتي ،  
وكت أليف الطين والماء ، فيهما كان لهوى ولعبي ، من الطين أبني بيوتا  
ومن الطين أتطين ، ومن الماء أتبلل ، وكنت أنبطح على ضفة القنوات  
الصغيرة ، وفي فمي قطعة من القصب الفارسي أجتذب فيها الماء ••

لقد عرفت في حياتي بستانيين كثيرين ولكنني نسيت أسماءهم جميعا ،  
ولا أتذكر الا ( عم اسماعين ) خدن الطفولة ، وكثيرا ما حاولت أن أتبين  
شخصه وأستبين ملامح وجهه وقسماته ، ولكن يأبى وجهه المشرق الحنان  
الا أن يظل وراء سحابة من الابهام ••

وأني لأذكر طاقات الورد التي كانت تنمقها يده الصانع ، وأذكر



رياض مصر التي ربيت في حجر نعيمها ، وتقلبت في أعطافها العبقرة ،  
ونشأت بين نخيلها وسواقيها ، وشممت ريحانها ونرجسها ، وشممت  
طينتها الحرة التي تفوح كالمسك ، واستذريت بظل توتها الضخم وأكلت  
أبيضه الغض وأسوده ، واستذريت بدوحها الدواح من الجميز والسدر •  
وجنيت الباكورات وأطايب الثمر والفاكهة المتهدلة من شجرها ، وكنت  
أنا الجاني •

وشربت ماء النيل في خلجانه وأنهاره باليدين وبالنم ، وشربته مروقا  
في الزير وآنية الفخار • ولى في أقصى الحديقة زير ينعم بين برد الظل  
والهواء ، وينضح بماء أصفى وأبهى من البلور • الزير دنى والماء خمري •  
ماء النيل ! شربة منه ترويني • ماء النيل العذب الذي «لم يخلق لكسلان» ،  
كما يقول استاذنا اسماعيل صبرى ، ولم يخلق لعاث ولا مستبد •

قال صاحبي : يخيل الى أنك حزين في سعادتك سعيد في حزنك • قلت  
نعم أنا السعيد الحزين • فالربيع مهما تجدد يظل في عيني قديما •  
ولا تهزنى بهجته الا بعد لأى ، ولئن كنت أجد سعادتى في الذكرى فانى  
أحزن لأن الربيع يؤذن بشيخوختى وتقادم السنين التي بدأت تكرر وتخطف  
العمر خطفا كأنما خرجت من عقالها • وكانت أيام الطفولة والشباب تطول  
وتمتد وتتبطأ لأنها زمان غفلة لا يدخل في حساب الزمن ، ولا يخضع  
لمقاييسه أو هى كالفضاء الزمنى الثابت الذى لا حدود له ولا أعلام ،  
وكان كل ما أبغيه من ساعة الحائط الكبيرة أو ساعة الجيب أن أسمعها  
تدق في آذانى أو ترنم ترنيما •

على أن هذه الغفلة في الشباب ، وان كانت مجردة من يقظة العقل ،  
الا أنها مستكملة يقظة الحس ، وسهولة انطباع الأصوات والمرئيات  
فيها ، ولا ريب أن احتشاد الصور ، وبقاء نقوشها وألوانها ، مما يزيد  
في بسطة الشباب ، وامتداده في المخيلة ، وكلما كثر اغتراب المرء صغيرا ،  
وكرر تنقله بين منازل مصر ، ومروجها الخضراء ، وقراها وريفها ،  
ومياها ومراعيها ، وسهولها ورباها ، استهوتته الأرض ، وزاد تعلقه بها ،  
وتكاثرت الذكريات الحلوة في فؤاده ، وكان تنوعها واختلافها ، واتساع  
مذاهبها ، يمد لنا أحلام الشباب مدا •



ويخيل الى أن الزمن في ذلك الوقت كان يدور حول نفسه في جريانه،  
وأن أيامه متشاكلة والشخص فينا واحد .

والآن يتقدم الزمن الى غاية لا نعلمها ، ونحن نحسب ، ونعد ،  
ونقيس ، ونعمل على استغلال كل لحظة ، ونفكر في اليوم والغد ،  
ونحاول ضبط الزمن واحتباسه في قبضتنا ، ولكنه يمر دون أن نحس ،  
كالماء من بين الأصابع . وقد نتج عن قوة ابتهاها ويقظتنا أن شخصنا  
صار أشخاصا ، يبدو كل منها غريب الوجه عن الآخر ، في اليوم شخص  
وبالأمس شخص ، لكل يوم حالاته ، وجوؤه ، ولبسته ، وليله ونهاره .  
وقد تتجلى هذه اليقظة في ساعات المحن الكبرى كالحروب والأرزاء  
التي تعترض حياة الفرد فتقطع العمر والشباب مراحل ، وتباعد بين هذه  
المراحل النظرة بحواجز ، لوافح جدباء ، ممتدة كالصحارى .

وبعض الأحزان والتجارب المرة ، التي ينبطها عراك الرجال ، تنضج  
القلب قبل الأوان ، وتجعل الحياة تنطق برنمها الحزين في ساعة مبكرة .  
واني أذكر أنى فقدت أحد أبوي وأكثرهما حنانا ، ولما أسلخ من العمر  
ثلاثة عشر عاما فكان لهذا الحادث الذي تصعد كالحريق في جنة الشباب .  
أثره في حياتي كلها ، وانتشر السواد في آفاق مخيلتي ، وبدأت الحياة  
في ألوانها وأنعامها المثيرة ، ولو نطقت الحياة لم تنطق الاشجا وأيننا ،  
وقد صدق من قال ان الموسيقى لغة النفس فكل موسيقى رفيعة تبعث  
الشجي وتنقلنا على جناحها الى عالم الروح والسعادة .

وكانت الحرب الكبرى الأولى حادثا آخر في حياتي ، وكنت في  
باريس ، وكنت في العشرين من سنى ، وقد دامت خمسة أعوام مرت  
كأنها قرن من الزمان ، تغيرت بعدها بهجة الدنيا ومعالم الحياة ، في مدينة  
النور والزهو والحجا ، وأخذ القلق يساور النفوس ويبدو كالعلق في  
شرايها وطعامها . . .

الربيع الذي أراه اليوم كالشفق النضير تسكن اليه النفس ، وينزل  
عليها سحره الاخاذ ، رويدا ، رويدا ، حتى يبلغ عتمة الاحزان .

المصرى في ١٣/٤/١٩٥٠ .



## في حديقتي

— ٥ —

ابريل سنة ١٩٥٠

ذهبت في الصباح الباكر أتززه في الروض وساقنتني قدماي الى عريش الكرمة في أقصاها فهبت على من كل النواحي نسماته العذبة التي كنت أستروحها ، وحتت على ظلاله فأحسست بنشوة ما بعدها نشوة في منزلة من منازل الطبيعة ألمح في كل حنية فيها وفي كل فجوة بين الغصون المتشابكة فوق العريش أو على جنباته طاقة من طيقان الجنان • على أن هذه السعادة التي كانت تغمرني لم تكن وقفا على وحدي فكثيرا ما نجد الفلاحين أقاموا على الطرق العامة بجوار الحقل عريشا للكرم ارتفعت عليه دواليه ومصلى يلتقى فيه جمال الطبيعة وجلال العبادة ، فيه يسجدون لله وفيه يتقبلون ويتحدثون بنعمة ربهم • وكان من ألد متعبي زمن الطفولة والشباب في ريف مصر نوم القائلة في الظل والهواء الطلق تحت الكرمة الممتدة في الحديقة أو تحت شجرة الحقل الضخمة ، على الأرض العراء التي كنت أجد في غلظها وخشوتتها على شقي وأضلاعي طراوة الأم الحنون • وبودي أن أعود لحظة الى طفولتي لأحك جلدي بتلك الأرض التي تجذب الجسد اليها جذب الطبيب المداوي • وليس أروع منظرا من قيلولة الفلاح الذي تحنى ظهره على أرض مصر، وشقى في حرثها ، وتخطيظها ، وغرسها ، وسقاها بعرق الجبين •• وكم تعبت ثيرانه البطيئة في جر المحراث والنورج وهو وراءها ينخسها بعوده •• يخرج بها من مطلع الفجر ويعود بها عند الغروب ••

قال صاحبي — الطبيعة جميلة • في السماء اشراق وفي الأرض بهجة • والظل ممدود في كل مكان • والنار تتأجج • والنور يتمرمر • والورد يضحك • ونور الربى يتسم في عذوبة وخفر تحت الغمام • والرياح التي تهب وتحيا بها الأرواح والأجسام ، من أين تأتي ؟ الرياح



التي تهب في شرع الفلك المشحون فيتهادى على اليم سبحان منشئها  
ومرسلها ! •

قلت لصاحبي - انى أحب الحياة وأحب جمال الكون وتلك الجاذبية  
الفياضة التي تشع منه في كل النواحي ، وهى سر تعلقنا به •• ولو  
استطعت لسرت في مواكب الشمس وركبت متن الرياح الهوج أسخرها ،  
وصعدت بين النجوم الزهر أسامرها •• تلك السموات العلى تجذبني  
فتتسامى نفسى اليها كالعباب المتلاطم • ولقد يخيل الى أحيانا انى أهيمن  
على الكون وأظلمه بجناحي • وما رأيت طائرا حلق في الجو الا وحسدته  
وتمنيت لو كانت لى أجنحة أطيّر بها في الفضاء الحر ، وأهزها الى الأحياب  
في مختلف بقاع الأرض ••

بوما بحزوى ويوما بالعقيق ويوما بالعذيب ويوما بالخليع  
والواقع أن نظام الطبيعة والكون قائم على الجاذبية : فى الصداقة  
والحب جاذبية • وفى العداوة والبغضاء جاذبية • فى الحياة جاذبية وفى  
الفناء جاذبية • فى المدن والمنازل الجديدة أو الحديثة جاذبية • وفى  
المدن القديمة أو الخربة جاذبية ، تلك آثار طيبة ورومة وممفيس تجذبنا  
كما كانت تجذبنا مدنها العامرة • والخذ الترب كالخذ النضير الريان  
فى جماله ، والطرف الناعس الذابل كالطرف اليقظ الملان • وللشمس  
فى مشرقها جلاله الشمس فى مغربها • وفى وجوه الهرمين والمعمرين  
يتلأأ بين الجفون الذابلة والجلد المسترخى المتغضن نور الهى ، نور  
الحياة المودعة ، نور النضج والاكتمال • وقد كتب ماركوس أوريل  
القيصر الفيلسوف الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى فى هذا الموضوع  
قطعة من أروع ما كتب ، قال : « حين يقع الزيتون من الشجرة ويقترّب من  
حالة العفن والبلى يبدو له نوع خاص من الجمال • ويكفى أن يحس  
الانسان بقوة ويدرك حياة الكون ليجد فى جميع الظواهر الغريبة التى  
تصحبها اتساقا عجيبا له روعته • وفى مقدورنا اذا تأملنا بعين الاعتبار  
فى وجه الشيخ والشيخة أن نرى فى سحنائهما ما يشبه نضرة الصبا ونعّمه  
من جمال قد بلغ منتهاه • وتوجد حقائق أخرى كثيرة لا يراها الا كل من  
آلف الطبيعة وعرفها » •



## في حديثي

- ٦ -

يولية سنة ١٩٥٠

أينع العنب وحان قطافه • وان أكبر متعة لي أن أقطف العنقود وأملأ منه يدي • وأي منظر أجلى من الشجر اذا تهدلت أغصانه بالثمر وتدلّت العناقيد من كرومه • وخير العناقيد ما يضحى في أعالي الشجر المشابك فوق العريش • وهأنذا أصعد فوق العريش في غير يسر، وأنقل قدمي بكل مشقة • وأقلب فروع الكرم أنظر من كل النواحي لأكشف عن العنقود النائي الذي أنضجته حرارة الشمس فصار سبيكة من الذهب في صفاء البلور ، يضرب لونه الأصفر الماتع الى الحمرة • وكلما ظفرت بعنقود من تلك العناقيد التي خلعت عليها الشمس حسنها ، وأدفأتها ، غارية أو في ظل الورق ، ورمقتها بأشعتها ، فتوهجت نضارتها ، خرجت من جلد الشيخوخة طربا ، وخلعت عذارى ، وقلت الجنة شباب وأعنان •

- ٧ -

أغسطس سنة ١٩٥٠

أحب النخيل ، وأحبها طويلات ، وأحبها قصيرات ، وأحبها مائلات ، وأحبها معتدلات ، وأحبها وحيدات ، وأحبها جماعات ، وعندى أربع يهفو على أعذاقها ( السباط ) فؤادي في هذه الآونة ، كما يهفو على أعذاق كل نخيل أمر بها بين المرح والمطرية والزيتون وكوبرى الليمون •• أقول في هذه الآونة لأن البلح بدأ يلون كتلويين السماء عند مغرب الشمس • وما أجمل الشفق كلما قرب من العتمة ، وما أجمل البلح كلما ازدادت حمرة بهجة ودكنة • فامتألت نفسي حيننا الى الماضي ، واستدارت بي آفاقه النضرة من نخيل وبساتين •



## على النيل

٢١ أغسطس

نحن الآن في أواخر الأسبوع الثالث من أغسطس • وقد أخذت أمس طريقى الى الجيزة وسرت على جسر قصر النيل فرأيت أمواه النيل الطامية المعتلثة (١) تتدفق بطيها وتتراحم وفودها العجلى المرتعجة (٢) فى لون ضارب الى الحمرة • وكانت زرقة السماء فى غبرة الرماد • وكانت خضرة الشجر والبساتين الممتدة على جوانب النيل تنضّر الأفق • والعجيب أن هذا الحسن كله ، بين النيل والأرض والسماء ، كنت أراه من كل النواحي من أمامى وعن يمينى وشمالى ، مجتمعا كأنما نسقته ونمقته يد رسام صناع فى لوحة مصورة •

وكم انطوت عينى على أمثال تلك المناظر الزاهية على ضفاف النيل • ولكن فؤادى يظل ينشرها فى أحلام يقظتى • ولا زلت الى اليوم أقف سائحا فى منازل الشباب وربيعه الفياح (٣) غريب الوجه معقود اللسان •

- ٢ -

٣٠ أغسطس

مررت اليوم على جسر الجلاء ( كوبرى الانجليز ) عائدا الى القاهرة وكان لم يمض الا وقت قصير على مرور السفن عبر الجسر فنظرت ، من عن شمالى ، من أعلى الجسر ، فى « ذراع » النيل الممتد الى حيث ينفضى الى الأفق فرأيت السفن منطلقة مثنى وثلاث ورباع ومتفرقات ، مزدانة بشر: عها الطويلة ، فى مَيْكَل واعتدال • وكانت نظرتى تسلك فجأ عميقا بين

(١) اغتلم الشراب أى اشتدت سورته تقول « اذا اغتلمت عليكم هذه الأشربة فاقصعوا متونها بالماء » • واغتلمت أمواج البحر : اشتدت •  
(٢) ارتعج الوادى : امتلأ • ويقال « خرجوا ولهم ارتعاج » أى كثرة واضطراب وتموج •

(٣) فاح الربيع فيحا وفيوحا أخصب فى سعة البلاد •

خطين متوازيين من الصواري <sup>(١)</sup> ثم لا يلبث الخطان أن تتألف منهما  
حنايا وفجوات متقاربة متتالية متشابكة كحنايا وفجوات الغابة العتيقة  
الأشبية •

ولقد نعمت عيني بالضوء في منافذه وشعابه وطيقانه <sup>(٢)</sup> • ونعمت به  
في بحبوحة السماء • ونعمت به في رحاب النيل وهو يتألق بالفضة البيضاء  
ويهتز بين جنبات الوادي •

— ٣ —

٣١ أغسطس :

عدت اليوم من الجزيرة حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر فلما وصلنا  
الى جسر الجلاء وجدناه معطلا • لا مفتوح ولا مغلق ••

ولقد استوقفتنى ساعتئذ منظر من أبهج المناظر ، منظر السفن  
المحتشدة عن يسارنا بازاء الجسر ، بقلوعها ، وهى تهافى <sup>(٣)</sup> النسيم •  
وكانت أصابع النسيم تمر على تلك القلوع وتحركها كما يحرك العواد  
القديم أوتار أعواده وهو حان عليها •

وكانت جموع السفين تضطرب على الموج الأزرق كأنها عصائب  
طير أبيض باسطة أجنحتها فوق الماء أو عاكفة عليه •

كان حشدا من الجمال تضل فيه عيني • ويضل فيه لبي • ولقد  
وقفت أمامه كالمسحور •

(١) الصواري جمع صار وهى الحشبة العمودية التى يعلق فيها  
الشراع •

(٢) الشعاب جمع شعب ( بكسر الشين ) وهو الطريق بين جبلين •  
والطيقان جمع طاقة وهو ما عطف من الابنية أى جعل كالقوس من قنطرة  
ونافذة وما أشبهه • فارسى معرب •

(٣) هافاه مهافاة مايله الى هواه •



## وكان مساء ..

في صيف سنة ١٩٢٦ ذهبت مع صديق لى الى مدينة كابور الواقعة على ساحل البحر في شمال فرنسا . وكنت مع النازلين في نزل بازاء الماء يتقدمه بهو واسع مستو تصف وتشر عليه موائد مستديرة يتعدى عليها النزل (١) في الظهر والمساء .

كنا جميعا سعداء قريرى العين ، ناعمى البال ، لاهين لا نعرف من الحياة الا صفوها . . . وكنا نستمتع في ضحوة الشمس بالاضطجاع عراة أو شبه عراة على رمال الساحل الناعمة الدافئة الحانية السلسالة الرقراقة بالحسن فكنت أذكر قول ذى الرمة ( ورمل كأوراك العذارى . . . ) وما أكثر أوراك الحسان وأذرعتهن البضة الغضة وأقدامهن الصغيرة التى كانت فتنة الفتن . . . وما كان أحلاها ضاحية مشرقة فوق صفرة الرمل . وكنت كثيرا ما أخرج بعد الظهر للعزلة والمقيل في ظل شجرة نائية أو في الخيملة . . . وكم سرنا كثرة ما نملك من مناظر يتجدد حسنها كل يوم وكل ساعة . . . ومن أجمل تلك المناظر منظر المدن الممتدة على الساحل تبدو من بعد في زرقة الأفق ، وتلقى ظلها الساجى على صفحة الماء ، واقمة في خط أفقى تغمره من كل النواحي ، بين لألأة الماء ولألأة السماء ، أمواج مستشفة من لون وضياء فتتشر عليه جوا من الأحلام . فنظل حاملين وعيوننا مفتوحة . . .

قال صاحبي — ولكن الجمال يزول : الوردة تبتفتح في الصباح . وتستنشق الهواء ثم تموت و (حسن ساعة (٢) ) يبتفتح قبل الغروب بساعة ثم يذبل . فما أقصر عمر الورد ، وما أقصر الحسن ، وما أقصر بهجة الأيام ! .

قلت لصاحبي — صدقت فاني أذكر أنى عدت ذات مساء الى بهو النزل لتناول طعام العشاء وكان الوقت قبل زوال الشمس . وكانت

(١) النزل النازلون .

(٢) حسن ساعة نبات مزهر يظهر أن العرب كانوا يضربون به المثل فى قصر العمر كما يضرب الافرنج المثل بالورد .



السماء مزدانة بألوان الغروب البهيجة من صفرة وحمرة وغبرة وكانت قطع السحاب كالجزر الصغيرة المتحركة تتفرق وتلتقى وتتشكل بأشكال شتى ، وتندرج ألوانها من الرمادي الناصع الى الرمادي الداكن الذي تمتد رقعته كلما مالت الشمس . وكانت ، في كل دقيقة تمر ، تبدو في الأفق صور جديدة من الجمال تعجز عنها يد المصور . \* كان قرص الشمس في السماء يزداد احمراره وميوله \* حمرة حريق يتفجر وينتشر لهبه في وسط الزرقاء خلف الغمام الغر وفي طرة السحب وفي حواشيها<sup>(١)</sup> .  
كان منظر السماء بديعا ، وكانت سيدة الكون تضيّف<sup>(٢)</sup> بعرشها ، وخلفها مواكب الأضواء المعصفرة تتضباءل رويدا رويدا حتى تهبط خدرها وراء اليم \*

وكان منظر البحر بديعا : تغنى أمواجه غناءها الأبدى \* وتهب علينا منه أرواح وصبا \* وبينما نحن كذلك والنزل يأكلون وينعمون اذا نبأ من جانب البحر يتنقل همسا من خوان الى خوان : غريق قذف البحر جثته على الساحل \* \* وجوه ساعتئذ واجمة \* منا من أطرق \* ومنا من أخذ يقلب طرفه في السماء ، والسماء في شغل شاغل بتوديع شمسها \* \* يا لها من وحشة بعد أنس وغم بعد بشاشة \* في غمضة عين تجلت ضالة الانسان أمام عظمة الكون \* وكم فنيت أمم وقرون في ثنايا تلك العظمة وفي تضاعيفها \* ما أتعس الانسان : تتقاذف جسده أمواه البحر فيظفوا على سطحها كما تظفوا قطعة من خشب \*

ان ذلك الغريق لن يبصر بعد اليوم شمسا \* ولن يتمتع بدفئها كما نمتع \* ولن يملأ عينيه من جمال نورها ، عند مشرقها ومغربها \* ولن يملأ أذنيه من نغم الأطيوار وتصايح<sup>(٣)</sup> الأحباب والركب \* ولن يملأ يديه من قظوفها الدانية \* ولن يسحر فيها بطعام أو شراب \* \*

لقد هبت علينا من ناحية البحر روائح الموت بعد روائح الحياة ، ففزعنا ، وسرعان ما حزمت حقائبى ، وتركت كابور ، وقلت السلام عليها \*

١٩٥٠/٨/٢٩

(١) طرة الثوب جانبه .

(٢) ضيفت الشمس مالت الغروب .

(٣) تصايح القوم صاح بعضهم ببعض .





امرؤ القيس وجوته

ار

الحقيقة في الشعر

فلما من قبل ان امرؤ القيس كان في شعره توترا بالحقيقة وقد سطر

## الكتاب السادس

امرؤ القيس وجوته

عديدين من اول من وصف الركب المسافر والطريق الذي يسلكه

وكيف يطبخ في القيس من عواقبه واحسانات جديدة تبعتها في

شؤون الاسفار في العراق والقاء وتغاب الليل والنهار واختلاف

البرد والامكنة والارومة والظمان وما يصحبها من حوضاء وسكون

الفرح والحزن وشحن وحزن ومعاجات من كل لون

وقد وصف امرؤ القيس السيد وحياة الجيران ومعاشي الحر والاني

والجيران الوحشية والبقير والشاء والمقبان الكواسر وكلاب الصيد

وميل الصيد والظلمان كما وصف اهل الاسفار والرجال والنال

الذي كان يرعاه نفسه في اعالي الجبال وفي اكنافها والسواد الذي

كان يحترق في غاراته ووصف النخل وثمره وصف خير عالمي بالطائفي

غير الامور بنفسه واستشيط من ابيط الحقائق شعرا عاليا فكان منه

مثل الفان الذي يرتفع في تصوير الحقائق ودقائق الحياة بالوضوح

تفاه الى المستوى الرفيع

فصلنا بعض ذلك في الجزء الاول من التواضع وطيب لنا ان

نذكر اننا في اثناء مطالعنا تراا كتابا للدكتور الفرنسي STAPP



رسالة بالانكليزية

تتحدث عن سيقا فيها

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY  
1280 UNIVERSITY AVE.  
TORONTO, ONT. M5S 1A5  
1980

## امرؤ القيس وجوته أو

### الحقيقة في الشعر

قلنا من قبل ان امرأ القيس كان في شعره مولعا بالحقيقة ، وقد صدر شعره عن عاطفة صادقة وعن وحى نفسه وقوة احساسه وتجاربه ومشاهداته وأسفاره الكثيرة وتنقلاته ، فظهر في تصويره طابع شخصي وروح جديدة لم تبد في شعر سابقيه ومعاصريه كعبيد بن الأبرص وعلقمة وغيرهما ، وقد قلنا أنه كان أول من حدد أماكن الأحباب — فعل الكتاب الحديثين — وأول من وصف الركب المسافر والطريق الذي يسلكه ، وكل ما يختلج في النفس من عواطف واحساسات جديدة تبهتها في غضون الأسفار ، في الفراق واللقاء ، وتعاقب الليل والنهار ، واختلاف وجوه الأمكنة والأزمنة ، والطعائن وما يصحبها من ضوضاء وسكون وفرح وحزن ، وشجى وحنين ، ومفاجآت من كل لون .

وقد وصف امرؤ القيس الصيد وحياة الحيوان ومعاش الحمر والأتن والثيران الوحشية والبقر والظباء والعقبان الكواسر وكلاب الصيد وخيل الصيد والظلمان ، كما وصف ابل الأسفار ، والرحال ، والمال الذي كان يرعاه بنفسه في أعالي الجبال وفي أكنافها ، والسوام الذي كان يحتويه في غاراته ، ووصف النخيل وغيره وصف خبير عالم بالحقائق خبر الامور بنفسه واستنبط من أبسط الحقائق شعرا عاليا ، فكان مثله مثل الفنان الذي يرتفع ، في تصوير الحقائق ودقائق الحياة ، بالموضوع التافه الى المستوى الرفيع .

— ١ —

فصلنا بعض ذلك في الجزء الأول من الشوامخ . ويطيب لنا أن نذكر أننا في أثناء مطالعاتنا قرأنا كتابا للمؤلف الفرنسي استبفر STAPFR



عنوانه ( دراسات عن جوته ) • أرصد الناقد في كتابه فصلا لرواية هرمان ودوروتيه أثبت فيه أن جوته ، وهو أكبر شعراء ألمانيا وأوروبا في القرن التاسع عشر ، كان أول شاعر حديث استمد شعره الغنائي والوجداني روعته وبهاءه من حقائق الحياة •

تكلم الكاتب عن قصة هرمان ودوروتيه ولخص موضوعها قائلاً :  
« في إحدى البلاد الصغيرة من وادي الرين كان يعيش صاحب نزل وزوجه وابنه • وقد مرت على بعد فرسخ من المدينة قافلة تعسه من المهاجرين الذين أخرجتهم الحرب من ديارهم فتسابق الناس زرافات ووحدانا الى الطريق الذي كان يجب أن يسلكوه ، مدفوعين بغريزة حب الاستطلاع والتأسي لهم • وقد أرسل صاحب النزل وزوجه ابنيهما مزودا بالطعام والملابس لاغاثة أولئك المكروبين •

« عاد الفتى من هذه المهمة مترع القلب بحب فتاة كانت في جماعة النازحين ، وقد فطنت أمه الى مكنون فؤاده وساعدته على الافضاء به الى رب الأسرة الذي تملكه الغضب في مبدأ الأمر : لا سيما وأنه بحكم مركزه ، كتاجر ثرى معدود من وجوه المدينة ، كان يطمع لابنه في نسب رفيع ، ولكنه ، وهو الرجل الدمث الخلق الطيب القلب ، ما لبث أن وافق على السؤال عن هذه الفتاة الأجنبية لتكون زوجا لابنه ، بشرط أن تكون غنية بفضائلها على فقرها • وقد قام بهذه المهمة الدقيقة صديقان • وكانت المعلومات التي جمعها غاية مراد كل حب نقي ، فأذن لهرمان أن يتزوج بالفتاة ، فلما خاطبها في الأمر استحيا ولم يفصح ، فظنت الفتاة أنه يريد أن تعمل خادمة في المطعم ولم تبد اعتراضا ، وتبعت سيدها الى بيت أبيه ، وهناك تبذرت سحابة الشك وشيكا ، وأحس هرمان أن دوروتيه تهواه فبارك له الأبوان في خطبتها » •

يقول الناقد انه من هذه المادة العامية الحظيطة تمكن جوته من اخراج قصيدة لا تقل في جمالها عن أرقى شعر ظهر في آداب اليونان والفرنسيس • ويقول ان جوته نجح في رد شعر الحقيقة الى نبعه الأول،



وكان أول شاعر عصرى استتبطن الشعر من نثر الحقائق الوضيعة ، ومن طبيعة الحياة نفسها ، لا من صور الخيال • وكانت هذه النزعة الجديدة ثورة كبرى فى الأدب لأنها رجعت به الى عهد هوميروس وشعراء العصر البدائى مع اختلاف واحد جوهرى ، وهو ذهاب السذاجة من الشعر الى الأبد وانحائها • ومما لا شك فيه انه بعد اثنين وعشرين قرنا من المدية أصبح ما يسمونه « الطبيعى » عند رجل مثقف مظهرا فقط ، لأن الفن العالى المنضج يعرف وحده سر البساطة •

وقد نظم جوته هذه الملحمة المنزلية فى سنة ١٧٩٦ فقال شيلر « انه بلغ قمة الفن فى جميع الشعر الحديث » • وتدور الفكرة الشعرية الرئيسية فى قصة هرمان حول مدينة صغيرة ، وناس صغار ، وحكاية صغيرة ، ولكن فى هذا الاطار الدقيق ظهرت الانسانية والأحداث والعواطف الخالدة التى يقوم عليها بناء الأسرة والمدينة • وقد نشأت القصة فى أواخر القرن الثامن عشر ، فى غضون الثورة الفرنسية وفى أعقابها ، وكانت الثورة قد بدلت معالم أوروبا ونشرت الخرائب فى أرجائها ولكنها من ناحية أخرى نشرت روحا جديدة كانت بعثا لها • وكانت دوروته ضمن احدى قوافل المهاجرين الذين خفوا عن ديارهم ، عندما أصابها من أهوال الحرب والثورة ما أصابها ، فذهبوا على وجوههم •

وقد ورد فى الأغنية الثانية ذكر الحريق الذى اجتاح المدينة القديمة ، موطن هرمان وأبويه ، قبل ذلك بعشرين سنة ، ولم يترك الا ركاما يعلوه الدخان • فى هذه الأتقاض أحب صاحب النزل زوجه ( ليزيت ) وبنى عليها ، وقد كان هذا الحريق رمزا للثورة •••

روت ليزيت ذكرياتها مخاطبة زوجها : « كنت تقول لى هذه الكلمات الرقيقة العظيمة : انظرى ، لقد تهدم بيتنا فابقى هنا وأعينى على بناءه من جديد ، وسأعين أباك على بناء بيته •• اليوم لا زلت أذكر ، والسرور يغمرنى ، هذه الأخشاب المتساقطة من البناء يجللها سواد الدخان ،



وتلك الشمس المشرقة التي كانت تضيء تلك الخرائب ، لأن ذلك اليوم  
الرعب وهبنى زوجي » •

والقصة كلها مملوءة بالحقائق الشعرية الرائعة • وإذا نظرنا الى  
أشخاصها رأينا دوروتيه وهي تحمل العصا وتنحس بها زوجي الثيران  
الضخمين ، وتسوقهما بمهارة ، ورأيناها وهي تحمل في كلتا يديها جرة  
تذهب بها مسرعة الخطى الى عين الماء لتملأها منها ، ورأينا أم هرمان  
وهي تخترق في الحديدقة وتقيم طورا أعواد الخشب المسندة اليها فروع  
شجر الكمثرى المهذلة وشجر التفاح المثقل بالفاكهة ، وطورا تنزع على  
عجل الدويبات العالقة بالكرب الممتلىء المستدير • أما هرمان فانه كان  
يداوى بنفسه أفراسه الفخمة ، اذا مرضت ، ولا يكل أمرها الى أحد  
« انطلق هرمان الى مربط الخيل ، وكانت خيله الأصيلة الوهاجة هادئة  
أمام علوفتها من شعير نقي وكلاء يابس من حصيد المراعى المختارة ،  
وقد وضع لها شكيمة لامعة ، وأدخل السيور في الحلقات الفضية ، وعقد  
عذارها باللجم الطويلة الفضفاضة ، ثم قاد خيله في فناء الدار حيث دفع  
خادمه الغيور العربية بغير عناء ، ممسكا بالخشبة الأمامية المستطيلة ،  
وقد تعاوننا معا في قياس السيور ، ثم علقا الأفراس على العربية ، ثم رفع  
هرمان السوط واندفع بعربته تحت الباب المقبب » •

يقول الناقد ان الشعر موجود في كل الأشياء ، وفي المواضيع  
الخشيسة ، ويقول على سبيل المقارنة والمثل اننا نرى المحبين في بعض  
الروايات يشربون القهوة ، وموضوعها بعيد كل البعد من الشعر ، لأنها  
مستوردة من الخارج •• في حين أن صاحب النزل ( والد هرمان ) يصب  
النبيد المعتق الذي تولى هو وضعه في الزقاق بعد جنى العنب من كرومه  
وعصره • وقد رفع جوته من شأن ما يظنه الناس وضيعا ، وذكرنا  
بسداجة الشعراء البدائيين ، وكان عظيم الشبه بهوميروس • ولا شك  
انه ما بقى الشعر في هذا العالم ، فسيظل بطل القصة صائدا وجزارا  
وطاهيا يقطع ويشوى الذبيحة التي أعدها للضيفان • كانت نوزيكايا



ابنة الملك — في أساطير هوميروس — تغسل ملابسها بنفسها في النهر •  
كان الانسان كما يقول هيجل يجد من حوله وفي محيطه آثار  
نشاطه الشخصى ، ويتباهى بامتلاكه ما لا يدين به الا لنفسه ، ولكن تكاثر  
الآلات الميكانيكية والأيدى المأجورة كان سببا فى تبديد شعر العصور  
البدائية ، لأنه ضيق على حرية الشخصية البشرية فى مباشرة أعمالها  
بنفسها • لا شك أن التقدم الآلى دليل على عبقرية الانسان وانتصاره  
على الطبيعة ، فى نظر العقل ، ولكن حكم الفن لا يخضع لمنطق العقل ،  
ولا منطق يصدنا عن القول ان الملاحين الأشداء المقوسة ظهورهم على  
مقاعدهم ، وهم مستعجلون فى تحريك مجاذيفهم ، وأن الفارس المسيطر  
على جواده ، وهو منطلق فى أقصى حُضره ، موضوعات تحمل فى طياتها  
من معانى الشعر ما لا تحمله الآلة أو القاطرة البخارية •

وقد كانت أعمال البر والاحسان بالمهاجرين فى قصيدة جوته شعرية :  
كان هرمان شخصا سباقا الى نجدتهم واحضار العطايا من خبز ولحم  
ونبيذ وقمصان وأغطية وشتان بين ذلك الاحسان والاحسان «الرسمى»  
المجرد من كل روعة ، ذلك الاحسان الذى ينظم جمع المال فى ليلة خيرية  
ويكتب بمائة قرش ! •

كان جوته فى شعره يصور الأشياء على طبيعتها ، وقد تأثر فى ذلك  
بمطالعة هوميروس فى أثناء رحلته فى ايطاليا أمام مناظر صقلية • قال فى  
خطاب له الى صديق فى ١٠ مايو سنة ١٧٨٦ : « لم تكن أوصاف  
وتشبيهات هوميروس لى حتى اليوم الا محاسن شعرية ، وكنت أجهل  
الى أى حد كانت طبيعية وما كنت أتوهم لحظة ، أن خيالات شاعرنا  
القديم كانت تستند الى الطبيعة حتى نزلت بنفسى بين ظهرانى الحقائق  
التي أوجت بها ، وهذا التجانس التام بين الشعر والطبيعة يتلجلج أمامه  
المحدثون • كان اليونان يمثلون الأشياء على طبيعتها دون تكلف ،  
أما نحن فالذى نزع تمثيله هو أثر الأشياء ، مثل ذلك اذا عرض شىء  
حسن أو فظيع اكتفى اليونان بعرضه كما تراه العين وتركه ، من تلقاء



نفسه ، يتحدث عن أثر الحسن أو الفظاعة ، ذلك الأثر الذي نعمل نحن  
جاهدين على سلكه في أسلوب أوصافنا ، وقد نشأ من هذا السلك ،  
الذي أصبح شغل المحدثين الشاغل ، كل ما يبدو من مغالاة وتصنع وتأنق  
وتهويل ، لأن من يجعل الأثر أو التأثير غايته ، يخيل إليه دائما أنه دون  
الهدف في ابرازه الابرار الكافي » • لذلك كان جوته في شعره الغنائى  
الوجدانى لا ينساق فى اسهابه وراء الخيال ، ولكنه يذهب أولا الى  
الواقع ، الى المظهر الخارجى ، الى الحقيقة التى يحصر شعره فى حدودها  
الثابتة ، لاسيما وأن كل الزيادات والحواشى التى يملئها الخيال أو الحس  
أو التفكير لا حد لها •• وقد كان أشخاص جوته ، وهم فى ذلك كغيرهم  
أشباه أبناء الطبيعة والأعصر القديمة لا يلهيهم انشغالهم بالامور الروحانية  
والأخلاقية عن النظر الى المرئيات والمشاهد الخارجية التى تقع تحت  
أعينهم ، فان العاشقين فى أثناء طريقهما معا ، كانا يلحظان جمال حقول  
القمح ، ويسعدان باحتساب محصوله الكبير المنتظر ، وكانت أم هرمان ،  
وهى سائرة قلقة تفتش عن ابنها ، لا تنسى وهى تخترق فى حديثها أن  
تتعهد عرضا بعض أشجار الفاكهة والخضراوات ، ثم لا تلبث أن تجتاز  
بعد خروجها من سورها الحفرة اليابسة ، ثم تصعد فى طريق ضيق وعر ،  
تحت وهج الشمس ، حتى اذا كانت وسط الكروم ، أخذت تستطرف  
عناقيد العنب البنفسجية وعظامتها من شاسلا وموسكا ، وتعجب أيضا  
بالعنب الصغير الذى يغطى بقية التل ويستنبط منه أفضل الأنبذة ،  
ومن هناك تستمر فى تصعيدها حتى تصل الى حقل القمح حيث يسرها  
النظر الى سنبله الذهبية الفخمة ، ولا شك أن كثرة الأشياء التى  
تسترعى نظرها على التوالى تجعلنا نكاد نلمس بأيدينا طول المسافة التى  
قطعتها ، وذلك الطريق المضى الذى سلكته هو القياس المادى الذى  
استخدمه الشاعر ليظهر لنا فى صورة محسوسة مقدار ما تنطوى عليه  
عاطفة الامومة من قوة ورعى •

ومن أهم اللوحات فى قصيدة جوته صورة المهاجرين • وصفهم



الصيدلاني فقال « انهم في ساعة الخطر تركوا أنفُس ما يملكون وحملوا في عجاتهم أحسن المتاع وكدسوه على عرباتهم ، من ألواح خشبية قديمة ، وكراس متجردة وأقفاص للبط \* \* » وقال انهم عند مجيئهم كان الناظر لا يرى من بعد في أول الأمر الا سحابا طويلا من الغبار في الأفق ثم أخذت المسافة تقترب وبدأت العين تتبين جمهورا مختلطا من الرجال والعربات والدواب يمتد الى أبعد حدود الرؤية ، من تل الى تل ، وكان المشوفون من أهل المدينة ، اذا أرادوا الوصول الى الطريق الذي تسلكه تلك الأفواج التعسة ، لم يكن لهم بد من الانحدار الى حضيض واد ، ثم طلوعه ثانية ، وكان يصعب عليهم في تلك الآونة رؤية المهاجرين ، حتى اذا قاربوهم لم يتح لهم أن يبصروا الا فوجا مدانيا من تلك الأفواج التي لا نهاية لها .

ولعل من أهم لوحات القصيدة الرئيسية شجرة الكمثرى القديمة « كانت شجرة الكمثرى تهيم في أعلى البتل ، وتحد أملاك صاحب النزل ، وما كان يدرى أحد من زرعها ، وكانت تبدو في الاقليم من بعد ، وكانت فاكهتها مشتهرة ، وقد اعتاد الحصاد في ساعة الظهيرة أن يأكلوا وجبتهم في ظلها ، وكان الرعاة يستذرون بها عند حراسة قطعانهم » . كانت هذه الشجرة المعمرة شاهد حب هرمان ودروتيه ، ومن أصلها كان هرمان ، وهو يشرف على أرضه وأغنابه وأجرانه وبيته ، يعلن لأمه أن كل هذه الملوك لا تغنيه عن ملك آخر يجد فيه قلبه أكبر المتاع والرضى \* \* وفي أصل هذه الشجرة جاء هرمان بعيد ذلك بساعات يطلب الراحة مع خلته ، وما أعرفنا الآن بذلك الطريق الذي سلكاه مرارا من النزل الى شجرة الكمثرى ومن شجرة الكمثرى الى النزل \* \* ولا تقل عين الماء في رواية جوته عن شجرة الكمثرى شأنًا اذ كانت دروتيه تنطلق بعيدا من القرية لتأتي لقرنائها في البؤس بالماء الزلال الصافي . وقد جاء ذكر الينبوع لأول مرة في رواية جوته (آلام فرتر) . قال فرتر « عند مدخل القرية يوجد ينبوع ماء بل ينبوع من السحر



يجذبني كأنى مشدود اليه بوثق • يسلك الذهاب اليه طريقا ينحدر  
من تل صغير الى كهف ، ثم ينزل نحو عشرين درجة فيبصر ماء رائقا  
زلولا ينفجر من الصخر ، وان للحائط الذى يحوط ينبوع ، والأشجار  
العالية التى تظله ، وبرد الظل والماء فى حجراته ، لقوة أخاذة تستولى على  
المرء فتعروه منها هزة عميقة • ولا تغرب شمس يوم دون أن أقضى  
هناك ساعة أو بعض ساعة ، وكان بنات القرية ييمن العين طلبا للماء ،  
وهى مهمة بسيطة لا تكلفه عليهن فيها ، اعتدنها منذ القدم ، وكان بنات  
الملوك لا يستعظمنها • هناك كنت أجلس وأتمثل العصور البدائية  
الأولى ، وانى لأذكر أن شباب القرية كانوا يتعارفون عند العين ثم  
يتزاجون •

وكانت دوروتيه تخترق حقول القمح فى طريقها الى ينبوع وتحمل  
فى يديها جرتين • « كانت دوروتيه تهبط مع هرمان الى أسفل الدرج  
الواسع ، وكانت تنحنى على الماء لتستقى ، وكان هرمان يأخذ الجرة  
الأخرى وينحنى مثلها ، وكانا يريان معا ظليهما يضطربان على صفحة  
الماء حيث ينعكس شخصاهما فى زرقته الصافية ويلتقيان فى مرآته ،  
ويجيبى كلاهما الآخر بتحية راضية • وكان الفتى يقول لصاحيته فى  
مرحه : دعينى أشرب وأبل ظمأى • فكانت تناوله الجرة ، ثم يستريحان  
متكئين بكل بساطة على الجرتين » •

— ٢ —

قلنا فى كتابنا عن امرىء القيس انه يذكرنا بهوميروس ، فى صغاء  
شعره ، وارتكاز خياله على أرض من الحقيقة ، ويظهر أن المرحوم المازنى  
قد التبس عليه الأمر فقال أن كل شعر خيال ، وها هو الناقد استبفر  
يقول ان جوته قد جرى على نهج شاعر الانغريك الأول ورد الشعر الى  
نبعه الأول ، الى نبع الطبيعة والحقائق البسيطة المحيطة بنا • وقد يعاب على  
شعر امرىء القيس أنه غير مرتب أى أن القصيدة ليست مبنية بناء  
محكما منسقا ، فهو ينتقل من موضوع الى موضوع ، وقد يخرج عن



الموضوع ثم يعود اليه ، دون أن يكون هناك وحدة متماسكة تربط أجزاء القصيدة بعضها ببعض ، ولكن امرأ القيس كان عربيا في نزعته ، ونزعة العربي نزعة التفرد ونظم البيت مستقلا عن البيت ، وكان شاعرا غنائيا بأوسع معانى الكلمة ، والشاعر الغنائى لا يتقيد بنظام ، هو حر طليق يرسل الشعر فى جو حر طليق ، « كما يطلق زوجى الطائر » • ومعظم شعر امرئ القيس ذكريات ومغامرات أسفار ، أو وقائع حب أو وقائع صيد ، أو وقائع غارات ، وكانت مطيته الجواد أو الناقة ، وقد وصف هذا كله وصف مجرب استنبط الشعر من الحقائق والمشاهدات والمناظر التى كانت تعرض له ، وقد ساعده احساسه المرفه وقوة ملاحظته ومخيلته الخصبة على الضرب على وتر العاطفة الانسانية المسيطرة على الطبيعة وأجوائها ، الكامنة فى زواياها وخلف ستورها ، فى حيوانها وشجرها ، فى معاشها ومرعاها ، ومن هنا كانت تحليقاته فى أعلى مراتب الخيال والحقيقة • وظهور ذلك الطابع الشعرى العالى الذى لم يبد فى شعر علقمة أو عبيد بن الأبرص أو غيرهما من معاصريه أو المتقدمين والمتأخرين • • ويمتاز هذا الطابع باتزانه واعتداله فى الجمع بين سحر الخيال وسحر الحقيقة • فنحن نعيش على أرض من الحقيقة نسير عليها بأقدامنا ، وكل ذكر لما يحيط بنا يؤثر فى النفس ، ونحن نعيش وأعيننا فى السماء وأفكارنا ذات الجناح تهيم فى أقطارها ، وتطير فى عالم الحسن ، وعالم الغيب ، وعالم النسيان • •

وحسبنا أن تقارن بين امرئ القيس وغيره من الشعراء فى وصف النخيل مثلا لتبين المسافة الواسعة التى تفصل بين شعر وشعر ، كلاهما غنائى :

قال الأحمير السعدى ، وكان قد أتى العراق فقطع الطريق وطلبه سليمان بن على ، وكان أميرا على البصرة ، فأهدر دمه فهرب وذكر حنينه الى وطنه :



ئن طال ليلى بالعراق لربما أتى لى ليل بالشام قصير  
معى فتية بيض الوجوه كأنهم على الرحل فوق الناعجات بدور  
أيا نخلات الكرم لا زال رائح عليكن منهل الغمام مطير  
سقيتن ما دامت بكرمان نخلة عوامر تجرى بينهن بحور  
وما زالت الأيام حتى رأيتنى بدورق ملقى بينهم أدور  
وقد أردف شاعرنا هذه الأبيات بيتيه الشهيرين :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى وصوت انسان فكدت أطيير  
رأى الله انى للأئيس لشانىء وتبغضهم لى مقلة وضمير  
وقال رجل من بنى كلاب يذكر المريرة وهى هويه به نخيلات :

أيا نخلتى حسى المريرة هل لنا سبيل الى ظليكما وجناكما  
أيا نخلتى حسى المريرة ليتنى أكون طوال الدهر حيث أراكما  
وقال أبو جابر الكلابى :

أيا نخلتى أوس عفا الله عنكما أجيرا طريدا خائفا فى ذراكما  
ويانخلتى أوس حرام ذراكما على اذا ذاق اللئام جناكما

هذا شعر غنائى خالص ، وقد تغنى أولئك الشعراء بالنخيل لمجرد  
الغناء ، وتغنى به امرؤ القيس بطريقته « الواقعية » فوصفها وصفا  
سلك فيه حقائق محببة الى كل نفس .

وكل ما يخص النخيل يهيم العرب لأنه منظر ومعاش معا . قال الألوسى  
فى ( بلوغ الأرب ) : « والفلاحة من أسباب معاش العرب العامة ،  
لا سيما سكنة اليمن والبحرين وعمان وهجر وغالب بلاد نجد ، فسكنة  
هذه البلاد غالب معاشهم من الحرث والغرس ، ولهم فى غرس النخيل  
اهتمام وأى اهتمام ، ومما ورد عنهم فى شأنه كلام طويل ، ومعرفتهم  
بشؤونه كمعرفتهم بالخيل ، وحيث أن أرضهم وبلادهم صالحة لآبات  
أكثر نبات العالم ، اتسع نطاق معارفهم فى هذه الصناعة . ومن تتبع  
الكتب المؤلفة فى النبات والشجر لا سيما كتاب ( أبى حنيفة الدينورى )



اعترف بما ذكرناه » • ثم نقل عن ابن خلدون كلمة عن معاش العرب جاء فيها : « منهم من يستعمل الفلح في الغراسة والزراعة ، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والابل •• ومنهم من كان يعيش على صيد البر والبحر ، ولهم فيه مذاهب » •

قال امرؤ القيس يصف الظعن ويشبها بالنخيل :

فشبهم في الآل لما تكشوا      حدائق دوم أو سفينا مقيرا<sup>(١)</sup>  
أو المكرعات من نخيل ابن يامن      دوين الصفا اللائي يلين المشقرا<sup>(٢)</sup>  
سوامق جبار أثيث فروعه      وعالين قنوانا من البسر أحمر<sup>(٣)</sup>  
حمته بنو الربداء واعتم زهره      وأكامه حتى إذا ما تهصرا<sup>(٤)</sup>

( ١ ) الآل السراب يرى كالماء عند ارتفاع الضحى ، قال النابغة :

كأن حدوجها في الآل ظهرا      إذا افزعن من نشر سفين  
تكمشوا : أسرعوا . يقول انهم بعدوا وبدت أشباحهم كأها حدائق دوم  
والسفين المقير المطلي بالقار • يصف سواد الشخوص والأحداج على بياض  
الماء ••

( ٢ ) المكرعات والكارعات النخيل التي على الماء . وصورة الماء تتكرر  
كثيرا في شعر امرئ القيس ، قال يصف انحدار الدمع :

أو جدول في ظلال نخل      للماء من تحته مجال  
ابن يامن رجل كان له نخيل بهجر ناحية البحرين • والمشقر حصن  
عظيم لعبد القيس يلي حصنا لهم آخر يقال له الصفا قبل مدينة هجر •  
وقد بلغ من ولع الشاعر بالتحديد انه حدد اسم صاحب النخيل أو غارسه  
الذي ينسب اليه وحدد أماكنه •

( ٣ ) السوامق العاليات • والجبار النخل الطويل الذي يفوت يد  
المتناول • الأثيث الملتف بعضه على بعض • عالين رفعن • القنوان العذق •  
البسر التمر قبل ارطابه وذلك اذا لون ولم ينضج •

( ٤ ) بنو الربداء قوم كانوا في شق البحرين لهم بصر بالنخيل ومعرفة  
بغراسه واستغلاله ، وهم من آل يامن • أقر : يقال أقرت الناقة : ثبت حملها  
فهي مقر • وأقرت النخلة مجهولا : صار عليها حمل ثقيل فهي موقرة  
( بفتح القاف ) • وأقرت النخلة بفتح الهمزة : كثر حملها • أعتم النبات  
اكتهل • والزهر والنور ، يزيد لما اكتمل ازدهاره وأشرقت بهجته وحسنه  
والوانه • أكام جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الطلع ( الكوز ) و - غطاء  
النور - الفلاف الذي ينشق عن التمر ويحيط به سمي كما لأنه يستر  
ما تحته • وتهصر تدلى بالحمل •



أطافت به جيلان عند قطاعه تردد فيه العين حتى تحيرا (١)  
 ذكر امرؤ القيس النخيل فذكر غارسها وصاحبها ( ابن يامن ) وحدد  
 مكانها ( دوين الصفا اللائي يلين المشقرا ) ووصف شكلها وجمالها  
 ( المكرمات • سوامق جبار • وعالين قنوانا من البسر أحمر ) وذكر  
 حراس النخيل ( حمته بنو الربداء ) وذكر القوم الذين كان يرسلهم  
 كسرى عمالا له على البحرين ( أطافت به جيلان عند قطاعه ) • والقطاع  
 هو صرام النخل ولا شك أن أوان الصرام عند العرب كان موسما لا تقل  
 بهجته عن موسم قطاف الكروم عند الأفرنج ، أو موسم جنى القطن  
 في مصر • ولا شك أن ذكر الحقائق الخاصة بغرس النخيل وأعداقه ونمره ،  
 حقائق الحياة والمعاش معا ، يجعل لشعر امرئ القيس الغنائى طابعا  
 خاصا لأنه يجمع بين جلال الحقيقة وروعة الخيال •  
 وقال من قصيدة :

وأسحم ريان العسيب كأنه عثا كيل قنو من سُمَيْحَةَ مُرْطَبَ (٢)  
 وقال :

إذا زجرت ألفتها مشمعة تنيف بعنق من غراس ابن معنق (٣)  
 وقد ذكر امرؤ القيس الكروم في قصيدة له فقال ( من خمر عانة  
 أو كروم شبام ) •

وإذا كان جوته قد تغنى بعين الماء وبرد الظل تحت الشجر المنتشر  
 حولها ، فقد تغنى امرؤ القيس بعين الماء التي يردها الركب الظامىء  
 في البيداء والحر الوحشية العطاش ، وتغنى بظلالها التي يستندرى  
 بها المهجر :

(١) القطاع زمن الصرام (قطع الأعداق والعنق بكسر العين ( السباطة ) •  
 والعين هنا ليست عين الماء كما قال الشراح ، ولكن العين الناظرة التي تتحير  
 في غضارة التمر وزهو ألوانه وجمال حمله المتدلى •

(٢) الأسحم الأسود • ريان العسيب ممتلىء الذنب ( يصف فرسا ) •  
 العثكول والعثكال العنق وقيل الشمراخ وهو ما عليه البسر من عيدان  
 الكباشة وهو في النخلة بمنزلة العنقود في الكرم • هذا ما قاله اللسان ولعل  
 المقصود هنا الشمراخ لا العنق وهو ما يقابل العود في العنقود • والقنو  
 الكباشة والكباشة هي العنق ( السباطة ) • وسُمَيْحَةَ بئر قديمة بالمدينة  
 شزيرة الماء عليها نخل •

(٣) اشمعل جد في المضى ، يصف الناقة وهي تجد في سيرها رافعة  
 رأسها •



ترأت لنا بين النقا وعنيزة وبين الشجى مما أحال على الوادى (١)  
لم يبق الا هذا البيت من قصيدة ضائعة • وهو بيت من أعذب  
الشعر الغنائى ، وفيه من جمال الموسيقى وجمال الحقيقة ، التى تطل  
من تحديد الشاعر ، ما فيه ( ترأت لنا بين النقا ، وعنيزة - وبين  
الشجى - مما أحال على الوادى ) • روى أن الحجاج بعث رجلا  
يحفر المياه بين البصرة ومكة فقال له : احفر بين عنيزة والشجى حيث  
ترأت للملك الضليل ، وأنشد البيت •

وقال يذكر الحمر الوحشية :

ولما رأت أن الشريعة همها وأن البياض من فرائصها دامى (٢)  
تممت العين التى عند ضارج يفىء عليها الظل عر مضها ظامى (٣)  
روى أن قوما من اليمن أقبلوا يريدون الوفود على الرسول فضلوا  
الطريق ومكثوا ثلاثا لا يقدرّون على الماء فاستظلوا بالطلح والسمر

( ١ ) النقا لم يرد فى المعجم • عنيزة موضع بين البصرة ومكة • قال  
شيخ لقوم هل رأيتم عنيزة قالوا نعم قال أين قالوا عند الظرب الذى قد  
سد الوادى قال ليس تلك عنيزة ! • وقال ابن الأعرابى عنيزة تنهى للأودية  
ينتهى ماؤها إليها وهى على ميل من القريتين ببطن الرمة • والشجى بفتح  
الجيم يقال الشجا مقصور ما ينشعب فى الحلق ، وهو ربو من الأرض دخل  
فى بطن فلج فسمى به الوادى • • قيل الشجى على ثلاث مراحل من البصرة •  
والشجى ظرب قد شجى به الوادى فلذلك سمي الشجى • • ثم ذكر بيت  
امرئ القيس • • قال عبيد الله ان أريد من هذا الموضع الوادى فهو الشجى  
بالياء لأنه شجى بالربوة فهو مفعول وان أريد به الربوة نفسها فهو الشجا  
بالالف • أحال على الوادى : أقبل عليه قال الفرزدق :

فكان كذئب السوء لما رأى دما بصاحبه يوما أحال على الدم  
وفى حديث الحجاج مما أحال على الوادى أى ما أقبل عليه • ويحيل  
بعضهم على بعض أى يقبل عليه ويميل إليه •

( ٢ ) الشريعة مورد الماء للماشية • يقول لما رأت الحمر انها تخاف على  
نفسها من الرماة عند طلب الماء قصدت العين التى عند ضارج • قيل ضارج  
ماء ونخل لبنى سعد • • •

( ٣ ) العر مض الطحلب الذى على الماء • ظامى مرتفع يملأ العين يريد أن  
العين يفىء عليها ظل الشجر كالسمر والطلح فماؤها عذب •



منتظرين الموت عطشا ، فبيناهم في آخر رمق اذ أقبل رجل ملتثم بعمامته ،  
فرفع رجل منهم صوته وأخذ يقول ( ولما رأت •• ) فقال الراكب من  
يقول الشعر ، قال امرؤ القيس بن حجر ، قال : والله ما كذب هذا ضارج  
أمامكم ، فتحاملوا وجثوا على الركب حتى رأوا ماء غدقا وعليه العرمض  
والفلل يفيء عليه ، فشربوا حتى ارتووا وحملوا منه معهم ، ولولا ذلك  
لهلكوا •

وهل وصف أحد الماء الزلال كما وصفه شاعرنا في قوله :

بماء سحاب زل عن متن صخرة الى بطن أخرى طيب ماؤها خصر  
وقد حدد هنا امرؤ القيس طريق الماء في الصخور وهو يتحدر عليها  
من عل • الواقع ان امرؤ القيس قد فتح عينيه على المرئيات فنظم الحقائق  
التي شاهدها ، كما نظمها هوميروس وبعده جوته ، نظما عبقريا •  
وقد تمكن الشاعر بذلك من التجديد وافتراع الطريقة البكر وطبع شعره  
من وحيه وشخصه •

كان ( ابن حزام ) أول من بكى الديار ولكن امرؤ القيس كان أول  
من بكى واستبكى واستوقف ( قفا نيك •• ) وكان أول من حدد منازل  
الأحباب ( بين الدخول فحومل فتوضح •• ) وكان أول من وصف  
ظعائن الأحباب وحدد الطرق التي تسلكها والعواطف والاحساسات  
المفاجئة المختلفة التي تجيش في نفس المسافر :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن      سواك نقبا بين حزمي شععب<sup>(١)</sup>  
علون بانطاكية فوق عقامة      كجرمة نخل أو كجنة يثرب<sup>(٢)</sup>

(١) الظعائن النساء في الهوادج على الجمال • النقب الطريق في انجبل •  
والحزم المكان الغليظ وهو أرفع من الحزن • شععب اسم ماء أو موضع •

(٢) انطاكية ثياب صنعت بانطاكية وهي قرية بالشام • والعقامة ضرب  
من الوشى • والجرمة ما صرم من النخل وصار في الأرض • جنة يثرب نخل  
مدينة الرسول • يقول ركب الهوادج بثياب زاهية تشبه حمرتها وصفرتها  
حمرة البسر وصفرته •



فله عينا من رأى من تفرق أشت وأناى من فراق المحصب<sup>(١)</sup>  
 فريقان منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب<sup>(٢)</sup>  
 هذا التصوير الدقيق للطعائن فى سيرها (سوالك نقبا •• علون  
 بانطاكية فوق عمقة - فريقان منهم جازع بطن نخلة وآخر ••) نجبه  
 ونحب كل كلمة فيه وكل تفصيل ، وقد فسر شارح كلمة جازع بقاطع ،  
 وهذا تفسير ناقص يقال جزع الوادى جزعا ، قطعه عرضا ، وهذا  
 تحديد ••

وقال فى توجهه الى قيصر الروم مستنجدا :

بِعَيْنِي ظُنُّنَ الحى لما تحملوا لدى جانب الأفلاج من جنب قيِّمرا<sup>(٣)</sup>  
 فشبهتهم بالآل لما تحملوا ••  
 تذكرت أهل الصالحين وقد أتت على خَمَلَى خوص الركاب وأوجر<sup>(٤)</sup>  
 فلما بدت حوران والآل دونها نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا<sup>(٥)</sup>  
 تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا<sup>(٦)</sup>

(١) المحصب موضع الجمار بمكة والحاصب الحجارة وانما سمي  
 المحصب لانه يرمى فيه الجمرات وهى الحصا الصغار . قال ابن السيرافى  
 المحصب الموضع الذى يرمى فيه بحصى الجمار ثم كانت تجمع العرب  
 من الأماكن المختلفة فىرى بعضهم بعضا وينظر الرجل الى وجوه النساء  
 فربما هوى الرجل منهم بعض من هوى من النساء فاذا تم حجهم مضوا  
 فى طرق شتى •• يقول أن هذا التفرق أبعد من فراق المحصب •

(٢) الجازع : جزع الوادى جزعا : قطعه عرضا . وبطن نخلة بستان  
 ابن معمر • وكبكب الجبل الأحمر الذى تجعله بظهورك اذا وقفت بعرفة •

(٣) الأفلاج جمع فلج . فال السكونى قال ابو عبيد ووراء المجازة فلج  
 الأفلاج وهو ما بين العارض ومطلع الشمس تصب فيه أودية العارض  
 وتنتهى اليه سيولها •• وقيل انما سمي فلج الأفلاج لأنها افلاج كثيرة  
 وأعظمها هذا الفلاج لانه أكثرها نخلا ومزارع وسيوحا جارئة وسوى ذلك  
 من الأفلاج . وقيصر مكان به قلعة بين الموصل وخراسان •

(٤) خملى وأوجرا مكانان !

(٥) حوران كورة واسعة فى جنوب دمشق ذات قرى ومزارع وحرار ،  
 وما زالت منازل العرب وبها الآن فرقة الدروز •

(٦) حماة وشيزر مدينتان بالشام •



بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ••

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولا بن جريح في قري حمص أنكرا (١)  
نشيم بروق المزن أين مصابه ولا شيء يشفي منك يا آبنة زعفران (٢)  
أرى أم عمرو دمعا قد تحدرت بكاء على عمرو وما كان أصبرا (٣)  
إذا نحن سرنا خمس عشرة ليلة وراء الحساء من مدافع قيصر (٤)  
إذا قلت هذا صاحب قد رضيته وقرت له العينان بدلت آخر  
كذلك جدى ما أصاحب صاحباً من الناس إلا خانتى وتغيرا  
الآبيات السابقة متفرقة في قصيدته التي مطلعها :

سما بك شوق بعد ما كان أقصرا وحلت سليمي بطن قوٍ فعرعرا

والآبيات عبارة عما يسميه الفرنسيون Impressions de Voyages وهي شعريات الرحلة Sensations وما يغشى النفس في أثنائها من خواطر. وقد اختلطت بهذه الشعريات ذكريات الضليل ، والأسفار تحرك الذكريات ، قال بعد الآبيات المتقدمة :

وكنا أناسا قبل غزوة قرمل ورثنا الغنى والمجد أكبر أكبرا  
وما جبت خيلي ولكن تذكرت مرابطها من بربعيص وبربرا

(١) اللام في ولا بن للتأكيد . يقول لقد أنكرتني بعلبك ولقد أنكرني ابن جريح في قري حمص .

(٢) الشيم النظر يقال شمت السحاب نظرت أين يقصد المزن السحاب . أين مصابه : أين يقع .

(٣) قال الوزير أبو بكر قوله أرى أم عمرو يعني عمرو بن قصبه الشاعر وكان من حشم أبيه وقوله وما كان أصبرا على التعجب أي ما كان أصبرا قبل هذه الفرقة . وقال السندوبي : أم عمرو ابنة عمرو بن قميئة الشاعر وصاحبه في السفر ، وهي التي بكت لبعث الشقة ولتشوقها إلى ديار أهلها فبكى لبكاؤها عمرو أبوها ( بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه ) . يقول له أجدد أصبر من ابنته على سلوك الدرب وفراق الأهل .

(٤) الحساء جمع حسي موضع سهل يستنقع فيه الماء ومدافع جمع مدفع وهو الموضع الذي يحميه ويدفع عنه من يريد استباحته ومعناه إذا توغلنا في بلاد قيصر .



تعرض شاعرنا لذكريات خيله، وللابل حنين، وللخيل صاهلة واستحنان  
والعاطفة الحيوانية الرفيعة هي والعاطفة البشرية سواء وكثيرا ما حاول  
امرؤ القيس تصوير هذه العاطفة والتغلغل في نفس الحيوان من ملامح  
وجهه ومن أصواته وحرركاته ♦♦  
وقد كانت الأسفار احدى خلات شاعرنا الأربع : الخمر والصيد  
والسفر والنساء :

أصبحت ودعت الصبا غير أننى  
فمنهن قولى للندامى ترفقوا  
ومنهن ركض الخيل ترجم بالقنا  
ومنهن نص العيس والليل شامل  
خوارج من برية نحو قرية  
ومنهن سوف الخود قد بلها الندى

أراقب خلّات من العيش أربعا (١)  
يبادرن سربا آمنا أن يفزعا  
يداجون نشاجا من الخمر مترعا (٢)  
ييممن مجهولا من الأرض بلقعا (٣)  
يجددن وصلا أو يرجين مطمعا (٤)  
تراقب منظوم التمام مرضعا (٥)

وصف الشاعر في بيتيه ( ومنهن نص العيس - خوارج من برية )  
احساس المسافر من طريق تصوير حالته تصويرا واقعيا لا زيادة فيه  
ولا تعمل ، وهذا أبلغ في التصوير لأن الصورة تحدث من تلقاء نفسها  
الأثر المطلوب ♦

#### (١) الخلات الخصال ♦

(٢) ركض الخيل : الأصل في الركض ضرب الفرس بالرجل استحاثا  
له ثم كثر استعماله حتى قيل ركض الفرس اذا عدا ♦ رجم رمى بالحجارة  
و - قتل و - قذف ♦ والقنا الرماح ♦ السرب القطيع من البقر والظباء ♦  
يداجون ♦ داجاه عاشره وجامله ♦ نشاج : يقال نشج القدر  
والزق : غلى على ما فيه حتى سمع له صوت ، تقول سمعت نشيج الطعنة  
عند خروج الدم ، فالنشاج هنا الزق ♦

(٣) نص العيس : نص فلان عنقه نصبه والاشارة هنا الى نص عنق  
الناقة اشارة الى الجد فى السير ♦ ييممن يقصدن ♦ بلقع خال ♦

(٤) البرية الصحراء ♦ القرية كل مكان اتصل بالأبنية والحضر ♦

(٥) سوف الخود شم الغادة الحسنة الندية ♦ تراقب منظوم التمام  
مرضعا ♦ تعنى بشأن رضيعها الذى نظمت عليه التمام ♦ والتمام جمع  
تميمة وهى عوذة تعلق على صغار الانسان مخافة العين ومنه قوله « الفيت  
كل تميمة لا تنفع » واماطة التمام كناية عن الكبر ♦♦



وقال :

ألا عم صباحا أيها الربع فانطق  
وحدثت بأن زالت بليل حمولهم  
جعلن حوايا واقتعدن قعائدا  
وفوق الحوايا غزلة وجآذر  
فأتبعتهم طرفي وقد حال دونهم  
على اثر حي عامدين لنية  
في كل مرة يصف امرؤ القيس الطعائن تبدو صور جديدة وألوان  
جديدة تدل على قوة الملاحظة والحس عند شاعرنا .

وقال :

لما سما من بين أقرن فالأج بال قلت فداؤه أهلى (٥)  
ولما قتل شرحبيل عم امرئ القيس يوم الكلاب قام عوف بن شجنة  
ابن الحارث في بنى سعد وبنى عوف دون عياله فمنعواهم وحالوا بين  
الناس وبينهم ودفعوا عنهم حتى ألحقوهم بقومهم ومأمهم ، وكان بنو  
حنظلة تخاذلوا عنهم ، فقال امرؤ القيس يمدح بنى عوف :

(١) غير منبق أى متفرق يقال نبق الكتاب أى سطره منسقا مرتبا .  
(٢) الحوايا جمع حوية بكسر الواو وتشديد الياء وهى كساء يحشى  
بهشيم النبات ويجعل حول سنام البعير لا تكون الا للجمال بخلاف السوية  
فقد تكون لغيرها . حففن يقال حف الثوب أى نسجه بالحف بفتح الحاء والحف  
خشبة الحائك العريضة ينسق بها اللحم بين السدى ، والحف المنسج  
والحف القصبه التى تجيء وتذهب . وحف تأتى بمعنى أحرق به واستدار  
وأحاط يقال دخلت عليه وهو محفوف بخدمه . فيكون المعنى ان النساء  
حفن الهوادج بشياب موشاة من حوك العراق .

(٣) غارب كل شىء أعلاه والغارب أعلى الموج وأعلى الظهر وأعلى مقدم  
السنام . الألاء شجر يشبه الآس ينبت فى الرمل والأودية والشبرق نوع  
من النبات .

(٤) عامدين قاصدين . النية الرحلة أو المكان ، يقال بية قذف بضم  
القاف والذال أى رحلة بعيدة أو مكان بعيد . العقيق واد بعارض اليمامة .  
وثنية مطرق فلاة العارض باليمامة .

(٥) سما علا . أقرن والأجبال موضعان .



أحنظل لو حاميتهم وصبرتهم  
 ألا ان قوما كنتم أمس دونهم  
 ثياب بنى عوف طهارى نقيّة  
 عوير ومن مثل العوير ورهظه  
 هم أبلغوا حى المضلل أهلهم  
 فقد أصحوا والله أصفاهم به  
 لأثنت خيرا صالحا ولأرضاني (١)  
 هم استنقذوا جاراتكم آل غدران (٢)  
 وأوجههم عند المشاهد غتران (٣)  
 وأسعد في ليل البلابل صفوان (٤)  
 وساروا بهم بين العراق ونجران (٥)  
 أبر بميثاق وأوفى بجيران (٦)

في البيتين الأخيرين وخصوصا في قوله :

هم أبلغوا حى المضلل أهلهم وساروا بهم بين العراق ونجران  
 تحديد الطريق الذى سلكه الركب وفيه لمعة من السّحر ، وما أكثر  
 لتمع السحر فى شعر امرئ القيس ، سحر التجديد ، سحر الموسيقى ،  
 سحر السلاسة والسهولة ، سحر الالهام ، سحر الغدير الصافى •  
 وقد أضفى هذا السحر على أتفه الموضوعات — شأنه فى ذلك شأن  
 جوته ، مثال ذلك سرقة رواحله : نزل امرؤ القيس على خالد بن سدوس  
 ابن أسمع النبھانى ، فأغار عليه باعث بن حويص الجدبلى  
 الطائى فى رجال معه فذهبوا بابله ، فلما علم ذلك امرؤ القيس  
 أخبر جاره خالدا ، فقال له خالد : اعطنى رواحك ، ألحق بها القوم فأرد  
 ابلك • فأعطاه رواحله فركبها خالد ، فلما أدركهم قال : يا بنى جديلة ،

( ١ ) يعير بنى حنظلة لانهم لم يدافعوا عن عمه فلا يستحقون ثناءه •

( ٢ ) آل غدران أى يا أهل الغدر •

( ٣ ) الثياب كناية عن النفوس • المشاهد جمع مشهد وهو محضر

الناس ومجتمعهم • الفران جمع الفرير أو الأغر الحسن أو الأبيض •

( ٤ ) عوير : عوف بن شجنة • وصفوان من سادات بنى سعد •

( ٥ ) الحى القبيل والمضلل المحير الذى لا يدرى أين يتوجه ولا حيث

يأخذ • قال الوزير أبو بكر يريد أن قبائل العرب كانت تحاماه ولا تجيره خوفا

من الملك الذى كان يطلبه • يريد بحى المضلل بنى عمه شرحبيل وأهلهم

يعنى بنى كندة أو بنى عمرو بن الحارث •

( ٦ ) قال الوزير أبو بكر أصفاهم به اختارهم له أنه أبر الناس

بعهده وأوفاهم بمن جاوره بدمته •



أغرتم على جارى فردوا اليه ابله ، فقالوا : ما هو لك بجار ، فقال : بلى  
والله ما هذه الابل التى معكم الا كالرواحل التى تحتى ! فقالوا :  
أكذلك ؟ فرجعوا اليه فأنزله عنها وذهبوا بها أيضا . فلما عاد الى  
امرىء القيس بهذه الحال تحول عنه الى جاره ابن مر الثعلب فأجازه  
وأكرمه . فقال يمدحه وبني ثعل ويذكر ما حدث له :

دع عنك نهبا صيح في حَجَراته      ولكن حديثا ما حديث الرواحل (١)  
كأن دثارا حلت بلبـونه      عقاب تنوفى لا عقاب القواعل (٢)  
تلعب باعث بدمـة خالد      وأودى عصام في الخطوب الأوائل (٣)  
وأعجبنى مشى الحزقة خالد      كمشى أتان حلتت في المناهل (٤)

(١) الحجرات النواحي . دع عنك نهبا صيح في حجراته مثل يضرب  
لمن ذهب من ماله شيء ثم ذهب بعده ما هو أجل منه . الراحلة النجيب  
الصالح من الابل والقوى أو القوية على الأسفار والأحمال .

(٢) دثار راعى ابل امرىء القيس . حلق الطائر : ارتفع في طيرانه  
واستدار كالحلقة قال النابغة :

إذا ما التقى الجمعان حلق فوقهم      سحائب طير تهتدى بعصائب  
واللبون النوق التى يرعاها ويحتلبها واللبون عامة ذات اللبن . تنوفى  
جاء في المعجم موضع في جبال طيء وكانوا قد أغاروا على ابل امرىء القيس  
من ناحيته ! . وقال أبو سعيد رواه أبو عمرو بن الأعرابي عقاب  
تنوف ( والتنوف المفازة ) ، وروى أبو عبيدة تنوفى بكسر الفاء . وقال  
أبو حاتم هو ثنية في جبال طيء مرتفعة . . وقال ابن سيده وقد يجوز أن  
تكون ألف تنوفى أشباعا للفتحة . . والقواعل جمع قاعلة وهى الجبل  
الطويل ، يقال عقاب قعولة بسكون العين وفتح الواو على الصفة وعقاب  
قعولة على الاضافة : أى تأوى الى القاعلة ، وهى الجبل الطويل ، وتعلوها .  
ولعل الصحيح (عقاب تنوفى أو عقاب القواعل) أو بدلا من لا ، فبذلك يستقيم  
المعنى ويكون الخطأ فى الرواية .

(٣) تلعب : لعب . باعث ابن حويص الجدلى الذى أغار برجاله على  
الابل وذهب بها . وخالد ابن سدوس بن أصمع الذى عجز عن حماية جاره  
امرىء القيس . وعصام يظهرانه راع آخر هلك عند الفارة على الابل .

(٤) الحزقة القصير البطين الضيق الباع . والأتان أنثى الحمر .  
حلتت طردت ومنعت عن الورود .



أبت أجأ أن تسلم العام جارها      فمن شاء فلينهض لها من مقاتل (١)  
تبيت لبونى بالقرية أمنا      وأسرحها غبا بأكناف حائل (٢)  
بنو ثعل جيرانها وحماتها      وتثمنع من رماة سعد ونابل (٣)  
تلاعب أولاد الوعول رباعها      دوين السماء في رؤوس المجادل (٤)  
مكللة حمراء ذات أسرة      لها حبك كأنها من حائل (٥)  
يتكلم امرؤ القيس عن ابله بلغة أبناء الملوك والشعراء في عهد  
هو ميروس فيقول ( وأسرحها غبا بأكناف حائل ) ويصفها وهي ( تلاعب  
أولاد الوعول رباعها ) في رؤوس المجادل . .  
وتكلم عن ابله في أبيات أخرى ، وقد نزل ببني ثعل في ديار بني طيء  
فأكرموه وحموه :

واثعلا وأين منى بنو ثعل      ألا جبذا قوم يحلون بالجبل  
نزلت على عمرو بن درماء بلطة      فياكرم ما جار وياحسن ما فعل (٦)

( ١ ) أجأ أحد جبلى طيء والمراد هنا أهل أوحى أجأ .  
( ٢ ) القرية منزل بجبل أجأ . أسرحها أرسلها في المراعى نهارا . غبا  
من وقت لآخر . وحائل في جبلى طيء .  
( ٣ ) بنو ثعل قول من طيء مشهورون بالرماية . سعد ونابل من رماة  
بني نيهان ، وتثمنع أى تحمى .  
( ٤ ) الوعول تيوس الجبل . الرباع الفصلان وهى الصغار من الأبل .  
المجدل القصر المشرف لوثاقة بنائه ومنه قول الأعشى :  
في مجدل شيد بنيانه      يزل عنه ظفر الطائر  
والاجتدال البنيان وأصل الجدال الفتل .  
( ٥ ) الكلة بكسر الكاف الستر الرقيق . سحاب مكلل أى مستدير  
ملمع بالبرق ويقال هو الذى حوله قطع من السحاب فهو مكلل بهن ، يقال  
جفنة مكللة بالسديف أى عليها قطع من اللحم ، وروضة مكللة محفوفة بالنور  
والسر بكسر السين الطريقة والخط فى الشيء وبطن الوادى ج أسرة والسر  
بالضم : لغة فى السر للخط فى الكف والجبهة . والحبيكة : الطريقة فى الرمل  
و - الطريقة من طرائق النجوم والطريق من خصل الشعر والحبيكة  
بضم الحاء والباء : الحجرة و - الجبل يشد به على الوسط . الجباله  
المصيدة .

( ٦ ) بلطة قال السكونى عين ونخل وواد من طلح لبني درماء فى أجأ  
وقد ذكرها امرؤ القيس لما نزل بها على عمرو بن درماء :  
إلا ان فى الشعبين شعب بمسطح      وشعب لنا فى بطن بلطة زيمرا  
وقال سلام بن عمرو بن درماء الطائى :  
إذا ما غضبت أو تقلدت منصلي      فلايا لكم فى بطن بلطة مشرب



تظل لبونى بين جو ومسطح      ترعى الفواخ الدارجات من الحجل (١)  
وما زال عنها معشر بقسيهم      يذودونها حتى أقول لهم بجل (٢)  
وصف الشعراء الأبل والنوق ولكن امرأ القيس وصف ابله ونوقه  
التي كان يسرحها ووصف حياتها في جبال طيء • قيل انه لما أغارت  
جديلة على ابله واحتووها فرقت عليه بنو نبهان فرقا من معزى يحلبها  
فأنشأ يقول :

ألا الا تكن ابل فعزى      كأن قرون جلتها العصى (٣)  
وجاد لها الربيع بواقصات      فأرام وجاد لها الولي (٤)  
اذا مشت حوالبها أرنت      كأن الحى صببهم نعى (٥)  
تروح كأنها مما أصابت      معلقة بأحقيها الدلى (٦)  
فتوسع أهلها أقطا وسمنا      وحسبك من غنى شبع ورى (٧)

كان امرؤ القيس في وصفه معيشة البادية والموضوعات الوضيعة  
في نظر العقل الكبيرة في نظر القلب ، كالنخيل والبسر الأحمر والأبل  
والمعزى ورعى المال والسائمة وحمايتها يتغنى بذكر الحقائق « الطبيعية »  
ويذكرها كما تتراءى للعين • وهو شغوف بالحقائق والتفاصيل التي  
لا يلتفت إليها ولا يعنى بها غيره • فاذا مدح غيره كريما أكرمه وذبح له

(١) جو ومسطح مكانان بأرض بلطة •

(٢) بجل حسبكم •

(٣) جلتها كبراهها •

(٤) واقصات : واقصة منزل بطريق مكة •• وهي أيضا ماء لبني كعب  
ومن قال واقصات فانما جمعها بما حولها على عادة العرب في مثل ذلك •  
آرام موضع لم يذكره المعجم •

(٥) مشت حوالبها : مست ضروعها بالكف لينزل اللبن •

(٦) تروح : تعود الى حظائرها في المساء • الدلى جمع دلو • بأحقيها :  
انحقو بفتح الحاء هو الخصر تقول « شد ازاره على حقوه » أى على خصره  
والحقو الأزار مسمى باسم مشدة ج أحق يسكون الحاء وكسر القاف واحقاء  
وحقى بضم الحاء وتشديد الياء كدلى وحقاء •

(٧) الأقط الجبن المتخذ من اللبن الحامض •



ناقته مثلا اكتفى بالاشادة بكرم ممدوحه ولكن شاعرنا يعطينا من الناقه  
صورة حيه فيها لمسه رائعه .

قال يمدح طريف بن مالك وقد أحسن اليه :

لنعم الفتى تعشو الى ضوء ناره      طريف بن مال ليلة الجوع والحصر<sup>(١)</sup>  
اذ البازل الكوماء راحت عشية      تلاوذ من صوت المبسين بالشجر<sup>(٢)</sup>

بالتحديد عند امرىء القيس تصوير والتصوير عنده تحديد ، ولهذا  
يخرج لنا من كل موضوع وضيع شعرا وفنا . وقد صور معاش  
الحر الوحشية في البادية تصويرا جليلا ، قال :

كأنى وردنى والقرباب وثمرقى      على ظهر عيثر وارد الخيرات<sup>(٣)</sup>  
أرن على حقب حبال طروقة      كذود الأجير الأربع الأشرات<sup>(٤)</sup>

( ١ ) عشا النار و - اليها : رآها ليلا من بعد فقصدها راجيا هدى  
أو قرى . والخصر البرد .

( ٢ ) البازل الكوماء : بازل من بزل البعير بزولا فطر نابه أى انشق  
بدخوله في السنة التاسعة فهو بازل يستوى فيه الذكر والأنى والكوماء  
الضخمة السنام . المبسون : أبس ( بتشديد السين ) الحالب بالناقه :  
دعاها للحلب .

( ٣ ) القرباب : جفن السيف . والنمرق الوسادة . والعيثر الحمار  
الوحشى . الخبر بفتح الخاء وسكون الباء : منقع الماء في الجبل و - شجر  
السدر والأراك وما حولهما من العشب . والخبرة بفتح الخاء وكسر الباء  
الأرض ذات الخبر أى السدر وما حوله .

( ٤ ) أرن صوت . الحقب : الأتن الوحشية البيض الأعجاز . والحبال  
جمع حائل وهى التى لم تحمل فى سنتها . الطروقة التى يضربها الفحل  
فاستعارة للأتان . الأش المرج والأشرات المرحات النشيطات المسرعات .  
والذود ما بين الثلاثة الى العشرة والأجير الراعى المستأجر قال الوزير  
أبو بكر معنى البيت أنه أكد الوصف فى نشاط هذا العير بأن جعله هائجا  
وخص ذو الأجير بالسمن لأنه أقوم عليهن وأحوط لهن من غيرهن ، وخص  
الأربع من الذود ليكون أقوى على القيام بها والحفظ لها لأنها كلما كثرت  
صعب أمرها عليه فأراد أن العير نشيط وأن أتنه مثله فى النشاط . انتهى  
والذى نراه أن العير كان زعيم الأتن وكانت الأتن التى لم تحمل فى سنتها  
محتفظة بقوتها ونشاطها وكان استعدادها للضراب يجعلها ترعوى لصوت  
العير وتنقاد له وإن العير كان يذودها ( أى يسوقها ويحميها ) ذودا كذود  
الراعى ناقته الأربع المسرعة التى أصبح يحوطها ويدفعها بقوة وصلف الى  
العمل فيما استأجرها له . والبيت التالى يؤكد هذا المعنى .



عنيف بتجميع الضرائر فاحش      شتيم كذلك الزئج ذى ذمرات (١)  
ويأكلن بهمى جعدة حبشية      ويشربن برد الماء فى السبرات (٢)  
فأوردها ماء قليلا أنيسه      يحاذرن عمروا صاحب القترات (٣)  
تلت الحصى لتابسم رزينة      موازن لا كترم ولا معرات (٤)  
ويرخين أذناها كأن فروعها      عرى خلل مشهورة ضفرات (٥)

(١) العنيف الذى لا يترفق . والضرائر جمع ضرة اشاره الى ان الاتن كلها أنثياته وأنه مؤمر عليهن والفاحش المتجاوز القدر . والشتيم الكريه الوجه والشتيم الأسد العابس . والذلق الحد والزج الحديدية التى فى أسفل الرمح . والذمر الزجر والحض ، وذمر الأسد زأر .

(٢) البهمى نبت . الجعدة الندية . الحبشية الشديدة الخضرة تضرب الى السواد لنعمتها وقال أبو على الحبشية الكثيرة الملتفة . السبرات جمع سبرة وهى الغداة الباردة . يريد أنهن ينتجن أفضل المراعى ويشربن أحسن الماء فى الغداة الباردة .

(٣) القترات جمع قتره وهى ناموس الصائد أو ما يبينه كالبيت ليستتر فيه عن الصيد لئلا ينفر منه . وعمرو هو عمرو بن الشيخ وكان من أرمى العرب وهو من بنى نعل من طيء . يقول ان العير أبعدهن للورد حتى أوردها أرضا لا أنيس بها مخافة هذا الصائد .

(٤) يلت يدق ويخلط بعضه بعضا . والسمر الحوافر . ورزينة ثقال لا عيب فيهن . موازن صلاب . كترم قصار . الأمر من الحافر الشعر الذى يسبغ عليه من مقدم الرسغ لأنه متهىء لذلك فاذا ذهب ذلك الشعر قيل معر الحافر معرا ، والمعر متحركة سقوط الشعر فى الحافر أو الرأس أو الذنب وغيرها وهذا عيب . يريد أن شعرها لم يمرط أى لم ينتف عنها .

(٥) يرخين يسبلن عرى جمع عروة . والخلل جمع خلة وهى جفن السيف المغشى بالأدم وقيل بطانة يفشى بها جفن السيف . والخلة كل جلدة منقوشة . مشهورة : قال الجوهري الشهرة وضوح الأمر وقد شهره فاشتهر قال :

احب هبوط الواديين وانى      لمشتهر بالواديين غريب

وقول ذى الرمة :

وقد لاح للسارى الذى كمل انسى      على أخريات الليل فتق مشهر

أى صبح مشهور . وضفرات مفتولات وتقدير البيت فى رأى الوزير أبى بكر كأن أذناها هذه الحمر حمائل بجفون السيوف المنقوشة وشبه الألوان فى الشعر بنقوش الحمائل .



هذه الأبيات في قوة التصوير وقوة العاطفة وقوة النغم والتطريب  
لا تقل من الناحية الفنية — ان لم تزد — عن أية قصيدة أخرى من  
نفس القافية والروى مهما جل موضوعها •

وما على القارئ الا أن يوازن بينها وبين قصيدة حافظ الشهيرة  
في رثاء الامام :

سلام على الاسلام بعد محمد      سلام على أيامه النضرات  
وقصيدة شوقي في حج عباس :  
الى عرفات الله يا ابن محمد      عليك سلام الله في عرفات  
والتي يقول فيها :

لك الدين يارب الحجيج جمعتهم  
أرى الناس أصنافا ومن كل بقعة  
تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت  
عنت لك في التراب المقدس جبهة  
منورة كالبدر شماء كالسها  
ليت طهور الساح والعرضات  
اليك انتهوا من غربة وشتات  
لديك ولا الأقدار مختلفات  
يدين لها العاتى من الجبهات  
وتخفص في حق وعند صلاة

نقول هذا اشعر كله سواء من ناحية الفن والمهم أن تكون عند  
الناقد أو القارئ حاسة فنية ، ولكن هذه الحاسة تكاد تكون معدومة  
عند مشايخ النقد وجمهور الأدباء منذ العصور الاسلامية الأولى  
وخصوصا منذ أواخر العصر العباسي ، وهذا هو اسر في أن امرأ القيس  
ظل مجهولا الى اليوم ، ولم يشتهر له الا معلقته وبعض الأبيات  
والاسعارات • وقد استطرفوا مثلا قول شاعرنا ( قفا نيك ) فقالوا انه  
أول من بكى واستبكى ولكنهم لم يستطرفوا أو لم يتذوقوا تحديد  
أماكن الأحباب ( بين الدخول فحومل ) ذلك التحديد الذي كان فتحا في  
الشعر ، واستطرفوا قوله في فرس الصيد ( قيد الأوابد ) ولكنهم أغفلوا  
الصيد نفسه وتصوير الحيوان ومعاشه وقد كان لامرئ القيس فيهما  
فتوح وروائع •



وقال أيضا يصف الحمر :

- آذلك أم جون يطارد آتسا  
طواه اضطمار الشد فالبطن شازب  
بحاجبه كدح من الضرب جالب  
كأن سراته وجدة ظهره  
ويأكلن من قو لعاغا ور بة  
تطير عفاء من نسيل كأنه
- حملن فأدنى حملهن دروص (١)  
معالى الى المتنين فهو خميص (٢)  
وحاركة من الكدام حصيص (٣)  
كنائن يجرى فوقهن دليص (٤)  
تجبر بعد الأكل فهو نميص (٥)  
سدوس أطارته الرياح وخوص (٦)

( ١ ) الجون الأبيض و - الأسود يريد به هنا حمار الوحش . والآتن الحمر . والدروص الأجنة .

( ٢ ) شد الرجل شدا عدا « لا يقطع الوادى الا شدا » أى عدوا . وشد على العدو شدا حمل عليه يقال « شدوا عليهم شدة صادقة » ، يقول ان هذا الحمار ضممه الجرى والحمل على الآتن ومطاردها . شازب مرتفع . الخميص الضامر .

( ٣ ) الكدح اثر الضرب . جالب لم يبرا بعد والحارك أعلى الكاهل . والكدام العض . حصيص منحول الشعر .

( ٤ ) سراته : أعلى ظهره . والجدة الطريقة و - العلامة و - الخطة فى ظهر الحمار تخالف لونه . الكنائن جمع كنانة من أكن الشىء بمعنى ستره والكنانة جمعة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها . والدليص ذهب له بريق .

( ٥ ) قو اسم مكان . واللعاغ نبت ناعم فى أول ما يبدو الواحدة لعاعة ومنه « أنما الدنيا ساعة ومتاعها لعاعة » أى قليل البقاء كالنبت الأخضر . والربة نبات وقيل شجرة الخروب . تجبر النبت : نبت بعد الأكل و - الشجر : أخضر وأورق . نميص : أنمص النبت طلع بعد أن أكلته الماشية . والنميص أول ما يبدو من النبات فينتفه وقيل هو ما أمكنك جزه وقيل وهو نمص محرقة أول ما ينبت فمياً فم الأكل ، وتنمصت البهم رعته . . . وقول امرىء القيس ( ويأكلن . . ) يصف نباتا قد رعته الماشية فجردته ثم نبت بقدر ما يمكن أخذه أى بقدر ما ينتف ويجز ، والنميص النبت الذى قد اكل ثم نبت .

( ٦ ) العفاء بفتح العين التراب وقال أبو عبيد العفاء الدروس والهلاك والعفاء أيضا بالكسر وبر البعير و - الشعر الطويل الوافى . نسيل من نسل الصوف والريش نسولا : انتفش وسقط . والنسيل ما يسقط من الريش والصوف . السدوس النيلج ( الطيلسان الأخضر ) . والخوص ورق النخل .



تضيقها حتى اذا لم يسع له  
يفالين فيها الجزء لولا هواجر  
ارنَّ عليها قاربا وانتحت له  
فأوردها من آخر الليل مشربا  
فيشربن أنفاسا وهن خوائف  
فأصدرها تعلو النجاد عشية

نصيَّ بأعلى حائل وقصيص (١)  
جناد بها صرعى لهن نصيص (٢)  
طوالة أرساغ اليدين نحوص (٣)  
بلائق خضرا ماؤهن قليص (٤)  
وترعد منهي الكلى والفريص (٥)  
أقب كمقلاة الوليد خميص (٦)

( ١ ) تضيقه نزل عليه ضيفا وتضييقها يريد نزل بها ضيفا على هذا المكان . النصي نبت سبط من أفضل المراعى ما دام رطبا . القصيص نبت ينبت في أصول الكمأة . حائل بجبال طيء .

( ٢ ) الجزء من جزات الأبل بالرطب عن الماء جزءا بالصم اكتفت . يغالين ليس معناه يشربن لبن الغيل ، غلاه من مادة ( غلو ) بمعنى سامه وغالى انسهم : رمى به أبعد ما يقدر عليه . الجندب الصغير من الجراد . صرعى هلكى . والنصيص : نص الشواء نصييصا : صوت على النار . يقول ان الأتن كان في مقدورها أكل النبات الرطب والاكْتفاء به عن الماء ولكنها لا تستطيع مقاومة الحر الذى بلغت من شدته أنه يهلك الجندب ويُسويها نسيا في ناره ، وهذا الحر يزيد من ظمئها فلا تحتمله . .

( ٣ ) أرن عليها صوت عليها . القارب طالب الماء ليلا يريد صوت غليها للذهاب فى طلب الماء . انتحت له عرضت وجدت . النحوص الأتان التى لا ولد لها و - الناقاة الشديدة السمن التى منعها السمن من الحمل .

( ٤ ) قليص مرتفع ، البلائق : البلوقة بتشديد اللام ما استوى من الأرض وقيل الأرض الواسعة المخصبة وقيل البلوقة مكان فسيح من الأرض بسيطة تنبت الرخامى . ج بلاليق ، وقال عمارة فى الجمع ( فوردت من أيمن البلائق ) ولعل امرأ القيس يريد بلاللق لا بلائق ؟ .

( ٥ ) يشربن أنفاسا ، نفسا بعد نفس أى مرة بعد مرة لشدة خوفهن وارتعاد فرائصهن من الصائد .

( ٦ ) النجاد المرتفعات من الأرض . أقب : دقيق الخصر ضامر البطن . مقلاء الوليد : جاء فى اللسان غن ابن سيدة القلة بضم القاف عود يجعل فى وسطه جبل ثم يدفن ويجعل للحبل كفة فيها عيدان فاذا وطى: الطبى عليها عضت على اطراف أكارعه والمقلى كالقلة والقلة كالمقلى والمقلاء عودان يلعب بهما الصبيان فالمقلى العود الكبير الذى يضرب به والقلة الخشبية التى تنصب وهى قدر ذراع ، قال الأزهرى والقانى الذى يلعب فيضرب القلة بالمقلى ، قال ابن برى شاهد المقلاء قول امرئ القيس . .



فجحش على آثارهن مخلف  
وأصدرها بادي النواجذ قارح  
وقال من قصيدة أخرى :

بمُجفَرةَ حرف كأن قتمدها  
يفرد بالأسحار في كل سَدفة  
أقبَّ رِبَاعٍ من حمير عَمَاية  
يمج لعاع البقل في كل مشرب<sup>(٥)</sup>  
على أبلق الكشحين ليس بمُغرب<sup>(٣)</sup>  
تَغَرُّد مياح الندامي المطرَّب<sup>(٤)</sup>

(١) الجحش ولد الحمار ، مخلف لأنه لم يقو على متابعتهم في الجرى وطلوع النجاد . ووقيص دقت عنقه فهو هالك . والمكروه الشر او الأمر الذي أكرهن عليه من شدة الجرى والتصعيد في النجاد نجاة من الصائد .

(٢) النواجذ أقصى الأضراس . القارح من ذى الحافر الذى شق نابه وطلع وهو بمنزلة البازل من الابل . ككر الاندرى كرجع الحبل الغليظ . محيص شديد الخلق مدمج . الاندرى : الحبل الغليظ كتوله ( كانه اندرى مسه بلل ) .

(٣) المجفرة المنتفخة والحرف الضامرة وانما سميت حرفا لأنها شبهت في صلابتها بحرف الجبل . والقناد أداة الرحل والكشح الخاصة . والمغرب الأبيض الأشفار والوجه . يقول ليس بلقه باغراب والاغراب ان ينسلخ جلد الحمار الوحشى بياضا حتى تحمر ارفاغه وحما ليقه . يشبه ناقتة بالثور على عادته .

(٤) السدفة تأتي بمعنى الضوء وبمعنى الظلمة وأغلب الظن أنها آخر ظلمة الليل المضيئة أو أول الصبح المظلم . مياح : ماح الغلام بميح مياحا مشى يتبختر وهو ينظر في ظله وماح الرجل مشى مشية البطة وميح ( بتشديد الياء ) الفصن والسكران تمييحا : تمايل . الندامي جمع ندمان وهو المنادم على الشرب . طرب بالتشديد تغنى و - فى صوته رجعه ومدده رحسنه قال امرؤ القيس فى بيت آخر ( كما طرب الطائر المسنحر ) .

(٥) أقب خميص البطن . وهو أسرع له . ورباع من السن . عماية جبل بناحية نجد وحمرة أشد الحمرة عدوة . يمج يطرح ومج الشراب من فيه اذا رمى به . ولعاع البقل خضرته . قال الوزير أبو بكر . يقول يرمى خضرة البقل فى الماء اذا شربه وانما يريد أنه فى الربيع فهو أقوى له وأنشط انتهى . والواقع أن الشاعر لا يقصد هنا الاشارة الى الربيع والى نشاط الحمار ولكنه يصور حالة من حالاته فى الربيع .



بمحنة قد آزر الضال نبتها مجرّ جيوش غانمين وخيب<sup>(١)</sup>  
تكلنا من قبل في دراستنا عن امرىء القيس عن نزعة المصور عنده ،  
وفي القطع الثلاث المتقدمة صور شاعرنا الحمار الوحشى وهو وحده  
يغرد بالأسحار أو وهو مع جماعة الأتن يزعم عليها ويسوقها الى موارد  
الماء ومنابت الكلا • وفي كل بيت صورة وفي كل صورة تفاصيل رائعة •  
ومعظم صوره تنتظمها العاطفة الانسانية • ومن اللمحات الانسانية  
العالية قوله :

بمحنة قد آزر الضال نبتها مجرّ جيوش غانمين وخيب  
هذه اللمحات هي أضواء العبقريّة في لوح الشعر •  
قال يصف أحد رماة بنى نعل وهم من أشهر الرماة والقناصين :  
رب رام من بنى نعل مثلج كفيه في قتره<sup>(٢)</sup>  
عارض زوراء من نشم غير باناة على وتره<sup>(٣)</sup>

( ١ ) المحنة حيث ينحنى الوادى وهو أخصب موقع فيه • والضال  
شجر • وآزر قال أبو بكر ساوى وجاء فى اللسان آزر الشىء الشىء ساواه  
وحاذاه وذكر البيت : وقال فى شرحه أى ساوى نبتها الضال وهو انسدر  
البرى • ولعل المقصود هنا حاذاه واحاط به يقال تآزر الزرع قوى بعضه  
بعضا فالتف وتلاحق واشتد • وآزر به الشىء احاط عن ابن الأعرابى من  
الازار وهو الملحفة وآزره أعانه •  
( ٢ ) مثلج مدخل • والقتر بيت الصائد الذى يكمن فيه لئلا يراه  
الوحش فينفر منه •

( ٣ ) الزوراء القوس • نشم شجر تعمل منه القسى يقال معه زوراء  
من نشم • البائن والبائنة من القسى التى بانّت من وترها وهى ضد البانية  
الا أنها عيب والباناة مقلوبة عن البانية • الجوهري البانئة القوس التى بانّت  
عن وترها كثيرا وأما التى قد قربت من وترها حتى كادت تلتصق به فهى  
البانية بتقديم النون قال وكلاهما عيب • وقال الخطاب ، رواية الوزير  
أبى بكر ، يقال رجل باناة وهو الذى ينحنى صلبه اذا رمى فيذهب سهمه  
على وجه الأرض وذلك عيب فيقول أى غير منحن على الوتر عند الرمي  
وعلى ههنا فى موضعها • وأنشد أبو حاتم ( وما كنت باناة على القوس  
أخضعا ) فنفى عن نفسه أن ينحنى على القوس ويخضع وعلى هذا التفسير  
يكون من نعت رام فيخفف على النعت وينصب على الحال من الضمير فى  
عارض ، وعلى التفسير الأول يكون نعتا للزوراء •



قد أتته الوحش ورادة  
 فنحى النزاع في يسره (١)  
 فرماها في فرائصها  
 بازاء الحوض أو عقره (٢)  
 برهيش من كناتته  
 كتلظى الجمر في شرره (٣)  
 راشه من ريش ناهضة  
 ثم أمهاه على حجره (٤)  
 فهو لا تنمي رميته  
 ماله لا عد من نفره (٥)  
 مطعم للصيد ليس له  
 غيرها كسب على كبره (٦)

( ١ ) تنحى تحرف وهو الرامي وتنحى اعتمد . اليسرة بالفتح ما بين أسارير الوجه والراحة . التهذيب واليسرة تكون في اليمنى واليسرى وهو حظ يكون في الراحة يقطع الخطوط التي في الراحة كأنها الصليب . الليث اليسرة فرجة ما بين الأسرة من أسرار الراحة يتيمن بها وهي من علامات السخاء . الجوهرى اليسرة بالتحريك أسرار الكف اذا كانت غير ملتزمة وهي تستحب قال شمر ويقال في فلان يسر وأنشد . فتمتى النزاع في يسره قال هكذا روى عن الأصمعي قال وفسره حيال وجهه .

( ٢ ) الفرائص جمع فريضة وهو موضع في جنب الحمار يتحرك عند عضده اذا هتك هجم على القلب . العقر بسكون القاف مؤخر الحوض حيث تقف الابل اذا وردت وقيل مقام الثياب منه و « انما يهدم الحوض من عقره » أى ما يؤتى الأمر الا من وجهه . والازاء مصب الماء فى الحوض . جلس ازاء وبازائه أى مقابله .

( ٣ ) الرهيش سهم ضامر . والكنانة الجعبة . والتلظى التوقد يريد برهيش ( يتلظى ) كتلظى الجمر فى شرره ومثل هذا قوله أن على حقب حيال طروقه كذود الأجير ) أى ( وذاها ) كذود الأجير . . والتصل يتوقد لأنه أرهف وصقل .

( ٤ ) الناهض الذى وفر جناحه ونهض للطيران والهاء فى ناهضة للمبالغة أر لأنه أراد الأنثى ، والصقره الأنثى تربي الصقر حتى يطير ويخلى الوكر وخص ريش النواهض لأن ريشها ألين وأطول . أمهاه أرقه واحده .

( ٥ ) لا تنمي أى لا تغيب عنه رميته اذا رماها يريد أنها تصيب . ما له لا عد من نفره دعاء عليه بالموت ولم يرد حقيقته اذا اعد أهله لم يعد معهم بل هو على جهة التعجب كما تقول قاتلك الله .

( ٦ ) المطعم . المرزوق فى الصيد المحدود الذى لا يكاد يخطىء اذ رمى . ويقال قوس مطعمة اذا كان سهمها لا يخطىء ، أى ليس له حرفة غير الرماية وانصيد يتعيش منها على كبر سنه



وفي قوله :

مطعم للصيد ليس له غيرها كسب على كبره  
لفتة الى الحياة وضربة على وترها الحساس تهز نياط القلب •  
وقد كان امرؤ القيس مولعا بالصيد فوصفه وصف خبير • ذكرنا  
له من قبل في الجزء الأول من الشوامخ أبياته السينية التي قال فيها :  
كأني ورحلى فوق أحقب قارح بشرية أو طاو بعرنان موجس  
تعشى قليلا ثم أنحى ظلوفه يثير التراب عن مبيت ومكنس  
يهيل ويذرى تربها ويثيره اثاره نبات الهواجر مخمس  
فبات على خد أحم ومنكب وضجعته مثل الأسير المكرس  
وبات الى أرطاة حقف كأنها اذا ألقته غيبة بيت معرس  
فصبحه عند الشروق غديّة كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنبس  
وقال في بائته :

وقد اغتدى قبل الشروع بـ ابح أقب كيغفور الفلاة مجنّب (١)  
اذا ما ركينا قال ولدان أجلنا تعالوا الى أن يأتي الصيد نجطب (٢)  
فيوما على سرب نقى جلوده ويوما على بيدانة أم تولب (٣)  
ويخضد في الآرى حتى كأنما به عرّة أو طائف غير معتب (٤)

(١) بسابح : بفرس . انب : ضامر . يعفور الفلاة : حمار الوحش .  
والتجنّب : انحناء وتوتير • والمجنّب في قوله :

جنوح تباريها ظلال كأنها مع الركب حقان النعام المجنب  
بمعنى المجنوب أى المقود ، يقال جنب فلان مجهولا وذلك اذا ما جنب  
الى دابة ، والجنيبة الدابة تقاد ، وكل طائف منقاد جنيب .  
(٢) تحطب تجمع الحطب للشواء .

(٣) السرب قطع من بقر الوحش • والنقى الجلود • البيض والبيدانة  
الحمارة • والتولب : ولدها .

(٤) خضد العود : كسره ولم يبين و - الشيء : قطعة • الآرى آريت  
الدابة الى الدابة ايراء : ضممتها اليها وجعلتها تألف معها معلقا واحدا •  
والآرى محبس الدابة و - حبل تشد به في محبسها • العرّة : داء الجرب •  
أعقب فلانا الطائف : كان الجنون يعاوده في أوقات ، وقد ذكر اللسان بيت  
امرئ القيس في هذا الموضع مع أن الشاعر يقول غير معتب • ولعل الشاعر  
يريد أن الجنون اصابه وأن تقطيع الأواخي دليل على أن الفرس يحرق  
للانطلاق والجري وراء الصيد .



خرجنا نريغ الوحش حول ثعالة  
فأنست سربا من بعيد كأنه  
فكان تنادينا وعقد عذاره  
فلايا بلاى ما حملنا غلامنا  
فققى على آثارهن بحاصب  
وولى كشؤبوب العشى بوابل  
فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه  
وبين رحيات الى فيج أخرب (١)  
رواهب عيد في ملاء مهذب (٢)  
وقال صحابي قد شأونك فاطلب (٣)  
على ظهر محبوبك السراة محنب (٤)  
وغبية شؤبوب من الشد ملهب (٥)  
ويخرجن من جعد ثراه مننصب (٦)  
تمر كخذروف الوليد المثقب (٧)

(١) ثعالة اسم مكان • نريغ : نريد ونطلب • رحيات اسم مكان أيضا •  
والفيج : الطريق • وأخرب : موضع في أرض بني عامر بن صعصعة •  
(٢) آنس الشيء : أبصره ومنه « آنس من جانب الطور نارا » أى أبصر  
و - الصوت : سمعه وأحس به كقوله :

آنست نناة وأفطرها القذ  
اص عصرا وقد دنا الامساء  
السرب : القطع من بقر الوحش • الملاء المهذب ذو الذبول الطويلة •  
(٣) تنادينا • نداء بعضنا بعضا • شأونك • سبقتك • والعذار ما سال  
بن اللجام على خد الفرس •

(٤) اللأى : اللبث ، وقال القتيبي في قوله ( فلايا بلاى ما حملنا غلامنا )  
أى جهدا بعد جهد قدرنا على حمله على الفرس وما زائدة وليست للنفى •  
محبوك السراة : مجدول الظهر ، محنب : مقوس ، كمجنب •

(٥) الحاصب : ريح شديدة تحمل التراب والحصباء ، وقمل هو  
ما ننائر من دقاق الثلج والبرد ، وفي القرآن ( انا أنزلنا عليهم حاصبا )  
و - السحاب لأنه يرمى بالثلج والبرد • والغبية : الدفعة الشديدة من المطر •  
أشد شدة الجرى والحمل • وملهب ليس معناه « تسوق بالسوط » انما  
يريد الشاعر أن الفرس متقد في جريه وهيجانه ، يقال الهب الفرس ( بضم  
السين ) : اجتهد في عدوه حتى أثار الغبار ، وألهبه للأمر • هيجه له •

(٦) تراب جعد : ند • قال القتيبي الجعد الغبار والمنصب الذى قد  
انتصب على كل شيء وغطاه مثل الدخان • قال طفيل :  
تراهن من تحت الغبار نواصلا  
ويخرجن من جعد الثرى مننصب  
فقوله نواصلا خوارجا ، والجعد الشديد الندوة ، والمننصب الغبار  
يعنى أن الثرى قد ارتفع وانتصب وانما ذلك لشدة وقع حوافرهن يثرن  
ما لا يكاد يثار •

(٧) الشأو : اطلق • والخذروف الدوارة بتشديد الواو التى تنعب  
بها الصبيان فيقول ان هذا الفرس أدرك طريدته بدون مشقة •



ترى الفأر في مستنقع القاع لاحبا  
 خفاهن من أنفاقهن كأنما  
 وعادى عداء بين ثور ونعجة  
 وظل لصيران الصريم غماغم  
 فكاب على حر الجبين ومتق  
 على جدّد الصحراء من شد ملهب<sup>(١)</sup>  
 خفاهن ودق من عشى مجكّب<sup>(٢)</sup>  
 وبين شَبوب كالقضيمة قرهب<sup>(٣)</sup>  
 يداعسها بالسمهري المعب<sup>(٤)</sup>  
 بمدريّة كأنها ذلق مشعب<sup>(٥)</sup>

(١) القاع : أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .  
 واللاحب الظاهر . الجدد ما استرق من الرمل و - الأرض الغليظة المستوية  
 ومنه المثل « من سلك الجدد أمن العثار » . يقول وقع حوافره على الأرض  
 بقوة واطراد أخرج الفأر من جحرتها لأنه ظنه مطرا .

(٢) خفاهن : أخرجهن وأظهرهن . والأنفاق جمع نفق وهو الجحر .  
 والودق المطر . والمجلب الذئ له جلبة يريد الرعد .

(٣) العداء الموالاة بين الشيتتين . والشبوب والشيبب الثور الفتى .  
 والقضيمة الصحيفة البيضاء والقرهب الكبير من الثيران الضخم ، وقيل  
 المسن من كل دابة ومن الوعول .

(٤) الصريم رمل منقطع عن الرمال . غماغم : غمغم الكلام : لم يبينه  
 و - الثيران : صانت عند الذعر و - الأبطال : صاتوا عند القتال . يداعسها  
 يطأئنها . السمهري الرمح . والمعب المشدود بالعلناء وهي عصبة تسد  
 على العصا اذا خافوا أن تنكسر .

(٥) الكابي العائر الساقط . والمدريّة القرن . والذلق الحد . والمشعب  
 مخرز يشعب به النعال . وحر الجبين قال الوزير أبو بدر : ما بدا من الجبين  
 وكذلك حر الوجه ما بدا من الوجه . (الواقع أن شاعرية امرئ القيس  
 وشاطفته العالية تريدان شيئاً آخر : الحر الكريم ، قال الشاعر :

تمسك ان ظفرت بود حر فان الحر في الدنيا قليل

والحر : خيار كل شيء ومنه « وحر الفاكة خيارها » والحر : الفرس  
 العتيق الأصيل يقال « فرس حر » والحر من الطين والرمل : الطيب ، ( طين  
 حر ) لا رمل فيه ، ورملة حرة لا طين فيها وفي الأساس طيبة النبات و ( حر  
 الدار ) وسطها يقدر نزل في حر الدار أي في وسطها . وحر كل أرض وسطها  
 وطيبها . والحر من الوجه ما بدا من الوجنة يقال « لطم حر وجهه »  
 وقال الشاعر :

حلا الحزن عن حر الوجوه فأسفرت ركانت عليها هبوة لا تبلج



ففتنا الى بيت بعلياء مردح  
 وقلنا لفتيان كرام ألا انزلوا  
 فلما دخلناه أضفنا ظهورنا  
 فظل لنا يوم لذيذ بنعمة  
 كأن عيون الوحش حول خباتنا  
 سماوته من أتحمى معصب (١)  
 فعاله اعلنا فضل ثوب مطنب (٢)  
 الى كل حارى جديد مشطب (٣)  
 فقل فى مئيل نحسه متغيب (٤)  
 وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب (٥)

(١) فتنا رجعنا . مردح واسع . سماوته أعلاه . الأتحمى ضرب من البرود تنسج ببلاد العرب . العصب بالسكون ضرب من برود اليمن سمي عصبا لأن غزله يعصب أى يدرج ثم يصبغ ثم يحاك وقيل برود يمنية يعصب غزلها أى يجمع ويشد ثم يصنع وينسج فيأتى موشيا لبقاء ما نسج منه أبيض لم يأخذه صبغ ، وقيل هى برود مخططة . والعصب الفتل والعصاب بالتشديد الغزال . ويقال للرجل الذى قد سوده تومه قد عصبوه ( بالتشديد ) فهو معصب . مأخوذ من العصابة وهى العمامة ، وكانت التيجان للملوك والعمائم الحمر للسادة من العرب ، وكان يحمل الى البادية من هواة عمائم حمر يلبسها اشراقهم قال عمرو بن كلثوم :

وسيد معشر قد عصبوه بتاج الملك يحمى المحجرينا  
 فجعل الملك معصبا أيضا لأن التاج أحاط برأسه كالعصابة التى عصبت برأس لابسها .

(٢) فعالوا . فارفعوا . مطنب ذو اطناب والاطناب جبال أوتاد الخباء . يتول أمرنا الفتية بالنزول يرفعوا علينا من الثياب ما نستظل به من الشمس ، وهى طريقة العرب فى الصحراء فى ارتجال بيت أو مظلة تقيهم من الشمس . والبيت الثانى لم نذكره فى المتن يفسر هذا البيت :

وأوتاده مازية وعماده ردينية فيها أسنة قعضب المازية : الدروع البيض . العماد جمع عمد وهى خشب الخباء . الردينية الرماح . السنان حديد الرمح . قعضب رجل كان فى الجاهلية يصنع الرماح وذلك أنهم كانوا اذا نزلوا بمكان ليس فيه بناء عمدوا الى رماحهم فنصبوها وجعلوا عليها ثوبا وربطوا أسفل الثوب فى دروعهم . (٣) أضفنا ظهورنا أسندناها . الحارى . نسبة الى الحيرة : الرحال المصنوع بالحيرة . المشطب المخطط .

(٤) فى مئيل نحسه متغيب متغيب نحسه . ومئيل ثم نهتد الى معنى لها ولعلها مئيل بكسر الميم وفتح الياء جمع ميلة وهى الحين والزمان فيكون البيت ( فقل فى مئيل نحسها متغيب ) أى فقل فى زمان متغيب نحسه . (٥) قال الوزير أبو بكر : عيون الوحش والظباء والبقر سود فكيف شبهها بالجزع وهو أسود يخالطه بياض وإنما ذلك لأن الوحش اذا كانت حية كانت عيونها سودا واذا ماتت ظهر ما كان يخفى من بياضها فتصير سودا وفيها بياض فتكون مثل الجزع .



ورحنا كأننا من جوائى عشية  
نمش بأعراف الجياد أكننا  
الى أن تروحننا بلا متعتب  
وراح كئيس الربل ينغض رأسه  
حبيب الى الأصحاب غير ملعن  
فيوما على بقع دقاق صدوره

نعالى النعاج بين عدل ومحقب (١)  
اذا نحن قمنا عن شواء مضهب (٢)  
عليه كسيد الردهة المتأوب (٣)  
أذاة به من صائك متحلب (٤)  
يفدونه بالأمهات وبالأب (٥)  
ويوما على سقع المدافع ربرب (٦)

(١) جوائى قرية بالبحرين وهو موضع يمتار منه التمر يقول ان  
اعدالنا وحقائبنا قد امتلات بما صدناه كما تمتلىء اعدال وحقائب الرائجين  
من جوائى والعدل نصف الحمل و - الفرارة أى الجوالق . والمحقب  
والحقيبة ما يحمل خلف الراكب . نعالى النعاج : نرفعها .

(٢) نمش : نمسح ، مش يده مسحها بشيء لتنظيفها وقطع دسمها  
والعرف بضم العين والراء : شعر عنق الفرس . المضهب : ضهبة بالتشديد:  
شواء على حجارة محماة وقيل شواء ولم يبالغ فى نضجه .

(٣) تروحننا : رجعنا الى منازلنا . بلا متعتب : لم يعمل أحدنا  
شيئا يستوجب العتب . السيد : الذئب . الردهة : النقرة فى الجبل أو فى  
صخرة يستنقع فيها الماء ، روى ابن برى ، عسلان ذئب الردهة المستورد ،  
ابن سيدة والردهة أيضا حفرة فى القف تحفر أو تكون خلقة . وقيل  
الردهة المورد . المتأوب من تأوب : رجع و - الماء : ورده ليلا . يقول اننا  
رجعنا الى منازلنا فى مضاء واهتزاز رجوع الذئب الى بيته أو رجوع الذئب  
المستورد ليلا الى مستنقع الماء العذب فى الجبل .

(٤) وراح يريد الجواد . تيس الربل التيس الذى أكل من الربل  
والربل شجر أو نبات شديد الحُضرة . وتربل بمعنى تصيد ومنه « خرجوا  
يتربلون » أى يتصيدون . وتربلت الأرض اخضرت بعد اليبس . وتربل  
الظبي أكل الربل . والتيس الذكر من الظباء والمعز والوعول . أنغض فلان  
رأسه : حركه كالمتعجب من الشيء . أذاة تأذيا . الصائك المتحلب : العرق  
السائل الذى يلصق به ، تحلب العرق : سال .

(٥) حبيب الى الأصحاب أى محبب اليهم فهم يفدونه بكل عزيز  
عليهم .

(٦) بقع دقاق صدوره يريد الظباء التى يغلب عليها فى اختلاف  
اللون البياض والصفرة . سقع : سود . المدافع لعلها هنا الأسافل .  
والربرب القطيع من بقر الوحش . يريد أنه يوما يصيد الظباء ويوما يصيد  
البقر . ويلاحظ هنا اهتمام امرئ القيس باختلاف اللون وجماله  
فى الحيوان .



كأن دماء الهاديات بنجره  
وقال :  
عصارة حناء بشيب مخضب (١)

وقد اغتدى قبل العطاس بهيكل  
بعثنا ربيئا قبل ذاك مخملا  
فظل كمثل الخشف يرفع رأسه  
وجاء خفيا يسفن الأرض بطنه  
وقال ألا هذا صوار وعانة  
فقمنا بأشلاء اللجام ولم نقد  
شديد مشك الجنب فعم المنطق (٢)  
كذئب الغضى يمشى الضراء وبتقى (٣)  
وسائرهم مثل التراب المدقق (٤)  
ترى الترب منه لاصقا كل ملصق (٥)  
وخيط نعام يرتعى متفرق (٦)  
الى غصن بان ناخر لم يحرق (٧)

(١) الهاديات متقدمات الوحش التي يصيدها الفرس .

(٢) العطاس الصبح . بهيكل : بفرس كالهيكل المبني . فعم المنطق  
ممتلىء مكان النطاق . المشك الدرع . مايشك به . يقال منبر مشكوك  
أى مشدود .

(٣) الربىء والربيئة الطليعة والرقيب . مخملا : كلمة من استعمال  
امرئ القيس بمعنى متسترا بأرض الحميلة : الحامل الحفى الساقط ومنه  
خامل الذكر والصوت ، والقول الحامل الحفيض ، وفى الحديث اذكروا الله  
ذكرا خاملا أى خفضوا الصوت والحميلة المنهبط الغامض من الرمل ، والحميلة  
الشجر الكثير الملتف وقيل كل موضع كثر فيه الشجر حيثما كان قال  
زهير يصف بقرة ( وتنفض عنها غيب كل خميلة ) والحميلة الأرض السهلة  
التي تنبت شبه نباتها بخمل الوظيفة ولا تكون الحميلة الا فى وطىء من  
الأرض . الغضا شجر عظيم من الأثل وذئب الغضا مثل فى الحث والاعتيال  
الضراء الاستخفاء . هو يمشى الضراء اذا مشى مستخفيا فيما يوازيه  
من الشجر . والضراء أيضا الشجر الملتف فى الوادى وقيل أرض مستوية  
تأويها السباع وبها نبت من الشجر .

(٤) الخشف ولد الظبى أول ما يولد وقيل هو خشف أول مشيه .  
يقول ان الرقيب كان يزحف على الأرض بأربعته .

(٥) يسفن : سفن الشيء سفنا : قشره ، وسفنت الريح : هبت على وجه  
الأرض .

(٦) الصوار بالضم ويكسر : القطيع من البقر . والعانة : القطيع من  
الحمر الوحشية . والحيط الجماعة من النعام . وارتعى مثل رعى .

(٧) أشلاء اللجام : سيوره وقيل التي تقادمت فدق حديدها . يقول  
لم نضع اللجام من الفرس فى عنق كأنه غصن البان البالى المعد للحرق :  
يريد أن هذا العنق كان كغصن البان الناعم فى ملاسته واستوائه وحسنه .



نزاوله حتى حملنا غلامنا  
 كأن غلامى اذ علا حال متنه  
 رأى أرنبا فانقض يهوى أمامه  
 فقلت له صوب ولا تجهده  
 فأدبرن كالجزع المفصل بينه  
 على ظهر ساط كالصليف المعرق (١)  
 على ظهر باز فى السماء محلق (٢)  
 اليها وجلاها بطرف ملقلق (٣)  
 فيذلق من أعلى القطة فتزلق (٤)  
 بجيد الغلام ذى القمص المطوق (٥)

(١) زاوله : عالجته و - حاوله . الساطى . الفرس البعيد الخطو و -  
 الذى يرفع ذنبه فى حضره ، قال الخليل بسمى الفرس ساطيا لأنه يسطو  
 على سائر الخيل فيقوم على رجليه ويرفع يديه . الصليف : الأصلف  
 والصلفاء الصلب من الأرض فيه حجارة ، والصليف نعت للذكر والصليفان  
 عودان يعرضان على الغبيط تشد بهما المحامل ومنه قول الشاعر : أقب كأن  
 هاديه الصليف ، أى ضامر البطن دقيق الخصر كأن عنقه الصليف . وفى  
 الصحاح معروق العظام ومعرق قليل اللحم وكذلك الحد . وفرس معروق  
 ومعترق اذا لم يكن على قصبه لحم ويستحب من الفرس ان يكون معروق  
 الحدين . قال امرؤ القيس :

قد أشهد الغارة الشعواء تحمئني جرداء معروقة اللحين سرحوب  
 ويروى معروقة الجنين ، واذا عرى لحياها من اللحم فهو من علامات  
 عتقها . وفرس معرق اذا كان مضمر ( بالتشديد ) يقال عرق فرسك  
 تعريقا أى أجره حتى يعرق ويضمهر ويذهب رهل لحمه .

(٢) حال متن الفرس : وسط ظهره موضع اللبد ( السرج ) .

(٣) جلى ببصره : رمى به كما ينظر الصقر الى الصيد قال لبيد :

فانتضلنا وابن سلمى قاعد كعتيق الطير يغضى ويجل  
 أى ويجلى فحذف الياء كما فى نحو اذا بلغت الروح التراق أو التراقى .  
 وطرف ملقلق أى حديد لا يقر بمكانه .

(٤) صوب الفرس : أرسله فى الجرى . والقطة : مقعد الرديف  
 من الدابة تقول « ركبت قطة الفرس » . يذلق ولعلها يزلق فتزلق أى يزل  
 فتزل أى تقع .

(٥) هذا البيت كبيت القطعة التالية :

فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم فى العشيرة مخول  
 الجزع خرز فيه سواء وبياض وكذلك البقر هى بيض الأوساط سود الأطراف  
 واراد متفرقات كالجزع الذى جعل وسطه فواصل فى قلادة على جيد صبي منعم  
 ذى أعمام وأحوال أو على جيد غلام ذى قميص مطوق . والطوق حلى يجعل  
 فى العنق . ويظهرا أبناء السادات والأشراف من العرب كانوا يلبسون  
 القلادة فى عنقهم .



فأدر كهن ثانيا من عنانه  
فصاد لنا عيرا وثورا وخاضبا  
فظل غلامى يَضْجَعُ الرمح حوله  
وقام طَوالِ الشخْصِ اذ يخضبونه  
فقلنا ألا قد كان صيد لقانص  
وظل صحابى يشتوون بنعمة  
وجاء فى معلقته :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها  
بمنجرد قيد الأوابد هيكل (٧)

( ١ ) ثنى تأتي بمعنى عطف والعنان اللجام تقول ثنيت على الفرس لجامه اذا أجمته • وثنى تأتي بمعنى كف والعنان الشوط : جرى الفرس عنانا اذا جرى شوطا • ثانيا من عنانه يريد أنه ادر كهن غير مجهد أو قبل نهاية الشوط • الأتهب قال ابن الأعرابي « الأتهب الذى فيه حمرة فيها غبرة » قال ويقال هو الأبيض الكدر وأنشد « كغيث العشى الأتهب المتودق ، والمتودق المطر •

( ٢ ) الحاضب الظليم •

( ٣ ) المهابة : البقرة الوحشية • الأحقب حمار الوحش يسمى بذلك لبياض فى حقويه والأنثى حقباء • سهوق طويل الساقين •  
( ٤ ) طوال الشخص يريد الجواد • يخضبونه يطلونه بالدم لأنه هو الذى أدرك الصيد • العزيز المنطق الملك ذو المنطقة والتاج • الفارسى نسبة الى فارس •

( ٥ ) يقول ياله من صيد وياله من قانص • المروق ذو أروقة • خبوا : حبى الحباء تخبية عمله ونصبه •

( ٦ ) يشتوون يتخذون شواء • النعمة بالفتح المرة واسم من التمتع والتمتع • والنعمة بالكسر ما أنعم به عليك من رزق ومال وغيره و - المسرة • الغار شجر ، يريد يصفون خشب الغار وقودا • اللكيك اللحم المكتنز • الموشق المقطع المفرق •

( ٧ ) الوكنات هى الأوكار والأماكن التى تأوى اليها الطير فى رؤوس الجبال والشجر وغيرها • المنجرد الفرس القصير الشعر وهو من صفة عتاق الخيل • الأوابد الوحش ، وقيد الأوابد يريد أنه بسرعته يلحق بالأوابد بمجرد النظر اليها فكانه يقيدها •



فمن لنا سرب كأن نعاجه  
فأدبرن كالجزع المفصل بينه  
فألحقنا بالهاديات ودونه  
فعادى عداء بين ثور ونعجة  
فظل طهاة الحى من بين منضج  
ورحنا وراح الطرف يقصر دونه  
وبات عليه سرجه ولجامه  
قال الناقد. (استدبر) ان جوته « أول شاعر استنبط الشعر من  
« ثر » الحقائق القليلة الشأن ومن طبيعة الحياة نفسها لا من صور

( ١ ) النعاج جمع نعجة وهى البقرة الوحشية . دوار صنم كان فى  
الجاهلية يدورون حوله . الملاء الملاحف واحدها ملاءة . والمذيل المطول  
وقيل الذى له هذب أو أطراف سود . ويبيض الوحش ببيض الظهور سود  
القوائم . قال الوزير أبو بكر معنى البيت أنه شبه البقر فى اجتماعها بجوار  
عذارى حول صنم فى ملاحف وكذلك يصنع البقر عند مفاجأة الصائد لهن  
يلوذ بعضها ببعض ويستدير انتهى . هذا تعسف فى الشرح لأن أمراً  
القيس يصف القطيع حين يعرض من بعد قبل المفاجأة ، ويصف جمال  
النعاج وبزتها ، وهى ساربة فى الأرض جماعات ، بعذارى دوار فى ملاء .  
( ٢ ) سبق شرحه .

( ٣ ) الهاديات طلائع الوحش . والجواحر المتخلفات . والصرة الشدة  
من الكرب والحرب والحر ، والصرة أيضا الجماعة ، والمعنيان يجتمعان هنا .  
لم تزيل أو لم تتزيل أى لم تتفرق ، وفى القرآن ( فزيلها بينهم ) أى ففرقتها  
قال الوزير أبو بكر ومعنى البيت أن الفرس ألحق الغلام بأوائل الوحش  
وبقيت أواخرها لم تتفرق فهى قد خلصت له أوائلها وأواخرها انتهى . ولكن  
البيت لا يحتمل كل هذا التأويل ، لأن الشاعر يصور حالة : يصور سرعة  
الجواد الذى يباغت أوائل الوحش قبل أن تتفرق أواخرها وتفريق من  
كربها وشدتها .

( ٤ ) عادى والى بين صيدين . دارك الفرس الوحش دراكا ومداركة :  
لحقه . فيغسل فيغسل بماء العرق .  
( ٥ ) القدير اللحم المطبوخ فى القدر .  
( ٦ ) يريد أن الطرف يقصر عن التمتع بمراة فلا يكاد يصعد فيه  
حتى يصبو لحسنه التام جوادا وقانصا .



الخيال » وان هذه النزعة الجديدة كانت ثورة كبرى في الأدب لأنها رجعت به الى عهد هوميروس ...

ولا شك انه لو عرف الأوربيون امرأ القيس كما عرفوا هوميروس لقالوا أن الثورة التي أحدثها جوته في الأدب قد رجعت به أيضا الى عهد امرئ القيس . وقد قلنا من قبل أن امرأ القيس وجد مادته في حقائق النثر التي هي مادة الرواية الحديثة ، حقائق تستريح اليها النفس وتنجذب اليها لأنها تؤلف جو الحياة . فاذا تكلم عن الصيد ذكر خروجه سحرا ( وقد اغتدى والطير في وكناتها ) فأتى بصورة رائعة . وقد كان امرؤ القيس يحب الخروج بكرة للقنص أو الغارة مع نفر من أصحابه .

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة فقاموا جميعا بين عاث ونشوان (١)

لم يزد امرؤ القيس في هذا البيت على ذكر حالة قيام أصحابه من النوم عند ايقاظهم قبل طلوع الصبح ( بين عاث ونشوان ) ولكن من هذه الحقائق البسيطة خرج شعر من رائع التصوير . ولا يوازي هذا التصوير الحي في قوته الا قول الحارث بن حلزة :

أجمعوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء  
من مناد ومن مجيب ومن تصم مهال خيل خلال ذاك رغاء (٢)  
وبعد أن ذكر امرؤ القيس خروجه في السحر في أبيات المعلقة قال ( فعن لنا سرب ) ثم وصف أدبار السرب ( فأدبرن كالجزع المفصل بينه ) ثم وصف سراعة جواده ومباغتته في طلب الصيد فلم يستعن بالخيال والتشبيه فيقول انه كالبرق أو كجلمود حطه السيل . . . وانما استعان بالطريقة « الواقعية » ذاكرا بعض الحقائق المجردة التي تحدث من نفسها أبلغ الأثر دون تكلف :

( ١ ) بعثت : نبهت . النشوان : السكران ( من النعاس ) . عاث : مفسد والأصل مقلوب من عاث يعيث . يريد هنا الباحث عن ثيابه وحاجاته في ظلمة آخر الليل .

( ٢ ) أوعال هضبة وقيل جبل .



فألحقنا بالهاديات ودونه أوائلها في صرة لم تزيل

ذكر امرؤ القيس بعد ذلك عداا الحصان بين ثور ونعجة ثم قال :

فظل طهاة الحى من بين منضج صنيف شواء أو قدير معجل  
ذكر طهاة الحى ، وفي ذلك اشارة الى كثرة القنيص الذى عاد به  
القانص عودة الغانم المظفر ، وذكر أنواع الطهى من لحوم مشوية  
أو مطبوخة في القدر •• ثم عطف على جواده الميّمّن المرموق :

وبات عليه سرجه ولجامه وبات بعينى قائما غير مرسل

ليس المراد أن هذا الفرس بات معدا للركوب ، كما فهم بعض الشراح  
أو أن هذا الفرس لما جرى به من الصيد وهو عرق لم يقلع عنه سرجه  
فتأخذه الريح ولم ينزع عنه لجامه فيعلف على التعب فيؤذيه ذلك ،  
ولكن الظاهر أن الفارس من شدة تعلقه بجواد صيده أراد أن يبيت  
بعينه في أبهته وجلاله قائما غير مرسل وعليه سرجه ولجامه • قيل أن  
العرب كانوا يحبون رؤية خيلهم تأكل العليق ، وكانوا يفعلون ذلك  
بكرام خيلهم يقربونها من أنفسهم لكرامتها عليهم ، وهى التى يقال لها  
المقربة •••

لنعد الآن الى جوته : « كان هرمان يداوى بنفسه أفراسه الفخمة  
ولا يكل أمرها الى أحد •• لقد انطلق هرمان الى مرابط الخيل وكانت  
خيله الأصيلة الوهاجة هادئة أمام علوفتها من شعير نقى وكلاً يابس  
من حصيد المراعى المختارة ، وقد وضع لها شكيمة لامعة وأدخل السيور  
في الحلقات الفضية وعقد عذارها باللجم الطويلة الفضفاضة ••• وقد  
تعاون مع خادمه فى قياس السيور وعلقا الأفراس على العربة ثم رفع  
هرمان السوط واندفع بعربته تحت الباب المقبب » •

الأسلوب واحد عند الشاعرين والتفاصيل متشابهة ( فكان تنادينا  
وعقد عذاره •• وقمنا بأشلاء اللجام ) واختلاف الموضوع لا يمنع أن  
النهج واحد والروح واحدة • كلاهما ينظم الحقائق « الثرية » العادية



التفهة في يسر وسهولة دون أن يهبط عن مستوى الشعر ، بل قد يرتفع  
كلاهما ببيانه الساحر ولمحاته المتألقة الى الذروة :

إذا ما ركبنا قال ولدان أهلنا      تعالوا الى أن يأتي الصيد نخطب

خفاهن من أنفاقهن كأنما      خفاهن ودق من عشي مجلب

وظل لصيران الصريم غماغم      يداعسها بالسهمري الملب

فكاب على حر الجبين ومتق      بمدرية كأنها ذلق مشعب

ولو طاوعنا أنفسنا لأعدنا نشر شعره الذي ذكرناه له هنا وفي كتابنا .  
قلنا ان امرأ القيس يمتاز بسحر الأسلوب وبلمحاته الانسانية وبنظم  
الحقائق وهذا ما يضعه في مصاف جوته وشكسبير وهوميروس ،  
ولا يمتازون عليه الا بالكثرة وبناء القصيد ، ولا شك ان الكثير من  
شعر امرىء القيس قد ضاع ..

ومن ميزات امرىء القيس الثلاث تتألف شخصيته ، وقد تجتمع  
في أبيات قلائل ، قال يخاطب الطلل :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي      وهل يعمن من كان في العمر الخالي (١)

تحية رائعة قال بعدها :

وهل يعمن الا سعيد مخند      قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وهنا تبدو اللمحة الانسانية في الاشارة الى نفسه والى كل نفس

لاتنعم بالحياة ولا بالبقاء .

عاد امرؤ القيس بعد ذلك الى ذكر الديار :

ديار لسلمي عافيات بذى الخال      ألح عليها كل أسحم هطال (٢)

والى ذكر أيام سلمى :

وتحسب سلمى لا تزال ترى طلال      من الوحش أو بيضا بميثاء . جلال

(١) قوله عم صباحا تحية الجاهلية في الغداة وعم مساء في المساء .

(٢) عافيات دراسات . ألح دام عليها . والأسحم الأسود . الطلال ولد  
الظبية . والميثاء الأرض السهلة . المحلال التي يكثر النزول فيها .



وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا بوادى الخرامى أو على رأس أوعال (١)  
ليالى سليمة اذ تريك منصباً وجيداً كجيد الرثم ليس بمعطال (٢)  
قال شارح "حديث : « يقول أن سلمى لا تزال وهى فى الحاضرة  
تحسب أنها بالبادية فهى تتخيل تلك المواضع » ! وقال الوزير أبو بكر :  
« معنى البيت أن سلمى تحسب نفسها فى المكان الذى لم تزل ترى فيه  
الوحش والبيض ، ولا ترى هذين الشيين الا فى موضع التربع ووقت  
التبدي ، والتبدي عند العرب أن يخرجوا الى البوادي يتبعون الكأ  
أو مساقط الغيث فلا يزالون كذلك الى تهيج النبات وانقطاع الرطب  
وجفاف الغدران ثم يرجعون الى محاضرمهم ومياههم التى كانوا عليها •  
والشعراء فى التبدي والحضر على ضربين ، منهم من يذم الحضر ويمدح  
التبدي ومنهم من يذم التبدي ويمدح الحضر ، فمن مدح التبدي  
ذو الرمة •• ومن ذم التبدي ومدح الحضر امرؤ القيس لأنه كان ملكاً  
وكان حضرياً فهو يكره البدو ولذلك قال :

وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا بوادى الخزامى أو على رأس أوعال  
أى تحسبها كما عهدتها بهذين المكانين •• يريد انها تحسب نفسها فى  
المكان الذى لم تزل ترى فيه الوحش والبيض ، ولم تر هذين الشيين  
الا فى موضع التربع ووقت التبدي •• واذا جاء الصيف تفرقوا •  
قال أبو بكر الوزير وقد قيل فيه معنى آخر وهو أنها ترى نفسها حديثة  
صغيرة » •

نقول هذا الكلام لا طائل وراءه فامرؤ القيس لم يكن حضرياً يكره البدو  
لأنه ابن ملك •• وكل شعره يدل على حبه للبادية وحياة البادية وحمورها  
وثيرانها وخيلها وابلها ومعزها ••• وظاهر القول أن شاعرنا حين وقف  
فى ديار خليلته سلمى أخذ يتذكر عهدها القديم معه فى تلك الديار ويذكر

(١) أوعال هضبة وقيل جبل •

(٢) منصباً ثغراً متسقاً وروى مقصباً أى شعراً ذا ذوائب والقصبة  
الحصلة من الشعر • المعطال العاطل الذى لا حلى عليه •



أيام صباه و صباها ، وذكريات الصبا في هذا المقام ليست مألوفة عند شعراء العرب ولهذا استعصى فهمها على شيوخنا ، ف شعر امرئ القيس القديم شعر حديث بروحه ومعانيه • وتحسب سلمى ليس معناه أن سلمى هي التي تحسب ولكن الشاعر يخاطب نفسه فيقول وتحسب ( أنت ) سلمى •• أى انى لا زلت أتخيل سلمى في ذلك العهد وهى ترى أو ترىنى ، فَرِحَة في نشوة الشباب ، ولد الطيبة الصغير أو أبيض النعام في الأرض السهلة الآهلة •• بوادى الخزامى أو على رأس أو عال • وليس أدل على بعد عهد شاعرنا بالشباب — وان الأمر لا علاقة له بالتبدي والحضر — من قوله بعد ذلك :

ليالى سليمي اذ تريك منصبا      وجيدا كجيد الرئم ليس بمعطال  
ألا زعمت بسباسة اليوم انتى      كبرت وأن لا يحسن السر أمثالى (١)

وقد انتقل الشاعر بالذكرى من الديار التي وقف بها الى ديار أخرى لها قديمة لازال يذكر عهده المتوهم فيها :

وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا      بوادى الخزامى أو على رأس أو عال  
وامرؤ القيس يجب البدو والبادية : البدو أهل سلمى ، والبادية وكل وديانها ، ووادى خزامها ، ودخولها وحوملها •• منازل سلمى وأتراب سلمى ، وأحباب سلمى ، وملاعب صباها ••

ولا شك أن في قوله ( وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا من الوحش أو بيضا •• ) تفاصيل وحقائق تطيب ذكراها ، وبذلك تجلت شخصية امرئ القيس الشعرية بأركانها الثلاثة وملامحها الكبرى في ثلاثة أبيات أو أربعة أمام ( الطلل البالى ) • وكل شعره يزخر بهذه التفاصيل والحقائق ، وكل شعره وقصائده ذكريات ومغامرات صيد وحب ولهو وغارة ، ولهذا تراه في معلقته وغيرها ينتقل من موضوع لموضوع وكأن كل قطعة رواية مستقلة فيها من جمال العرض ، ودقة التصوير ، وصراحة

( ١ ) السر النكاح ، وفي رواية اللهو •



القول ، ما يجعلها توازي أية قطعة من الشعر أو الكتابة الواعية  
الحديثة :

- (١) وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهوبها غير معجل  
(٢) تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا على حراسا لو يسرون مقتلى  
(٣) إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

(١) الخدر ستريمد للجارية في ناحية البيت ثم صار كل ما وارك من  
بيت ونحوه خدرا ، والخدر الهودج • بيضة خدر يريد المرأة لأنها مصنونة  
غير متبدلة •

(٢) لويسرون مقتلى لو يكتمون قتلى لفعلوه •

(٣) قال أبو عمرو الثريا لا تتعرض وانما عنى الجوازه كما قال زهير  
كأحمر عاد يريد كأحمر ثمود وقال ابن القتيبي الثريا تأخذ وسط السماء  
عند سقوطها كما يأخذ الوشاح وسط المرأة لأنها اذا طلعت استقبلتك  
بتمامها واذا غربت تعرضت كأنها جانحة في شق والتعرض التحرف •  
المفصل الذي فصل ما بين كل خرتين منه بلؤلؤة • يقول تجاوزت هذه  
الأحراس إليها حين تصوبت الثريا وانحدرت • ويلاحظ أن امرأ القيس  
تغلب عليه دائما نزعة المصور فهو يذكر ساعة الزيارة وحالة السماء  
كما يفعل الشاعر الحديث • وله في هذا المعنى ثلاثة أبيات قائمة بذاتها  
كاللوحه في القصيدة :

وبيت يفوح المسك في حجراته بعيد من الآفات غير مروق  
دخلت على بيضاء جم عظامها تعفى بذيل الدرع اذ جئت مودقى  
وقد ركبت وسط السماء نجومها ركود نوادي الربرب المتورق

يقول ان بيتها يفوح المسك في أرجائه ونواحيه وانه بعيد من الأمكنة  
الموبوءة لا أروقة فيه • ثم يصفها بأنها جم ( بالضم ) عظامها أى جماء العظام  
بمعنى كثيرة اللحم ناعمة ملساء • تعفى بذيل الدرع تمحو بذيل قميصها مودقى  
( بفتح الميم ) أى أثر قدمي • ثم يصف السماء في منتصف الليل فيقول ان  
نجومها ركبت ركود قطيع الأطباء المتفرقة التي أكلت الورق • قال طرفه :

وبرك هجود قد أثار مخافتى نواديه أمشى بعضب مجرد

قال أبو عمرو النوادي النواحي أراد أثار مخافتى ابلا في ناحية من الابل  
متفرقة والهاء في قوله نواديه راجعة على البرك ( البعير المبارك أو المستنيخ )  
وندا فلان اذا اعتزل وتنحى • وقال أراد بنواديه قواصيه •



فجئت وقد نضت لنوم ثيابها      لدى الستر الا لبسه المتفضل (١)  
فقالت يمين الله ما لك حيلة      وما ان أرى عنك الغواية تنجلي (٢)  
خرجت بها أمشى تجر وراءنا      على أثرينا ذيل مرط مرحل (٣)  
فلما أجزنا ساحة الحي واتتحي      بنا بطن خبت ذى قفاف عنقل  
هصرت بفودي رأسها فتمايلت      على هضيم الكشح ربا المخلخل (٤)

لا أريد هنا الا التعليق على بيت واحد لأنه يحتوى تفاصيل  
وألفاظا قد تبدو ثقيلة على بعض النفوس كأنها من فضول القول :

فلما أجزنا ساحة الحي واتتحي      بنا بطن خبت ذى قفاف عنقل  
النصف الأول من البيت تحديد للطريق الذى سلكه والنصف  
الثانى تحديد للمكان الذى هبطه ومحبوبته بمأمن الرقباء : الخبث  
المتسع المطمئن من بطون الأرض • والقف ما ارتفع من الأرض أو انقطع  
من الرمل والقف حجارة غاص بعضها ببعض لا تخالطها سهولة وهو  
جبل غير انه ليس بطويل فى السماء وفيه اشراف على ما حوله وفيه  
حجارة متقلعة عظام وقد يكون فيه رياض وقيعان • والعنقل الوادى  
العظيم المتسع • والكثيب المتراكم أو المنعقد من الرمل بعضه فى بعض •  
فكلمة قفاف وعنقل هنا من الألفاظ المعبرة التى تناسب المقام • وفى

(١) نض الثوب نزعه • المنفصل الذى يبقى فى ثوب واحد لينام واسم  
الثوب الفضل • والستر الستار أو ما يرخى ليستر به •  
لدى ظرف مكانى كعند الا أنه أقرب مكانا من عند وأخص منه فان عند  
تقع على المكان وغيره تقول « لى عند فلان مال » أى فى ذمته ولا يقال ذلك  
فى لدن ولدى ولا يستعمل الا فى الحاضر بخلاف عند يقال لدنه مال اذا كان  
حاضرا ولديه مال كذلك • فقوله لدى الستر يجعل الصورة واقعية قريبة  
الى الذهن •

(٢) مالك حيلة أى لا حيلة لى فيك •

(٣) المرط ازار أو كل ثوب غير مخيط والمرط كساء من صوف أو خز  
أو كتان يؤتزر به • والمرحل من الثياب ما أشبهت نقوشه رحال الابل  
« خرج الرسول وعليه مرط مرحل » •

(٤) هصرت جذبت وأملت • الفودان جانبا الرأس ، يريد أنه جذبها  
من رأسها • المخلخل مكان الخلل •



رواية بطن حقف والحقف ما أعوج من الرمل وطال • والمعنى واحد  
لأن غرض الشاعر وصف المكان بمرتفعاته ، ومنخفضاته ، وقيعانه  
ورياضه ، وتلاله ، وكثبانه ، ومنعرجاته ، وتعدد مسالكه ووعورتها ،  
واتساعه •

بهذه الطريقة الواقعية صور الشاعر مقدار تعلق المرأة به ومتابعتها  
له في مكان أمين بمنأى عن الحى وتجشمها مشقات الطريق الطويل  
والتصعيد في مدارجه وشعبه •• وقد اتبع نفس هذه الطريقة الواقعية  
الشاعر جوته حين وصف الطرق المختلفة الوعرة التي صعدت فيها أم  
هرمان لتنتدى الى ابنها وقد أقلقها طول غيابه عنها ذات يوم •• بهذه  
الطريقة « الملموسة » تجلت من نفسها — دون الاشارة اليها — حياة  
الأم لولدها وتعهدها له • وقد أوجز امرؤ القيس كل وصفه في بيت  
واحد وأبان عن الأخطار والمشقات التي ركبها صاحبته المشغوفة به •  
وطريقة امرئ القيس الواقعية تبدو في وصف مناظر الطبيعة في  
بلاد العرب ووصف الحيوان ، وتبدو في ذكر تفاصيل وصور من الحياة  
البشرية نفسها وقد يجمع بين الاثنين معا :

أعنى على برق أراه وميض نضى حيا في شماريخ بيض (١)  
ويهدأ تارات سناه وتارة بنوء كتعات الأسير المهيض (٢)  
وتخرج منه لامعات كأنها أكف تلقى الفوز عند المفيض (٣)  
قعدت له وصحبتى بين ضارج وبين تلاع يثلث فالعريض (٤)

(١) الحبي السحاب الذى يعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء  
قال امرؤ القيس « فى حبي مكلل » • والشمراخ رأس الجبل و - أعلى  
السحاب •

(٢) السناء الضوء • بنوء ينهض على ثقل • والتعتاب المشى على ثلاث  
و - وثب الانسان على رجل واحدة • والمهيض الذى هيض أى كسر بعد  
الجبر • يقول ان البرق يكل ويخفى ثم يظهر متثاقلا فى حركته كالكسير •  
(٣) اللامعات البروق • المفيض الذى يضرب بالقداح • يشبه البروق  
اللامعات فى خروجها ، بأكف المقامرئين التى تتلقى الفوز ، فى حركتها  
واشراقها •

(٤) التلاع ما ارتفع من الأرض وهى أيضا مجارى الماء من أعلى الوادى  
يقول انه هو وأصحابه قعدوا بين هذه الأماكن بعد لمعان البرق ليروا  
أين مصاب المطر •



أصاب قَطِيَّات فسال لواهما فوادی البدیّ فاتتحي للأريض (١)  
 بِمَيْث دماث في رياض أثيثة تحيل سواقيا بماء فضيض (٢)  
 بلاد عريضة وأرض أريضة مدافع غيث في فضاء عريض (٣)

(١) قطيات هضاب حمر متجاورات وهي قلات مياه كعب ابن كلاب .  
 فسال لواهما : اللوى ما التوى من الرمل أو مسترقه والألواء أحناء الوادى .  
 لواهما ضمير المثنى عائد ظاهرا على الجمع ( قطيات ) ويروى فسال اللوى  
 لهما ويروى أيضا أصاب قطاتين ولكن الروايتين في اعتقادنا غير صحيحتين .  
 والذي نراه في قوله فسال لواهما أن الضمير عائد على ناحيتين من قطيات .  
 وامرؤ القيس حين يصف فرسه يقول :

وعين لها حدرة بدرة شقت مآقيهما من آخر

فالضمير في مآقيهما وهو ضمير المثنى عائد على العين والعين مفرد ولكن  
 المعنى ظاهر فالضمير عائد على العينين والشاعر حين يصف العين يريد العينين  
 والعرب تتوسع كثيرا في استعمالاتها ولكن هذه الاستعمالات بحاجة الى  
 الحصر والدراسة من جديد . مثل ذلك الحُصْب بكسر الحاء رفاغة العيش  
 الجمع أخصاب ويقال للمبالغة « بلد خصب وأخصاب » بصيغة الجمع ،  
 وتوجيهه انهم جعلوا المنعوت أجزاء فجمعوا النعت ، ويقال أرض خصب  
 وأرضون خصب ويقال أرض خصبة على معنى الصفة .

(٢) الميث والدمام الأرض السهلة اللينة . الأثيثة الملتفة النبات  
 تحيل تصب . والسواقي جمع ساقية وهي النهر الصغير وهو فوق الجدول  
 ودون النهر . والفضيض كل متفرق ومنتشر من الماء والفضيض الماء العذب  
 وقيل السائل .

(٣) الأريض المعجب للعين والزكى يقال « روض أريض وأرض أريضة »  
 المدافع : ابن شميل الدوافع أسافل الميث حيث تدفع في الأودية أسفل  
 كل ميثاء دافعة وقال الأصمعي الدوافع مدافع الماء الى الميث والميث تدفع  
 الى الوادى الأعظم والدافعة التلعة من مسایل الماء تدفع في تلعة أخرى اذا  
 جرى في صلب وحدور من حذب فتري له في مواضع قد انبسط شيئا واستدار  
 ثم دفع في أخرى أسفل منها فكل واحد من ذلك دافعة والجميع الدوافع ،  
 ومجرى ما بين الدافعتين مذنب وقيل المدافع المجارى والمسایل . ابن شميل  
 مدفع الرادى حيث يدفع السيل وهو أسفله حيث يتفرق ماؤه .



فأضحى يسح الماء عن كل فيقة يحور الضباب في صفاصف بيض (١)  
فأسقى به أختى ضعيفة اذ نأت واذ بعد المزار غير القريض (٢)

لا أظن شاعرا آخر وصف البرق والسحاب والمطر والسييل وهى من  
قوى الطبيعة ووصف آثارها كما وصفها امرؤ القيس في هذه الأبيات  
وفي أبيات معلقته :

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلمع اليدين فى حبي مكلل  
وفي رأيته :

ديمة هطلاء فيها وطف طبّق الأرض تحرّى وتدر  
وقد تكلمنا عن ذلك من قبل (٣) ، وقد تجلت فى هذه الأبيات  
الضادية العاطفة الانسانية وصور الحياة واختلطت بصور الطبيعة فى  
البيتين الثانى والثالث ( وتهدأ تارات - وتخرج منه لامعات ) - وفى  
البيت التاسع ( فأسقى به أختى ضعيفة ) • والرائع هنا وصف المنظر  
الطبيعى :

(١) الفيقة ما بين الحلبتين • والصفاف جمع صفصفة وهى الغلاة  
المستوية الأرض • وبيض عارية من النبات • حار يحور بمعنى رجع لازمة  
وامرؤ القيس لم يقل يحير بل قال يحور ! يقول ان شدة السييل حيرت  
الضباب على مهارتها فى السباحة ودفعتها الى الفلوات • واذا عرفنا أن  
الضب لا يتخذ حجره الا فى كدية حجر أو عند صخرة أو أكمة خوفا من  
السييل والحافر ولذلك توجد برائنة ناقصة قليلة لحفره بها فى الأماكن  
الصلبة فلعل المعنى أنه على الرغم من احتراز الضباب فان شدة السييل  
أخرجتها من أماكنها ودفعتها الى الأراضى المستوية • وفى موطن آخر قاز  
امرؤ القيس :

وترى الضب خفيفا ماهرا ثانيا برئنه ما ينعفر  
يقول ان الضب كان خفيفا يحذق السباحة فى أمواه السييل دون أن تمس  
أصابعه الأرض •

(٢) أسقى أدعو لها بالسقيا أى لبلادها حتى تخصب • وضعيفة  
منصوبة على البديل •

(٣) أنظر من ص ٥٤ الى ٦٠ وص ٧٦ و ٧٧ ( الشوامخ أول ) •



بميت دماث في رياض أثيثة تحيل سواقها بماء فضيض  
وفي معظم شعراء امرىء القيس تبدو صور الحياة • قال يذكر

شبابه :

ألا انما الدهر ليال وأعصر  
ليال بذات الطلح عند مُحَجَّر  
أغادى الصبوح عند هر وفرتنا  
إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة  
هما نعجتان من نعاج تباله  
إذا قامتا توضع المسك منهما  
وليس على شىء قويم بمستمر (١)  
أحب الينا من ليال على أقر (٢)  
وليدا وهل أفنى شبابى غير هر (٣)  
معتقة مما تجيء به التجر (٤)  
لدى جوذرين أو كبعض دمي هـ كـ (٥)  
برائحة من اللطيمة والقطر (٦)

(١) قويم مستقيم •

(٢) ذات الطلح : أسم موضع أو أرض كثيرة الطلح والطلح كالسمر  
أعظم شجر العضاة وهي شجرة طويلة لها ظل يستظل بها الناس والابل التي  
تأكل ورقها وهو كثير شديد الحضرة قيل ولا ينبت الطلح الا بأرض غليظة  
خصبة واحده طلحة • محجر فى مواضع كثيرة منها جبل فى ديار  
بنى طيء • وأقر أسم واد لبنى مرة عن أبى عبيدة واسع مملوء حمضا كان النعمان  
ابن الحارث الأصغر الغساني قد حماه فتربعته بنو ذبيان فأغار عليهم الملك  
النعمان فقال النابغة :

انى نهيت بنى ذبيان عن أقر وعن تربعهم فى كل أصفار  
وقلت يا قوم أن الليث منقبض على برائنه لعدوة الضارى  
(٣) أغادى الصبوح أشرب الحمر فى الغداة •  
(٤) التجر تجار الحمر •

(٥) نعجتان بقرتان وحشيتان • تباله موضع ببلاد اليمن قال القتال •  
وما مغزل ترعى بأرض تباله أراكا وسدرا ناعما ما ينالها  
وترعى بها البردين ثم مقيلا غياطل ملتف عليها ظللالها  
بأحسن من ليلي وليلي بشبهها اذاهتكت فى يوم عيد حجالها  
انظر الى جمال العبارة وجمال الحس فى قوله ( غياطل ملتف عليها  
ظللالها ) • وهذ يشبه قول امرىء لقيس فى الثور الوحشى ( الذى يشبه  
الناقة به ) :

كأنها مفرد شبوب تلفه الريح والظلال  
والجوذر ولد البقرة • وقوله لدى جوذرين اشارة الى عاطفة الأمومة التى  
تفيض حنانا ورقة واشراقا فى وجه لبقرتين الجميلتين اللتين يشبه بهما هرا  
وفرتنا • ودمى هكر صور وتمائيل منحوتة •  
(٦) اللطيمة ضرب من المسك • والقطر العود الذى يتبخر به •



كأن التجار أصدوا بسبيئة من الخص حتى أنزلوها على يسر  
فلما استطابوا صب في الصحن نصفه وشجت بماء غير طرّق ولا كدر  
بماء سحاب زل عن بطن صخرة الى بطن أخرى طيب ماؤها خصر

الآبيات الثلاثة الأخيرة هي التي تهمن لأنها تفسر طريقة شاعرنا الواقعية الخاصة في اقتناص صور الحياة وادخالها في تشبيهاته ومقارناته .  
وظاهر أن لا علاقة لهذه الآبيات التي تذكر الخمر والبيت الذي تقدمها الذي يذكر المسك ( اذا قامتا . . ) ، وأغلب الظن أن هذه الآبيات تأتي بعد قوله ( اذا قلت فاها قلت طعام مدامة ) أو انها تشير اليه .

وظاهر أيضا أن أى شاعر آخر غير امرئ القيس قد يكتفى بذكر الخمر في ذلك البيت الأخير :

اذا ذقت فاها قلت طعام مدامة معتقة مما تجيء به التجر  
وتكون الآبيات الثلاثة لا محل لها . ولكن امرأ القيس يتخذ من كل تشبيه أو مقارنة سببا لذكر ما يجب من صور الحياة :

كأن المدام وصبوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر  
يعمل به برد أنيابها اذا طرب الطائر المستحر (١)

فبدلا من أن يقول في الصباح أو في البكرة يقول ( عند تطريب الطائر في السحر ) . وفي الآبيات الثلاثة . تتجلى ، كما قلنا ، طريقة امرئ القيس الواقعية :

كأن التجار أصدوا بسبيئة من الخص حتى أنزلوها على يسر  
فلما استطابوا صب في الصحن نصفه وشجت بماء غير طرّق ولا كدر  
بماء سحاب زل عن بطن صخرة الى بطن أخرى طيب ماؤها خصر

أصدوا ذهبوا يقال أصد في الأرض ذهب مستقبلا أرضا أرفع  
من الأخرى وأصد في الوادي انحدر فيه . السبيئة الخمر . الخص

(١) العلل الشرب الثاني يقال علل بعد نهل . المستحر الطائر الذي

يفرد بسحر .



حانوت الخمار • اليسر المجتمعون على الميسر • استطابوا وجدوها  
طيبة • شجت مزجت • غير طرق ولا كدر أى نقى لم تخوضه الابل  
ولا كدورة فيه • الخصر البارد •

في قوله : كأن التجار أصدوا بسبيئة حتى أنزلوها •• اشارة الى  
الجهد الذى يتكلفه التجار اذ يقصدون الى الثروة ويحملون اليهم  
الخمير المعنقة التى يضمنون بها فى حوائيتهم ، خصوصا اذا كان أولئك  
الشراة من الهواة ، وكان أولئك الهواة من المقامرين ، وكان أولئك  
المقامرون مجتمعين على الميسر •• فى أتم استعداد مادي وروحاني ••  
( فلما استطابوا صب فى الصحن نصفه ) والصحن هو القدح الضخم ••  
ثم مزجت الخمر بماء لا كدورة فيه ، بماء صاف زلال :

بماء سحاب زل عن بطن صخرة الى بطن أخرى طيب ماؤها خصر  
كل التفاصيل فى تلك الأبيات نجحها لأنها تبين عن ملامح الحياة فى  
صورة من صورها الرائعة المؤثرة • ويخيل الى ان امرأ القيس يلوح  
بها عرضا من ناحية ، الى كدح الانسان فى طلب الرزق والتماس العيش  
تاجرا كان أو صائدا ( مطعم للصيد ليس له • غيرها كسب على كبره ) ••  
ومن ناحية أخرى ، وفى الجانب الأيسر من الصورة ، الى ذلك الفريق  
اللاعب ••

كل بيت من هذه الأبيات يؤلف صورة من صور الحياة والطبيعة ،  
وكل بيت يسمو بتفاصيله الدقيقة المختارة : ( كأن التجار أصدوا  
— بسبيئة — من الخصر — حتى أنزلوها — على يسر ) ورب كلمة  
ألفت صورة ( فلما استطابوا •• ) من صور الحياة •• والبيت الأخير  
( بماء سحاب زل •• ) يمثل منظرا من مناظر الطبيعة الماتعة •

وشعر امرئ القيس ممتلىء بتفاصيل الحياة فى الطبيعة وعلى  
الطبيعة :



- ويارب يوم قد لهوت وليلة  
يضىء الفراش وجهها لضجيعها  
كأن على لباتها جمر مصطل  
وهبت له ريح بمختلف الصوى  
إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها  
كحقف النقا يمشى الوليدان فوقه  
ومثلك بيضاء العوارض طفلة  
لطيفة طى الكشح غير مفاضة  
إذا ما استحمت كان فيض حميمها  
نورتها من أذرعَات وأهلها
- (١) بأنسة كأنها خط تمثال (١)  
كمصباح زيت في قناديل ذبَّال (٢)  
أصاب غضى جزلا وكف بأجزاء (٣)  
صبا وشمال في منازل ققال (٤)  
تميل عليه هونة غير مجال  
بما احتسبا من لين مس وتسعال  
لعوب تنسينى إذا قمت سربالى (٥)  
إذا انفتلت مرتجة غير متقال (٦)  
على متنتها كالجمان لدى الجالى (٧)  
بيثرب أدنى دارها نظر عال (٨)

(١) الخط الطريقة المستطيلة فى شىء والتمثال الصورة المصورة ( فى ثوبه تماثيل ) أى صور حيوانات مصورة . التمثال ما تصنعه وتصوره من حجر وهو المعنى الغالب الآن والمقصود هنا .

(٢) الذبال الفتيلة .

(٣) غضى جزلا أى خشبا غليظا من شجر الغضا . والأجزاء جمع جزل القطعة الغليظة من الخشب .

(٤) الصوى العلامات تنصب فى الطريق لهداية السابلة ، وقد توضع النار فى الأماكن المرتفعة لهداية السابلة ، وقد توضع النار فى الأماكن المرتفعة لهداية القفال أى العائدين من السفر . والصوى أيضا الأماكن المرتفعة الغليظة ، وهذه الأماكن بطبيعتها تهب فيها الرياح بقوة من كل الجهات .

(٥) العوارض صفحتا العنق . سربالى ثوبى .

(٦) الكشح الحصر . غير مفاضة ليست مسترخية البطن . متقال متغيرة الرائحة . انفتلت يريد إذا قامت مفتولة كانت ضامرة البطن دقيقة الحصر .

(٧) الحميم الماء الحار . المتنتان جانباً الظهر . الجالى صيرف الدراهم الذى يعرضها مجلوة . والجمان اللؤلؤ الواحدة جمانة وفى الأساس حب من فضة يعمل على شكل اللؤلؤ وقد يسمى به اللؤلؤ ، قال لبيد يصف بقرة :  
وتضىء فى وجه الظلام منيرة كجمانة البحرى سل نظامها

(٨) تنورتها نظرت الى نارها من اذرعَات وأنا بالشام وأهلها بيثرب ، نظر عال مرتفع . أذرعَات انما هو أذرعة فجمعها وما حولها واستشهد سيبويه بهذا البيت على أنه سمي الموضع بالجمع وهو أذرعَات كعرفات .



نظرت إليها والنجوم كأنها  
سموت إليها بعد ما نام أهلها  
فقال سبائك الله انك فاضحي  
فقلت يمين الله أبرح قاعدا  
حلقت لها بالله حلقة فاجر  
فلما تنازعا الحديث وأسمحت  
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا  
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلمها

مصاييح رهبان تشب لقفال (١)  
سمو حباب الماء حالا على حال  
ألست ترى السمار والناس أحوالي  
ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي  
لناموا فما ان من حديث ولا صال  
هصرت بغصن ذى شماريخ ميال  
ورضت فذلت صعبة أى اذلال  
عليه القتام سىء الظن والبال (٢)

هذه القطعة من قصيدة (الأعم صباحا أيها الطلل البالي) وهي متماسكة  
محكمة النسيج توازى بقوة التصوير وبراعة السبك وحسن السرد  
والرواية أعلى قطعة في أى أدب ، ومثلها كثير في شعر الضليل • ولن  
تتعرض هنا الا لبعض الأبيات التى تدل على طريقتة الواقعية ، قال :

إذا ما الضجيع ابتزها من ثيابها      تميل عليه هونة غير مجبال  
كحقف النقا يمشى الوليدان فوقه      بما احتسبا من لين مس وتسها

قال الوزير أبو بكر فى شرح البيت الأول : « ابتزها يعنى سلب عنها  
ثيابها والهونة الضعيفة اللينة ويقال هو يمشى على هونه أى على ترسله  
ومنه قول الله عز وجل ( وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا )  
أى ترسلا ، والمجبال الغليظة الخلق • يقول اذا ابتز الضجيع عنها ثيابها  
مالت عليه مترسلة غير جافية الخلق • وقال فى شرح البيت الثانى : « الحقف

(١) القفال الراجعون من السفر • تشب توقد • قال الوزير أبو بكر  
يقول نظرت الى نارها تشب لقفال • فتشبه مردودة الى النار ومصاييح  
رهبان من صفة النجوم والتقدير نظرت الى نارها • تشب لقفال والنجوم  
كأنها مصاييح رهبان وذلك عند وقت السحر الخ انتهى • وهذا خطأ فتشبه  
مردودة الى مصاييح يصف السماء والنجوم كعادته فى منتصف الليل اذ  
تبدو النجوم فى ضيائها • وقوله بعد ذلك ( سموت إليها • • ) غير مرتبط  
ارتباطا وثيقا بما قبله وقد يقصد امرأة أخرى أو ذكرى أخرى •

(٢) القتام الغبار الأسود والسواد والظلام وقوله عليه القتام استعمال  
مجازى رائع •



ما استدار من الرمل والنقا الكثيب من الرمل • والوليدان الصبيان  
 الصغيران ، وقوله بما احتسبا من لين مس يريد بما اكتفيا ولا يريدان  
 أكثر منه • فيقول جسمها أو عجيزتها كهذا النقا في لينة وهو مع لينة  
 صلب ولصلابته مشى الوليدان فوقه ولم تسخ فيه أرجلهما وخص  
 الوليدين لأن وطأتها ضعيفة لضعفهما • القتيبي شبه ميلها إذا مشت  
 بميل الحقف وهو ألين الرمل قال العجاج : ميالة ميل الكثيب المنهال «  
 تفسير أبي بكر وتفسير القتيبي الذي ذكره كلاهما بعيد من الصواب  
 ولا معنى لاقحام العجيزة أو الردف أو الكفل ولا معنى لتشبيه ميلها بميل  
 الحقف • ولا معنى لذكر مشيها لأنها تضاجع • وظاهر الأمر أنها تميل على  
 الضجيع بلين ورفق على هونها — أي أن هذا اللين في طبيعتها — أو انها  
 تترفق بالضجيع في ميلها عليه كما يترفق الوليدان في مشيهما على حقف  
 الرمل ، وهذا الترفق من ناحية الوليدين في طبيعة الأشياء اصغرهما  
 وضعف وطأتها • وكلامه عن لين المس والتسهال لأنها تميل عارية على  
 الضجيع •• ونعومة الجسم وخفة الصدر من مستلزمات المضاجعة •  
 نعومة الجسم يقابلها ملاسة الرمل وخفة الصدر أو الجسم يقابلها سهولة  
 الوطاء ( وتسعال مس ) ••

وقوله ( يمشى الوليدان فوقه ) من السحر الحلال ، ويلاحظ انه  
 لو ذكر المفرد أو الجمع بدلا من المثني وقال الوليد أو الولدان لا تنقص  
 من جمال الصورة •• وكان طبيعيا أن يذكر المفرد عند المقارنة ولكن  
 امرأ القيس شاعر فنان يأتي بصورة من صور الحياة والطفولة وملاعبها  
 الحلوة النديانة ، صورة الوليدين الصديقين وهما يمشيان في ميدان  
 لهوهما •• فوق حقف النقا ••

فقلت سبأك الله انك فاضحي ألسنت ترى السمار والناس أحوالى  
 فقلت يمين الله أبرح قاعدا! ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالى  
 حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما ان من حديث ولا صالى  
 السمار جمع سامر من السمر وهو الحديث في الليل • والصالى  
 المستدفىء بالنار • وحلفة فاجر حلفة كاذب • يقول انه أقسم لها كذبا



بأن الحي قد هجع ( لناموأ أي لقد ناموا ) • ولو اكتفى بذكر النوم  
لكان كغيره من الشعراء ولكنه أتى بتفاصيل وصورة من صور الحياة  
شأنه في ذلك شأن كتاب القصص فقال : ساد السكون في الحي وهدأت  
كل حركة ولم يبق سامر ولا صالى •• والعرب والشعراء بوجه خاص  
يحبون مواعد النيران واشراقها بالليل ••

النار مشرقة والأرض مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار  
ومن منا لا يخفق قلبه كلما رأى الأنوار المتلألئة في قطار الليل  
السارى أو في المنازل الأولى من المدينة عند اقتراب القطار الذاهب  
إليها •• أو في المحطة الكبرى ساعة التوديع •• أو في البيت والنوافذ  
عند رجوع رب البيت من أسفاره •

كأن على لباتها جمر مصطل أصاب غضى جزلا وكف بأجزال  
وهبت له ريح بمختلف الصوى صبا وشمال في منازل ققال  
الواقع أن تشبيه امرئ القيس ينتهى عند كلمة ( جمر ) ولكن  
شاعرنا يريد أن يتغنى بمحاسن المرأة ورواء النار معا • فالموصوف به  
عنده ليس تابعا للموصوف الا من ناحية شكلية • والنار تزداد رواء  
واشتعالا كلما شباها بموقدها بالخشب الغليظ ، وأحاطها بالحطب الركام (١)  
الذى أعده محتطبه ، وأخذ يغذيها ويمونها (٢) بالجزل بعد الجزل ،  
فتأججت النيران ( وهبت لها ريح بمختلف الصوى ) ولألا الجمر في  
وهجانه ، وبهر (٣) الحي باياب المسافرين حتى هجع السامر والصالى ••  
كل هذه التفاصيل صورة من صور الحياة التى شغف امرؤ القيس  
بها ، كما شغف بها جوته ، وهى ناحية من نواحي تصويره ، وسر من  
أسرار عظمتها التى بينها •

على انه يجب أن نلاحظ أن بعض التفاصيل قد فقدت قوتها وروعيتها  
لاختلاف العصر والمعيشة كقوله في وصف الفرس :

كأن صاحبها اذ قام يلجمها مَعْد على بكرة زوراء منصوب

- (١) الركام المتراكم بعضه فوق بعض •  
(٢) مون النار ادخر لها المؤونة وقام بكفائتها •  
(٣) بهرت الشمس أضاعت •



المعد الدلو العظيمة • والبكرة بفتح الباء وسكون الكاف أو بفتحهما  
معا خشبة مستديرة في وسطها محز يستقى عليها وهي تدور على البئر  
وتنصب عليها الدلو بالوذر وهي سيور مشدودة الى عراقها — والعرقوتان  
خشبستان تعرضان على الدلو كالصليب — والى آذان الدلو • وزوراء  
بعيدة •

يقول كأن صاحبها اذ قام يضع اللجام في رأسها المرتفع دلو عظيمة  
منصوبة على بكرة بعيدة • فالجام الفرس في الشطر الأول كان من  
التفاصيل الشيقة حتى عصر جوته بل وأوائل القرن العشرين قبل اختراع  
السيارات •• ولكن عصر الخيل بدأ ينقرض ولا تستعمل الخيل مطية  
للنزهة الا في الريف وضواحي المدن كما أن استعمالها في الحروب بدأ  
يتلاشى •• وذكر الدلو والبئر في الشطر التالي كان من التفاصيل  
المحببة في العصر القديم •• وكذلك وصف السيف والمهند العضب •••  
وبعض التفاصيل الأخرى الخاصة بالنوق والحمر الوحشية مثلا  
قد لا تحركنا لبعدها من بيئتنا ولكن البيئة الفنية — بيئة الفن الرفيع  
من تصوير وحفر — تقربها الينا خصوصا وان الشاعر ينفخ في صورتها  
روح الحياة •• وأى حياة •

وهناك بعض التفاصيل في شعر امرىء القيس — وهي قليلة —  
تذكرنا بالعصر البدائي وسذاجته كما هي الحال في بعض شعر هوميروس •  
مثال ذلك ما ورد في معلقته :

ومثلك جبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول  
اذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتى شقها لم يحول  
فان هذه لغة فاجر من ( أولاد البلد ) لا من أولاد الملوك •

والغريب أن هذا التفاخر باعتباره وسيلة من وسائل الاقتناع  
والاستمالة لا يتفق مع أسلوبه النسائي العالى عامة •

على أن شعر امرىء القيس في مجموعة محيط واسع يمثل الطبيعة  
والحياة • والتفاصيل التي قد لا تلائمنا قليلة لا يخلو منها شعر الشعراء



لاختلاف العصور وتباينها • وكل شعر الضليل يتزخر بالتفاصيل الرائعة، وكلها تدل على شخصية أصيلة حبتها الطبيعة أو الفطرة بقوة ملاحظة خارقة تمدها عاطفة انسانية غزيرة نضاحة ، وقد بز عصره وحلق بلمحاته في سماء الأدب الانساني الذي ينتظم العصور كلها ، لذلك ظلت بعض صورته ومناحيه الدقيقة غير مألوفة لأنها أقرب الى الفكر الحديث منها الى القديم • مثال ذلك :

إذا أجأ تلفعت بشعابها على وأمست بالعماء مكللة  
وأصبحت العوجاء يهتز جيدها كجيد عروس أصبحت متبذلة  
أجأ أحد جبلى طيء والآخر سلمى سميا باسم رجل وامرأة • وفيهما بلاد واسعة كثيرة المياه والشجر والنخيل والريف مأوها ظاهر والكلأ غامر • وقد نزل امرؤ القيس في جبال طيء وذكرها في شعره • إذا أجأ تلفعت يريد اذا ذرى أجأ • وتلفعت اشتمت • والشعاب جمع شعب وهو الطريق في الجبل ومسيل الماء والحى العظيم والناحية • والعماء السحاب المترابك وقيل الممطر • مكللة أى أحاط بها من كل جانب • والعوجاء فرس • متبذلة : البذلة من الثياب ما يستعمل كل يوم • يقال بذل الثوب لبسه في أوقات الخدمة والامتهان ، والمتبذل الذى يلى العمل بنفسه والتبذل ترك الزينة والتهيو على جهة التواضع ومنه حديث سلمان فرأى أم الدرداء متبذلة •

يقول اذا اشتملتنى ذرى أجأ بشعابها وأمست مغطاة بالسحب والأمطار من كل جانب وطلع الصبح واهتز جيد العروس وهى تستقبل النهار فى لبسة العمل المنزلى التى تزينها ببساطتها كما تزينها لبسة المساء بأناقته ••

قيل أن العرجاء فرس لعامر بن جوين الطائى وان البيتين له • ومهما كان من الأمر فان روح امرىء القيس تطل منهما • صحيح أن شعراء الجاهلية وخصوصا الطائيين والهمذليين كانت لهم لمحات رائعة فى الطبيعة وصور فى غاية الدقة والحسن • وان الشعر الجاهلى لا تزال



كنوزه دفيئة مبددة ولكن شعر امرىء القيس قد ألف بروائعه واتجاهاته  
نظاما فريدا كعقود الدر • وليس لأحد غيره نظراته وطرائقه وشخصيته ،  
وليس لشعر غير شعره تلك القيم الانسانية والفنية مجتمعة مؤتلفة في  
حقل واحد •

ومن شعره غير المؤلف الذى قيل عنه انه منحول قوله وقد سبق  
ذكره :

قالت الخنساء لما جئتها شاب بعدى رأس هذا واشتوب  
عهدتى ناشئا ذاغرة رجلا الجُمَّة ذا بطن أقب  
أتبع الولدان أرخى مئزرى ابن عشر ذا قريط من ذهب  
وهى اذ ذاك عليها مئزر ولها بيت جوار من لُعب  
اشتبه فيه لون الأشهب وهو بياض غلب على السواد أو بياض يخالطه  
سواد • والغرة بضم العين يحتمل أن يكون من غرة البياض وصفاء  
اللون ، وقد تكون بكسر العين بمعنى الغفلة • الجمّة مجتمع شعر الرأس ،  
والشعر الرجل بين السبط والجعد ، والمرجل الشعر المبرح ويقال  
للمشط مِرْجَل ومِبرَح والترجيل تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه •  
أقب: دقيق ضامر • أرخى مئزرى: المئزر والأزار الثوب ، يقال شددت لهذا  
الأمر مئزرى أى تشمرت له ، فارخاء المئزر هنا اشارة الى اللهو واللعب •  
والبيت الخزانة أو المكان الذى تضع وتدخر فيه جواربها وهى  
( العرائس ) •

الرائع فى هذه الأبيات ليس هو ذكر أيام الطفولة كما يذكرها  
الأفرنج ولكن فى البيت الأول والذى بعده اشارة الى أن صاحبة الخنساء  
وهى احدى رفيقاته فى زمن الصغر قد فرق الدهر بينه وبينها ثم التقيا  
بعد ما شاب رأسه واشتبه ، وهى لا تذكره بشبابه أو يذكرها بشبابه  
— كما جرت العادة — وانما تذكره ويذكرها بأيامه الأولى اذ كان  
صبياً يلعب مع الصبيان •• وهذه الأبيات كلها لوعة وحنين وتصوير  
شائق لعهد جميل ، ولا نظير لها ، من حيث التفصيل ، فى الشعر العربى •



نقول من حيث التفصيل لا من حيث الموضوع فقد ذكر صاحب  
اللسان في مادة ( رجل ) هذا البيت :

أيام ألحف مئزرى عقر الثرى وأغض كل مرجل ريان  
قال المفضل « يصف شعره وحسنه ، وقوله أغض أى أنقص منه  
بالمقراض ليستوى شعثه » • والمرجل الشعر المسرح • • ألحف مئزرى :  
يقال لحنه الثوب : ألبسه اياه ، ولحف النار الحطب : ألقاه عليها كقوله  
( ونلحف النار جزلا وهى بارزة ) وقول طرفة :

ثم راحوا عقب المسك بهم يلحفون الأرض هداًب الأزر  
أى يغطونها ويلبسونها هداًب أزهرهم اذا جرئوها فى الأرض ، قال  
الأزهري : ويقال لذلك الثوب لحاف وملحف كما يقال ازار ومئزر •  
وألحف الرجل ولحف اذا جر ازاره على الأرض خيلاء وبطرا • •

ولا شك ان فى قوله ( أيام ألحف مئزرى • • ) اشارة الى أيام  
الشباب لا أيام الصبا والطفولة • والذكرى هنا تأتى لمحا أو عابرة ولكنها  
فى شعر امرىء القيس تقف وتستوقف • • بادية الملامح وهى فى شعر  
العرب تقيم وتطوف بكل ركن وأثر •

وامرؤ القيس فى مجموعه من ناحية الشعر الغنائى البحت قد  
لا يتساوى مع جوته وشعراء العرب الوجدانيين ولكن ذلك لا يمنع  
من انه صاح أكبر صيحة غنائية فى العالم حين قال ( قفا نبك من ذكرى  
حبيب ومنزل ) ويأتى بعد ذلك قوله ( ألا عم صباحا أيها الظلل البالى )  
ثم قوله ( وليل كموج البحر أرخى سدوله • • ) وقوله ( وقد اغتدى  
والطير فى وكناتها ) وقوله :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى  
وله قصيدة غنائية Lyrique من أرقى الشعر الغنائى تتمثل فيها  
روح جوته ، وهى الأبيات التى يصف فيها الغيث وآثاره :  
ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر

وهي قطعة مستقلة ، صافية كالماسة ، سهلة المقطع ، متعددة الجنبات  
وتوجد له أبيات أخرى مستقلة في الواقع وان كان ينتظمها قصيده  
كقوله في وصف رماة بنى ثعل بعد ( مطعم للصيد •• ) :

وخليل قد أفارقه ثم لا أبكى على أثره  
وابن عم قد تركت له صفو ماء الحوض عن كدره  
وابن عم قد فُجعت به مثل ضوء البدر في غرره  
وحديث الركب يوم هنا وحديث ما على قصره

هذه الأبيات من الجوهر المصفى •• وهي في صميم الشعر الغنائى •  
ولعل خير بيت غنائى نختم به هذا البحث قول امرئ القيس :  
كأنى لم أسمر بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوما بعنديل<sup>(١)</sup>

فصل في الاجتماع

(١) قال ابن الحائك عندل ، وخودون ( بفتح الخاء ) ، ودمون مدن  
للصدف ( بكسر الدال ) •• وقال في موضع آخر وساكن خودون الصدف  
وساكن دمون هو الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار • قال وكان  
امرؤ القيس بن حجر قد زاد الصدف اليها ، ثم ذكر البيت •  
قالوا لما قتل حجر أبوه كان امرؤ القيس بدمون مع نديم له يلاعبه  
النرد ويشاربه الخمر فلما جاءه الرسول لم يلتفت اليه حتى اذا فرغ وعلم  
بما كان قال : « ضيعنى صغيرا ، وحملنى دمه كبيرا ، لاصحو اليوم  
ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا أمر »



في النجاة فليصنعها وعلقها على قلبه من اللاحق والقدرة والحققة فليصنعها  
 الدنيا فليصنعها في الآخرة وعلقها على قلبه راحة الدنيا والآخرة  
 أيام العف مترن ( . . . وعلقها على قلبه ) علقها على قلبه فليصنعها  
 قال ما لي لا يخلقني من نبي الكلاء يمشى معي فأمره من غير أن يمشي  
 بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي العطر شدة العف وعلقها  
 يقال لعن الله من يمشى به كذا . . . وعلقها على قلبه علقها على قلبه  
 ( والحققة بعلقة بطلا لعن الله من يمشى به كذا . . . وعلقها على قلبه )  
 ثم وعلقها بعلقها بعلقها . . . وعلقها على قلبه علقها على قلبه  
 في بطنها فليصنعها من غير أن يمشى بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي  
 الأمانة لعن الله من يمشى به كذا . . . وعلقها على قلبه علقها على قلبه  
 وعلق الرجل وعلق إذا جر لزامه على الأرض حياء وعظما . . .  
 ولا شك أن في قوله ( أيام العف مترن . . . ) إشارة إلى  
 الشباب لا أيام السبا والطفولة . والذكرى هنا التي لها أو بارعة ولكن  
 في شعر امرئ القيس تعف واستوفت . . . تادئة اللامع وهي في شعر  
 العزب تعف وتطوف بكل ركن وأثر . . .  
 وشعر القيس في مجموعة من ناحية التيسر الثاني البحث في  
 لا يتسوى مع غيره وشعر العزب الواحد بين ولكن ذلك لا ينبغي  
 من أنه صاحب أكبر صيغة غالية في العالم حين قال ( قفا بك من ذكر  
 جيب زمرد ) وإنما بعد ذلك قوله ( إلا مع صاحب أبا الطال التاليف )  
 في قوله ( أبا الطال وشعر ) أبا الطال شعره لانه بالتوالي ( . . . )  
 وعلقها على قلبه من غير أن يمشى بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي  
 بالله كذا . . . يا أيها كذا . . . يا أيها كذا . . . يا أيها كذا . . .  
 تنوعها من العف على العف . . . يا أيها كذا . . . يا أيها كذا . . .  
 علقها على قلبه من غير أن يمشى بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي  
 بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي  
 بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي  
 بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي  
 بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي  
 بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي بالقرآن ليبتدئ تصيها من غير أن يمشي

THE NATIONAL ARCHIVES  
 WASHINGTON DC 20540

## تطورات في الاجتماع

### الحياة

وقالوا يعود الماء في التور بعدنا... تحت من أكر... تحت...  
فكثرت التي أن يرجع الماء... تحت...  
تقول الحياة من الأ... من الأرض... إذا جرى جرت فيها

## الكتاب السابع

### فصول في الاجتماع

وإذا لمحت أن... حياتها...  
هذلك كغير... من...  
عاشا وحياة... من...  
شرفا... لم...  
سيطروا...  
وخلقت الحياة...  
والمن... أن...  
زمان في...  
لا... من...

وملكك الحياة...  
حظا...  
ال...  
الدينية أو الاجتماعية والأدبية...  
... عن...

وقد غابت الحياة عن مصر...  
في العصور...  
... في...



والسائلنا  
ولتجلا في مائة

MASSACHUSETTS STATE LIBRARY  
STRADE

## خطرات في الاجتماع

### الحماسة

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما عفت منه آثار وجفت مشارعه  
فقلت الى أن يرجع الماء ثانياً ويعشب شطاه تموت ضفادعه  
تنزل الحماسة من الأمم منزلة الماء من الروض اذا جرى جرت فيها  
الحياة وان نضب نضبت وأجذب الشيطان وخف الهوى وتقضت  
الأوطار ••

واذا أردت أن تعرف سر تقدم الأمم فانظر الى حماستها ، حماسة  
هادئة تدبر وتسوس في صمت جعلت الانجليز السكسونيين يسودون  
أما ، وحماسة قوولة فعالة دفعت الطليان الى الثورة في القرن التاسع  
عشر فأصبحوا أمة ثم لمتهم على شعث الحرب الكبرى فتوحدت كلمتهم  
فبسطوا سلطانهم في البحر الأبيض ، ونحن على ضفافه غرباء •

وخلقت الحماسة عند قدماء المصريين روح الجماعة فنهضت بالعلم  
والفن ولم نسمع أن عزيمتهم وهنت في حرارة الشمس ، وقد أخطأ  
رينان في زعمه أنهم لم يكونوا أمة لأن استعباد الجماعات لم يكن  
الامظها من مظاهر النظام والطاعة لفرعون •

وتملك الحماسة العرب ، ولهم فيها ديوان ، فانتفضوا في البادية  
خفافاً وفتحوا الأمصار وارتجلوا الممالك كما يرتجلون الشعر ، وكان  
الرجل منهم بحماسته يثير قبيلة ، والقبيلة تثير أمة ، وكانت حماستهم  
الدينية أو الاجتماعية والأدبية تنشر الحياة في الأرض الجدباء ، وكانت  
بداوتهم في غنى عن حسن الحضارة وعمرانها •

وقد غابت الحماسة عن مصر مذ غابت عنها نهضة الدين واللغة  
في العصور المتأخرة بعد الفتح العربي ، ثم عادت اليها في أواخر



عهد اسماعيل ، ثم رفع عرابي لواءها ، وكانت حركة شعبية أخذها  
الاحتلال حتى نفخ فيها « مصطفى » وكان شعلة حماسة وذكاء ، ثم  
جاء « سعد » وقامت الثورة فانتظمت الحماسة سكان الوادي •

ولكن الحماسة أخذت تضحل منذ انقسم المصريون على أنفسهم  
وصارت مصر « بيزنطة » ثانية اختلط فيها الأمر وتشاكل ، وشتان  
بين حسن الوادي ، ودلال نخيله ومروجه ، وصفاء سمائه ، وهزج  
سواقيه ، وجلال نيله واعتدال قامه نسائه وهن يحملن الجرار على  
ضفافه ، وجمال ورده وياسمينه ، وبين شقاء شعبه ، يرزح تحت النير  
وهو لاه ، قوول غير فعال ، لو تمثلت الحقيقة لأطلت من بين صفوفه  
بوجه أشعث أغبر •

وقد تعاقبت الحكومات المختلفة منذ تصريح ٢٨ فبراير ، وكلها  
حكومات ثورة فلم تكن واحدة منها بتنظيم الثورة وتغذيتها بمادة  
الحماسة ، بل كان عملها مضعفا لها حتى بدأ اليأس يتغلب على النفوس  
الحرّة • ففريق يشكو من « الوصولية » و « الوصوليين » الذين  
كانوا من أعداء الثورة أو على الحياد وظهروا في الساعة الأخيرة في  
ثوب الرياء والوطنية فاحتلوا عليا مناصب الدولة • وفريق يشكو  
من بقاء الاداة الادارية على حالها في أيدي نفر لا يفقهون من الوطنية  
والاصلاح الا الدعاية الكاذبة التي تملأ الصحف وتطن طنين الذباب •  
فاذا سألت عن النتائج تجلت في تدهور التعليم والشؤون العامة  
منذ سنوات ، واذا سألت عن الدواء قالوا ان مصر فقيرة في الرجال  
في الوقت الذي يحاربون فيه كل مصلح ويقطعون الطريق على كل عامل  
حتى يظلوا في مناصبهم آمنين مطمئنين ، وأكثر الرجال المتربعين في  
الدست بين شاب مزيف لا يتحمس الا في الجري وراء المصلحة الذاتية  
ولا تهزه عاطفة الوطن ، وطاعن في السن يملأ منصبه بجسمه الى جانب  
مستأثر بارادته وسلطته محب للظهور •

ولا ريب أن كل جو خلو من الحماسة تختنق فيه العبقرية .



ولا ريب أن في مصر عبقرية لا تراها عين الشك • تبدو آثارها أحيانا منذ عهد محمد على ثم تنطمس ، ولولا أن هناك « عجينة » مباركة للعبقرية في ذلك الوادى لما أمكن منشىء مصر الحديثة أن يصل في بضع سنوات الى خلق دولة ، وقد سرت الحماسة من محمد على الى شعبة ، وهذا ابراهيم لولا الحماسة وقيادته الجندى كمصرى يالفهم ويألفونه حتى كانوا يلقبونه بـ « أبو خليل » لما فتح الديار ووطد الأمن فيها ، ولقد حدثت ثورات على الحكم المصرى فى سوريا فكان ينبرى لاطفائها سليمان باشا الفرنساوى وغيره من القواد فلا يفلحون ، فيجىء ابراهيم فينتصر •

وقد كان سر نجاح « سعد » بلوغ الحماسة أوجها ، خطيب مقتدر وزعيم جماهير قالت عنه جريدة « التيمس » حين موته انه من أكبر رجال الثورة فى التاريخ • على أن الثورة فى الشارع غيرها فى الحكومة والوسائل تتغير تبعا للظروف ، وقد ضرب لنا « كافور » المثل الأعلى فى سياسة الثورة عن طريق الحكم فكان يدعو الجماهير الى اكتتابات قومية ويخلق بهذه الاكتتابات عملا محسوسا تراه عين الشعب فتتوند فيه الحماسة ويعتز بقوميته •

وكان الانجليز كالرومان فى أيام احتلالهم يعملون على محو آثار العزة القومية والحماسة ، من ذلك بيعهم للشركة الخديوية التى كانت سفنها تحمل الراية المصرية فى البحر الأبيض ، وقطعهم أشجار اسماعيل فى الحرب الكبرى •

على أن الشعب ممثلا فى طلعت حرب قد خلق الحماسة بمنشأته ولكن مصر فقيرة فى كل شىء : الى العلم الصحيح ، الى الفن ، الى العمل الصامت المجدى ، وقد شق طلعت حرب الطريق • فهل للحكومة القومية أن تسير على الدرب حتى تهتز ربوع الوادى أملا وحياة • والله مع العاملين •



## الصناعة في مصر

من عصر محمد علي إلى اليوم

- ١ -

جاء في خطاب العرش أن الحكومة ستعنى بجعل التعليم الصناعي يساعد على تكوين طبقة من الصناع والعمال الفنيين الذي تفتقر البلاد اليهم في كل مهنة وفي كل يوم • ولا ريب أن لهذا الموضوع خطره لأن المدارس الصناعية لا يتخرج فيها إلى اليوم الا طبقة ( الأفندية ) أما طبقة العمال الفنيين فلا وجود لها فلا البيئة تحترم العامل ولا العامل القادر يجد مدرسة يتلقى فيها مبادئ صناعته •

ولذلك نجد الأجانب من مختلف الملل محتكرين الأعمال الفنية في طول البلاد وعرضها وهذه مراكب شركة مصر يحتكر رؤساء العمل من الطليان فيها كل عمل فني دقيق من النور إلى النار •

وهذه الجارجات أو مستودعات السيارات ، كلها بيد الأروام والطيان • واذا وجد عامل مصري مقتدر فأغلب ظني أنه اشتمغل زمانا عند الأوروبيين فاكتسب خبرة • على أنه لا توجد بمصر مصانع للسيارات فلا يمكن والحالة هذه أن ترتقى صناعة الطيارات لأن أكثر القراء يجهلون أن الصلة كبيرة بين محركات الطائرات ومحركات السيارات ولذلك فإن مصانع السيارات الشهيرة في أوروبا تشتغل في وقت الحرب في بناء الطيارات وليس من السهل اذن بناء ألف أو ألفي طائرة في مصر وذلك بغض النظر عن أن تكوين الطيارين والميكانيكيين يتطلب سنوات معدودات •

ويمكن القول بصفة عامة أن جميع المصانع الوطنية الأهلية التي تورد للجمهور الآلات - بمختلف أنواعها من عجالات وأسلحة



وأجهزة الخ •• تنقطع لتوريد العدد الحربية للحكومات في عصور  
الأزمات • وأذكر اذ كنت في فرنسا انه بعد أزمة سبتمبر الشهيرة كان  
من العسير ( التوصية ) في المصانع على عمل ما لحساب المتاجر  
الكبرى •

وفي مصر لا مصانع ولا صناعات ، ولن نجد فيها حدادا فنيا وطنيا  
في مقدوره صناعة الأبواب والأسوار الحديدية الجميلة وغيرها ولن  
تجد مجلدا فنيا واحدا للكتب ولن نجد فيها صناعات واحدا للطائرات  
( البرايز ) •

وقد تجد صناعات ماهرين ولكن عدم انتشار التعليم — امحوا الأمية  
من فضلكم — وعدم وجود مدارس مخصصة لتعليم الحرف والصنائع  
من طهى ونجارة وحداده وغير ذلك تحولان دون الاتقان • ونجاح  
أغلب الأعمال مرهون ( بالبركة ) والقدرة الالهية التى تحرسنا ، وأحيانا  
بمهارة الصناعات الطبيعية التى تظهر فى اليد المصرية •

والواقع أن شعبنا يجب الشعر والخيال ولذلك فانك لا تجد  
للروح العملية أثرا فى حياته العامة ولماذا يتعب نفسه ويفتح عينيه على  
الحقائق ويكد فى طلب الرزق ، وقد علموه فى الصغر أن « العيش  
بالرزق وبالتقدير » ، ويكفيه أن يشتغل بالبحث عن الحلال والحرام •

وقد فطن محمد على الكبير الى هذه الحقيقة فحاول تطهير الدين  
من البدع وردده الى سيرته الأولى ، وتقييد تدخل رجال الدين فى  
حدوده ، ولولا فتوى استصدرها من كبير مشايخ مصر بتحليل علم  
التشريح فى مدرسة الطب الناشئة لثار القوم على علم الجراحة  
وظللنا الى اليوم فى حالة بدائية •

وقد كانت الروح العملية من أكبر أسباب نجاح سياسة محمد على  
الداخلية فكان جل اعتماده على المشاهدات والتجارب الشخصية وليس  
أدل على ذلك من اهتمامه بتكوين طبقة من العمال الفنيين فى مصر



وادخال الصناعات والحرف المختلفة فيها وها نحن اولاء ننشر بنصها  
وفصها وثائق خطيه عثرنا عليها في دار السجلات بالسراي العامرة .

— ١ —

دفتر ٢٠١٩ — رمضان سنة ٥٢ هـ ( ديسمبر ١٨٣٦ )  
جلسة مذكور بها أسماء البعثة المصرية التي أوفدت الى أوروبا لتعلم  
صناعة الصباغة وعادت أخيرا وفتح لها دكان في الموسكى .

— ٢ —

دفتر ٢٠٠٠ — ٦ شوال سنة ٥٢ هـ ( يناير ١٨٣٧ )  
قرار المجلس بشأن تشجيع صناعة الجوارب واعطاء أصناف موضحة  
الى عبد الوهاب محمد وعلى عرماوى القادمين من أوروبا بصفة اعانة  
لتشغيل الجوارب .

— ٣ —

دفتر ٢٠٢٠ — ١٦ رمضان سنة ٥٢ هـ .  
جلسة جاء فيها ذكر الساعاتية المصريين المتخرجين في أوروبا والذين  
كانوا فتح لهم دكان في الموسكى .

— ٤ —

دفتر ٢٠٢٠ — ١٦ رمضان سنة ٥٢  
جلسة تشجيع صناعة الخزف والصينى وعمل مصنع لعلى فرارجى  
المتخرج من أوروبا .

— ٥ —

دفتر ٢٠٢٠ — ٢٤ شوال سنة ٥٢  
جلسة تشجيع صناعة الآلات الجراحية وفتح دكان في الموسكى  
لمحمد عنانى على حساب الحكومة .

— ٦ —

دفتر ٢٠٢٠ — ٢٨ شوال سنة ٥٢  
جلسة تشجيع صناعة الجوارب وانشاء دكان في الموسكى .

— ٧ —

دفتر ٢٠٢١ — ١٣ ذو القعدة سنة ٥٢  
جلسة جاء فيها أن حسن الورداني أفندي قام برسم خريطة البحر  
الأحمر على الحجر لأجل طبعتها •

— ٨ —

دفتر ٢٠٢١ — ذو القعدة سنة ٥٢  
جلسة — تقرير ايفاد بعثة مصرية الى النمسا لتعلم صناعة المعادن •

— ٩ —

دفتر ٢٠٢٤ — ٤ جماد أول سنة ٥٣ هـ ( أغسطس ١٨٣٧ )  
أمر من الجنب العالي بصرف النظر في الوقت الحاضر عن انشاء  
القناطر الخيرية حتى يتخرج من مصر أناس يستطيعون ذلك •

— ١٠ —

دفتر ٢٠٣٥ — سنة ٥٣  
جلسة جاء أن مورنيال الفرنسي كان مكلفا بتعليم الجبن تلاميذ  
مدرسة الزراعة والحقل النموذجي بنبروه •

— ١١ —

دفتر ٢٠٤٦ — ربيع الثاني سنة ٥٥ ( يونية ١٨٣٩ )  
بشأن الأسطوات الثلاثة الذين عادوا من انجلترا بعد أن تعلموا  
صناعة الغزل والخيط والحاقهم بمصانع المحروسة •

— ١٢ —

دفتر ٢٠٥١ — ٢٩ جماد ثاني سنة ٥٥ ( أغسطس ١٨٣٩ )  
ذكر البعثة التي تخرجت من انجلترا في صناعة البنادق وعادت الى  
مصر •



- ١٣ -

دفتر ٢٠٦١ - ١٥ ربيع ثانی سنة ٥٦ ( یونیه ١٨٤٠ )  
بشأن حسن الاسکندرانی الذی تعلم صناعة تجلید الکتب فی  
أوروبا وعاد واستخدم فی المطبعة ورفت .

- ١٤ -

دفتر ٢٠٧٧ - ١٧ ربيع الثانی سنة ٥٨ ( مايو ١٨٤٠ )  
افادة من أرتین بك یطلب انتخاب تلمیذ خیر بفن الکتیاء من تلامیذ  
فرقة الصیدلة وارساله حالا الی باریس لتعلم صناعة العملة ( ضرب  
النقود ) .

- ١٥ -

فی ١٣ منه انتخب حسانین علی أفندی لارساله الی باریس لهذه  
المهمة .

- ١٦ -

دفتر ٣٠٩٦ - ٢٢ رجب سنة ٦٠ ( یولیه ١٨٤٤ ) .  
جاء فیها أن مجدی وعبد الرحمن من ضمن التلامیذ الذین یتعلمون  
الصناعة فی النمسا قائمان بتعلم الصینی ، وفیها أيضا أن الطین الصالح  
لذلك یوجد بجهة أسوان .

- ١٧ -

دفتر ٢٠٩٨ - ٣ محرم سنة ٦١ ( ینایر ١٨٤٥ )  
تقرر انتخاب کیمائیین من مدرسة الطب وايفادهما الی باریس لتعلم  
فن تبيض الأقمشة وتلوین الشیت وتلمیعه وتکریر ملح البارود .

- ١٨ -

دفتر ٢١١٣ - ١٦ رمضان سنة ٦٢ ( سبتمبر ١٨٤٦ )  
بشأن منح مصطفى السلمونی الذی عاد من النمسا بعد تعلم صناعة  
البللور والعلوم الأخری رتبة ملازم أول والحاقه بمعیه المسیو تان جیر .

دفتر ۲۱۳۳ — ۲۳ محرم سنة ۱۲۶۶ ( نوفمبر ۱۸۴۹ )

جاء فيها أنها بمناسبة مرور جناب الخديوى على الاقاليم الوسطى امتحن المهندسين فى المنيا فوجد أنهم لا يفقهون شيئا من الهندسة فضلا عن أنهم لم يتمكنوا من عمل عمليات الضرب وعليه فالجناب العالى يهدد بالغاء ديوان المدارس ( وقد الغى فعلا ) .

\*\*\*

اذا اكتفينا بهذه الوثائق ولا شك أن الكثير قد فقد تبين لنا أن محمد على قد عنى — بالصناعات الآتية : — الساعات • الخزف • الصينى • الآلات الجراحية • الجوارب • الخرط • التعدين • الصناعة • الجبن • الغزل • البنادق • التجليد • سك النقود • تبيض الأقمشة وتلوين الشيت • تكرير ملح البارود • البللور • وإذا تركنا صناعات الحرب جانبا فان بعض الصناعات الأخرى قد ازدهرت فى ذلك العهد وسبق أشرت الى رحلة النائب الفرنسى شيلشر سنة ۱۸۴۵ والى كتابه الذى نوه فيه بتقدم الصناعة فى مصر حيث عرض عليه أحد رؤساء العمال المصريين صندوقا من الآلات الجراحية الدقيقة كلها كانت من صنع يده •

وقد اندثرت صناعات مصرية كثيرة بعضها بفعل الاحتلال وبعضها باهمال أولى الأمر وقادة الرأى فى البلاد ولاشك أن ارتقاء الصناعة من أكبر العوامل التى تؤكد شخصية الأمم اذ على الصناعات يبدو طابع الأمم الحية فهذه ألمانيا مثلا اشتهرت بالصباغة ولا تجاريها أمة فى هذا الميدان خصوصا بعد أن حلت الصباغة الكيماوية محل الصباغة النباتية الطبيعية ، واشتهر الدينماركيون بصناعة الجبن والزبدة وقد حاول السويسريون وغيرهم الوقوف على سر هذه الصناعة فلم يوفقوا واشتهر الفرنسيون بالخزف والصينى والسويسريون بالساعات • أما نحن فلا زلنا فى ألف بلاء الصناعات والعلوم ولا زلنا نعتقد أن مجرد ارسال بعثات صورية تكفى لتخليص أعناقنا من المسؤولية • أذكر شبانا



ليسوا على جانب كبير من الذكاء أرسل أحدهم لدراسة صناعة الجبن  
في بعثة لا تتجاوز الستة أشهر يقضيها في تركيا واليونان وبلغاريا  
ورومانيا وسويسرا وانجلترا وفرنسا وكان هذا الشاب لا يعرف  
الالفة واحدة وكان يجهل أوروبا ويجهل كل شيء .

وأرسل أحد أولئك الشبان المبعوثين لتعلم فن الدباغة في ليون  
والدباغة كغيرها فن يحتاج الى ذكاء وعلم وقد أخبرني بهذه المناسبة  
عميد كلية ليون أن المصريين لا يهتمون باختيار أعضاء بعثاتهم في حين  
أن الإيرانيين يرسلون أكثر الشبان ذكاء ومقدرة .

ولولا سوء اختيار البعثات وعدم تفهم رؤساء وزارة المعارف  
المسؤولين خطر الصناعة والتعليم وأصولهما على حقيقتها لوجد الآن  
بمصر طائفة من العلماء القادرين على توجيه الصناعات وتكوين الصناع  
والعمال الفنيين الذين تحتاج اليهم البلاد .

ونرجو قبل كل شيء استئصال الروح الابتدائية من التعليم وتأليف  
لجنة من الفنيين والمجربين لعلاج الحالة لأن تأليف لجنة من أصحاب  
الابتهات وبعض كبار الموظفين لا لسبب سوى أنهم يحتلون عليا  
المناصب معناه بقاء الشيء على حاله وتغلب سياسة الاصلاح الكلامية  
على سياسة الاصلاح الحقيقية التي تكفل وحدها التقدم الصحيح  
في مختلف العلوم والفنون .

السياسة الأسبوعية في ١٩٢٩/١٢/٢

## الصناعة في مصر

من عصر محمد علي إلى اليوم

— ٢ —

يقولون أن التقدم الصناعي قد زحزح حدود المستحيل والواقع أن النظام الآلي ( الميكانيكي ) تجلى طابعه على المدينة الحديثة وصار الانسان اينما يجلس أو يسير أو يطير ، أينما ينام أو يأكل أو يلبس أو يتكلم أو يدخن يرى آثار الآلات الصناعية في كل دقيقة وجليلة . وقد أثرت الآله في أخلاق الانسان وطباعه فأصبح هو وصحفه ومعتقداته آلة يسيرها محرك أعلى ، وصارت كل شهوات الرجل ورغباته منحصرة في حب الرفاهية وتجنب كل حركة فاذا طلع عليه الصباح كانت أكبر أمانيه أن تنقله الآلة من سريره الى الحمام وتخلع عنه ثيابه وتصب عليه مزيجا معتدلا من الماء الساخن والبارد . وصار كثيرون يرون السعادة كلها في الحياة المادية الآلية العاجلة وفي سبيلها يضحون بكرامتهم . . . واذا كان التطور العالمي قد نجح في تحويل الانسان والشعوب الى آلة أو الى مجموعة آلية ناطقة فانه لم ينجح بعد في تحويل الآلة الى انسان لأن القوة الروحية مصدرها خالق الكائنات لا الانسان .

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد ومهما ابتدع الانسان من طائرات تنطلق كالبرق وقوى تنقض كالصاعقة فليس في مقدوره أن يتحلل من قيود جسمه وانحطاطه الطبيعي وليس في مقدوره أن يكون إلهاً .

ومن حسن الحظ أن الانسان كلما ابتكر واستحدث وقضى وطرا



من السرعة والمادة ظهرت له أوطار جديدة فلا تكاد تنقع له غلة — يجرى وراء المستحيل والمستحيل لاحد له •

المستحيل سراب الانسان الخادع وخيالها الاسمى الذى تجرى وراءه مذ ولدت ولن تصل الى حدوده وتعرف كنهه قبل موتها وحسب الأمم العاملة أنها تسير الى الأمام وأنها تتبكر وأنها لا تألف الجمود •

\*\*\*

ومما يؤسف له أن مصر ألفت الجمود منذ أواخر عصر محمد على وغير خاف أن محمد على لم ينجح فى ادخال الصناعة الكبرى فى مصر لأن محاولاته كلها أخفقت فى استنباط الفحم والحديد ولكنه كما رأينا أوجد ما يسمونه (الصناعة الصغرى) وأوجد عمالا مهرة من المصريين لا نجد نظائرهم فى مصر اليوم • ومن أراد أن يرجع الى العبل والمسبات فما عليه الا أن يتفهم العوامل التى جعلت عصر الانتقال فى مصر يزيد على قرن ولما يبرح بعد • فى حين أنه لم يدم الا سنين معدودات فى اليابان مثلا •

قد نلمس بعض هذه العلل اذا لم نذهب بعيدا ونظرنا الى تاريخ التعليم فى مصر منذ سنة ١٩٢٥ : منذ خمسة عشر عاما لم يحدث تقدم محسوس الا فى الاحصائيات الخاصة بالتعليم أما التعليم فانه ان لم يتأخر لم يتقدم خطوة واحدة فقد انشئت الجامعة وأنشئت فيها صالة احتفالات بلغت تكاليفها مائة وخمسة وعشرين ألفا من الجنيهات والبلد لا يزال فقيرا فى الرجال وفى العلم الصحيح • وكذلك شأن البعثات والتعليم الابتدائى والتعليم الثانوى والتعليم العالى • أما الأوبلى فبعد خمسة عشر عاما يقولون ان هذا النوع من التعليم نكبة لأن الأمراض متفشية فى الأقاليم وفى عقولنا • صح النوم أيها السادة • فقد دوت طبول الاصلاح فى آذاننا ورنت الأبواق فى الصحف ثلاثمائة وخمسة وستين يوما فى العام منذ خمسة عشر عاما والآن يقولون يجب البدء من جديد •



يقفون والفلك المسخر دائر ويصفقون فتضحك الأقدار

صدق هيردوت « ان مصر بلد العجائب » وصدق شعر المتنبي « وكم  
ذا بمصر من المضحكات » أليس من المضحك المبكى أن تتحرك في  
مكاننا كالمقيد وأن ثب ولكن رأسيا لا أفقيا لننزل الى أسفل في  
مكاننا لا تتقدم عنه ولا تتأخر •

ولولا الحركة الشعبية الصناعية التي تزعمها بنك مصر وبعض  
الأفراد أمثال السيدة الجليلة هدى شعراوي التي أنشأت مصنع الخزف  
لكننا اليوم في عداد الأمم التي كتب عليها الموت •  
ورحم الله حافظا حين يقول :

أرونى نصف مخترع أرونى ربع محتسب  
والواقع أن الاختراع لا يأتي دوره الا في المرحلة الثانية وأنا لازلنا  
في المرحلة الأولى التقليدية التي لم تكتمل بعد حتى نرى الصناع  
والصناعة المصرية في كل مدينة وفي كل شارع وفي كل حارة • والتقليد  
مظهر من مظاهر ضعفنا ولكننا اذا أحسنا استغلاله كان مظهر قوة  
وحياة اذ لولا قوة التقليد عند النجار المصري لما أمكنه اليوم أن يعيش  
ويتمكن بمجرد النظر الى المعروض في البيوتات الافرنجية من صنع  
أثاث يضارعه جودة وحسنا وييزه بشمه الزهيد •

ولولا قوة التقليد لما تمكن بعض الجنود المصريين الأميين من  
ممارسة الآلات الفنية الدقيقة الحديثة في أشهر قلائل مع أن حسن  
استعمالها يتطلب سنوات في الجيوش الأوروبية •

ولكن هذه القوة التقليدية التي تنم عن ذكاء المصري الفطري  
ومهارته اليدوية يجب أن تصل الى حدود الدقة والاتقان في الجزئيات  
والكليات • في المنظر والمخبر • ولن تصل اليها الا اذا كان لها سناد  
من الذوق السليم والفكر •

السياسة الاسبوعية في ١٦/١٢/١٩٣٩



## عصر الانتقال

قلت في مقال في « السياسة الأسبوعية » ان عصر الانتقال في مصر دام قرنا ولما يبرح بعد .. في حين انه لم يدم الا سنوات معدودات في اليابان مثلا - واني لا أشك لحظة في أن الكثيرين سيرون بهذه الحقيقة مر الكرام مع أن لها خطرها .

وقد يخيل لي ان اليابان وغيرها دخلت في عداد الأمم الحديثة الفتية الناهضة المسلحة بالعلم بين عشية وضحاها ، وان انتقالها كان طفرة بالمعنى المألوف . والواقع ان اليابان أمة وثابة وكان ولا يزال وثوبها مطردا في الطريق لا يعوقها عائق . وكان ولا يزال شعبها يعرف معنى الكفاح في الحياة يقظا طموحا درس قاداته خطط الإصلاح في الغرب ورسموا له خطة محكمة كالخط المستقيم يندفع عليه بكل قوته اندفاع القطار ، في حين اننا في مصر نسير على خطط متنوعة وفي كل خطة تعاريج ودوائر ووقوف واصطدام وقادة مختلفون متنازعون ودجال في زى مصلح وسياسي مغامر يهزل خلف الستار ولكنه يندب على المسرح ويمثل مأساة البلاد حتى ليكاد الفلك الدوار يقف ذاهلا .

وفي اعتقادي أن عصر الانتقال في الأمم الأخرى مرحلة واحدة قوية ، ولكنه في مصر مراحل طويلة كل مرحلة كالليل الذي لا ينجلي بصبح ، تتقدم فيها تارة وأخرى نرجع القهقري ... ينهض بنا الذكاء ويقعد بنا الخلق بين التقليد الأعمى والجمود الغبي .

ولا يتوهم أحد أني ممن يعتقدون أن مصر ليس في مقدورها أن تسير قدما بقوة الحافز الشخصي وأن تطير بجناحيها في ميادين العلم والفن . أذكر أن أحد كبار المؤرخين الفرنسيين قال لي ذات يوم ما معناه: ان شعب مصر لم يكن له وجود في عصر محمد علي وان حركة الإصلاح



كانت سطحية شبيهة بالحركة التي قام بطرس الأكبر في روسيا • وقد رددت على الفور بأن فريسنيه وزير فرنسا الأكبر اعترف في كتابه عن مصر بأن محمد علي تمكن من جعل مصر تلعب في وقت من الأوقات دور دولة عظمى •• وأن محمد علي لو كان أتاح له القدر أن يحكم في تونس أو الجزائر بدلا من مصر لما كان في وسعه أن ينهض بشعبها تلك النهضة الكبرى في ثلاثين أو أربعين عاما •

وليس أدل على ذلك من أن العاطفة القومية تجلت لأول مرة في شكل محسوس عند موت محمد علي ، كما تجلت فيما بعد في ثورة عرابي وفي جنازة مصطفى كامل وفي ثورة سنة ١٩ •

وقد فطن بعض المعاصرين الى هذه الحقيقة ولكن البعض الآخر لم يفتن اليها ظنا منهم ان عصر الانتقال يجب أن يطمس معالم القديم جملة ويرفع رايته في كل مكان حتى يقال انه أدى رسالته ناسين أن عصر الانتقال في مرحلته الأولى يعنى بالجزئيات عنايته بالكليات ، وان الجزئيات عدد النجم والحصى ونقط الماء في المحيط لا تدخل تحت الحس ولا تحصرها عين ، وان نتائجها البارزة لا تبدو دفعة واحدة وان الأمور مرهونة بأوقاتها •

وقد بدأت النتائج الاجتماعية للسياسة العلوية تتجلى في عصر اسماعيل • وفي عصر اسماعيل بدأت سياسة التقليد بمحاسنها ومساوئها تغزو المجتمع المصرى • ويمكن القول بأن العظمة المصرية قد بلغت أوجها في عصر اسماعيل ، ولكن عوامل السقوط كانت نضجت في الوقت نفسه ، ومهما كان من الأمر فقد اعترفت التيمس بأن ما أحرزته مصر من تقدم فى سبعين عاما لم تحرزها أمم أخرى فى خمسمائة • والواقع أن عصر الانتقال الذهبى كان بين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨٧٠ ، وقد قام الدليل من ذلك الوقت على أن مصر وطن العبقرية والتطور • ولاشك أن مرحلة الانتقال الثانية قد مضى عليها سبعون عاما أو أكثر ولا تزال مضطربة لا استقرار لها ، واذا صرفنا النظر عن التقدم الطبيعى



الذى هو فى سليقة الأشياء خيل الينا اننا نظل جامدين والأرض تدور ،  
أو اننا نسير الى الوراء واننا محرومون من هذه القوة النارية  
( الديناميتية ) التى امتازت بها بعض النهضات الحديثة . .

ومن الحق أن تقول : ان طور الانتقال فى مصر غيره فى الأمم  
الأخرى : وان مشكلة القيادة الصالحة اذا حلت فى بلد أوربى أمكن  
توجيه المجتمع فى اتجاهات معينة . ولكننا فى مصر نواجه مشكلتين :  
مشكلة القيادة التى تدرس الخطط وتفكر وتنظر ، ومشكلة المجتمع  
الذى لا وحدة له .

ومما يؤسف له ان الزعماء السياسيين ، والكتاب المصريين بصفة  
عامة ، لم يفكروا قط فى الناحية الاجتماعية من الحياة المصرية ، مع أن  
هذه الناحية جزء لا يتجزأ من البرنامج السياسى لكل أمة ، وكان يجب  
أن تكون شغلهم الشاغل فى كل صباح وفى كل مساء . وقل أن نرى  
وزارة تصل الى الحكم ببرنامج معين وخطة مدروسة ، وزارة  
تجىء لتنفذ .

\* \* \*

على أنه لو وجد القائد المصلح المدير اعترضته عوائق الاجتماع  
المصرى . وهذه عقدة العقد . لأن المجتمع المصرى هو الأصل والكل  
فى الكل . . . . . ولأجل أن نستبين خطر الموضوع يجب أن لا ننسى أن  
المدنية منذ القرون الوسطى أخذت تتدرج وتتغلغل فى ثنايا الحياة  
الأوروبية تدرج الفجر فى الليل حتى غمر الآفاق نورها بعد أربعة قرون .  
وقد كان المجتمع المصرى فى بداية القرن التاسع عشر فى نظامه  
الدينى والاجتماعى والسياسى يمثل القرون الوسطى المتأخرة . فكان  
كالنائم الذى أيقظه هدير السيل الجارف من الغرب . فلا هو فى مقدوره  
أن يعترضه ولا هو فى مقدوره أن يظل مكتوف اليدين . وليس عنده  
متسع من الوقت أو القوة تسمح له بوضع خطة محكمة تحمى طور  
الانتقال من الأخطار الطبيعية المحدقة به .



ولو كانت مصر مطمئنة على سلامتها ومركزها السياسى لأمكنها مواجهة حالة الانتقال بكل قواها • ولكن أوروبا المعزة المذلة أبت على مصر أن تعيش وأن تؤدى رسالة المدنية فى الشرق ، وقد عاكستها فى الخارج وعرقلت تقدمها فى الداخل بالامتيازات الأجنبية •

ولا يمكن درس تطور مصر الاجتماعى أو العقبات الملتوية الكأداء التى أخصب منها عصر الانتقال الا اذا عرف المصريون حقيقة الامتيازات الأجنبية فى القرن الماضى وكيف كان ممثلو سبع عشرة دولة متمدينة فى مصر يغفلونها كل يوم ويضربون كرامتها بالعصا •

كان على مصر اذن أن تدافع عن كيانها فى الداخل والخارج ، وكان عليها أن تنتقل فجأة من حالة القرون الوسطى الى حالة المدنية الأوروبية ، وأن تطبع فى الوقت نفسه هذه المدنية بالطابع الشرقى الذى يلائم البيئة والزمان مما كان يستلزم احباء آداب الغرب ولغتهم والتوفيق بينها وبين آداب الغرب وعاداته •

ولكن بدلا من الجرى على سياسة عامة اصلاحية متماسكة تندفع كتلة واحدة - تعددت المذاهب والملابس والمشارب وصارت نظمتنا بعد قرن وأكثر خليطا من القرون الوسطى والقرن العشرين • فترى الأزهر الى جانب الجامعة يتزاحمان ويتدافعان • والمحاكم الشرعية الى جانب المحاكم الأهلية والمختلطة ، واللغة العامية الى جانب اللغة الفصحى • وهلم جرا ! وفى العالم كله جامعة واحدة ومحاكم واحدة ولغة واحدة •

ولا ريب أن مشكلة اللغة مشكلة عويصة متشعبة عسير حلها • فقد ارتفعت لغة الكتابة والدواوين منذ عصر محمد على ، ولكن وجود لغتين تمثل فى احدهما ، وهى اللغة العامية ، الروح المصرية الصحيحة ، روح النكتة والتهمك ، يزيد الأمر تعقيدا كما أن النهوض باللغة الفصحى ، وقد أصبحت من أفقر اللغات بعد أن كانت من أغناها ، مهمة شاقة مهما ادعى المدعون وزعم المتفقهون •



والواقع أن اللغة ابتليت من ناحية بداء الجمود الذي أفقرها ومن ناحية أخرى تهاطلت عليها غزوات اللغات الأجنبية وقد كانت هذه الغزوات المتتابة في أوقات الضعف والاستسلام منشأ انتشار اللغة العامية ، ولا زالت اللغات الأجنبية تهددنا ما بقينا جامدين ننتظر الغوث من المجمع اللغوى الذى لا يحيى ولا يميت .

وإذا نظرنا الى طبقة الشعب وجدنا أن الأمية من أكبر أسباب تأخرها ، وقد أصبح الشعب يجد عيشة راضية في الجهالة والحياة الهادئة التى تقنع بالدون وتجد في البطالة والافتكال مرتزقا ومنتجعا ، أما طبقة الحكام والمتورين فإن وجود أقلية تركية شركسية خارجة عن الأمة متعالية تحقر الفلاح والمصريين كان يفت في عضد الأمة ويعوق سيرها — وكانت الثورة العرابية مظهرا من مظاهر ذلك الانقسام لأنها كانت ثورة فلاحين يقودهم أحمد عرابى ( المصرى ) ضد العنصر الأجنبى وقد اندمجت الأقلية التركية بعد الثورة في كتلة الأمة .

ولكننا فى داخل الكتلة نواجه اليوم الرجعيين وأنصار الجمود تارة، وتارة المقلدين والسطحيين الذين يخرون ساجدين أمام كل ما هو أجنبى ويسخون بمالهم لكل ما هو أجنبى ، ولقد أعلن جمال الدين الأفغانى وتلاميذه الحرب على رجال الرجعية فى الدين لأنهم أعداء كل إصلاح ورأس كل بلاء . كان جمال الدين يرى أن الإصلاح الدينى فى مصر والشرق هو أساس كل إصلاح اجتماعى بل وكل إصلاح سياسى . وكان من رأيه أن نأخذ عن أوروبا علومها وصناعاتها لنتمكن من محاربتها بأسلحتها ونوفق بين الدين والعلم فننخذ منها أداة ثورة وحياة .

ولكن أوروبا كانت يقظة ، فنفى جمال الدين وقضى على الحركة العرابية وعاد نفوذ الرجعيين والمقلدين وظل بينهما عصر الانتقال فى مضطرب واسع . ومن مظاهر هذا العصر استدعاء الخبراء لسبب ولغير سبب والشح فى الاتفاق على كل عمل نافع والاسراف فى الكماليات والحفلات وما إليها ولو ركبنا الدين ونضبت الموارد .

ومن مظاهر هذا العصر استحوаз القلق على النفوس واعتلال المقاييس التي تقاس بها القيم والأقدار وميل الموازين مع الهوى ، وفقدان الطابع الشخصي والقومي ، طابع العبقرية ، في آدابنا وعلومنا وصناعتنا وقوانيننا وعاداتنا ، والخوف من كلمة الحق التي نقر منها فرار السليم من الأجر ، وتملق الأقوياء والجور على الضعفاء . وقد وهبنا الله ذكاء فطريا لو أرصدناه لتحقيق مثلنا العليا لا تقلب الوضع ودانت لنا الأرض واحتلنا فيها مكان السادة ، والدنيا لمن غلب ولمن جاهد وعاش في ظل العزة والحرية والكبرياء .

السياسة الأسبوعية في ١٩٣٩/١٢/٣٠

ذلك ان حياة مصطفى القصرى لم تكن حياة حياة من عيشه  
 بل حياة من عيشه في العمل والجهاد .  
 مصطفى القصرى كان يملك قلبه رغبة في بناء  
 في عطاءه في كل يوم .  
 انما كان يملكه بالثورة والجهاد .

• عند تخرجه من الكلية كان مصطفى القصرى  
 وقد كان مصطفى القصرى يجمع بين العلم والعمل في  
 الفكر .

انما كان مصطفى القصرى يملكه بالثورة والجهاد .  
 مصطفى القصرى كان يملك قلبه رغبة في بناء  
 في عطاءه في كل يوم .

انما كان مصطفى القصرى يملكه بالثورة والجهاد .  
 مصطفى القصرى كان يملك قلبه رغبة في بناء  
 في عطاءه في كل يوم .  
 انما كان مصطفى القصرى يملكه بالثورة والجهاد .  
 مصطفى القصرى كان يملك قلبه رغبة في بناء  
 في عطاءه في كل يوم .



## مصطفى كامل

في يوم ١٤ مايو سنة ١٩٤٠ ألقى رئيس الحكومة السياسي الكبير  
حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا بين يدي جلالة الملك  
الخطبة الآتية بمناسبة ازاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل وقد كان  
على ماهر باشا عهد الى المؤلف بكتابتها :

\*\*\*

مولاي صاحب الجلالة :

تفضلتم جلالتم بتشريف هذا الحفل بالحضور وهذا حادث له  
مغزاه وروعته وليست هذه أول مرة نرى فيها ملك البلاد حفظه  
الله ورعاه ، يعنى بمصالح هذا الشعب ويعمل على مشاركته في عواطفه .  
وإذا كانت يد الملك سترفع الستار عن تمثال مصطفى كامل باشا  
فقد رفعته عن ماجد محض كان سجيناً فأفرجت عنه .

مولاي :

جئنا لنحیی تمثال مصطفى ، فلنقف خاشعين أمام الذكرى كلما  
ذكر مصطفى وظهر اسمه في هالة من المجد ، وانتشر ذلك النور  
الساحر الذي يملأ النفوس رهبة واجلالاً .

في هذه الساعة يطيب لنا أن نجتمع في ظل المبادئ التي أفنى نفسه  
وجسمه في سبيلها ، في ظل الاخلاص الذي مات عليه فأحيا أمة ودفع  
شبابها الى ميادين الكفاح والعلا .

نجتمع أمام ذلك التمثال الذي يحرك النفس وهو صامت ، لأن  
جلال التاريخ وجلال الذكرى في شخصه يلتقيان .

كان مصطفى أول من حمل لواء الحرية بعد أن طوى زمانا ، وكان

أول من صاح تلك الصيحة في طول البلاد وعرضها صيحة التضحية ،  
صيحة الحرية ، صيحة الحب ، صيحة الحياة :

« بلادى بلادى لك حبي وفؤادي ، لك حياتي ووجودي ، لك  
دمي ونفسي ، لك عقلي ولساني ، لك حبي وجناني ، أنت ، أنت الحياة ،  
ولا حياة الا بك يا مصر » ! •

مولاي :

نقرأ اليوم خطب مصطفى ، فلا نرى فيها أثر البلاغة والتنميق ،  
ذلك أن بلاغته كانت روحانية بلا جسم ، ليست بحاجة الى صلة أو سبب  
مادى لتصل الى النفوس وجوها •

ذلك أن حياة مصطفى القصيرة ، لم تكن كحياة غيره من الزعماء  
والقادة سلسلة أعمال توصف وتحلل ، وانما كانت هذه الحياة كلها ،  
التي تعلو على كل حصر وتحليل ، صوتا يخيل الى سامعيه انه يهبط  
من السماء ، صوتا كصوت الماضي رن في الوادي فانتبه ، ولا تزال  
أصدأؤه تتجاوب وتمتد بعد الموت •

وقد كان مصطفى يجمع بين أقدام الشباب واثزان الكهولة في  
الفكر •

وهذه المبادئ التي استمدتها من وحي الوطن واتخذها ستارا  
لجهاده قد دلت التجارب والمحن على أن راسمها كان بعيد النظر سليم  
التفكير •

كان مصطفى مقداما يخلق الحماسة ويتعهد لها لأنه يعلم أن الحماسة  
في حياة الأمم تنزل منها منزلة الروح من البدن وأن الشعب اذا غابت  
عنه الحماسة غابت عنه الحياة ، فكان يعمل ليله ونهاره كاتبا وخطيبا  
على تغذية العاطفة الوطنية وايقاظ الجماهير التي كان يجذبها بشخصه  
وايمانه وشجاعته •

كان مصطفى يحمل في قلبه صورة الوطن الحي أتتى سار أو أقام ، فكان



قلبه مقتدرا على جميع القلوب تخفق كلما خفق ، وتشاطره حمل  
السراء والضراء ، وكان الشباب — شباب الوادى وعدته — جنوده  
المجندة تأتلف حول لوائه ، وكان هو قائدها وهاديها •

كان مصطفى شعلة ذكاء وحماسة وكان خير محام عن خير قضية ،  
وكان فى دفاعه يهب لنصرة الحق والعدل ، وكان جلدا على الكفاح ،  
لا يبرح يناضل حتى يصرع الباطل ويرمى السهم فى مقاتله •

وقد صبر وجاهد واحتمل الأذى فى سبيل مصر ، فى سبيل النيل  
وواديه ، فى سبيل تلك القرى والمدائن الجاثمة فى حوض الوادى ، فى  
سبيل ذلك الأفق الضاحك بين جنات النخيل والأعناب ، بين هزج  
السواقي وأغانى الملاح •

وقد تغلغل حب مصر فى فؤاد مصطفى لأن حبه كان صادرا عن  
عاطفة وعقل وعلم ، وكان ذلك الحب لا تشوبه شائبة من مطمع فى  
مادة أو جاه •

كان مصطفى مصريا صميما يحب مصر وفلاح مصر حافظ كيانها •  
ذلك الفلاح الذى هو نحن وأنتم ، الذى هو مصر من طيبة الى  
الفسطاط والقاهرة ، والذى طبع البلاد بطابعه ، وانضمت كتلته على  
الغزاة ، فأفنت شخصيتهم فى ثناياها •

وقد كان المصريون فى أدوار تاريخهم سلسى القيادة لكل زعيم  
يخرج من صفوفهم ، ويعرف كيف يسوسهم ، ويتخذ لنفسه نقطة  
ارتكاز فى قلوبهم ، وفى صميم احساساتهم وعواطفهم ، وفى شجاعتهم  
وايمانهم ، وفى أرضهم ولغتهم وقد ولد مصطفى فى مصر ، وحك جلده  
بأرضها العراء طفلا ، ونشا حرا ، وعاش حرا •

وها نحن أولاء نقف أمام تمثاله ويخيل الينا أن الحياة تدب  
وتتقلقل فى كل ذرة ساكنة منه ، وان وراء هذه المادة قوة خفية لاتزال  
تدفع الشعب الى غاياته الكبرى •

مولاي :

في هذا اليوم الذي تتطاحن فيه الأمم ذودا عن كرامتها ، وتدعيما لشخصيتها وحرقاتها ، تقف أمام تمثال مصطفى في حضرة المليك ، وقد اجتمع العرش والأمة في صعيد واحد ، لا يفصلهما جدار ، متعاونين متساندين في سبيل اعلاء كلمة الحق •

مولاي :

مات مصطفى ، فكان موته أول شاهد على تغلغل الروح الوطنية في مختلف الطبقات ، وأول دليل على أن في هذه الأمة قوة بل قوى حيوية كامنة ، اذا وجدت من يحركها ويتعهددها ، أتت بالمعجزات • فلنذكر مصطفى ، ولنظف بتمثاله ، ولنأخذ من موته معنى الحرية

والحياة •



## ملحة

### إلى نهوض الأمم وسقوطها

#### مهداة إلى طه حسين

بعض الأمم كالأفراد نراها رفيعة العماد عجلة الساعدين ، على وجهها  
نضرة وبشاشة ، وإذا بها تهوى الى الحضيض وتحول حضارتها كومة  
من رماد وأطلال تقف منها موقف أبي تمام من عمورية •

ولا الخدود وان آدمين من خجل أشهى الى ناظرى من خدك الترب  
ذلك لأن الصحة البادية كانت تخفى علا باطنة وأدواء مزمنة خفيت  
عن الأعين أو تغلبت عليها عناصر القوة والحياة زمانا ، وربما كانت  
هذه القوة أو الصحة المرهونة بوقتها من فعل رجل كبركليس ظهر  
في الدولة اليونانية ، وقد مال ميزانها واعتلت داخلتها فمنعت شخصيته  
البيان أن يتداعى • فلما زال كشفت الدولة عن ساق عاهر ورفع لواء  
الفتنة ، وطلع الصبح على أنقاض وماسى ••

وهناك أمم تبدو عليها عوارض المرض والاضمحلال حتى اذا جد  
جدها وأذن مؤذن الخطر ، انتفض القوم وظهرت الفضائل الكامنة في  
نفسية الشعب وذهبت العلل وامتلا جسم الدولة صحة ونشاطا فتلاشت  
سياسة الضعف والاستسلام أمام قوة نارية جديدة تصهر النفوس  
وحلت عبادة المثل العليا محل عبادة الأصنام •• وحلت حياة الكفاح  
الخشنة محل الحياة المترفة الناعمة التي تجلبها الحضارة بتطريتها •

وكثيرا ما تكشف الحرب ، وهى امتحان الأمم ، عن قوتها وصلابة  
عودها أو عوامل ضعفها وتقدمها وتأخرها • وترجع أسباب الحروب  
الحديثة الى الجشع وحب التوسع والأنانية والخضوع لسلطان الآلة  
التي تهيمن على الأرض والسماء وتحجب عن الناس صورة الخالق •

ولا ريب أن كل مدينة تحمل في طياتها جرثومة الفناء ، وان نظام هذا العالم قائم على الاضداد وعلى معنى التوازن والموازنة في جملته وتفصيله ، وليس في مقدور الانسانية البائسة في جبروتها ، التعمسة في عزها وأبهتها ، ان تغير وجه الكون ، وهى تلعب على ظهره لعب الوليد ، ولا أن تغير قانون الموت والحياة أو تمنع الشر من مطاردة الخير ، والظلمة من محاربة النور ، وقوى البغي والعدوان من الاغارة على الضعيف الأعزل واذلاله .

وليس في مقدور أية قوة ، مهما تبلغ ، تغيير نظام هذا العالم وتبديل دعائمه ، ولكن في مقدور الكتاب والمفكرين أن يخففوا من ويلاته وغلوائه وأن يصيخوا في الناس صيحة الحق مهما تنكاتف قوى الشر وتصطليح على خنقها .

وقد ينزوى الكاتب في الظل ، والألم يحز في كبده ، أمام المنكر الفاشى والحرية التى تضطرب رجلها في القيد . وقد يتوهم البعض أن ذلك الظل المستعر رطب . . ذلك ظل ذو شجى يحتوينا ، وقد تكون الشمس أحنى علينا منه .

في ذلك الظل معنى التضحية الصامته ، معنى الألم ، معنى الحياة ، وليس حراما علينا من آونة لأخرى أن نفر من المكان في الزمان وأن نفر من ذلك الظل الذى لا يتزحزح ، كظل الأجنبي ، في ظلال الماضى الرطبة التى نستمد منها الوحي والقوة والالهام .

الأهرام فى ١١/٧/١٩٤٠



## علل المجتمع المصري

لكل مجتمع علله وآفاته ، ولكننا اذا استعرضنا علل المجتمع الأوربي كانت هذه العلل خاصة بمجتمع قد تهيأت له جميع الشخصيات القومية ، وتجلت مظاهر القوة ومظاهر الضعف فيه . أما المجتمع المصري ، فهو مجتمع في طور الانتقال ، وقد بدأت مرحلة الانتقال هذه منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولم تنته الى اليوم . في حين أن شعبا كالشعب الياباني قطع فترة الانتقال في سنوات .

فما لاشك فيه ، مثلا ، أن اللغة قد قطعت شوطا في طريق التقدم والدقة والمرونة ، فتركنا السجع والاطناب وما اليهما ، ونحت الكتاب ألفاظا جديدة ردت الى اللغة شبابها وبهاءها ، ولكن اللغة لا تزال بعيدة من غاياتها ، ولا تزال في حالة انتقالية ظاهرة ، كما لا يزال تعليمنا العالى في الأزهر والجامعة ، وكذلك محاكمنا وقوانيننا مزيجا من تعاليم القرون الوسطى والعلم الحديث ، كما أن حركتنا النسائية يتجاذبها عامل الرجعية والعزلة والجمود من ناحية ، وعامل الطفرة والمطالبة بالغاء نون النسوة من ناحية أخرى .

ومعلوم أن كل حركة تتجاذبها عوامل متضادة ، ولا تجد قادة يدفعونها بقوة في طريق الانتقال والتجديد ، لا بد أن تضرب في سيرها ، وأن تتعثر وتتباطأ ويختل نظامها .

وهذا الاضطراب ، أو التردد ، يعتور جميع حركاتنا الاجتماعية ، لأن قادة الرأي مختلفو الأمزجة ووجهات النظر ، ولم نسمع مرة أن مفكرينا وضعوا أساسا ثابتا لاقامة اصلاح ، بل يغتبط كل منا ، وكل منا مطبوع على الأنانية وحب التفرد والظهور ، بأنه صاحب المشروع الفلاني ، فيجب أن يسجل التاريخ باسمه — فردا كان أو حزبا —



ذلك المشروع • أما كيف يدرس المشروع ، وكيف ينفذ ، وهل ينفذ دفعة واحدة ، أو على مراحل ، وهل يراعى في تنفيذه الحال والمستقبل ، وارتكازه على قواعد من البيئة والظروف ، فهذا كله في المحل الثاني •  
وها نحن أولاء قد أنشأنا جامعة فؤاد في القاهرة ، ثم أنشأنا جامعة فاروق في الاسكندرية ، ونفكر في انشاء جامعة ثالثة في أسبوط دون أن نتأكد من أن أولاء بلغت الكمال كله أو بعضه ، وحققت أغراضها في خدمة العلم الصحيح • وقد أنشأنا في احداها صالة احتفالات بلغت تكاليفها ، فيما يقال ، مائة وأربعين ألفاً من الجنيهات ، بينما يشقى بعض علمائنا وأدبائنا الأعلام في الجرى وراء القوت اليومي ، ولا يجد بعض طلبة العلم ما يسدون به رمقهم في بعثة علمية منزهة عن المحسوية وما إليها •

الواقع أن عللنا وآفاتنا كثيرة نشأ معظمها من الاستعباد وطول عهوده ، وقد أصبحنا وفيينا مركب الشعور بالنقص *complexe d'infériorité* وهذا واضح جلي في « معاملات » المصريين والأجانب ، وما بقيت هذه العلة بغير علاج حاسم فستظل « الامتيازات » في نفوسنا وأخلاقنا وان تكن قد محيت في الورق والمعاهدات •

وقد أصبحت هذه الحالة مدعاة لليأس والتشاؤم ، ففريق من المصريين يقول : انه لا أمل في اصلاح هذا الشعب • وفريق من الأجانب ، وعلى رأسهم المؤرخ الكبير جبرائيل هانوتو ، يقولون : ان مصر لا غنى لها عن الأجانب ، وان مركزها الجغرافي الى جانب ذلك يفرض عليها قبول سيطرة الدولة التي تهيمن على البحر الأبيض ، أى قبول الاستعباد في شكل من أشكاله •

وقد أخطأ الفريقان في نظرهم وتشاؤمهم ، ويرجع ذلك الخطأ الى أنهما قد أصدرتا حكماً على الشعب المصرى باعتباره قد استكمل أدواته للكفاح ، وأخذ أهبطه وجرب وكبر واستقر ، وبعبارة أخرى قد قطع مرحلة الانتقال وظهرت ملامح شخصيته الثابتة من حسنات وعلل وعورات •



ولو أنهما انتبها الى أن حالة مصر اليوم لا تزال حالة انتقالية ،  
وأن بعض العلل التي نراها ليست من العلل « المزمنة » ، وقد تكون  
غريبة عن جوهر الخلق المصرى الصحيح ، وانها اذا عولجت انتفت عنه ،  
وزالت كما يزول كل عرض ، أقول لو أنهما انتبها الى ذلك لفهما أن  
تشاؤمهما أكبر خطر يتهدد الفكرة الاصلاحية بل وكل فكرة تطمح الى  
المثل العليا ، والسير بالبلاد الى غاياتها .

الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥

الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥

الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥

الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥  
الرسالة فى ٥ فبراير سنة ١٩٤٥

## في الحياة المصرية عوامل اليأس ، وعوامل الأمل

في كل بلد عوامل يأس وعوامل حياة تتنازعه وفي كل بلد متشائمون ومتفائلون من المفكرين الى الطبقات الدنيا ، وفي جميع الأمم الحية ترى الكتاب والساسة يفتشون عن أسباب النقص والجمود والتأخر كما يفتش الطبيب عن مواطن الداء . . . . وتارة يفتشون عن مظاهر القوة والحيوية الكامنة في جسم الأمم لينعشوا الحياة في البلاد ويغذوا تلك القوة الدافعة .

وكل هذا وذاك يحتاج الى دراسة نظامية يعنى بها الصحفي والكتاب ، والاجتماعي ، والزعيم . ولكننا في مصر لا نجهد أنفسنا كثيرا في الدرس وتحليل العوامل المختلفة . ولقد أجهد المصلحون أنفسهم كثيرا في مصر والشرق وضاعت بعض جهودهم بل شقوا واحتملوا في سبيل رسالتهم كل أنواع الأذى والاضطهاد فإكتفينا بإعلان اليأس من حالتنا واكتفينا بالقول اجمالا أن أخلاقنا علة العلل ، أو اكتفينا بإعلان أملنا القوي في مستقبل البلاد بطريقة تستند الى الالهام أكثر منها الى العلم والتمحيص .

ولو أننا التفتنا الى دراسة عللنا الاجتماعية لوجدنا صحفنا الكبرى تزخر كل يوم بالأبحاث القيمة كما هو الشأن في الصحف الأوربية . . . وهؤلاء الانجليز خصومنا من أقدر الأمم على درس نفسية الشعوب التي تربطهم بها صلة ، وهم يعرفون نفسيتنا ونفسية كل رجل ظاهر في هذا البلد خيرا من المصريين أنفسهم ، فهل نعرف نحن نفسياتهم ، أو هل نعرف نفسيتنا ونحن تفاوضهم؟! .



تجد في فرنسا مثلاً ، في كل عهد وكل جيل ، علماء فرنسيين يعرفون اللغة الانجليزية والآداب الانجليزية كما يعرفها الانجليز أنفسهم ، وهم يؤلفون فيها كتباً تترجم الى اللغة الانجليزية ، وحسبى أن أذكر الأستاذ ليجوى والفيلسوف تين ، وتجد فيها أساتذة أمثال زيجفريد يضعون كتباً في تحليل نفسيه الشعب الانجليزي ودرس تاريخه .

وقد ظل الانجليز في مصر أكثر من ستين عاماً وهم خصوم جابرة عتاة فهل عرفناهم كما يعرفهم الغير ؟ .. وأعود وأقول ، وهل عرفنا أنفسنا !? ..

انى أذكر بهذه المناسبة انى حضرت أخيراً اجتماعاً فرنسياً في مصر خطب فيه الخطباء من مصريين وفرنسيين وكانوا جميعاً يذكرون نفوذ فرنسا في مصر منذ القدم ، ويعزون ميل المصريين الى الفرنسيين وآدابهم ، رغماً من السيطرة الانجليزية ، الى حب فرنسا والتعلق بها ، فعجبت من هذه السذاجة وقابلت رئيس الاجتماع وهو فرنسى وقلت يظهر انكم تجهلون العوامل الأساسية لذلك الميل ، تجهلون الوشائج الروحية والتشابه في الأخلاق صالحها وطالحها عند شعوب البحر الأبيض كافة ، تجهلون روح النكته والتهكم المر المنتشرة في شعبكم وشعبنا ، تجهلون روح الهدم ، تجهلون روح المساومة في المعاملات ، تجهلون ذلك التبسط والثروة وأخذ الجار « بالحضن » في القطار والشارع ، تجهلون التراشق بالألفاظ الشديدة وحب « الخناقة » والتحمس و « الضرب بالكراسى » في المقاهى والأندية ، تجهلون ذلك وغير ذلك مما لا تجده عند الشعوب السكسونية ، شعوب الشمال ، ولكنه « مشترك » عند شعوب الجنوب يؤلف بينها ! .

وقابلنى مرة في باريس أحد كبار المؤرخين وجاء ذكر محمد على فقال ان شعبكم لا وجود له كما كان شعب روسيا لا وجود له في عهد المصلح الكبير بطرس الأكبر ، فقلت له ولكن لو قام محمد على باصلاحاته في شعب آخر من شعوب أفريقيا هل كان يجد هذه الحيوية

الكامنة في « عجينة » الشعب ومادته ؟ وهل كان في مقدوره أن يخلق  
في سنوات عمالا وصناعات وجيوشا غازية و . . . و . . . فبهت  
الرجل ولم يتكلم . . .  
ومن العجيب أنه وجد في عصر محمد علي صناع مصريون قادرون  
خرجت من صنع يدهم آلات جراحية دقيقة، أولئك الصناع لا نظير لهم  
اليوم بعد قرن من الزمان ، ووجد في عصر سعيد مهندسون مصريون  
كانت دراساتهم لمشروع القناة في مقدمة المشاريع التي قام بها مهندسون  
عالميون ؟ ووجد فيما بعد القواد والمهندسون وأركان حرب وغيرهم  
مما لا نجد لهم شبيها اليوم بعد ما نعنا بنعمة الادارة الانجليزية ،  
ثم يقول لنا الانجليز بعد ذلك وعلى رأسهم تشرشل وايدن اننا مدينون  
لهم بكل شيء . . . !!

ان في شعبنا قوة عبقرية نجهلها نحن فاخلق بها أن تشد عزائمنا  
وأن تلهمنا الصبر على البأساء فلکم صبرنا ، والرجال الأقوياء لا يعرفون  
اليأس ويسمون للحوادث . . .

الكتلة في ١٥/٦/١٩٤٦



## نظرات في السياسة والاجتماع

### اليأس من الإصلاح

ركبت القطار من « كبرى الليمون » ، وتحرك القطار ، وكان بجوارى « أفندى » محترم ضخم الجسم وسيم الطلعة يضاوى الوجه في استدارة ، كبير الشاربين ، وما عثم أن شاهد راكبا واقفا بطريقة غير نظامية فصاح في وجهى « انها فوضى . . فوضى . » يريد أن الفوضى عامة . وقد اعتدت أن أسمع هذه الصيحة في كل مكان كما أسمع صيحة « الاصلاح » فاكنتيت بالنظرة الصامتة . ثم مر مراقب التذاكر فأخرجت « تذكرتى » واكنفى جارى بالسكوت والتربع فى وقاره وأبهته كمن يحمل « اشتراكا » فذهب المراقب لحاله ، واستمر القطار يطوى المسافة ويقطع المحطة بعد المحطة . حتى اجتزنا « حمامات القبة » وصعد أحد المفتشين وطلب التذاكر والاشتراقات . فأخرجت تذكرتى . . أما الرجل الضخم الذى كان يقول « فوضى ! فوضى ! » فقد تضاءل دفعة واحدة واتضح أنه كان لا يحمل اشتراكا ولا تذكرة ، فلما سأله المفتش عن المحطة التى ركب منها ، ليتقاضى الأجر ، قال « حمامات القبة » ثم دفع الثمن أو بعبارة أدق نصف الثمن فقط لأنه ركب نصف المسافة بالمجان . . فكدت أصيح فى وجهه بدورى « فوضى ! فوضى ! » ولكنى ملكت نفسى حتى نزلت فى المحطة التالية واتجهت الى منزلى وصيحة هذا الرجل لا تزال تدوى فى أذنى وصورته « الوجيهة » ماثلة أمامى بين التضخم والتضاؤل والجبروت والذلة .

هذا الرجل مثل من أمثلة النفاق ، وهى كثيرة فى مصر ، نصيح ضد الفوضى ونطالب بالاصلاح ، ولكن كل واحد منا يلقي الحمل على الآخر ، وينافق ويدجل ، ويصيح مع الصائحين ويصنفق فى المرحح



مع المصنفين ، وأصبحت الرواية لا تنتهي فصولها كأنها ألف فصل •  
بل أصبح الكثيرون من العقلاء في يأس من كل اصلاح أمام سيل  
الحقائق التي تصدمنا كل يوم • وما تسرب اليأس الى ارادة الاقتلها  
وفت في عضد الأمة وساعدها • وقد ظهرت عبقرية مصطفى كامل في الكتابة  
على راية جهاده كمبدأ من مبادئ المصريين الأساسية « لا حياة  
مع اليأس » وظهرت عبقريته في قوله « لو لم أكن مصريا لوددت  
أن أكون مصريا » فان الثقة بالنفس هي لحمة الارادة وسداها فاذا  
انعدمت انعدمت الارادة ، وانعدمت هذه القوة الدافعة « الحركة »  
في حياة الأمم ، وانعدمت الشعلة النفسية التي تضيء في الساعات الحالكة  
والشدائد المريرة ، فحياة الأمم ، كحياة الأفراد ، جهاد مستمر ،  
وتضحية مستمرة ، ومن العيب أن نستسلم لليأس ونعيش في « البرج  
العاجي » أو أن نرحل الى بلد أجنبي وتترك ميدان الكفاح صاغرين •  
صحيح أن اذا العقل يشقى كثيرا في مصر ، ولكن في مقدوره أن  
ينعم فيها كثيرا ، وأن يجد في أرض مصر وفي طبيعتها ، وفي آفاقها  
الضاحكة ، ومروجها الخضراء ، وكرومها ونخيلها ، وهزج سواقيها  
وتدفق نيلها ذى الجلال ، عزاء وبلسما لجراحات الحياة • وفي مقدوره  
أن ينعم ويجد في دماثة المصريين ، وفي وجوههم السمحة ، وفي لونها  
الأسمر العتيق الذي نسجته الشمس ، وفي خفة الروح التي تملأ الوادي  
بهجة ، وفي ايماننا ، أكبر معين على احتمال الأذى ، كلما نزل الأذى بوادينا  
وأناخ بكلكل •

وقد قلت من قبل أن طينة المصريين طينة مباركة وأنها مملوءة بالحيوية  
الكامنة ، اذا وجد القائد أو الزعيم الذي يعرف كيف يوقظها أتت  
بالعجب ، ولولا تأصل الحيوية في هذه الطينة لما أمكن محمد على هو  
وأعوانه في سنوات من ايجاد أمة تلعب دورها في الحياة الدولية • وقد  
أثبت بالوثائق أن ابراهيم وحده كان يعرف كيف يقود جيشه في المعارك  
الرهيبية الى النصر وان القواد الأجانب من أعوان ابراهيم كانوا يفشلون



في اطفاء الثورات في الشام في حين ان ابراهيم كان يخمدتها كلما وضع  
نفسه على رأس الجند .

والثابت انه اذا وجد القائد أو الزعيم المحنك الذي تربط روحه  
بروح الجماهير صلات وشيخة انقادت له الجماهير المصرية اجنادا وأتت  
بكل معجز ، وقد كانت للحركة العراقية قبل نهايتها المحزنة صفحات  
رائعات ، وكان للثورة المصرية في أطوارها الأولى حين تسلطت عليها  
روح سعد آيات باهرات .

واذا عزت القيادة أو اضطربت هبط شعبنا من عل الى الدرك ،  
وهو شعب سريع الانفعال ، يعلو ويهبط في لحظة . متقلب غلبوى  
بالطبع أو كما يقولون « غلباوى » ، محب للنزاع والتقاضى ، مر التهمك ،  
جائر في خصومته لا يرحم ، منقسم على نفسه ، قد تأصلت فيه روح  
الانقسام منذ العرب كما تأصلت عند الروم منذ العهد اليوناني الأول .  
ولعل داء الانقسام هذا هو شر الادواء التي تهدد كياننا كشعب ، على  
اننا قد نشترك في هذه المساوىء الخلقية مع كافة شعوب البحر الأبيض  
وفرنسا الجنوبية بوجه أخص ان لم تكن فرنسا كلها . وهذا المصاب  
الخلقى المشترك هو الذى يفسر لنا تلك الحياة المضطربة الغريبة الأطوار  
في فرنسا وايطاليا وغيرهما في حوض البحر الأبيض .

على ان هذه الشعوب الأوربية قد وجدت في قاداتها من رجال السياسة  
والفكر وأهل العبقرية في معظم عصور ومراحل تاريخها من عرفوا  
كيف يغذون حيويتها الوقادة . فلا تلبث أن تنكشف الغمة ، وتنفرج  
عن شعوب تنشط وتتجدد وتزاحم بقوة في مضمار الحياة .

المصرى فى ١٩٤٨/٣/١

## نظرات في السياسة والاجتماع

### مصر والألعاب الأولمبية

نشرت احدى صحفنا الكبرى في ٩ مارس تحت عنوان « فريق مصر الأولمبي لكرة القدم • ضرورة ضم العناصر الممتازة اليه من الآن » ما يأتي :

« سبق لنا أن تناولنا هذا الموضوع لأهميته من حيث الاستفادة بجميع العناصر الممتازة في مختلف المناطق لتكوين فريق مصر الأولمبي وأن تجمع هذه العناصر لتوالى التدريب مع بعضها لايجاد التفاهم والارتباط بحيث يصبحون بعد ذلك كفريق واحد » ••

« ولقد كان رد المسئولين علينا قبل أنهم مقتنعون بصحة الرأي لكنهم يجدون صعوبة في الحصول على اجازات لهؤلاء الأفراد خصوصا وأن بعضهم يعمل في الشركات » ••

« وكان الوقت يجعلنا نتمشى قليلا معهم الا أننا الآن وقد أصبح الوقت الباقي للمنافسة الأولمبية لا يتجاوز الأربعة شهور يجدر بنا أن ننبه من جديد الى ضرورة الأخذ بهذه الفكرة والعمل على تنفيذها من جديد » •

وقد نشرت الصحيفة هذه الكلمة الجامعة أو هذه الصرخة الوطنية في صفحتها الرياضية وأخلق بمثل هذا الموضوع أن يعالج في « المحليات » لأنه من المواضيع العامة الهامة •

عراني الأسف والحسرة حين قرأت هذه الكلمة ورجعت بالذكريات الأليمة الى الوراء • فقد كنت في باريس في سنة ١٩٢٤ ، على ما أذكر ، وشاهدت فيها لعب الكرة الأولمبي والتهنؤات للفريق



المصرى على الفريق المجرى وكان هذا الفريق الأخير من الفرق الأوروبية الأولى فى مهارة أفراده وقوة تماسكه .

وكان هذا الانتصار دعاية كبرى لمصر لأن الصحف الفرنسية اشادت ببراعة المصريين واقتدارهم الفنى ، وقد رفعت رأسى كمصرى فى ذلك اليوم وجرت فى مفاصلى نشوة الظفر ، وقبل ذلك بسنوات عديدة ، فى أيام الثورة ، كانت هذه النشوة تتمشى فى مفاصلى ، نشوة الفخر والشعور بأننا أمة حية تثبت حقها فى الحياة ، أو كما يقول الفرنسيون فى التمتع بشمسها ، بضوئها ودفئها ، ككل كائن حى ، وأذكر أنى كنت أسير ذات يوم فى سنة ١٩١٩ مع سعد فى ميدان الكونكورد بباريس فقلت لسعد ، وكان اليوم ضاحيا ، وكان مؤتمر السلام مغلقا بابه فى وجه المصريين ، وكانت آمالنا موحشة : « حسب الثورة انها رفعت رءوسنا » فالتفت سعد ، وكان طويل القامة ، متين البنيان ، مهيبا ، واتتبه انتباهة المستيقظ من حلم ، وهز رأسه هزة راضية استمدت من روعة الضحى وجلال الموقف قوة هيويلية فى أسمى معانيها ، كانت تلك هزة النشوة من زعيم الثورة .

وقد ورث المصريون عن العرب الروح الفردية أو حب التفرد ، وهم فى ذلك يشبهون الفرنسيين ، لأن كل فرد منهم يريد أن يكون زعيما ويريد أن يكون الكل فى الكل ، وصفة التفرد هذه لها مزاياها ومساوئها وهذه المزايا تتجلى فى المواقف « الفردية » التى هى فى غنى عن « روح الجماعة » لأنها تظهر الشخصيات والأفذاذ ، ومن هنا سر نجاحنا الدائم فى الألعاب الفردية أى الألعاب التى يشترك فيها الأفراد من المصريين ، لا الفرق أو الجماعات ، كلعبة « المصارعة » أو « الاسكواش راكيت » وغيرهما .

ولكن حيث توجد الجماعة وروح الجماعة تسوق الروح الفردية ، وما تجره من أنانية وأثرة وعدم تضامن ، الى الفشل والانهار . وما نجح المصريون كجماعة أو كمجموع الا حين وجد زعيم أو رئيس يؤلف



بينهم ويخلق من تلك القوات الفردية كتلة واحدة مترابطة متضامنة ،  
تفنى في ثنائها الروح الشخصية أو روح الانقسام أو بعبارة أخرى  
تندمج هذه القوات بعضها في بعض • ويشد بعضها بعضا ، ككل واحد ،  
في سبيل هدف واحد •

وقد خسرت مصر في الألعاب الأولمبية الأخيرة في لعب الكرة في  
ألمانيا لأن روح الجماعة لم تنتظمهم وذلك على الرغم من وجود أفراد  
ولاعبين من الطراز الأول يتألف منهم الفريق ، على حين أنهم نجحوا  
في سنة ١٩٢٤ وانتصروا على الفريق المجري لأن روح الجماعة تسلطت  
عليهم ووجد بينهم اللاعب « حجازى » رئيسا وزعيما • وأذكر أنه  
رئى بعد ذلك أن لا يشترك حجازى في اللعب لأنه قد كبرت سنه  
وأصبحت تنقصه خفة الشباب ، وجلده على الجرى والحركة ، فكانت  
هذه « غلطة » كبرى لأن حجازى كان قد كبرت سنه في سنة ١٩٢٤  
حين رأس الفريق المصرى ، ولكن كان لوجوده في وسط اللاعبين  
المصريين واحترامهم له وانصياعهم لأمره ، وهو اللاعب القديم ، أحسن  
الأثر • فكان أولئك اللاعبون حين يجرون في الحلبة يخطف الواحد  
منهم الكرة وينطلق ، وبدلا من أن يستأثر بها أملا في الوصول وحده  
الى الهدف ، كان يسارع الى ارسالها برفق واحكام الى زميله الأقرب ،  
وكان هذا الزميل يرسلها بدوره الى زميل آخر ، فكان اللاعبون  
المهاجمون من أوساط وأجنحة ، على الرغم من المسافات التى تفصل  
بينهم ، يتقدمون في دفعة عجلى واحدة ، ويهبطون على الهدف  
كالطائر المنقض •

ولا يجب أن ننسى أن روح التعصب الاجتماعى أو السياسى  
في أوربا لا تزال تناوئنا ، وقد ظهرت هذه الروح بمناسبة انتصارنا  
في سنة ١٩٢٤ فانى أذكر أن جريدة بلجيكية كبرى علقت على ذلك  
الانتصار وقتئذ قائلة : « ان المصريين قوم مشاغبون ينغصون علينا  
أفراحتنا » •



لهذا يدهشنا ألا يعنى القائمون بالأمر فى مصر « بالرياضة »  
وأن لا يعدوا العدة للألعاب الأولمبية سنوات لا شهورا قبلها ، وأن  
لا يستفيدوا من دروس الماضى ، وأن لا يهتموا بالأمر بمقدار خطورته •  
وانى أعرف شخصيا بعض كبار الهواة من اللاعبين المصريين الذين رفعوا  
رأس مصر فى الخارج قد ضحوا كثيرا من أموالهم الخاصة ولم يجدوا  
معينا من أحد ولا سنادا ، كأنهم غرباء ، شأنهم فى ذلك شأن جميع  
علمائنا وأدبائنا الذين تصفق لهم الجماهير ، بينما ينتجبون  
ويموتون غما •

وقد أضفى المليك فى ظروف كثرة رعايته على الرياضة والرياضيين  
المصريين فأخلق بحكومته أن تقتدى به وأن تلتفت الى كل دقيقة  
وجليلة من شئوننا العامة فاذا حدث فشل مؤقت أو خسران فى الميدان  
السياسى البحت فى ناحية من نواحيه وجدنا العوض فى ناحية أخرى ،  
وإذا كسر مجذاف من السفينة أو أصابه عطل وجدنا فى المجاذيف  
الأخرى القوة التى تحرك السفينة وتدفعها الى الأمام فلا تقف جامدة  
مكانها أو تعود القهقري بينما العالم السباق يتحرك ويسير ويستوى  
على جوديه بقوة الفكر والارادة والعمل المنتج •

المصرى فى ٢٢/٣/١٩٤٨

## ذكرى الثورة المصرية

يقول رينان « الأمم مجموعة ذكريات » والأفراد مجموعة ذكريات وتاريخ الأمم مجموعة ذكريات والذكريات تاريخ الأمم وخطوطه الحية ، والأمم كلها تعمل على احياء ذكرياتها واقامة أعياد لها •

وقد أشارت بعض الصحف أمس الى ذكرى الثورة ولكن كنا نود أن نحیی هذه الذكرى بالأسلوب الذى يتفق مع جلالها وعظمتها ، وهى اذا لم تكن عيداً من أعيادنا الرسمية فحسبها أنها أم أعيادنا الرسمية ومصدر حرياتنا واعتزازنا بوحدتنا وقوة من قوى الطبيعة التى تنطلق من النفوس وتنفخ فى حياة الأمم روحاً جديدة •

دلت ثورة ١٩ بعد ثورة ٨٢ العراقية على حيوية هذا الشعب الهادىء المسالم الذى يفلح الأرض ويتقياً ظلالها فأعلن ملنر فى تقريره الشهير « ان نار الوطنية المصرية لن تنطفىء » وقالت جريدة التيمس فى احدى مقالاتها عن الثورة « ان هذا الشعب أثبت أنه كان دائماً عاصياً تحت النير » وقالت عند موت سعد باشا انه كان « من أكبر رجال الثورة فى التاريخ » •

هذه الشهادة من العدو لها قيمتها • ولاشك أن الثورة دلت على أن مصر بلد المعجزات ، وقد كانت هذه المعجزات عجائب كلها بهرت شاهديها ومثليها معا •

ورحم الله سعدا ، فقد كان الوفد عظيماً وكان سعد عظيماً ، ولاشك أن وجود سعد على رأس الحركة ووجود نخبة مختارة من قادة هذا البلد وساسته ومفكره بجانبه كان من أكبر العوامل التى ساعدت على نجاح الحركة وأى سفينة تسير بغير ربان ؟ وأى سفينة تسير بغير ملاحيا ؟



الملاح هو ذلك الجندي المجهول ، هو الطالب ، هو الموظف ، هو القروي ، هو صاحب الجلباب الأزرق ، هو العامل ، هو المصري الذي يكدح ويجد ، ويضحى في سبيل بلاده .

وقد تجلت روح التضحية عند المصريين جميعا ، وظهر جلال الثورة في جنازات ضحايا الحرية التي وصفها الدكتور الليس في إحدى الصحف الأمريكية أروع وصف .

كانت الثورة في طورها الأول عنيفة ، كما هو معلوم ، ثم استقرت بعد ذلك في النفوس وهجرت الشارع ، وكان ذلك طورها الثاني ، فظهرت في شكل المقاومة السلبية ضد لجنة ملنر الداهية ، فلم يعنه دهاؤه وما أوتى من سعة الحيلة على إيجاد ثلثة واحدة في كتلة وحدتنا من شمال الدلتا الى أقصى الصعيد .

ولاشك أن الثورة تستمر في صورة من الصور حتى تتحقق أهدافها جميعا على أكمل وجه ، والكمال مظهر من مظاهر المثل العليا ، ولا تعيش أمة بدون مثلها .

هذه المثل هي التي تعيننا في جهادنا وتشد عزائمنا اذا تراخت ، وهي حرب على الانقسام واليأس وجميع أسباب التحلل التي تفشو فينا . وقد صرنا بحمد الله اخوانا ، متحدين في غاياتنا ، مهما اختلفنا ، وصارت حكوماتنا ، بعد أن كانت في ناحية ، والشعب في ناحية ، تنزل منه بمنزلة الرأس من الجسد مندمجة فيه ، تنادى بصوته ، وتعبير عن أمانيه .

فاذا كان يطيب لنا اليوم أن نذكر الثورة وأن نذكر المجاهدين الأبرار فانه يطيب لنا أن نحیی خليفة سعد ، وكل مجاهد قديم لا يزال يحمل راية الجهاد شيخا كما كان يحملها فتى .

المصري في ٢١/٣/١٩٥٠

## عيد الدستور

الأمم كالأفراد بحاجة الى أعياد تستجم فيها وتهادن نفسها وسط ذلك التظاحن المستمر حول المصالح وتنازع البقاء • وهى لا تلهو ، وأنى لها أن تلهو ، فى أعيادها • هى كالمسافر الذى يستريح أثناء طريق الجهاد الوعر ، ويجد فى برد الظل ، ظل الذكرى ، أكبر حافز على مواصلة السير حتى يصل الى أبعد الغايات •

وها نحن أولاء نستعرض بالذكرى تاريخ جهادنا فى سبيل الدستور، فى سبيل تحقيق سلطة الأمة وسيادتها واستكمال حرياتنا •

نحن لا ندعى أننا بلغنا الكمال فى حياتنا الدستورية ولكن حياة الأمم صراع مستمر ، وارتفاع وانخفاض ، ومد وجزر ، وقل أن تجد شعبا سعيدا على وجه الأرض • فالسعادة كالظل تزول وشيكا وتعود وشيكا ، وقد تبطئ • والنظم الدستورية تتقلب بتقلب الرجال • وكل نظام يصلح اذا صلح الرجال ويفسد اذا فسدوا ، وقد يضيق النظام فتتسع أخلاق الرجال وتتنظم الحياة الدستورية وتمر وسط كل عاصفة بقوة واتزان وتمرق وسط الأزمات بخفة ومرونة •

وقد يتسع النظام وتضيق أخلاق الرجال فيصبح ثوبا فضفاضاً تضطرب فيه •

وقد جرب اليونان جميع أنظمة الحكم فلم يثبت نظام فتحولت حكومة الفرد الى طغيان ، وحكم الأقلية الرفيعة الى أقلية مستبدة ، وحكم الأكثرية أو الديموقراطية الى ديماجوجية ، وانقلبت جمهورية قيصر فى رومة — كما فى فرنسا فى عهد نابليون الثالث — الى حكومة فرد تنازل له الشعب عن سلطته فاستبد بها •

وكان صراع الانجليز فى سبيل توطيد الملكية الدستورية طويلا ،



حتى استقر بهم المطاف الى نظام رزين واضح الحدود والمعالم يستند الى تقاليد أوجدتها ودعمتها رجولتهم أكثر من استناده الى القوانين .

ولعمري من كان يظن أن بلدا كانجلترا ، قامت فيه ثورة كرومويل في القرن السابع عشر وطاحت برأس ملك ( شارل الأول ) يغتم لاعدام لويس السادس عشر في الثورة الفرنسية ؟ لقد استقرت الملكية في انجلترا منذ القرن التاسع عشر وصارت مجرد رمز لسيادة الامبراطورية وأبقتها . وأصبحت الارستوقراطية هي الحاكمة بأمرها في حدود الدستور ، وصار نظام الحكم بعيدا من القلائل والثورات ، يجمع بين مزايا حكم الفرد ، وحكم الأقلية الرفيعة ، وحكم الأكثرية . وهذه المزايا تستمد قوتها من عبقرية الانجليز وقوة اتزانها .

ويرجع جهادنا في سبيل الحياة النيابية الصحيحة الى أواخر عصر اسماعيل . اذ ظهر وتجلي في سنتي ١٨٧٨ و ١٨٧٩ مع ظهور الحركة الوطنية الناشئة ، وكان عبد السلام المويلحي وغيره من الأعضاء يستندون الى حكومة شريف والخديوي ويعملون على تحقيق سيادة الأمة وتخليص البلاد من التدخل الأجنبي الذي كان يحاول الاستئثار بهذه السيادة ، ولكي تقدر لذلك الجهاد حقه يجب أن نذكر أن وزارة نوبار السابقة كان من أعضائها أجنبيان أحدهما انجليزى والأخرى فرنسى . . . ولئن نجحت سياسة التدخل الأجنبي ، في النهاية ، في خلع اسماعيل والقضاء على تلك الحركة ، فانها لم تنجح مطلقا فيما بعد في ادخال عنصر أجنبي في وزارة مصرية لأن البلاد لم تعد تحتل تلك اللطمات .

وقد عادت الحركة الى الظهور من جديد بقوة في الثورة العراقية ، وكانت الحياة النيابية في برلمان سنة ١٨٨١ - ١٨٨٢ مجدة تدبر وتفحص وتصلح ، سباقة الى تحقيق كل مشروع نافع فعاد التدخل الأجنبي المسلح وقضى عليها .

ثم عادت الحياة النيابية ضيقة في الجمعية العمومية فالجمعية التشريعية ابان الحركة الجديدة التي بعثها مصطفى كامل فظهرت سعة أخلاق المصريين ورجولتهم في المواقف الكبرى كمد أجل امتياز شركة القناة •

وكان محمد فريد ولطفى السيد وغيرهما من رجال مصر وقادتها يطالبون بالدستور وانشاء برلمان مصرى •• حتى انزاحت العوائق وتحققت أمنيتنا • وقد جاهدت « لجنة الدستور » طويلا في سبيل ايجاد دستور يحقق سلطات الأمة ويدعم الملكية الدستورية •

في هذا اليوم السعيد لنا أن نفخر بجهادنا الطويل ، واتحادنا كشعب ، ويقظتنا ، ولنا أن نفخر بأن صحافتنا أصبحت شبه برلمان حر يعمل على تأييد الحركة النيابية في البلاد ، حركة الاصلاح والحرية التي لا تعيش بدونها •

المصرى فى ١٥/٣/١٩٥٠



## الواقعيون والخياليون

ليس أدل من تغلغل الفكرة الديمقراطية واحترام الرأى من تصريحات زعمائنا ، وانا لنحمد فى بعض هذه الآراء جرأة تتم عن حيوية قوية . ولعل أهم انقسام فكرى أو روحانى بين بعض الزعماء هو ذلك الانقسام الذى يفصل بين فريقين : الواقعيين والخياليين أو العمليين والنظريين ، وانا مع احترامنا لكل رأى نرى من واجبنا أن لا نترك هذا الموضوع يمر دون أن نستوقفه قليلا .

ففرق الواقعيين والعمليين يرى أن المفاوضة والتحالف مع انجلترا هو السبيل الوحيد لحل القضية المصرية ، ويرى أن الالتجاء لمجلس الأمن وغيره من المجالس الدولية عديم النفع أو قليله ، وفى هذا الفريق طائفة ترى أن مطالبة انجلترا بالغاء الناجز والمفاوضة على أساس استقلال مصر والسودان معناها اغلاق الباب فى وجه الانجليز وتعطيل حل قضيتنا . والفريق الثانى ، فريق الخياليين والنظريين ، يعتقد بحق انه ليس خياليا ولا نظريا ، وأنه فى الواقع أكثر واقعية من « الواقعيين » لأنه فى ضوء التجارب والمحن التى مر بها تاريخنا الحديث خصوصا فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة التى انتظمت المفاوضات مراحلها قد لمس بيديه ورأى بعينه « الواقع » الانجليزى وما ترمى اليه انجلترا فى المفاوضات من تخدير الحركة وتحطيم عصب المقاومة والجهاد والعمل على تحقيق خطط ومصالح وأهداف معينة من طريق المعاهدات ولا شك أن التهاك على المفاوضات ليس من حسن السياسة ولا من السياسة فى شىء ، ولا نعلم فى التاريخ أن شعبا مكافحا توانى قليلا أو ألقى سلاحه ونام فى المعركة أو جنح الى الرفه الا وخسر المعركة وخسر أكثر منها . . وهؤلاء زعماء الهند عاشوا رجالا وعاشوا كراما لم يلوهم

عن قصدهم سجن أو تشريد فبلغوا غايتهم ، ولعمري من كان يظن أن الهند،  
الهند التي كانت درة في تاج الامبراطورية البريطانية ، تنال استقلالها ؟  
وهؤلاء زعماء ارلندا الحرة عاشوا رجالا وعاشوا كراما ، وقد وقفوا  
ابان الحرب الكبرى الأخيرة ، في وجه انجلترا والولايات المتحدة ،  
وكان في مقدورهما أن تسحقها سحقا ، وأعلنوا حياد ارلندا ذات  
التاريخ العظيم والبطولة والعزة . ورحم الله سعدا الذي كان يقول  
« تستطيع انجلترا أن تقهرنا ولكنها لن تستطيع اذلالنا » ، سعد الذي  
نفى وشرده هو وصحبه . ولولا هذه الروح الواقعية حقا ، روح الثورة ،  
روح الكفاح ، لما ألغت انجلترا الحماية واعترفت باستقلال مصر .  
صحيح ان المرحوم ثروت باشا وصدقي باشا قد لعبا دورا كبيرا في  
اقناع الانجليز بتغيير سياستهم ، ولكن وسائل الاقناع الأولى كانت  
في روح الثورة ، في روح الشهداء ، في روح البطولة ، في روح سعد  
الذي كان في المنفى وقت صدور تصريح ٢٨ فبراير ، والذي عاش  
كريما ومات كريما .

المصرى فى ٤/٥/١٩٥٠



## سر تأخر المصريين

تاريخ مصر منذ القدم كله عجائب ومتناقضات : أمة ألهمت النيل وعبدت العجل • سادها فرعون وحكمها عبد • والمصريون يرجعون الى أصل واحد ، وجنس واحد ، ولكن كل مصرى يبدو شكلا وسحنة وخلقاً وخلقاً كأنه مزيج من طينات مختلفة وأجناس متعددة صيغ منها تمثاله ، فكل شخص يختلف عن الآخر ويصعب تكييفه والحكم عليه بمقياس عام • وهو خليط من الذكاء والدهاء ، والصراحة والنفاق له سطوة الأسد ، وروغان الثعلب ، وتحوى الثعبان ، وحكاية القرد<sup>(١)</sup> . قال شوبنهاور ان الفرنسيين قردة أوروبا ، والمصريون بحق قردة الشرق فهم أشد شعوبه ولعا بالتقليد ، وأخفهم روحا وحركة ، وأكثرهم جلبه وصخبا ، وأحذقهم فى الوثوب والقفز •

ومصر اليوم ، كما قلنا ، خليط من نظم القرون الوسطى والقرون الحديثة : فيها الأزهر والجامعة وكلاهما عاجز عن التطور لأنه يطلب المستحيل • فالأول يريد أن يتسع ويتجدد بالعلم الحديث على قواعد قديمة جامدة والثانى أو الثانية تقوم على قواعد مضطربة غير جامعية • فيها محاكم شرعية ومحاكم أهلية ، وكان فيها محاكم مختلطة • فيها فقه ابن مالك وقوانين نابليون • فيها الجلباب والقفطان والبذلة • والمباني العربية الطراز التى تحجب الضوء بنوافذها الضيقة وزجاجها الملون والمباني الأفرنجية التى لا ترطب حرارة الشمس •

نحن عرب لغة ودينا ولكن بيئتنا ليست عربية ولا أفرنجية ولا شرقية ولا مصرية ولكنها خليط من هذا كله • ومثل هذه البيئة لا تستطيع الظفرة

(١) تحوى الشيء : انقبض واستدار وتحوت الحياة : تجمعت واستدارت وتلوت • حكى فلانا : شابهه وفعل فعله أو قوله سواء • وحكى صنعته أتى بمثلها •



بقدميها لأنها تمشى على أربع أو على خمس أو على ست لا تشاكل  
بينها • وهي مرتبطة باعلاق الماضي مشدودة اليه • ولا هي بالتالي  
تستطيع التطور الطبيعي المنتظم ، لأنها كالقطيع الشارد يذهب كل  
فريق منه في طريق من الطرق المتشعبة في مدينتين متعارضتين وعالمين  
متناقضين • ومن العسير متابعتها : فالأولى حائرة مضطربة والأخرى  
( الغربية ) يقوم نظامها على الآلة والسرعة ، وقد سبقتنا بقرون ، وهي  
كالبحر اذا طغى علينا تياره الفاسد في ناحية من النواحي صعبت مقاومته  
مهما أقمنا أمامه من حواجز وسدود • فلا نحن مخيرون في الاصلاح  
ولا نحن مسيرون •

وها نحن أولاء في الخمس سنوات الأخيرة نقف في أدق مرحلة من  
مراحل الانتقال منذ عصر محمد على • • ولا نبالغ اذا قلنا أن هذه  
الفترة تمثل أسوأ العصور في تاريخ الادارة المصرية لأننا آثرنا عبادة  
المادة والشهوات واحتقار الحياة الروحية • والفرق بيننا وبين الغرب  
أن حياة الغرب الروحية لا تزال باقية قوية على الرغم من ظهور عوامل  
الترف والاضمحلال وطغيان المادة • وهذا التوازن هو سر بقاء مدينتهم  
التي بلغت منتهاها • وما بقى هذا التوازن بقيت دعائم المدينة  
سليمة لا تتقوض •

وقد أصبحت الحياة الروحية في الشرق في حكم الميتة • وفي  
اعتقادي أن مدينة أوروبا لن تموت ولن تضمحل على عجل كما كانت  
تضمحل المدينت القديمة ، ولن تنقرض كما كانت تنقرض ، فنحن  
نتكلم اليوم عن مدينة الغرب ، وكانت هذه المدينة لا وجود لها ،  
كانت هناك مدينة اليونان أو الرومان فقط ، وكان معظم أوروبا مجاهل  
وغابات تهيمن عليها قبائل البرابرة والغزاة • وقد جد في العصور  
الحديثة عامل يساعد على تغذية الحياة الروحية في كل مجتمع أوروبي  
أو غربي • ذلك أن كل مجتمع ، فرنسا كان ، أو انجلترا ، أو ألمانيا ،  
أو ايطاليا ، أو سويسريا ، أو مجريا ، أو روسيا ، صار يتصل اتصالا وثيقا



ماديا وروحانيا بالعالم الأوروبى الذى أصبح كتلة حية ، وكل ثقافة فيه تغذيها ثقافات متجاورة • وكل ثقافة تمد في ثقافة أخرى • لذلك أرى أن مدينة الغرب وكل مدينة فيه ستطول حياتها ولن تنهار الا بالحديد والنار اذا سلطهما عليها الجشع وحب السيطرة فهما الخطر الوحيد الذى يتهدها •

ومصر منعزلة بثقافتها ، تولى وجهها شطر أوروبا ، ولكن أوروبا بعيدة منها بلغتها وثقافتها وأرضها ، وهى فى وسط أفريقى ، تحيط بها من معظم جهاتها شعوب متأخرة من عرب وزنوج وقفار وجبال ومطامع استعمارية تجذبها الى الورااء كلما اتجهت خطوة الى الأمام •

والبيئة الثقافية فى مصر محدودة ، ولو كان للعناصر المفكرة فيها تلك الكثرة الموجودة فى كل بلد غربى لأمكن التغلب على عوامل الأثرة والتحاسد والتناؤذ التى تفت فى عضدها لاسيما وان داء الانقسام متأصل فىنا ، وقد لاحظ ذلك الأفغانى منذ عصر اسماعيل فقال كلمته المشهورة ( اتفق المصريون على أن لا يتفقوا ) •

وقد أصبح المصرى للمصرى كالبنيان المتداعى يشد بعضه بعضا للسقوط لا للتماسك والبقاء وانتشر فىنا حب التفرد والظهور على أن الروح الفردية Individualisme فى بعض الأمم كفرانسا مثلا ، قد تبعث على الاقدام والياتيان بجلائل الأمور ، ولكنها فى مصر مظهر أنانية وحرب على كل مشروع يأتى على يد الغير • والمصرى يستبد بمن هو أدنى ويتذلل لمن هو أعلى • وبدلا من أن تسودنا روح الجماعة ، فى الحرية والمساواة ، تسودنا روح العبيد والسوام فى التملق والانقياد الأعمى لكل جهول أو لكل قوة صاحبة السلطان • وقد أصبحنا ننقم على الجيل الماضى ، ونىأس من الجيل الحاضر ، ونفقد كل ثقة فى جيل المستقبل الذى لم ينقطع للعلم ولم يتعلم ، وصارت تتألف منه عناصر ثورة اجتماعية هى أكبر خطر يهدد كياننا •• نحن شعب ذكى ، ولكننا نبدد ذكاءنا بأخلاقنا ، فنظل ندور فى حلقة مفرغة لا تتقدم ولا نساير



العالم في نهضته • العالم يشب ويظير ونحن نجبو ، العالم يخترع ويتباهى  
بقرائح أبنائه في العلوم والفنون ونحن نحارب العلم والعلماء • وكل  
بلد أوروبى يبدو طابعه على مصنوعاته ومبتكراته • ونحن ليست لنا  
بضاعة عالمية في أسواق الفكر أو التجارة سوى القطن الذى نكتفى  
منذ أكثر من قرن بجنیه وتصديره ليعود الينا نسجا فاخرا • نحن شعب  
غنى بأرضه ومواهبه ، ولكننا نترك مواهبنا وكنوزنا دفينه فى أرضنا  
مبعثرة ، ونمشى جياعا على أرض من الذهب ، كما يقول حافظ •

ولا زلنا ندين للغرب بالتبعية الكاملة فى كل مظهر من مظاهر  
حضارتنا المادية والفكرية ، فى ملبسنا ومسكننا وطعامنا وشرابنا — بعد  
القربة والسقاء — ومواصلاتنا فى البر والبحر والجو — بعد الخيل  
والبغال والحمير والسفن الشراعية — وبريدنا وبرقنا وادارتنا وتنظيم  
مدتنا واضاءتها • ندين للغرب فى كل شىء ، فى حياة الفرد وحياة المجموع •  
وهذه التبعية المطلقة لن يخف ثقلها الا اذا جد جدنا وأخذنا بنصيب  
من المجهود المشترك التى تقوم به الدول جمعاء فى سبيل اعلاء شأن  
الحضارة والعمل على تقدمها • والعجيب أن فينا من يتشدد ويقارن  
بين حضارتهم وحضارتنا ويقول مثلا ان لغتنا أفضل اللغات دون أن يفكر  
فى احيائها حتى تجارى اللغات الأخرى فى التعبير عن حياة العلم  
والعصر • وماذا يجدى أن يكون للجمل أو الأسد أربعمئة اسم اذا كانت  
لغتنا مفتقرة الى الحياة ؟ •

نحن شعب يميل الى البذخ والاسراف ، نذبح الذبائح وننصب  
الخوان فى مآتمنا كما ننصبه فى أفراحنا • لا نعرف الاعتدال أو التوسط  
فى حكمنا ، فى حبنا وبغضائنا ، وقد تتفانى وتتعادى فى شروى تقير •  
روح الهدم عندنا أقوى من روح البناء ، وروح التهكم الساخر أقوى  
من روح النكتية البريئة ، وروح النقد والتشهير أقوى من روح  
التسامح والانصاف •

ولا يوجد بلد فى العالم يحتضن العناصر الدخيلة منذ القدم



كما تحتضنها مصر وتوليها عليها • ولا يوجد بلد اضطرب نظامه  
السياسي والاجتماعي كما اضطرب في مصر • هي دولة ذات سيادة  
والانجليز ينتقصون من هذه السيادة • تحكمها الاكثرية احيانا  
في شكل فرد أو اقلية مستبدة • واذا حكمتها احزاب الاقلية قد  
لا تحسب حسابا للاكثرية ، واذا حكمتها حزب الاكثرية قد لا يحسب  
حسابا للاقلية • وبين هذه وتلك تشقى الحريات • وكل ذلك نتيجة  
الاثرة • فالاثرة في الفرد ، والاثرة في الجماعة ، والاثرة في كل فرد  
من الجماعة •

وكل امة تنكرت لثورتها ، وفقدت معنى التضحية ، ومعنى التضامن  
وانكار الذات ، والتعلق بالمثل العليا والمبادئ الصحيحة • كل امة  
تعشق الرتب والالقباب والمصالح والابتهات وتتجه بكيانها كله نحو  
المادة ، كل امة لا تزال تعبد الاصنام في صورة من الصور هي امة  
تتحلل ، وتتلاشى شخصيتها رويدا رويدا •

أغسطس سنة ١٩٥٠

## أحمد عرابي باشا

أحمد عرابي باشا أول زعيم مصري فتح له طريق مصر الحديثة  
قام على رأس أمته في وجه الظلم وقد اختلط حياته العظيمة بالثورة  
البرابية وأحداثها العديدة والقوية في عصر سعيد و إسماعيل وتوفيق  
( ١٨٥٤ - ١٨٨٢ )

## الكتاب الثامن

### فصول في التاريخ

عرابي الروح الذي يصل إليه  
الخصم في قلبه  
الشرقية بالقرب من القوارير  
الغنية في المكتب الذي نشأ  
ولازمت أن تجد النشأة الأولى  
نشأ في بيت حسنة فكان مغرباً  
في العلوم فكان كبير الأيمان  
الرفق ، وكان كبير القلب  
القتل ، كان هذا القلب يقض  
عجائب الصالحين والاسفند  
بفضل تربية الدنية الصالحة  
الأصل من الماطة بل رأه في حياته  
ولم تكن واسع الخيلة علة  
كان مستقيم الرأي ، طيب القلب  
النجاه ، كبير الشاؤون ، واسع  
يرى ولا في ملامح وجهه دقة ، ولكن في القرائن  
سما الثروة والجبروت



كما تضمنها خبر ورواها غيرها ، ولا يوجد في الشطرنج القسمة  
السياسي والاجتماعي كما في الشطرنج في مصر ، هي دولة ذات سيادة  
والانجليز يتصرفون من هذه القيادة ، بحكمها الاكثرية احيانا  
في شكل فرد او اقلية مستقلة ، واما حكمها لاجل الاقلية قد  
لا تحسب حيايا للاكثرية ، واما حكمها لعرب الاكثرية قد لا يحسب  
حيايا للاقلية ، وبين هذه وتلك تبقى العربات ، وكل ذلك نتيجة  
لاثرة ، فالاثرة في الفرد ، والاثرة في الجماعة ، والاثرة في كل فرد  
من الجماعة .

وكل امة تتكلم لنفسها ، وتنتج من تحتها بعض القوانين  
وانكار الذات ، والاعتماد على النفس ، والاعتماد على النفس ،  
تعلق الرأب والاعقاب ، والاعتماد على النفس ، وكانها انما تنسج  
المادة ، كل امة لا يراد ان تصد الاعتراف من عبودية من العرب في  
تحتل ، وتلاشي شخصيتها ، وهذا هو الغرض من هذا الكتاب

# كتاب لنداء شبابنا

الطبعة الاولى ١٩٥٠

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY  
130 St. George Street  
Toronto, Ontario  
M5S 1A5

## أحمد عرابي باشا

أحمد عرابي باشا أول زعيم مصري قح في تاريخ مصر الحديث قام على رأس أمته في وجه الظلم وقد اختلطت حياته العملية بالثورة العرابية وأسبابها البعيدة والقريبة في عصر سعيد ، واسماعيل وتوفيق ( ١٨٥٤ - ١٨٨٢ ) •

### نشأته الأولى

هو ابن العالم الورع السيد محمد عرابي الذي يتصل نسبه بالחסنين رضى الله عنه ولد سنة ١٨٤١ ببلدة هرية رزنة من أعمال الشرقية بالقرب من الزقازيق وتعلم القرآن الشريف وبعض العلوم الدينية في المكتب الذي انشأه والده فيها ثم درس في الجامع الأزهر ولا ريب أن هذه النشأة الأولى كان لها أكبر أثر في حياته وأخلاقه : نشأ في بيت حسب فكان فخورا وتربى تربية دينية في وقت لم تتقدم فيه العلوم فكان كبير الايمان كثير التأثر بالخرافات الدينية المنتشرة في الريف ، وكان كبير القلب يخضع كثيرا لسلطان العاطفة لاسلطان العقل ، وكان هذا القلب يفيض حرارة واخلاصا في أحاديثه وخطبه فيجتذب الجماهير والأصدقاء والأتباع الى ساحته • وقد طبع عرابي بفضل تربيته الدينية الصحيحة على حب العدل والانسانية ، وساعد على تأصل هذه العاطفة ما رآه في حياته من حيف ساء وناء أبناء جنسه • ولم يكن واسع الحيلة عالما بأساليب السياسة ودهاء السياسيين ولكنه كان سليم الرأي ، طيب القلب ، صريحا لا يعرف المواربة ، طويل النجاد ، كبير الشاربين ، واسع الجبهة ، بادن الأسارير ، ليس في عينيه بريق ولا في ملامح وجهه دقة ، ولكن في نظراته شدة رهيبية ، وعليه سيما القوة والجبروت •



## نشأته الثانية

ولى سعيد باشا الحكم سنة ١٨٥٤ وقد تربى تربية بحرية على ظهر السفن مع أبناء الفلاحين والذوات فكان يحب المصريين ويريد أن يحكمهم بالعدل ، فعول على وضع نظام جديد للتجنيد وجباية الضرائب بدلا من النظام القديم الذى كان يشكو منه المصريون فى أيام محمد على ، وأساس هذا النظام المساواة والرفافة بالرعية ، ولما كان المشايخ والعمد عند كل تجنيد يعفون أبناءهم وأقاربهم من القرعة فيقع العبء على غيرهم وحدهم أصدر سعيد باشا أمرا بانتظام أولاد عمد البلاد ومشايخها فى الخدمة العسكرية فانتظم فيها عرابى وكان ذلك بدء حياته العملية . وكان رؤساء الجيش منذ عهد محمد على من الأتراك والجرکس ، فأراد سعيد أن يشجع العنصر المصرى وقرر ترقية المصريين تحت السلاح ، ولا شك أن هذا القرار الخطير كان مخالفا للنظم العسكرية الراقية التى تقضى بأن لا يعين فى مراتب القيادة الامن درسوا دراسة نظامية تؤهلهم لها لأن الجندى الذى يترقى تحت السلاح تنقصه رغما من كل تجارب المعلومات الفنية التى يجب أن يؤسس عليها والثقافة العامة التى يتزود منها الرؤساء وأولو الرأى والتدبير .

وقد ارتقى عرابى فى عهد سعيد - كما ارتقى غيره من زعماء الثورة المقبلة - الى رتبة قائم مقام بك ( ١٨٦٠ ) فكان أول مصرى وصل اليها بعد أن كان جنديا بسيطا ، وصار من ذلك الوقت طموحا الى العلياء ، وقد روى هو عن نفسه أن سعيدا أهده كتاب ( تاريخ نابليون بونابرت ) بالعربية طبع بيروت وأنه منذ قراءته أكب على مطالعة تواريخ الأمم ، ولا شك أنه وجد فى نسبه وحسبه ورعاية سعيد وسير الأمم ما يدفعه الى التفكير فى خدمة بلاده والاتيان بجلائل الأعمال وقد وصف أيام سعيد بأنها كانت أسعد أيامه ، ولا ريب أنها كانت فى الوقت نفسه أسعد أيام الفلاح الذى اكتسب حق ملكية الأراضى فى عهده وبدأ يتقلب فى نعماء الثروة والحرية والمساواة .



## عصر اسماعيل

ترجع الى عصر اسماعيل ، كما ترجع الى عصر لويس الرابع عشر ، أسباب الثورة البعيدة ، وقد ذاق المصريون في عهد عمه سعيد نعمة العدل والأمن في الأرواح والأموال فصاروا لا يرضون بها بديلا . واتسع الملك والسلطان في عهد اسماعيل فاسترد الأتراك والجركس شوكتهم التي فقدوها في عصر سعيد واستبدوا بالأمر فشكا الناس من جور الحكام ، وكانت الأموال التي اقترضها اسماعيل من أوروبا في سبيل تحقيق اصلاحاته الواسعة سببا في تدخل الدول وتوطيد رقابتها المالية والسياسية .

وقد أدت كثرة الاحتكاك بين مصر والمدنية الأوروبية الى نشوء حركة فكرية كانت تستمد قوتها من الواقع المصرى ، وبدأ المصريون ، خصوصا في أواخر حكم اسماعيل ، يطالبون بتوطيد حكم القانون وذلك بإنشاء حكومة دستورية قوية أو برلمان يراقب الادارة وجيش منظم ، حتى يطمئن المصريون في ظل القوة والعدل ويتخلصوا تدريجا من التدخل الأجنبى واستبداد الحكام من أتراك وجركس ومصريين يعيشون في كنفهم .

عانى عربى نفسه في عهد اسماعيل وطأة الظلم ، روى في مذكراته عن الثورة العراقية أن اسماعيل في أوائل حكمه قرر منح كل واحد من الباشوات ورؤساء الجيش خمسمائة فدان ، وكل أميرالاي مائتين ، وكل قائمقام مائة وخمسين ، من زيادة المساحة المتوفرة في مديرتى الغربية والمنوفية ، « ولكن عند الشروع في تسليم تلك الأطيان ظهر الظلم وتجسم بأكمل معانيه فقد كان يتوجه كل واحد من المندوبين من طرف المنعم عليهم بأمر المديرية الى بلد يختاره من أحسن البلاد تربة ويطلب تحديد المقدار قطعة واحدة في أخصب حوض من الأراضى المملوكة لأربابها فيجاء الى طلبه ، ثم يحال المالكون الضعفاء على الحيضان الأخرى التى توجد بها زيادة المساحة وقد لا توجد . . . وقد تكون الأراضى



من أرداد أنواع الأرض ... وتلك أول مظلمة من المظالم الكثيرة التي وقعت في عهد اسماعيل باشا » .

اضطهد اللواء خسرو باشا ، وهو جركسي متعصب ، عرابي باشا وافترى عليه وحرمه من الأرض وعمل على التخلص منه ليضع أحد أبناء بلدته مكانه وفعلا رفته من الآلاى بطريقة استبدادية فرفع شكواه الى الخديوى لانصافه « لأن العدل ان دام عمر والظلم ان دام دمر » والواقع أن الجيش الوطنى الذى أنشأه محمد على كان مبعث الوطنية المصرية وقد أبلى الجند المصرى بلاء حسنا فى ساحات القتال فى مورة والشام وآسيا الصغرى وكانت انتصاراتهم التى ساقتهم حتى أبواب الاستانة من العوامل التى ولدت عند المصريين الثقة بالنفس والشعور بالكرامة الذاتية ، وكان طبيعيا أن يحنق المصريون على الأتراك والجركس الذين لا يزالون ينظرون الى ( الفلاحين ) نظرة احتقار جريا على سابق عهدهم ، ويتعصبون لأبناء جنسهم خوفا على تقلص نفوذهم ، ويحولون دون ترقى المصريين ، ويعاملونهم بمنتهى القسوة ويحكمون عليهم بالاعدام فى مجالسهم العسكرية لأقل سبب ، وقد يلقون التهم ضددهم ولا يترددون فى الكيد لهم والإيقاع بهم .

تأصل الحقد فى نفوس الضباط المصريين منذ حرب الحبشة ( ١٨٧٥ - ١٨٧٦ ) التى تولى فيها راتب باشا والأتراك القيادة العامة فتمكن الأحباش من افناء ثلاثة جيوش مصرية ، وكانت هذه الحرب نكبة على البلاد .

وقد عين عرابي مأمورا للحملة فى مصوع وكان فى عهده « عشرة آلاف حيوان من جمال وخيل وبغال أخذ أغلبها غصبا بلا ثمن كما أخذ العلف من شعير وفول وذرة وتبن بلا عوض غير الوعود الكاذبة بخصم الأثمان من الضرائب المطلوبة منهم ، تلك الضرائب التى لا نهاية لها » .  
قوبل الجيش عند عودته الى مصر على أثر انكساره بمقابلة سيئة ، وكان الخديوى يريد محاكمة القواد أمام مجلس عسكري ولكنه تردد



طاهر / ١٩٦٧

في الأمر خشية العواقب ، وبقي الأتراك والجركس مهيمنين على الجيش بعد ما ثبت جهلهم وسوء تصرفهم فازداد الاستياء بين الوطنيين .  
وكانت تألفت منذ أوائل حكم اسماعيل جمعية سرية برياسة على الروبى للدفاع عن العنصر المصرى فى الجيش ، وكان على الروبى أحد ضباط حملة الحبشة ، وهو الذى عقد الصلح مع الملك يوحنا ، ورقى الى رتبة أميرالاي بعد العودة ، أما عربى فقد آتهم الأتراك ظلما بالرشوة ورفقوه فعاد الى الجمعية وصار بفصاحته وجرأته واخلاصه منذ سنة ١٨٧٧ رئيسها الفعلى .

وقد أعيد الى الخدمة قائمقاما على الآلاى الرابع فى آخر حكم اسماعيل ( ١٨٧٩ ) وعين بعض أعوانه فى مناصب مختلفة ولكن بعد أن اتشرت دعاية الجمعية فى الجيش واتصل بعض ضباطه بالماسونية التى قوى أمرها وقتئذ ، وكان من أعضائها ولى العهد توفيق باشا ، وجمال الدين الأفغانى ، ومحمود سامى البارودى ، وشريف باشا ، وسليمان باشا أباطه ، ومحمد عبده ، وغيرهم من الرجال المشتغلين بالسياسة الذين وجدوا فى نظام الماسونية التى يرأسها ولى عهد انجلترا حرية البحث والوقاية من الظلم والاستبداد .

كان الجيش يشكو من استبداد الأتراك والجركس وتدخل أوروبا التى حالت بحجة الاقتصاد دون صلاحه .

كانت تحكم البلاد فى ذلك الوقت « الوزارة الأوربية » برياسة نوبار الاسمية ولكن رئيسها الحقيقى كان السير ريفرس ولسن وزير المالية الانجليزى ( نوفمبر سنة ١٨٧٨ - فبراير سنة ١٨٧٩ ) .

وبينما كان الموظفون الأوربيون يتقاضون المرتبات الضخمة وتبتر الأموال من الفلاح بكل الوسائل فى سبيل آخر قطعية مستحقة للدائنين كان الموظفون المصريون الذين عليهم مدار الحياة الادارية يظلون الأشهر الطوال من غير مرتب ، وقد قررت الوزارة فى فبراير سنة ١٨٧٩ رفت ٢٥٠٠ ضابط مصرى فى الجيش ، وكانوا فى حالة بؤس لم يتقاضوا مرتبهم

مصر فى التاريخ الحديث  
مصر فى التاريخ الحديث  
مصر فى التاريخ الحديث



منذ ثمانية عشر شهرا ، وكان كثيرون منهم مكثوا ضعف هذه المدة من غير أجر ، فما كان من الضباط الا أن تجمروا حول وزارة المالية في ١٨ فبراير وحاصروا نوبار وولسن وكانا قادمين اليها في عربة فصفعوا الأول واضطر الخديوى اسماعيل الى التدخل في الأمر بنفسه لاختاد الفئنة وقد ألقى في السجن الضابطان لطيف سليم وسعيد نصر على أثر ذلك ولكن المجمع الماسونى الذى كانا من أعضائه اجتمع مساء اليوم برياسة جمال الدين الأفغانى وبعث الى ولى عهد انجلترا والخديوى اسماعيل رسائل برقية بطلب العفو عنهما وفعلا أخلى سبيلهما بعد أيام بفضل تدخل قنصل انجلترا مؤسس المجمع الماسونى في مصر . كان لهذا الحادث وقع كبير في مصر والدوائر السياسية لأنه ثورة على التدخل الأجنبى ونذير سوء ، فما كان من اسماعيل الا أن استغله للتخلص من الوزارة الأوربية التى قضت على سلطته فأعلن أنه لا يكفل الأمن العام اذا بقى نوبار في الوزارة فتشكلت وزارة جديدة برياسة توفيق باشا ( ٢٢ مارس ) وكانت الأحوال المالية تزداد ارتباكا بينما تشتد وطأة التدخل الأجنبى في حكومة البلاد ، فقويت المعارضة وكان عمادها :

أولا - الخديوى اسماعيل نفسه الذى اغتصب الأجنب سلطته .

ثانيا - مجلس شورى النواب الذى أنشأه اسماعيل سنة ١٨٦٦ وكان مجلسا سوريا حتى عمت أسباب الشكوى في عصر اسماعيل وانتشرت الحركة الفكرية النيابية بفضل الصحف السياسية التى ظهرت في مصر في سنتى ١٨٧٧ و ١٨٧٨ ووجد رأى المصرى المعارض فى النزاع الذى نشأ على السلطة بين اسماعيل والأجنب فرجة يطل منها ، عندئذ بدأ ذلك المجلس يعتز بقوته ويطالب بسلطة المجالس الأوربية .

ثالثا - أعضاء الماسونية وهم من كبار الوزراء والأعيان وكانوا أشبه بحزب وطنى .

رابعا - الجيش الذى انكشفت قوته منذ حادث ١٨ فبراير فصار عاملا سياسيا جديدا من عوامل المقاومة الوطنية .



نشرت في هذه الآونة جريدة « مرآة الشرق » لصاحبها الكاتب المعروف ابراهيم اللقاني مقالا حارا يكشف عن نفسية المصريين في ذلك الوقت قالت في عدد ٥ أبريل : « نسخت حكومة الاستبداد وتألفت الوزارة المسؤولة ( الأوربية ) فتوسمنا بسيمائها الخير واذا به قد انقلب علينا سرا • حدث في ١٨ فبراير ما حدث فسقطت الوزارة الأولى واعتيض عن رئيسها بحضرة ولي العهد فخطر في خاطر أن الرواية تم تشخيصها وابتدأت الأمور تدور على محور الثبات وتدخل قوالب الجد • ولكن لسوء الحظ قد أخطأ سهمنا ولم نصب في حكمنا فان لفي الزوايا خبايا قد أخذت أيدي المطامع تظهرها الآن للعيان بعد أن كانت تخفيها عن كل انسان •

أرى خلل الرماد وميض نار وأخشى أن يكون له ضرام  
اللهم الطف بنا وانقذنا من أيدي الطامعين انك أنت مولانا ولأنت  
خير السامعين » •

اتفق الخديو مع الوطنيين في ابريل على قلب الوزارة التي لا يزال  
العنصر الأوربي مسيطرا عليها « بشرط أن لا يعود الى نظام الحكومة  
الشخصية وأن يحكم بواسطة ومع مجلس وزراء وطني مسؤول حقا أمام  
مجلس النواب المصري » •

وفي ٧ ابريل اجترأ الخديوي وأسقط الوزارة الأوربية وأحل محلها  
وزارة مصرية بحتة برياسة شريف باشا شرعت في اصلاح الادارة وسن  
دستور جديد يوسع سلطة مجلس النواب وزيادة عدد الجيش الى  
٦٠٠٠٠ ، ولكن دولتي انجلترا وفرنسا لم ترضيا عن هذه الخطة  
وأخذتا تلحان على اسماعيل لارجاع الوزيرين الأوربيين الى منصبهما  
في المالية والأشغال ، وكشرتا عن نابهما ، وحملتا تركيا على خلع اسماعيل  
( ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ ) ، حتى تتمكننا من تنفيذ سياستهما في وادي النيل •  
والواقع أن الحركة التي قام بها اسماعيل في آخر سني حكمه  
جاءت متأخرة ففسى الناس حسناته ولم يذكر اه المصريون وخصوصا



قادة الرأي منهم زعماء الحركة العرابية المقبلة الا أنه ترك البلاد تنوء  
بفادح الدين وجور الحكام وجعل التدخل الأجنبي يتغلغل في كبد  
البلاد وأورث الثورة ابنه توفيق .

### مقدمات الثورة

فرح المصريون وخصوصا جمال الدين الأفغانى وأنصاره فى الماسونية  
بارتقاء زميلهم ولى العهد الى العرش ولكنهم نسوا أنه قد لا يميل كثيرا  
الى الدستور ، وأن الدولتين الأجنبيتين هما اللتان أجلسناه على العرش  
فصارت لهما حماية فعلية على البلاد .

قدمت وزارة شريف استقالتها ولكن الخديوى دعا رئيسها فى  
٢ يوليه الى تأليف وزارة جديدة فقبل بشرط أن يمنح الخديو البلاد  
نظاما نيابيا ، وفعلا وعد الخديو مجلس الوزراء رسميا فى ٣ يوليه  
بانشاء حكومة شورية ، وعلى ذلك أعد شريف لائحة دستورية جديدة  
فأبى الخديوى ، تحت تأثير الدول ، الموافقة عليها فاستقال شريف فى  
١٨ أغسطس وتألقت وزارة جديدة برياسة الخديوى نفسه : فاستاء  
المصريون من عودة الحكومة الشخصية ، وقد ازداد قلقهم حين فوجئوا  
فى ٢٦ أغسطس بنفى جمال الدين الى جدة وعاودتهم ذكرى الأيام  
السالفة . ثم عاد رياض باشا من أوروبا وترأس الوزارة ( ٢١ سبتمبر )  
وكان رغما من صفاته العديدة من رجال العهد القديم أنصار الحكم  
الاستبدادى ، فسرعان ما قضى على كل حرية سياسية ، وأنشأ رقابة على  
الصحافة ، وبث العيون والأرصاد فى كل مكان ، ولم تكتف وزارة رياض  
بحرمان المصريين من التمتع ببرلمان جديد واسع السلطة بل انها لم تدع  
للانعقاد حتى مجلس شورى النواب القديم الذى كان يجتمع فى عهد  
اسماعيل ( ١٨٦٦ - ١٨٧٩ ) وقضت على كل أثر للحياة النيابية فى  
البلاد .

وليس أدل على سوء تصرف وزارة رياض من تعيين وزير جركسى



متعصب على رأس وزارة الحربية في شخص عثمان باشا رفقى وتحدى  
العنصر الوطنى فى الجيش بهذه السياسة الخرقاء •

روى جون نينت السويسرى فى كتابه عن عرابى باشا ، وكان من  
الواقفين على دخائل الحركة أن عرابى ( الذى صار رئيسا على الآلاى  
الرابع فى عهد توفيق ) وعبد العال حلمى ، وعلى فهمى رئيس حرس  
السراى ، ومحمود باشا سامى ، وسليمان باشا أباطة مدير الشرقية ،  
وحسن باشا الشريعى كانوا يجتمعون سرا فى منزل سلطان باشا وقد  
تحالفوا جميعا على اسقاط وزارة رياض التى تستند فى حكمها الى  
النفوذ الأجنبى •

والى ذلك العهد يرجع اتفاق العنصر العسكرى مع العنصر المدنى  
فى الغاية وهى العمل على توطيد الحكم الدستورى فى البلاد تخلصا  
من مساوىء الاستبداد والتدخل الأجنبى الذى كانت تزداد وطأته كل يوم  
وقد كان الوطنيون قبل رجال الجيش يفكرون فى اصلاح الجيش لأنه  
ذخر الغد • وعدة المستقبل غير المأمون • وكان رجال الجيش يرون فى  
وجود الحياة النيابية ، الطمأنينة على أنفسهم وأهلهم وذويهم من بطش  
الأقوياء وقيام الهوى مقام القانون •

التف حول عرابى الضباط الفلاحون ورفعوا فى ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠  
عريضة الى رئيس الوزراء يطلبون فيها اجراء تحقيق فى حالة الجيش ،  
وأيدهم قنصل فرنسا البارون دى رنج عند رياض باشا فوعد بالنظر فيها •  
ولكن عثمان رفقى عول على الانتقام وقرر ابعاد الآلايات عن أمرائها  
لتسخير جنودها فى حفر الرياح التوفيقى ، فأبى عرابى وحدثت مشادة  
بينه وبين ناظر الحربية وقدم هو وعبد العال حلمى وعلى فهمى  
فى ١٥ يناير سنة ١٨٨١ عريضة جديدة الى رياض باشا يطالبون فيها  
بعزل عثمان رفقى وسن قوانين ترفع الظلم عن الوطنيين وتقضى على  
المحسوبية فى الجيش •



ولكن رياض باشا بدلا من أن يتلافى الأمر في مبدئه ويستأصل أسباب الشكوى الحقيقية قرر ، تحت تأثير الحزب الجركسى ، محاكمة الضباط الثلاثة فدعاهم الى وزارة الحربية ( قصر النيل ) في أول فبراير وألقى القبض عليهم ، ولكن فرقتهم جاءت وأخرجتهم من السجن ثم ذهب الضباط والجند معا الى قصر عابدين وطلبوا عزل وزير الحربية فلم يسع الخديوى الا اجابة طلبهم وتعيين محمود باشا سامى البارودى مكانه .

وقد كان نجاح الجيش في مطلبه من أكبر العوامل التى دفعت المصريين الى الالتفاف حوله لتحقيق مطالبهم الأخرى ، وبدأ عرابى يظهر في الميدان بمظهر الزعيم وأخذت الهوة تتسع بين الخديوى وحكومته من ناحية والجيش والأمة من ناحية أخرى وانفتح المجال للدسائس بين الطرفين .

### الثورة العرابية

كانت الفترة التى انقضت بين حادثة قصر النيل في فبراير سنة ١٨٨١ ومظاهرة عابدين في سبتمبر مملوءة بالقلق والمخاوف ، وكانت حياة الضباط فى خطر ، وكان عرابى على اتصال مستمر بسultan باشا والأعيان وقد حصل منهم على توكيل بالمطالبة باسقاط وزارة رياض باشا وتأسيس حكومة شورى للمحافظة على حقوق المصريين وحریتهم .

ثم حدث أن الخديوى عزل محمود سامى لاعتقاده أنه متصل بالعرابين ( فى يولية ) وعين داوود باشا يكن صهره مكانه ، فانضم محمود سامى اليهم وأخذوا يعقدون الاجتماعات السرية ، وكان داوود باشا يعمل على تفريق كلمتهم والمماطلة فى تنفيذ القوانين العسكرية التى كان وضعها محمود سامى ، فعول عرابى على الاستناد الى القوة والقيام بمظاهرة عسكرية أمام سراى عابدين لتحقيق مطالب البلاد التى تتلخص فى تأليف وزارة جديدة وانشاء حكومة نيابية واصلاح الجيش .

اجتمع الجيش فعلا برياسة عرابى فى ساحة عابدين فى ٩ سبتمبر



وعرض المطالب الوطنية على سمو الخديو فوافق عليها وعهد الى  
شريف، باشا بانشاء حكومة نيابية في البلاد .

فرح المصريون بهذا الانتصار وصار عرابي وأعوانه يفاخرون بهذه  
« الثورة السلمية » التي أنالت البلاد حريتها من غير أن تسفك الدماء .  
ألف شريف وزارته في ١٤ سبتمبر وانتظمت الأمور حتى وردت  
رسالة برقية من الأستانة تنبئ بارسال وفد عثمانى برياسة نظامى باشا  
الى مصر لأجراء تحقيق عن « التمرد العسكرى » فقرر الخديو والوزراء  
ترحيل عرابي وألايه الى رأس الوادى وأخبار الوفد عند وصوله  
أن الطاعة شاملة فى الجيش ، ولكن عرابى ، وتلك احدى حسناته  
الكبرى ، أبى أن يغادر القاهرة قبل أن يصدر الأمر بانتخاب النواب .  
على أننا نقرر من جهة أخرى أن عرابى كزعيم سياسى كان يتحلى  
بالاخلاص والصراحة — المتناهية فى بعض الأحيان — ولكن كانت تعوزه  
الحنكة السياسية التى تزن الأقوال والأفعال بميزان وتحسب حسابا  
للعواقب . ولعل أول غلطة سياسية ارتكبها خطبته التى ألقاها على  
مودعيه فى محطة القاهرة عند سفره الى رأس الوادى فى ١٨ أكتوبر  
سنة ١٨٨١ . هذه الخطبة تشف عن منطق عال وتصوير صادق للحالة  
العامة ولكن الحقائق التى تضمنتها قد لا تطابق المقام . نشر لهذه الخطبة  
نص « رسمى » فى مذكرات عرابى باشا وفى « كتاب مصر للمصريين »  
ولكننا عثرنا فى مصادر أخرى لا نشك فى صحتها على النص الحقيقى ؛  
جاء فى هذه الخطبة :

« فى عصر رياض وقبله لمن كان يرفع شكواه المظلوم الذى تطوحوه  
ارادة الخديوى أو استبداد الوزير ليلقى الموت على ضفاف النيل الأبيض  
بعد تجريده من أملاكه ؟ » .

« أ الى البرلمان ولم يكن له أثر ؟ .  
« أم الى الخديوى ولم تكن له سلطة حقيقية وكان يكره معاملة  
الفلاح بالعدل ؟ .



« أم الى الوزراء وقد كانوا عبدة المصالح الشخصية ؟ »  
« أم الى الآستانة ونحن لا نملك الذهب الذى نسد به نهمتها ؟ »  
والآن وقد تكون البرلمان من لحمنا ودمنا فسيكون الوساطة  
بين الطغيان والعدل فى ظل الشعب وفى حماية الله .

« وقد اتهمنا الأوربيون ظلما أننا ثرنا للاستيلاء على أموال البلاد ،  
ولكن اسألوا أولئك الدائنين الذين يرفعون العقيرة : ماذا كانوا يصنعون  
لو كنا مكانهم وكانوا مكاننا ؟ أكانوا يترددون لحظة فى طرح ذلك  
الدين الذى ألقاه على كواهلهم طاغية عات ؟ » .

سافر عرابى الى رأس الوادى ومعه عبد الله نديم خطيب الثورة  
المشعوذ فكان عرابى يتجول فى أنحاء الشرقية ويلقى الخطب فى الحفلات  
والولائم « لبث مبادئه فى نفوس عمد البلاد ومشايع العربان » —  
كما قال هو — وكثيرا ما كان يشير الى مظاهرة عابدين « ووقوف الجيش  
بساحتها » ويخاطب المستمعين بمثل قوله : « وأنقذناكم ممن لم يعرف  
لكم حرمة » فلم تر الحكومة بدا من دعوته الى القاهرة ثانية وتعيينه  
فى وكالة الحربية ، ولكنه ما كاد يتسلم منصبه الجديد حتى « توارد  
المتظلمون عليه من أرجاء البلاد . . » ووفد عليه فى هذه الآونة الرجل  
« المتفانى فى حب العدل والحرية » المستر ونفرد بلنت .

وقد كان بلنت يشبه عرابى كثيرا فى تعلقه بالمبادئ السامية وسهولة  
انخداعه بالناس : خدعه مالت قنصل انجلترا واتخذة أداة اتصال  
بالعرايين ليشجعهم فى خططهم فيتسع الخرق بينهم وبين الخديو ويستفيد  
« السياسيون » من ارتباك الأمور واضطرابها لتنفيذ ما يريدون .

ولكن رغما من ذلك اجتمع مجلس النواب فى ٢٣ ديسمبر وانتظمت  
الأمور . فلم يرق ذلك فى أعين انجلترا وفرنسا خشية أن يكون فى الحياة  
النيابية قضاء على تفوذهما فى مصر ؛ وعولتا على دفع الحركة فى طريق  
العنف وخلق الارتباكات : حمل غمبتا رئيس الوزراء الفرنسية انجلترا



على ارسال مذكرة مشتركة الى الجناب الخديوى فى ٧ يناير سنة ١٨٨٢  
تخبرانه فيها عن « رغبة حكومة فرنسا وانجلترا فى مساعدته ومساعدة  
حكومته فى التغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق  
فى القطر المصرى . . . . لا سيما بعد حدوث الحوادث الأخيرة وأخصها  
الأمر الخديوى بجمع مجلس شورى النواب . . . »

كانت هذه المذكرة تحريضا صريحا للخديوى وحكومته على  
الغاء مجلس النواب والاستناد الى نظام المراقبة الثنائية ، وقد كان  
الحزب العسكرى فى عزلة منذ اجتماع مجلس النواب فعاد الى الظهور  
والتف النواب والوطنيون حول عرابى أمام خطر الاحتلال المائل  
فى مذكرة الدولتين .

وفعلا كان غمبتا - كما ورد فى مذكرات فريسينيه الذى خلفه  
فى الوزارة - أعد حملة من ستة آلاف رجل لارسالها الى مصر .  
ثم جرت الحوادث عجلى ، وكانت النفوس فى هياج مستمر ، وبدأ  
العراييون يستعدون للمقاومة بعد ما وضحت نية القوم ، وكان  
المراقبان يعارضان فى مبدأ تعرض البرلمان للميزانية بحجة أنهما يصيران  
بما لهما من حق التدخل فى مناقشة الميزانية ، أمام مجلس « غير مسئول »  
بدلا من « وزارة مسؤولة » أمامهم !

استحكمت الخلاف بين مجلس النواب والوزارة التى كان يؤيدها  
المراقبان ، فلم ير العراييون بدا من اسقاطها وتأليف وزارة وطنية  
برئاسة محمود باشا سامى ( ٢ فبراير ) وعضوية عرابى فى الحربية .  
شهد فريسينيه لهذه الوزارة ولرئيسها بالاعتدال ولكن المراقبين كانا  
فى قلق على مصلحة الدائنين ونفوذهما السياسى الذى لم يبق له أثر  
فى عهد الوزارة الجديدة فعلا على ايقاع الخلاف بين الخديو وحكومته  
الجديدة ، وقد تم لهما ذلك خصوصا وان الخديوى كان تحت تأثير  
السير مالت كما تؤيد ذلك المستندات الرسمية ، وجرت الدولتان على



خطة التضامن مع الخديو « الذي هو صاحب السلطة الشرعية الوحيدة »  
ضد وزارته المؤيدة بمجلس النواب •

وهنا ظهرت العناصر المتطرفة التي كانت تتمثل في الضباط بوجه  
خاص فذهب بعض المصريين الى تهديد الخديوى بالخلع ، وبالع الخديوى  
في الانضواء تحت لواء النفوذ الأجنبى •

في هذه الأثناء وصلت الأساطيل الانجليزية الفرنسية وأرسلت  
الدولتان مذكرة جديدة في ٢٥ مايو تطلبان فيها ابعاد عرابى من  
القطر المصرى واسقاط الوزارة فقدم محمود سامى استقالته  
في يوم ٢٦ محتجا في الوقت نفسه على توفيق « الذى تقع عليه تبعة قبول  
تدخل القنصلين العامين في شؤون البلاد » •

ثار الرأى العام وطالب الجيش بارجاع عرابى الى وظيفته فاضطر  
توفيق الى ارجاعه بعد ما تعهد أمام القنصلين بالمحافظة على الأمن العام •  
وفي ١١ يونية حدثت مذبحة الاسكندرية التي يقال أنها كانت مدبرة  
للقضاء على نفوذ عرابى والتمهيد للاحتلال وحماية الأوربيين خصوصا  
وأن الدول قررت عقد مؤتمر في الاستانة للنظر في حل المسألة المصرية •  
وبينما كان ممثلو الدول مجتمعين في الاستانة لايجاد حل سياسى  
وضعهم الأسطول الانجليزى أمام الأمر الواقع اذ أطلق في صبيحة  
١١ يولية قنابله على الاسكندرية من غير مبرر •

### الحرب والاحتلال :

ربما كانت مسؤولية عرابى العسكرية أكبر من مسؤوليته السياسية  
فانه رغما من تفوق الجيش الانجليزى على الجيش المصرى من حيث  
العدة والنظام كان في وسع المصريين لو حسنت قيادتهم أن يطيلوا  
زمن المقاومة على الأقل ويهيئوا للدول المجتمعة في الاستانة أو لتركيا  
فرصة عملية للتدخل لاسيما وأن فرنسا انسحبت من ميدان القتال

وصارت تتمنى فشل الحملة الانجليزية ضد مصر وكانت هي الداعية الى عقد مؤتمر الأستانة •

وتتلخص حوادث الحرب في أن الانجليز حاولوا بعد نزولهم البر اقتحام خطوط كفر الدوار المنيعة التي أنشأها محمود فهمى المهندس فلم يفلحوا فاتجهوا الى جهة القناة التي تركها عرابى بغير حصون ثم كسروا الجيش المصرى فى القصاصين والتل الكبير حيث لم يكن عند المصريين الوقت الكافى لاقامة الاستحكامات لصد الغارة ، وقد انتهت الحرب بهزيمة التل الكبير ( ١٣ سبتمبر ) وهرب عرابى الى القاهرة التى دخلها الجيش الانجليزى بقيادة ولسلى فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ •

وتتلخص أسباب الهزيمة :

١ - فى أن عرابى لم يكن جنديا مدربا شهد المواقع وحاز الصفات التى تؤهله للقيادة والجرأة والحزم •

٢ - انخداع عرابى بأقوال دلسبس الذى أرسل اليه رسالة يقول فيها « انى لا أسمح للانجليز بدخول ترعة السويس الا بعد أن يفصل رأسى عن بدنى ويعبر الانجليز على جتى » وعلى ذلك أمن عرابى مجيء الانجليز من هذه الجهة رغما من تحذير أركان حربيه له وترك منطقة القناة عوراء •

٣ - انخداع عرابى بمشايع العربان أمثال الطحاوى وغيره الذين كان يعتقد فيهم الصدق والأمانة ، وقد بلغ من دهائهم أنهم كانوا يبلغونه أحيانا بعض الأخبار الصادقة لاستدراجه والوقوف على خطئه ، وانخداعه بضباط أمثال على يوسف ضابط السوارى الذى كان فى مقدمة جيش التل الكبير وهو الذى أخلى السبيل أمام الانجليز • روى عرابى فى حديث له مع المقطم بتاريخ ٤ أكتوبر سنة ١٩٠١ أن ضباطه خانوه وأرسلوا الخرائط التى رسموها لمقاتلة الانجليز فى القصاصين الى الانكليز قبل محاربتهم وكان العرابيون دبروا تدبيراً عسكرياً



لأسر الجيش الانجليزى ومعه الدوق أوف كنوت فى القصاصين فأخفقوا  
سعيًا • قال « وقد زارنى السير ولسن من كبار الضباط الانجليز بعد  
الحرب وأطلعنى على بعض الخرائط وسألنى عن راسمها وقال :  
لو تيسر لكم العمل بها لكبدتم جيشنا خسارة عظيمة » •

٤ - انضمام الخديو توفيق الى الانجليز واحتمائه بأسطولهم  
وانشاء مكتب فى الاسكندرية برياسة سلطان باشا لرشوة الضباط  
وحضهم على خيانة عرابى •

٥ - نجاح اللورد دوفرين مندوب انجلترا فى الاستانة فى حمل  
السلطان على اعلان « عصيان عرابى باشا » فى منشور وزع بالآلاف  
فى صفوف الجيش المصرى •

٦ - سوء حالة الجيش والأسلحة والقلاع منذ أواخر حكم  
اسماعيل بسبب ارتباك الأحوال المالية ووقوف الدول فى وجه كل اصلاح  
حقيقى •

وقد كانت الهزيمة ، وخصوصا هرب عرابى فى موقعة التل الكبير ،  
سببا فى القاء ستاركثيف على تلك الفكرة السامية التى كان يدافع عنها ،  
فكرة الحرية والعدالة غاية عرابى وثورته •

### عرابى بعد الثورة :

كان هرب عرابى فى التل الكبير أحد أسباب ثلاثة ساعدت على ترويح  
تهمة الخيانة حول اسمه وانتشار شىء من الغموض والأبهام حول الثورة  
حتى كتب الوفد المصرى فى مذكرته التى رفعها الى المؤتمر فى سنة ١٩١٩  
عند ذكر الحوادث العرابية أن « الأبهام الذى يحيط بها لا يزال  
مستغلقا » •

أما السبب الثانى فهو الطريقة التى حوكم بها عرابى وأعوانه وذلك  
أن مستر بلنت كلف فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ المحامى برودى وآخر  
بالذهاب الى مصر على نفقته للدفاع عن عرابى • وكان الرأى البريطانى

في سكرة الانتصار ينادى بوجود اعدام رؤساء الثورة ، كتب صاموئيل بيكر في التيمس في ١٩ سبتمبر مقالا يقول فيه « أن الخديوى يمثل حكومة مصر وأن العصيان ضد سلطته خيانة كبرى جزاؤها الموت العاجل » وكان الخديوى وشريف ورياض يصرحون في الصحف بأن « حياة عرابى يجب أن تكون دية اخفاقه » •

كان عرابى منذ ١٤ سبتمبر أسير الجيش البريطانى الذى سلمه السلطات المصرية فى ٤ أكتوبر فبقى فى سجن الدائرة السنية هو وكبار رؤساء الثورة •

وقد أصدر الخديوى فى ٢٨ سبتمبر مرسوما بتأليف « لجنة التحقيق » ، وأغلبها من الأتراك والجراكسة ، لاجراء التحقيق فى أمر «العصاة» واستصدار الحكم عليهم بالاعدام بواسطة «مجلس عسكرى» مؤلف بطريقة لا تكفل حرية المتهمين وتطبيق العدل •

ولم يتمكن برودلى ، بسبب معارضة رياض باشا ، من زيارة المتهمين الا فى ١٤ أكتوبر بعد تدخل السير مالت ، وقد أرسل اليه فى الوقت نفسه مسيو بوريللى المستشار القضائى بوزارة الداخلية مذكرة سرد فيها التهم الموجهة الى العرابيين وتتلخص فى تهمة « العصيان » •

كانت خطة الدفاع التى رسمها برودلى أن عرابى دخل الحرب بموافقة الخديوى والسلطان وأنه من الوجهة القانونية لم يكن عاصيا ، وأما من الوجهة الأدبية فان اخفاقه وحده هو الذى يبرر مثل هذه التسمية ، وهذه كانت نظرية عرابى نفسه فى المذكرة التى وضعها لمحاميه عن الحوادث وتبعتها ، ولكن المحامى اضطر فى سبيل انقاذ موكله الى تغيير خطة الدفاع ، وهنا تترك له الكلام : « لأن الحكومة الانجليزية كانت مرتبطة بوجود عصيان حقيقى فاذا اعترف به صراحة لم يهمها شئ بعد ذلك ، وكانت وزارة الخارجية الانجليزية لا تجهل مزايا تجنب دفاع الخصوم فى قضية بالشكل القانونى ، وكل ما يعنيه أن تحصل بأية



وسيلة على الاعتراف « بالعصيان » لتبرر موقفها « وعلى ذلك زال الخطر  
الذي كان يهدد عرابي وصارت القضية صورية بحتة .

اجتمع المجلس العسكري في ٣ ديسمبر فوجه تهمة العصيان الى  
عرابي فرد وكيله بأنه « مدان » وفي مساء اليوم عرض حكم الاعدام  
على الخديوى فبدله بالنفى المؤبد .

وقد سافر عرابي وأعوانه في ٢٦ ديسمبر الى جزيرة سيلان  
بعد ما سلمت حياتهم على الرغم من رياض - الذي استقال - وحزب  
السراي .

وهنا بدأت صحف الخديوى تنشر المقالات بعد القضية بأيام قلائل  
تتهم فيها عرابي بتآمره مع الانجليز « الذين باع لهم انتصار التل الكبير » .  
أما السبب الثالث الذي حرك فكرة الخيانة والريبة في نفوس المصريين  
بعد هرب عرابي وقضيته الصورية فهو سعيه في منفاه للحصول من  
الانجليز على العفو ، والثناء عليهم قبيل مغادرته سيلان الى مصر  
في سنة ١٩٠١ . وقد وصل مصر في ٢٩ سبتمبر ونشر له المقطم  
في ٢ أكتوبر سنة ١٩٠١ حديثا أثار عليه ثائرة الرأي العام في مصر وجعل  
مصطفى كامل يشن الغارة عليه في اللواء قال عرابي :

« . . . سألت الكثيرين من أفراد عائلتي الذين جاءوا يسلمون  
على عن الأحوال فوجدتهم متفقين في الجواب : قلت أصحيح أن السخرة  
ألغيت من عندكم فقالوا نعم صحيح . قلت والكرياج ؟ قالوا أبطل  
من زمان طويل . قلت وكيف تحصل الأموال من الأهالي ؟ قالوا بالحق  
والعدل . . فسألتهم وكيف الاستبداد في الأحكام فأجابوا أنه لم يبق  
للاستبداد أثر في البلاد فكل شيء مقيد بقانون . وكل من له أو عليه  
قضايا برفع ظلماته الى المحاكم ، فشكرت الله حينئذ وحمدته لأنه حقق  
منأى وأراني قبل مماتي ما طالما كنت أتمناه لبلادي وأبناء وطني في حياتي  
وقلت هذا هو الاصلاح الذي كان غايتي من أفعالي الماضية

وقد شاء الله أن ينعم به على وطني ، ولكن لحكمة له جل جلاله قضى أن لا يتم ذلك على يدي بل على يد الذين نازلناهم في ساحة القتال أو كانوا لنا أعداء فصاروا لمصر اليوم خير الأصدقاء وقد قضى الله أن أكون واسطة هذا التغيير فأنال وطني ما كنت أتوخي وفي ذلك جبر لخاطري « . . . »

ثم قال « . . . » وقبل ما أفارق هذا القطر طلب اللورد دوفرين مني أن أطلعته على ما أرى هذا القطر محتاجا إليه من الاصلاح فكتبت تقريرا ضمنته ١٩ مادة ذكرت فيها ما أراه واجب الاجراء لاصلاح أحوال البلاد والعباد ، وأنا أراها الآن مستوفاة في الاصلاح الذي تم بحسن تدبير جناب اللورد كرومر الاداري المصلح الكبير » .

مثل هذا الحديث الذي لا ينم عن خيانة فعلية ولكن عن ضعف وجهل بالسياسة وتغاب عن الحقيقة ، لا يغتفر لزعيم جاهد في سبيل حرية قضى عليها الاحتلال الذي أصبح يحصى نعمه ، وقد كتب اللواء في ١٠ أكتوبر مقالا تحت عنوان « المدافعون عن الخائن » جاء فيه : « كيف لا يتهم عرابي بالخيانة بعد تصريحاته الأخيرة وهذا اللورد دوفرين أحد كبار الساسة الانجليز يقول في تقريره عن مصر « أننا لو أحسنا الى المصريين ورفعنا عن كواهلهم المظالم كلها وجعلنا بلادهم أنظم البلاد وأغناها لم نجد منهم حبا لنا ولا انعطافا اذا دام احتلالنا لبلادهم لأن الاستقلال لا يقدر بثمن » .

وقد نشرت الصحف في ذلك العهد قصيدة جاء فيها :  
عفا عنك الأبعاد والأداني فمن يعفو عن الوطن المصاب  
وما كان أخلق بعرابي أن ينزوي في كرامة الصمت أسوة بزملائه  
محمود سامي البارودي وطلبة عصمت وغيرهما من العرابيين الذين  
تركوا التاريخ يحكم لهم أو عليهم .

ولكننا على أية حال نبريء عرابي من تهمة الخيانة ولا نشك في أنه



كان شريف النفس محبا لبلاده ، عاملا على أعلاء شأنها ، وتوطيد نظام  
يكتفل العدل لأبناء جنسه الفلاحين الذين كانوا فريسة الحكام والمرابن  
الأجانب •

قال ملنر في كتابه عن مصر « ان الحركة العرابية كانت نهضة عامة  
نهضها الشعب ضد ظلم لا يحتمل » وقال كرومر « ان أغلبية الفلاحين  
كانت تعطف على عرابي وتولي وجهها قبلكه لانقاذها من المرابي  
والباشا » •

هذا فيما يتعلق بالحركة ، أما فيما يتعلق بالرجل فلعل أصدق حكم  
عليه قول أحمد بك رفعت الذي كان سكرتير مجلس الوزراء في وزارة  
محمود سامي : « لم يكن عرابي سياسيا كبيرا ، ولم يكن في مقدوره  
كزعيم عسكري على رأس الجيش أن يقاوم القوات الانجليزية ولكنه  
كمصري نزيه مجرد من الأطماع والغايات كان في مقدوره أن يقود  
أبناء وطنه في النهضة المقدسة التي رفعوا رايتها باسم العدل » •

وحسب عرابي باشا أو أحمد عرابي المصري ، كما كان هو يسمى  
نفسه اعتزازا بجنسيته ، أنه زعيم أول ثورة قامت في مصر والشرق  
في سبيل تحقيق فكرة سامية ، هي أبهى ما تزدان به الانسانية في عصورها  
الحديثة : فكرة الكرامة الذاتية والعدل والحرية والمساواة •

السياسة الاسبوعية في ١٩٢٧/٥/٥

## رسالة الجامعة

### في العصور الحديثة

محاضرة ألقيت في دار جمعية الاخوة الإسلامية

سنة ١٩٤١



كان يعرف النفس معها لئلا يـ : عاملان على اقلها شأنها ، وتوسط  
تفكير العدل لانيه جسد الفلاحين الذين كانوا فرسة الحكام والفرسان  
الاجانب  
قال مطرف في كتابه عن مطر : نحن الحركة العراقية كانت تفضى  
عنها الشعب ضد ظلم لا يحتمل ، وقال كرومر : ان اقلية الفلاحين  
كانت تدافع على عراقى وقولى وجهها قبيحة لا تقاها من المومنين  
وانبائها . . .

### تفكير الاستقلال

هذا فيما يتعلق بالحركة العراقية بالرجل فلعل اصدق حديث  
عنه قول احمد بك رفعت الذى كان سكرتير مجلس الوزراء في وزارة  
محمود سامي : **الاستقلال** ولم يكن في مقدمات  
كبريم عسكري على رأس السيل استخدام القوات الانجليزية والفرنسية  
كعصرى تزيه مجرد من الاطباع والفتايات كان في مقدماته ان  
انته وقت في العهد العثماني وهو ان استقلال العراق  
**فيه كنه بلاه ولا فيعجز ان رة شيقا امة**  
وحسب عراقى باشا او احمد عراقى المصرى ، كما كان هو  
تتم احرازها بخصه . <sup>1361</sup> **فمن** اول ثورة قامت في مصر والى  
في سبيل تحقيق فكرة سامية ، هي ايها ما تردان به الالسانية في عصر  
الحديث : فكرة الكرامة الذاتية والعدل والحرية والمساواة .

السنة الاسبوعية في ١٩٢٧/٥/٥

ARABIC LIBRARY  
UNIVERSITY OF AL-QADISIYA  
AL-QADISIYA

أيها السادة :

عرّف ( فلوبيير ) أحد كبار كتاب القرن التاسع عشر في فرنسا المطمح الاسمى فقال : « مثل المطمح الأسمى مثل الشمس يمتح بنوره قاذورات الأرض » •

وأنى أضع محاضرة اليوم تحت رعاية هذا المطمح الذى ننشده جميعا ونعمل على أحيائه فى كل نفس •

أيها السادة :

الجامعة الحديثة رمز النهضة وسنادها • رمز الحياة • رمز الديمقراطية • رمز حرية الفكر • رمز المساواة • رمز القومية وحصنها • ملجأ الروح العلمية وملاذها • مهبط الوحي ورسالة العصر • منتجج الكرامة والتجرد من الهوى والغايات • مصلت سيفها على الرجعية والظفرة والجمود وعبادة المادة والاثرة والأناية وعوامل الانحلال التى تبدو فى الأمم المكبة الى اذقانها فى الشهوات والخنوع والاتكال على الغير •

الجامعة الصحيحة أيها السادة : هى التى يفهم أساتذتها معنى رسالتهم ورسالتها • معنى الكفاح والتضحية والبعد عن مواطن الشبهات • معنى العلم ولذة البحث التى تسمو بصاحبها الى أقطار النور والجمال • حيث تصفو السريرة وتعالى عن الصغائر فتصبح نفوس الأساتذة خير فدوة تبعث الأمل فى نفوس النشء وتلهمهم حب الله والوطن والعلم • الجامعة فكرة سامية كالمدينة الفاضلة التى رسمها أفلاطون • تعلق بروحانيتها فى السماء وهى راسية على الأرض فتتهض فى ارتقائها بالجيل بعد الجيل • وتنشر الحياة فى البلاد • وتخلق الطبقة المختارة الراسخة فى العلم والفن التى تغذى الادارة بالرجال وتيسر القيام بأعباء الحكم والاصلاح وتحقيق الاستقلال الصحيح •



أيها السادة :

أكتفى اليوم بأن أضرب لكم مثلين في موضوعنا — أولهما الجامعة التي أنشأها نابليون في ظل الاستبداد الوطنى • وثانيهما الجامعة التي أنشأتها بروسيا في برلين في ظل الاستبداد الأجنبى الذى ضربه نابليون نفسه على البلاد اذ فى هذين المثلين يتجلى الغرض من انشاء الجامعات وتبدو رسالتها •

يحسن بنا أولا أن ندرس الجو الذى ولدت فيه كلتا الجامعتين حتى نستبين الروح التي دخلتها من أساسها ومبادئها •

— ١ —

كان نابليون بونابرت فى عهد القنصلية والامبراطورية مستبدا يريد الاستئثار بجميع السلطات وعصر كل معارضة أو كسرهما وطبع النظم كلها بطابعة بحيث تؤلف الدولة وأعضاؤها والأمة وقواتها المادية والأدبية نظاما آليا تحركه يد واحدة وغرض واحد •

لم يغب عن بونابرت أن التعليم أداة قوية يستعين بها فشملته عنايته ونظم التعليم الثانوى فى عهد القنصلية ( ١٨٠٢ ) والجامعة فى عهد الامبراطورية ( ١٨٠٨ ) •

ولكن القنصل أهمل عمدا التعليم الأولى الذى كانت الثورة جعلته اجباريا باعتباراه من مشخصات الديمقراطية فتركه على عائق البلديات والأسر تتعهدده وتنفق عليه ، وكان خليقا بتشجيع الحكومة ورعايتها • لأن الشعب المستنير مصدر كل قوة وهو مادة لا تنفذ تستحدث منها الرجال والجند والقادة والعمال • مثله مثل الأرض لا يصلح الزرع الا اذا أصلحت وانتقى عنها الجهل •

لما فعل كسر الزمان  
أما التعليم الثانوى والخاص فقد كان غرض نابليون منهما تكوين موظفين مجردين من الثقافة العامة لا هم لهم الا الامتثال لأوامر الحكومة وخدمتها فى شخص الامبراطور • لذلك كان نظام التعليم سياسيا فى



الواقع تعمل الحكومة بواسطته على اجتذاب جيل الحاضر وجيل المستقبل : الآباء بواسطة أبنائهم • والأبناء بواسطة آبائهم • فلقد قررت الحكومة قبول ستة آلاف وأربعمائة طالب مجانا تتولى هي الانفاق عليهم وتكفل مستقبلهم بتوظيفهم بعد الانتهاء من دراستهم ، فتزاحم الآباء على هذه المجانية التي كانت مغنما •

وكانت الصبغة الغالبة في التعليم عسكرية • ينشأ الطلبة منذ الصغر على دق الطبول واتباع النظام العسكرى في زيهم الرتيب وحركاتهم المدرسية • وكان بالمدرسة أساتذة يلقنونهم التمرينات العسكرية • لا يدرس لهم الا العلوم والآداب التي تعترف بها الحكومة ولا ترى فيها خطرا على مبادئها • وأساس هذه الآداب اللغات القديمة اللاتينية واليونانية • وكانت البرامج خلوا من التاريخ والفلسفة « لأن التاريخ في زعم الابتدائيين وأولى الأمر ، لا يحتاج الى دراسة خاصة ويكفى قراءته لتعلمه » وأهمل تعليم البنات لأن الحكومة لا يمكنها أن تجعل منهن جنودا أو موظفين • متجاهلة تلك الحقيقة الاجتماعية الكبرى التي ساقها المرحوم حافظ ابراهيم في قوله : -

الأم مدرسة اذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق  
وقد أنشئت الجامعة الامبراطورية في سنة ١٨٠٨ بعد أن مهد لها بتأسيس المدارس الخصوصية العالية سنة ١٨٠٤ على نفس النمط • وكانت فكرة نابليون من انشاء الجامعة خلق ادارة مركزية عامة واحدة للتعليم بجميع أقسامه تحت اشراف الحكومة بحيث تكون أشبه « بمدير مدرسة » تحتكر نظام التعليم كله وتراقبه وتهيمن عليه لتكون الجامعة سنادا روحيا للدولة • ومن هنا فرضت على رجال الجامعة شروط معينة منها « أن يجعلوا أساس تعاليمهم مبادئ الدين الكاثوليكي والولاء للامبراطور وحكومته اللذين بيدهما مفتاح سعادة الشعب وهنائه • ولأسرة الامبراطور القوامه على وحدة فرنسا وعلى جميع



الحریات التي يكفلها الدستور » ، والواقع أن حرية الفكر وهي أعلى  
الحریات وأثمنها كانت حيرى مولهة وحيدة كاليتيم بين جدران الجامعة ،  
وقد حرم على الأساتذة كل تعليم فلسفى أو تاريخى أو علمى صحيح .  
ولم يفكر أحد فى العلم لذاته فانتشر الجمود وعمت الروح الابتدائية  
فى التعليم وأساليبه وخلا الجو للثقافة الرسمية ( الأميرية ) التي كانت  
سنادا واهيا للإمبراطور وحكومته .

وقد تجاهل نابليون ، ابن الثورة ، أكبر ثورة فى تاريخ البشر ، وكان  
يتهمن فى مصادرة الحرية فى النظم الدستورية والصحف والاجتماعات  
والكتب والمطابع والمكاتب ومعاهد التعليم فكان يريد أن يجعل من كل  
فرسى آلة وعبد له ، ومع ذلك كان يتظاهر بكرهية الاستبداد ويقول :  
« لا أريد أن يكون الفرنسيون عبيدا » .

وقد أنشئت فى سنة ١٨١٠ إدارة عامة فى وزارة الداخلية للإشراف  
على المكاتب والمطابع وبسط الرقابة على كل ما يظهر فى عالم الكتابة  
والنشر ، وكانت لا تمنح الرخص الا لعدد معين من أصحاب المطابع  
لأن « المطبعة فى رأى نابليون مخزن أسلحة لا يصح أن يؤتمن عليه  
الا أولئك الذين تضع الحكومة فيهم ثقتهما » وقد منعت الرقابة نشر  
ترجمة « مزامير داود » لأن فيها تنبؤا بالنزاع الذى بدأ يحدث بين البابا  
ونابليون .

وقد صودر الكتاب الذى ألفته مدام دى ستايل عن ألمانيا ولم يكن  
السياسة فيه نصيبا إذ كان لا يشتمل الا على تاريخ الأدب والفلسفة  
فى هذه البلاد المجاورة . ولكن نابليون خشى أن يقف الشعب الفرنسى  
على آثار الحركة الفكرية عند الأمم لا سيما وأن فلسفة ( كنت ) وشعر  
جوته والأدب الجديد بدأت تذكر ألمانيا بعظمتها وتحرك فيها الشعور  
الوطنى والكراهية ضد نابليون الغاصب .

— ٢ —

كان نابليون فى الداخل يريد أن يجعل من الفرد آلة صماء وكان



يريد تسخير قوات الدولة المادية والروحية لتحقيق أطماعه وماآربه الشخصية ولو هلكت القرى والعباد وكان في الخارج يريد أن يسيطر على أوروبا التي دوخها غزوا ونهبها وارهاقا . وقد كان انتصاره في يانا سنة ١٨٠٦ ومعاودة تلت ايذانا بضياع استقلال بروسيا الفعلى وهيمنة نابليون على ألمانيا اذ جعل أهلها أذلة .

ولما كانت بروسيا أكبر ولاية المانية مستقلة ومهد فردريك الأكبر وقادة الرأى والفكر ، فقد يممها الأحرار من كل حدب لأنهم ايقنوا أن عظمة ألمانيا متوقفة على تحرير بروسيا وتوطيد سلطانها كما أيقن الظليان فيما بعد بأن وحدة ايطاليا واستقلالها متوققان على تحرير ولاية اليمون الشمالية وتدعيم بنيانها .

#### مميزات النهضة :

كانت هزيمة يانا نكبة كبرى دفعت الملك الى استجداء الصلح وقد ظهر الموظفون بمظهر الخنوع أمام الغاصب وختت الصحافة من نعة العزة والأباء ، وكان السكان يتزاحمون على رؤية الجند المحتل وهم يدخلون في برلين أفواجا فأظلمت الآمال وخيم اليأس على النفوس حتى خيل الى بعض المفكرين ، أن الاستعباد قد أناخ على بروسيا بكلل وأنها لن تقوم لها قائمة .

ولكن الواقع أثبت أن الاستسلام كان عارضا وقتيا وأن الحيوية الكامنة في عصب البلاد وفي تاريخها ولغتها وآدابها ، في أرضها وعبقريتها ، في ماضيها وحاضرها ، كانت تنتظر من يحسن تعهدها وتحويلها الى قوة دافعة تتغلغل في جمع الطبقات فتحركها الى تحقيق المراد البعيد .

وقد كانت بروسيا تفهم جيدا أنها مهما أعدت من قوة لا يمكنها وحدها أن تتغلب على نابليون ولكنها كانت تعلم علم اليقين أن الأمور مرهونة بأوقاتها . وأن تغير الحالة العامة في أوروبا لا مناص منه .



فكان يجب عليها أن تأخذ أهبتها حتى تستفيد من الظروف الطارئة .  
كان هذا رأى الوطنيين وهم الحزب الغالب . وكان الملك كثير  
التردد والتأثر بأراء الرجعيين من النبلاء الذين كانوا يخشون عواقب  
الثورة على امتيازاتهم وسلطانهم . فكان من رأيهم الخضوع للحكم  
الفرنسى . وكان ستاين وزعماء الحركة الاصلاحية ينادون بوجوب  
اعلان الحرب على الغاصب ويقولون : « انه خير للملك أن يفقد  
تاجه بدلا من أن يعيش فى الاستعباد الجالى » ولكنهم كانوا عمليين  
نظاميين يريدون الجرى على سياسة اصلاحية واسعة النطاق مدرجة  
بعضها عاجل الثمر ، وبعضها لا يثمر الا بعد حين .

كانت فكرة المصلحين الأساسية تكوين نظام « الأمة المسلحة »  
الذى أوجدته الثورة الفرنسية وكان لابد لتحويل الأمة كلها الى  
جيش قوى بعدته وعديده من اصلاح الادارة وجعل الأمة كتلة واحدة  
تتظمها روح وطنية علمية اجتماعية جديدة ، ومن هنا كانت فكرة  
الجامعة جزءا من برنامج النهضة العامة .

كان رؤساء الاصلاح بعد يانا ، ستاين وشارنهورست ، وجنايزناو  
وكان ستاين رئيس الوزراء . وكان شارنهورست منظم الجيش  
وجنايزناو من أكبر أعوانه .

كان جنايزناو فى سنة ١٨٠٧ يقول أن « السبب فى بلوغ فرنسا  
هذه الدرجة من المنعة والسلطان ، هو أن الثورة نبهت جميع القوى  
الاجتماعية . وما أكثر القوى الكامنة فى حياة الأمم . وكم فى نفوس  
آلاف الرجال من عبقرية ومواهب تخدمها الظروف الخارجية وتمنعها  
من الظهور ، وقد حركت الثورة الفرنسية عند الشعب الفرنسى  
القوة القومية بحذافيرها . . . . . فىجب أن نسير على مثالها وأن نوجه  
القوة الوطنية فى تمامها ضد القوى الأجنبية الغاصبة » .

وكان فون درجولتز يقول « ان استعمال جميع القوى الأدبية  
والمادية فى أمة كفىل بعظمتها ونهوضها اذا أصابها ضعف أو خور » .



وكان شارنهورست يقول : « يجب أن يفرس في الأمة الشعور باستقلالها • وأن تحطم النظم القديمة الضيقة • حتى يكون عمل النهضة حرا في نموه وتطوره » •

وقد كان الجيش البروسي قبل تدهوره في يانا يتألف نصفه من الجنود المرتزقة ، وكان نظام الجندي قاسيا للغاية ، وكان النبلاء مستأثرين بجميع وظائف الجيش الرئيسية • ولهم عدا ذلك حقوق وامتيازات كثيرة منها ملكية الأراضى والمعافاة من الخدمة العسكرية واستخدام الفلاحين في السخرة وأعمالهم الشخصية ، وبالجملة كانت مساوىء النظام الاقطاعى في بروسيا تعوق كل تقدم حقيقى في البلاد •

هذا من الناحية الاجتماعية ، ومن الناحية السياسية كان نابليون يحتل بروسيا بجيوشه ويبتز منها المال بكل الوسائل ولم يعين مقدار دينها الا في اتفاقية باريس ( سبتمبر سنة ١٨٠٨ ) اذ تقرر بقاء الاحتلال حتى ينتهى سداد الدين ( ١٤٠ مليون فرنك ) •

وكان نابليون في الواقع لا يعرف حدا لطلباته المالية الفادحة وقد فاخر بأنه ابتز مليارا من بروسيا التى عانى أهلها أشد أنواع البؤس والظنك وذاقوا غطرسة الاحتلال وتدخل الأجنبى المستمر في حكومة البلاد وادارتها رغما من استقلالها الرسمى •

### الاصلاح الاجتماعى :

كان ستاين يريد تعويد البلاد الحكم الذاتى • واشراك السواد الأعظم من الشعب فى الحياة العامة • لأن الشعب سناد كل حركة قوية فعمل على ترقيته وتحرير الفلاحين من استبداد النبلاء • ونشر المساواة وتقرير حق ملكية الأراضى للفلاحين الذين كانوا عبيدا للأشراف أو مؤجرين • لا ملاكا • حتى يتمكن من ازالة كل ما يعرقل حركة النماء والرفاهية ويقضى على الروح العامة •



في ٩ أكتوبر سنة ١٨٠٧ أصدر الملك مرسوماً بإلغاء علاقة التبعية بالوراثة التي كانت بين الفلاحين والنبلاء وتحرير الملكية العقارية من جميع القيود القانونية التي كانت تحرم ملتزميها من حرية التصرف فيها . فصارت ٤٧٠٠٠ أسرة في أراضي الحكومة تتمتع بالملكية . أما باقى الأسر في البلاد فقد منعها الأشراف بذرائع مختلفة من التمتع بحقها .

وفي ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٠٨ صدر قانون الإدارة المركزية الذي لا يزال أساس نظام الحكومة البروسية الى اليوم وحسب هذا القانون أنه وطد وحدة المملكة بإنشاء وزارة تحل محل الحكومة الشخصية في إدارة البلاد وبإلغاء الوزراء في المقاطعات والقضاء على امتيازات المقاطعات المختلفة . وتبسيط التقسيم الإداري القديم وإصلاحه ، وكان ستاين يفكر في إنشاء مجالس مديريات وجمعية عمومية ولكن هذه الفكرة لم تتحقق إلا بعد خمسين عاماً . بسبب معارضة الملكية في الإصلاح النيابي .

كان ستاين وأعدائه من المصلحين الذين على مذهب ( كنت ) من رأيهم استغلال جميع القوى المادية بتحطيم القيود الإقطاعية التي كانت تختنق فيها ، وجميع القوى الفكرية بإنشاء جامعة تبث في التعليم روحاً جديدة . وكانت غايتهم من قانون ٩ أكتوبر سنة ١٨٠٧ الخاص « بحرية التصرف في الملكية » تحرير القوى الفردية التي تدفع الإنسان الى السعى وراء الرفاهية والعيشة الراضية والكرامة الذاتية .

وقد رأس ستاين الوزارة في سنة ١٨٠٨ وعهد الى شارنهورست بإصلاح الجيش . وكان انتصار الإسبان في ذلك الوقت على نابليون يدفعه الى التفكير في الانتفاض عليه ، ولكن البوليس السرى الفرنسى وقف على خطته فحتم نابليون إخراجه من الوزارة ( ٢٤ نوفمبر ) بل والقبض عليه ومصادرة أملاكه ولكنه تمكن من الهرب وقد ظل النظام الإداري والسياسي والعسكري الذي أوجده ينمو في الخفاء بعده



بسبب وطنية الزعماء الصامته ، وتضامنهم في خدمة بلادهم ، والعمل في الخفاء على تحقيق أغراضهم ولو أدى ذلك الى التظاهر بخدمة المحتل وقبول شروطه والاحتيايل حتى اليوم الذي يتمكنون فيه من قلب ظهر المجن واظهار العدة الكبرى التي أعدت في صمت لليوم المشهود •

### الاصلاح العسكرى :

كان شارنهورست يريد أن يكون الجيش والأمة سواء • وذلك بتعميم الخدمة الاجبارية • وتزوير الشعب والغاء الامتيازات التي تضعف القوى المعنوية • وتقضى على روح الألفة والأخاء بين الطبقات والأفراد ، لأنه كان يعلم أن الوطنية الحققة نتيجة التحرير الاجتماعى وانها العامل الأول في انتصار جيوش الثورة •

وقد عول شارنهورست على تحقيق خطته الاصلاحية بعد رحيل ستاين وكان ( هاردنبرج ) الذى خلف ستاين من المعتدلين الذين يعملون على تجنب كل المظاهر التي من شأنها اثارة الفرنسيين والنداءات الى الأمة التي كان ستاين يقترح على الملك اصدارها وقد اشتد في عهده ساعد الحزب الرجعى وكان شارنهورست ممثل الحزب الوطنى في الوزارة يشكو من اعتراض الملك على الكثير من اصلاحاته النافعة كالخدمة الاجبارية التي وضع مشروعها في سنة ١٨٠٨ وكان يتحمل في سبيل خطته بعض الاهانات والعمل مع خصومه الذين يعينهم الملك •

كانت الجندية بغيضة الى الجميع • أقرب الى المهنة منها الى الواجب الوطنى • ولم يكن في بروسيا بعد تيلست خيول ولا مدافع ولا بنادق فكانت خطة شارنهورست تسليح الرجال بالحرايب في حالة حرب عاجلة والاشتغال في الوقت نفسه باحداث اصلاحات عسكرية اجتماعية واسعة تظهر نتائجها بعد زمن •



وقد عمل في ساعات اليأس ( ١٨٠٩ و ١٨١٠ ) عملاً خارقاً في  
وزارة الحربية فانشأ مدرسة لتعليم الفنون العسكرية الراقية وتخريج  
الضباط وخفف من قسوة النظام العسكري والغى نظام الجنود  
المرتزقة .

ولكن عمله الذي يدل على الوطنية العالية التي تحتال لتخليص  
البلاد من ظل المحتل وجوره واهاناته وتدخلاته في شئون البلاد  
هو العمل على انشاء جيش ضخم رغماً من معارضة الملك وحزبه في  
الخدمة الاجبارية . ورغماً من مراقبة المحتلين وغيونهم المبثوثة في  
كل مكان .

نصت اتفاقية سبتمبر التي عقدت في باريس بين بروسيا و نابليون  
سنة ١٨٠٨ على جلاء الجنود الفرنسية عن بعض مقاطعات بروسيا  
ولكنها حتمت عليها أن لا يزيد عدد جيشها على ٤٢٠٠٠ جندي .

قرر شارنهورست بقاء العدد المعين لكل فرقة من الجيش كما هو ،  
ولكنه جعل يدمج في كل فرقة تحت السلاح نفراً معيناً من الأقاليم  
التابعة له ، يتعلمون أهم التمرينات العسكرية في مدة شهر ثم يحل  
محلهم غيرهم . وبهذه الطريقة كانت الفرقة التي لا يزيد عددها  
عن ٥٥٠ تحت السلاح يمكنها أن تضم إليها بعد مضي ثلاث سنوات -  
٢٥٠٠ جندي جديد ، تلقوا مبادئ التعليم العسكري دون أن يكلف  
ذلك الدولة ما لا طاقة لها به .

وقد كان هذا العدد الاضافي المستتر هو الذي مكن بروسيا في  
بداية سنة ١٨١٣ من مفاجأة نابليون بجيش لا يقل عن ٣٥٠٠٠٠ .

جامعة برلين :

لا يزال البروسيون الى اليوم يفاخرون بأنهم فهموا في ساعة المحنة  
والاضمحلال ، الصلة التي تربط مصير الأمة السياسي برقيها الأدبي



والاجتماعى ، وقد حلت محل فلسفة القرن الثامن عشر النظرية ،  
فلسفة عملية تقرن الفكرة بالعمل وتجعل منهما وحدة لا تتجزأ •

روى ( ارنست لافيس ) فى كتابه عن بروسيا أن الدكتور شمالتز  
الأستاذ بجامعة هال التى ألغاه نابلون بعد يانا قصد ملك بروسيا  
وكان كلاهما طريدا ، فعرض عليه نقل جامعة هال الى برلين ولكن  
مدينة هال كانت ضمت مع دوقيه مجدبرج الى مملكة وستفاليا ، التى  
صار يحكمها جيروم بونابرت فخشى فردريك غليوم أن يثير هذا النقل  
خفيظة نابلون ولكنه وعد محدثه بانشاء جامعة جديدة فى برلين  
« لأن الدولة فى رأيه • يجب أن تجد فى القوى الأدبية عوضا عما فقدته  
من القوى المادية • »

وكان الكثيرون من الألمان بعد يانا يرون أن انشاء جامعة وطنية من عوامل  
انهاض بروسيا بعد تجزئتها واذلالها حتى تزيد التربية من قوة المقاومة  
فى النفوس الألمانية ضد الظلم الأجنبى • وكان الفلاسفة الألمان يعتبرون  
الهزيمة والاحتلال عارضا من العوارض لأن هناك قوة لا يصل اليها  
نابلون • تلك قوة الايمان والعلم التى يجب تعهدها بنشر التربية والأدب  
بين طبقات الشيبية والشعب وطبعها بالطابع القومى •

وكان ستاين يقول فى سنة ١٨٠٨ « يجب أن نعول قبل كل شىء  
على تربية النشء وتهذيبه • فان اليوم الذين نكون قد تمكنا فيه من  
برقية القوى الأدبية بطريقة مبنية على طبيعة الرجل الباطنة ونشر المبادئ  
التي تتزن بها الحياة • وتعهدنا بعناية واهتمام حب الله وحب الملك  
وحب الوطن • فذلك هو اليوم الذى يبدو فيه جيل جديد يعتز بقوته  
العقلية والبدنية ويلوح المستقبل المأمول » •

أنشئت الجامعة بين ١٨٠٨ و ١٨١٠ وقد عين فيها فى بدايتها أربعة  
أساتذة كان من بينهم الفيلسوف فيشت أول مدير لها • بدأ فيشت  
محاضراته بخطبه الشهيرة التى وجهها الى الأمة الألمانية •



كان فيشت تلميذ ( كنت ) الذي كان يدافع عن حقوق الانسان .  
وقد خاطب البرلينيون في سنة ١٨٠٤ قائلا « ان المثل الأعلى الوحيد الذي  
رسم للحياة البشرية هو الرفاهية ، فكل يعمل على أن يحتل في الحياة  
أعز وأعلى مكان . دون أن يفكر لحظة واحدة في معنى التضامن الذي  
يربطه بأبناء وطنه وبغيره من بني الانسان . ودون أن يسأل نفسه  
فيما اذا لم تكن هناك طريقة أخرى للانتفاع بالحياة . وهذا هو السبب  
في أن التفرد والأثرة وحب الذات تهيمن على الروح العامة » .

وقد تأثر فيشت بتعاليم بستالوزي السويسري الألماني الذي كان  
يقول أن الانسان لم يخلق في هذا العالم للبحث عن مصلحته الخاصة ،  
ولكنه يكمل بكمال أشباهه وقرنائه ، ومن ثمة عنى بستالوزي بوضع  
نظام جديد لتربية الأطفال يكفل ايقاظ حواسهم واتباهم الى تفهم  
الحقائق وكان هذا النظام يقضى بجعل التعليم اجباريا ومجانيا حتى  
يتمكن الفقراء من أخذ قسطهم منه .

وقد أشار فيشت في خطبه الشهيرة الى تعاليم بستالوزي ، وبينما  
كان يخطب كان يسمع قرع الطبول الفرنسية في الشوارع . ولذلك كان  
يقول « انتى أعرف أنى قد أقتل رميا بالرصاص في أية ساعة ، ولكن  
ذلك لا يمنعنى من القيام بما أعتقده الواجب » .

وقد منعت الرقابة نشر هذه الخطب في وقتها الا أن بعضها قد  
مر بفضل وطنية بعض الرقباء وشجاعتهم . وكانت أول صيحة قوية  
بعد لوثر في ألمانيا .

جاء في احدى خطبه « لقد انتهى العراك بالسلاح والآن يبدأ عراك  
المبادئ والأخلاق . لقد تمكن الأجنبي من اخضاع ألمانيا لنظامه  
السياسى وقوانينه ومحالفته ولكنه حين انتزع منها السلاح لم يفكر  
في التعليم الذى هو وحده كفيلا باخراج الوطن من الغمة » .

ونادى في خطبة أخرى بوجوب جعل التعليم اجباريا كالخدمة



العسكرية ثم قال « يجب تكوين رجال يكون عندهم روح التضحية وانتزاع الجيل الحاضر من المحيط الذى يعيش فيه • والوصول فى مدى ربع قرن الى خلق رجال جدد ، ان الجيل السابق كان نفعيا وأنايا فيجب أن ينشأ شباب اليوم على حب العلم لذاته ، دون خوف العقاب أو انتظار الأجر والتجرد من الأغراض والسمو بالحياة فوق المصالح الذاتية والتعلق بالتضامن والمساواة » •

وقد ذكر فى احدى خطبه بمقاومة الألمان للرومان الغزاة رغما من علو مدنيتهم « لأنهم أرادوا المحافظة على حريتهم وحرية أبنائهم بدلا من الخضوع للاستبعاد الذى كان يحولهم الى أنصاف رومان » •

وكان يحض الخلف على الاقتداء بالسلف فى المقاومة ، لا سيما وأنه « من المستحيل أن يتمكن شعب غالب من أن يظهر فى الكفاح شدة المراس التى يبديها شعب لا يريد أن يغلب على أمره بأى ثمن » •

وقد قال فى خطبته الأخيرة « فى هذه الخطب قلت لكم مرارا ولا زلت أكرر القول ، أنه لا معين لكم سوى أنفسكم ، أتمم يا رجال العمل لقد كنتم جهالا ضعيفي الرأى والتدبير، تحتقرون المثل العليا وقد آن لكم أن تصلحوا من شأنكم وأن تغيروا ما بأنفسكم ، وأتمم يا رجال الرأى والعلم والفكر والأدب ، كونوا خليقين باسمكم وبالغاية التى تريدون تحقيقها • • • وأتمم يا أمراء ألمانيا نريد أن تتناسى لكم أغلاطكم وقصر نظركم • ولكن لا أقل من أن تنتهزوا الفرصة الوحيدة للعمل على سلامتكم وسلامة البلاد • وأن آخر نصيحة أوجهها هى أن يشد كل ألمانى من عزيمته ، وأن يستعد لتأدية الواجب دون الاتكال على الغير ، كما لو كان وحيدا • • يجب أن نموت أو نكافح فالساعة رهيبه » •

وكان ( شلاير ماخر ) وهو من كبار علماء الدين • واحد أساتذة جامعة هال الذين نرحوا الى برلين يقول « أن الجامعة الجديدة يجب أن تجمع بين الثقافة العلمية والتعليم الفنى، التى تتعهده المدارس الخصوصية



لخدمة الدولة ، وبذلك تتمكن الجامعة من تلقيح التعليم الفنى بالروح العلمية ، وضمان مستقبله بهذه الصورة ، لأن الدولة التى تجعل من الجامعات مركز التعليم ، والتى تحصر نفسها فى حدود التعليم الفنى الضيقة ، يودى بها الأمر الى تحويل العلم الى حرفة كما حدث فى امبراطورية نابليون » •

وقد تم انشاء الجامعة ووجد بها العدد الكافى من كبار الأساتذة الوطنيين فى سنة ١٨١٠ بفضل مجهودات الفيلسوف، هامبولدت تلميذ ( كنت ) وصديق جوته وشيلر ، ووزير المعارف العمومية فى سنتى ١٨٠٩ و ١٨١٠ ، وقد سعى ذلك الوزير العامل فى اختيار العلماء القادرين من الألمان واجتذابهم بكل الوسائل • وكان كثيرا ما يختار للمادة الواحدة أساتذة مختلفين فى المذهب والرأى حتى « لا يستغل كل واحد منهم العلم فى هدوء كما تستغل المهنة » •

وقد لعبت الجامعة دورا كبيرا فى حركة سنة ١٨١٣ القومية بفضل الروح الوطنية التى كان يبثها العلماء فى دروسهم وأبحاثهم فما كادت جنود نابليون تلقى الهزيمة فى مجاهل روسيا حتى انقض عليهم البروسيون ، وكان الطلبة أول من لى داعى الوطنية • وقد كتب أحدهم الى زميل له « ضع ثقتك فى الله واعلم أن فناء الفرد يتوقف عليه بقاء المجموع • • • أننا نريد أن نموت فداء الوطن » •

بهذه الروح العالية التى كان يبثها أساتذة لا يولون وجوههم وقلوبهم الا شطر العلم والوطن ، انتعشت برلين ودبت فيها الحياة وصارت منذ ذلك الوقت حاضرة ألمانيا العلمية ، وكانت تعاليم هيجل بعد تعاليم كنت من أكبر عوامل النهضة الألمانية فى القرن التاسع عشر •

## الامبراطورية المصرية

في

الحسين عاماً الأخيرة

وكان الحلال الامبراطورين في القرن التاسع عشر من أكبر مآسي التاريخ لانه تسبب في القضاء على مدينتين حديديتين في الشرق واورقيا كما ان سياسة التمدن وسياسة الحديد والتار قد نتج عنها حرب العراق في مصر والسودان مما وعرق المدن وقتل الملايين من الشر في البلايين سنة 1883 وسنة 1898 أي مدة ستة عشر عاماً كاملة كانت من أشد الأوجاع.

كانت الامبراطورية المصرية في أوائل القرن الماضي آخذة في الاستعلاء وكانت أوروبا تحاول تقسيمها فيما بينها ففكر محمد علي في النهوض بها والتقل على إنشاء دولة قومية جديدة تكون مصر قاعدتها دولة عربية العسيرة في الركن الجنوبي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ولكن الدول وفي مقدمتها انجلترا كانت له بالمرصاد لانه كان يواجم اسماها في الامبراطورية العثمانية وبعبارة أخرى في آسيا واورقيا.



لخدمة الدولة ، وبذلك تمكن الجامعة من تفتح التعليم المسمى بالروح  
العلمية ، وفساد مستقبله بهذه الصورة ، لأن الدولة التي تجعل من  
الجامعة مركز التعليم ، والتي تحصر نفسها في حدود التعليم التي  
التي تؤدي بها الأمر إلى تحويل العلم إلى حرفة كما حدث في  
أوروبا ما بين 1800 و 1850 .

وقد تم إنشاء الجامعة ووجد بها العدد الكافي من كبار الأساتذة  
الوطنيين في سنة 1810 بطلب من جهودات الفيلسوف هامولدت كلسن  
( كتب ) وسيدريك جوه وشيلر ، ودرج المصروف القومي في سنة  
1809 و 1810 ، وقد **تبعها التبدل العظيم** العلماء القادرين  
من الألمان واجتذبتهم بكل الوسائل ، وكان كثيرا ما يختار للقيادة الواحدة  
أكثر من مختلفين في المذهب والراي ، « لا يستغل كل واحد منهم  
العلم في حدوده كما تستغل الأمة »

**في سنة 1810**

وقد تمت الجامعة فوزا كبيرا في حركة سنة 1813 القومية بفضل  
الروح الوطنية التي كان ينشأ العلماء في فروسهم وأبحاثهم فما كانت  
جوده تطول تلقى المؤسسة في مجال روتسا حتى انقض عليه  
الروسيون ، وكان الطلبة أول من لبى داعي الوطنية ، وقد كتب أحدهم  
إلى زميل له « لا شع شك في الله واعلم أن فناء الفرد يتوقف على فناء  
المصنوع » . « أنا أريد أن نسوت فداء الوطن » .

بهذه الروح العالية التي كان ينشأ أساندة لا يولون وجوههم وقلوبهم  
إلا لشعر العلم والوطن ، انتعشت برلين ودفقت فيها الحياة وصارت منذ  
ذلك الوقت حاضرة ألمانيا العلمية ، وكانت تعاليم هيجل بعد تساليه  
كنت من أكبر عوامل النهضة الألمانية في القرن التاسع عشر .

UNIVERSITÄT  
BIBLIOTHEK

تكونت الامبراطورية المصرية في القرن التاسع عشر مرتين الأولى  
في عصر محمد علي والثانية في عصر اسماعيل • وكانت عوامل البقاء  
وعوامل الفناء تدب فيها جنباً الى جنب منذ البداية في كلتا الحالتين •  
فاذا أردنا أن ندرس عوامل الانهيار الكامل الذي تم في الخمسين  
سنة الأخيرة أي منذ استرداد السودان سنة ١٨٩٨ الى عهدنا هذا  
وتحقيق السودان والاستقلال — أي فصل السودان عن مصر —  
وتفكيك الكتلة الأساسية من الامبراطورية المصرية ( مصر والسودان )  
وجب أن نرجع الى تطور الامبراطورية في القرن التاسع عشر •

أخذت الدول ، وعلى رأسها إنجلترا ، مصر ومحمد علي بخناقهما  
سنة ١٨٤٠ ، ومصر واسماعيل من سنة ١٨٧٩ الى ١٨٨٢ ، وكان  
سلاحها في الحالتين التدخل والغزو •

وكان انحلال الامبراطوريتين في القرن التاسع عشر من أكبر مآسي  
التاريخ لأنه تسبب في القضاء على مدينتين جديدتين في الشرق وأفريقيا  
كما أن سياسة التدخل وسياسة الحديد والنار قد نتج عنهما خراب  
ال عمران في مصر والسودان معا وحرقت المدن وقتل الملايين من البشر  
في البلاد بين سنة ١٨٨٢ وسنة ١٨٩٨ أي مدة ستة عشر عاما كاملة  
كانت من أشأم الأعوام •

كانت الامبراطورية العثمانية في أوائل القرن الماضي آخذة في  
الاضمحلال وكانت أوروبا تحاول تقسيمها فيما بينها ففكر محمد علي  
في النهوض بها والعمل على انشاء دولة فنية جديدة تكون مصر قاعدتها ،  
دولة عربية الصبغة في الركن الجنوبي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط  
ولكن الدول وفي مقدمتها إنجلترا كانت له بالمرصاد لأنه كان يزاحم  
اطماعها في الامبراطورية العثمانية وبعبارة أخرى في آسيا وأفريقيا •



بعد أن بسط سلطانه على معظم بلاد العرب اتجه محمد على شطر السودان وأواسط أفريقيا ( ١٨٢١ - ١٨٢٣ ) ثم حدثت حرب المورة الشهيرة وواقعة ناوارينو ( ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ ) حيث دمر الأدميرال كودرنجتون رئيس الأساطيل الحليفة الأسطول المصرى بغتة وغدرا . وكان أمر ذلك مدبرا فى الخفاء بين انجلترا وملك فرنسا شارل العاشر .

والواقع أن مصر منذ أن قويت شوكتها واشتد بأسها فى البر والبحر أصبح خطرها ماثلا أمام الدول وكان مترنيخ عاهل السياسة الأوربية ، فى كتاباته ، فى سنة ١٨٢٦ يدق ناقوس الخطر من « نشوء دولة افريقية » — يعنى مصر — باعتبار وجودها « من أجل الأخطار التى تتهدد الغرب » .

تمكن محمد على بين سنة ١٨٣١ و ١٨٣٩ من بسط سلطانه على جزيرة كريت وعلى سوريا ( وكانت تشمل فلسطين ولبنان ) وكليهما وتمكن فى الوقت نفسه من توطيد الامن وايجاد ادارة عادلة منتظمة واصلاحات عمرانية واسعة لم تعرفها البلاد منذ قرون .

ولكن انجلترا كانت ترسل الرسل لاثارة القلاقل والفتن فى الشام وغيرها وقد ألبت الدول على مصر وأرغمتها ، وهى المنتصرة ، على قبول شروط الدولة المهزومة فى سنة ١٨٤٠ ، كما ألبت من قبل الدول على نابليون .

— ٢ —

كان ابراهيم يقول بعد تفكك الامبراطورية المصرية فى سنة ١٨٤١ ان عظمة مصر الحقيقية وميدان توسعها صوب الجنوب ونشر الحضارة فى أفريقيا ، ولكن الحائل الأوروبى الذى اصطدمت به مصر فى توسعها الأفريقى خصوصا بعد فتح القناة فى سنة ١٨٦٩ ، وانتشار المواصلات البخارية ، ونشوء الحركات الصناعية والرأسمالية الكبرى فى أوروبا وما يتبعها من تزاخم الشركات والمصارف والحكومات على المعادن والخامات والمواد الأولية وكل ما ينمى الثروة والعزة والسلطان .

وهذا الحائل الأوروبى أو العقلية الاستعمارية وقف فى طريق مصر طوال القرن التاسع عشر لا فى طريق التوسع فحسب بل فى طريق



تكونها كدولة مستقلة قوية • وهذا هو السر في أن فرنسا حليفة محمد على كانت تعمل على تقويته لمناوأة إنجلترا ولكنها تعمل بقدر وحساب بحيث لا تزداد هذه القوة وتستقر وتعتلى سد اطماعها في أفريقيا •

وقد كان التدخل الانجليزي الفرنسي وتنافس الدولتين حتى فاشودة واتفاقية سنة ١٩٠٤ من أكبر العوامل التي أضعفت مصر وعاقبت تقدمها وقوضت توسعها في القرن الماضي •

ولعل من أكبر أسباب التعصب الأوروبي أن مصر دولة عربية فظهورها في عهد محمد على كان معناه نهوض الشرق العربي وتحصينه ضد اطماع الغرب • أما في عصر اسماعيل فان عناصر الحضارة الموجودة في أفريقيا كانت عربية وكانت آخذة في الانتشار والايغال فيها فاتجاه مصر الى افريقيا أو تقويتها معناه ايجاد حائل افريقي أمام الجشع الأوروبي •

نزع العرب الرحل من وادي النيل الأعلى أو من سواحل البحر الأحمر واطنوا السودان والبلاد التي يسقيها مجرى النيجر الأعلى وأسسوا على ساحل أفريقيا الشرقي مقدشو وقيلوه وبراوو وميلندة ومونباسة • وامتد الاسلام الى زنجبار وجزء من الحبشة وهرر والصومال وكردفان ودارفور وواداي وقانم وسكوته وباجرامه وبلاد أخرى كثيرة •

وكان النفوذ العربي الاسلامي قبيل تقسيم أفريقيا ، في حه الى سنة ١٨٨٠ ، ينتشر رويدا رويدا في أوغندة على سواحل بحيرة فكتوريا أي في قلب القارة السوداء وفي اطرافها •

كانت أوروبا في عصر محمد على واسماعيل تعمل على تقسيم الامبراطورية العثمانية وتفكر في تقسيم أفريقيا • وكان كلا الوالين يعتقد حقا انه أولى بأن يفوز بهذا التقسيم لحسابه وكانت سياسته الهجومية في الواقع دفاعية لأنها خير ضمان لتقوية مصر واحاطة منعها



في دائرة نفوذها بسور متين واقصاء الخطر الأوروبي عن حدودها  
القريبة .

وقد عاكست انجلترا محمد علي في بلاد العرب والشام وفلسطين  
ولبنان ، وغيرها لأن وجود وحدة قوية فيها كان عقبة في سبيل اطماعها  
البعيدة .

حاربت انجلترا كذلك امتداد السيطرة المصرية على ساحل  
البحر الأحمر التي تقطنه شعوب عربية . في سنة ١٨٤٧ طلب محمد علي  
الى الباب العالي حق الاشراف على ميناءى سواكن ومصوع .

وفي ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨ كتب القنصل بلاودر الى المرستون  
يقول « بما أن الحبشة المسيحية مستقلة استقلالاً تاماً فإنه يقترح ضرورة  
وضع سكان مصوع تحت الحماية الانجليزية » .

لكن بالمرستون عارض في الفكرة خوفاً من اثاره المشاكل وقد  
حصل اسماعيل ، في مايو سنة ١٨٦٥ ، على فرمان من الباب العالي  
بالتنازل له عن ميناءى سواكن ومصوع مع مديرية التاكة .

وقد تمكن اسماعيل بين سنتي ١٨٦٥ و١٨٧٤ من أن يحتل احتلالاً  
فعلياً أهم النقط الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى ، من سواكن  
الى رأس حافون على المحيط الهندى وايجاد ادارة منتظمة في أرجائها ،  
وكانت السفن المصرية الحربية تراقب الساحل باستمرار مما أقلق سلطات  
عدن وجعلها تشكو من « وجود أسطول مصرى ضخيم في خليج عدن » .

عين اسماعيل ممتاز بك محافظ سواكن محافظاً لجميع منطقة  
البحر الأحمر في يونيه سنة ١٨٧٠ وأصبح ممتاز باشا وقد قام في  
سنة ١٨٧١ برحلة في جميع سواحله وذكر البلاد التي تظللها الراية  
المصرية وكانت تؤلف معظم البلاد التي استولى عليها الطليان وأطلقوا  
عليها اسم اريتريا .

وقبل تعيين ممتاز باشا كان جمالى بك قائدا لأسطول البحر الأحمر وقد حدث فى بداية سنة ١٨٧١ أن نشب عراك بين قبائل بلهار وبربرة على خليج عدن فذهب جمالى بك لاصلاح ذات البين بينها فما كان من حاكم عدن الا أن كتب اليه يسأله عن سبب مجيئه واما اذا لم يكن الدافع له فكرة الفتح والاستيلاء .

وقد وجه شريف باشا وزير الخارجية المصرية بهذه المناسبة الى قنصل انجلترا العام ، فى أول يونيه سنة ٧٠ احتجاجا يؤكد حقوق مصر الثابتة على هذه البلاد .

وحقيقة الأمر أن انجلترا كانت تريد أن تعقد مع قبائل السومال كما عقدت من قبل مع قبائل عدن معاهدات تجارية لتجذبها فى دائرة نفوذها ، ولكن مصر لم تكن غافلة ؛ وقد تنازل الباب العالى عن زيلع فى يونيه سنة ١٨٧٥ مقابل دفع ١٥٠٠ جنيه تركى سنويا فأخذ اسماعيل ينشئ فى ميناء تاجورة وغيره حكومات تتصل بسكان البلاد الداخلة وتنظم التجارة وال عمران .

وقد اعترف الضابط وود فى كتاب له الى سفير انجلترا بالاستانة فى أغسطس سنة ١٨٧٥ بأن « التنازل عن ميناء زيلع والاستيلاء على بربرة جعلتا ساحل البحر الأحمر الغربى كله فى قبضة مصر وأن المناطق التى كانت من قبل مستوحشة أخذ المصريون يصلونها عاجلا بالعالم المتمدين » وانهم أوجدوا « بريدا منتظما وموظفين وجنودا لحفظ النظام فى جميع القرى » وختم بتعديد خدمات المصريين للملاحة والمدنية وفى سنة ١٨٧٥ احتلت مصر هرر وأوغلت فى الداخل ، وكانت حملة هرر بقيادة رؤوف باشا ونفر من خيرة الضباط المصريين .

وفى أواخر سنة ١٨٧٥ أرسل اسماعيل حملة بقيادة ماى كيلوب الانجليزى ، رئيس مصلحة المنارات ومعه خليط من الضباط الأجانب والمصريين لسيطرت حدود مصر الى ما وراء رأس حافون على ساحل



السومال والمحيط الهندي صوب موباسا • وقد احتلت الحملة براوة  
وقسمايو ( التي سميت بور اسماعيل ) وبلغوا نهر الجب في أكتوبر ،  
وفي منطقة هذا النهر بدأ الضباط المصريون يقومون بعمليات استكشافية  
كتب ماك كيلوب في ١٢ ديسمبر ( سنة ١٨٧٥ ) يقول ان  
« عبد الرازق بك يطلب ثلثمائة واثني عشر رجلا من جميع الحرف  
والمهن من أطباء ومهندسين ونجارين وزراع وخبازين وأشياء أخرى  
كثيرة لترقية المدائن •• »

ولكن انجلترا أرغمت الحملة على العودة أدراجها بحجة أن بلاد  
الساحل كانت خاضعة لسلطان زنجبار • والواقع أن هذا الخضوع  
كان اسميا وان سلطان زنجبار كان خاضعا خضوعا فعليا لانجلترا •

والواقع أن مشروع مد حدود مصر الى سواحل المحيط الهندي  
كان يرجع الى سنة ١٨٧٠ أى الى الوقت الذي فكر فيه في التوغل في  
أواسط أفريقيا وفتح الأقاليم الاستوائية ، وكان المشروعان يكمل  
كلاهما الآخر • ذلك أن اسماعيل فهم أن المواصلات النيلية من مصر  
والسودان الى خط الاستواء طويلة متقطعة وان المنفذ الوحيد للمناطق  
الاستوائية واقع على المحيط الهندي ، وهو ما أدركته انجلترا ، بعد  
استيلائها على هذه المناطق المصرية ، باتمامها في سنة ١٩٠٢ ، مد الخط  
الحديد من موباسا الى بحيرة فكتوريا ، وهذا الخط يمر بين جبلى كينيا  
وكيليا نجارو أى في منطقة من أجل وأجمل مناطق أفريقيا وأصلحها  
لسكنى الأوربيين •

وكان مشروع اسماعيل في سنة ١٨٧٠ سيقوم بتحقيقه الكولونيل  
الأمريكي بيردى ، وكان خط السير المرسوم له النزول في موباسا  
والوصول منها الى بحيرة فكتوريا من الطريق الذي يمر بين جبلى كينيا  
وكيليا نجارو •

وكانت تعليمات اسماعيل تقضى بأن ينشئ الضابط الأمريكي



« نقطا عسكرية في مناطق بلاد كيليا وأن يعمل كمن يريد الإقامة والتوطن وأن يتبع مع تجار العاج والرقيق سياسة حكيمة معتدلة » .  
ولكن حيل بين اسماعيل وبين تحقيق مشروعه فعاود الكرة بتكليف ماك كيلوب بهذه المهمة ففشل كما فشلت سياسته كلها التي دفعته الى استخدام الانجليز وأعاونهم الأجانب في بسط سلطان مصر في أفريقيا .

\*\*\*

زار ولي عهد انجلترا مصر في سنة ١٨٦٩ ومعه الرحالة بيكر وطلب الى الخديوى تكليف بيكر بمهمة في أواسط أفريقيا لحساب مصر ترمى الى اخضاع البلاد الواقعة في جنوب غوندوكور ولحكم مصر وفتح البحيرات الكبرى للملاحة والغاء تجارة الرقيق .

ولما كانت تجارة الرقيق قد ألفها الناس مئات الأعوام حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من نظام حياتهم ومعاشهم الطبيعي كان لا بد لالغائها من الجرى على سنة التطور والتدرج والاعتدال حتى تحل محلها مع الزمن تجارة نظامية مشروعة . وقد كانت تعليمات اسماعيل تدعو الى الحكمة وتجنب الظفرة والعنف وكل ما من شأنه ، اثاره النفوس واضعاف هيبة مصر ومحبتها في تلك البلاد النائية .

فباسم المدنية ومحاربة تجارة الرقيق أخذت انجلترا تتدخل في السودان وأفريقيا .

كلفتم حملة بيكر مصر أكثر من مليون جنيه ( ١٨٧٠ - ١٨٧٣ ) ، وكانت نتائجها لا تعدوا انشاء ثلاث نقط عسكرية وخط حدود خيالي تتألف منها مديريةية خط الاستواء ولم يكن الطريق بين هذه النقط مأمونا . على أن نتائجها الأدبية كانت سيئة ، ولعل ذلك كان في مصلحة السياسة الانجليزية فقد كتب عضو في الوزارة الانجليزية الى بيكر على أثر عودته الى لندرة ، في أواخر سنة ١٨٧٣ ، يقول « مهما كان من أمر تجارة الرقيق فان حملتك لا بد أن تكون أدت الى بسط النفوذ



الانجليز في مصر • كم سننتظر من الوقت حتى يكون لنا سفن بخارية  
تحمل العلم الانجليزى فى البحيرات ويكون لنا خط مواصلات منتظم  
يصل البحيرات بالقاهرة ؟ » •

وفى سنة ١٨٧٤ ، خلف غردون بيكر ، فى نفس الوظيفة ، حاكما لمديرية  
خط الاستواء ، وكانت مهمته الرسمية توطيد سلطة مصر ومدىها الى  
البحيرات وقد نجح فى توطيد هذه السلطة ولكنه تاركاً فى احتلال أوغندة  
والبحيرات تحت ضغط السياسة الانجليزية •

وقد نجح الضابط الأمريكى شاييه لونج فى أواخر سنة ١٨٧٤ فى  
حمل امتيزا ملك أوغندة على توقيع معاهدة حماية ، قال لونج فى كتابه  
عن مصر ومديرياتها الضائعة : « لقد تكلمت فى تقريرى الى الحكومة ،  
بتاريخ ١٦ ديسمبر سنة ١٨٧٤ عن المعاهدة التى أمضاها امتيزا ووضع  
بمقتضاها مملكته تحت الحماية المصرية ، وهذه المعاهدة أبانغت الى  
الخدوى وكانت أساس تبليغ رسمى أعلنت به مصر ضم جميع الأراضى  
الواقعة حول البحيرتين الكبيرتين فكتوريا والبرت وقد اختفت من  
سجلات القاهرة • • »

« وعلى الرغم من استقصاء البحث فى جميع الوزارات لم يوجد لها  
ولغيرها من الأوراق والتقارير العلمية التى قام بها زملائى أركان حرب  
الجيش أثر ما • كل هذه الأوراق فيما يظهر ألقاها فى النار ذات يوم  
ضابط انجليزى أصابته نوبة مخمور » •

وفى أوائل سنة ١٨٧٦ ذهب الضابط السودانى المصرى نور أغا  
( نور بك ، محمد ) واحتل بقوة مصرية مدينة روابجة عاصمة أوغندة  
بناء على طلب امتيزا نفسه • وقد بقيت هناك حوالى ثمانية أشهر ولكن  
غردون أرسل الدكتور أمين الألمانى ( أمين باشا ) واسمه الحقيقى  
شنيترز لسحب هذه القوة وقد عادت فى سبتمبر برفقة الدكتور المذكور •  
وفى أواخر هذه السنة نفسها ( ١٨٧٦ ) عاد غردون الى القاهرة

- وسافر الى لندن بعد أن نفذ سياسة بلاده • وقد ادعى وقتئذ أنه أوقف  
تجارة النخاسة في مديريته ولكن بقي أن يوقفها في جميع السودان •  
والواقع أنه تحت ستار النخاسة كان يطمع في أن يكون الحاكم العام  
للسودان •

غردون في السودان ( ١٨٧٧ - ١٨٧٩ ) • في تلك الآونة التي  
فرض فيها غردون حاكما للسودان كان التدخل الأجنبي قد بلغ أقصاه  
في مصر ، تحت ستار الدين ، وبلغ أقصاه في السودان ، تحت ستار  
الرقيق وانشاء ادارة مختلطة مؤلفة من كبار الانجليز وأعوانهم من  
الأجانب الايطاليين والنمساويين وغيرهم الذين كان أكبر همهم الجرى  
على سياسة العنف والبطش وخلق عوامل الفتنة •

وقد نجحت انجلترا في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ في حمل اسماعيل على  
توقيع اتفاقية الرقيق المعروفة •

وبمقتضى هذه الاتفاقية كان للطرادات البريطانية في البحر الأحمر  
الحق في زيارة وتفتيش — وعند الاقتضاء حجزها لتسليمها الى أقرب  
سلطة مصرية — كل سفينة مصرية تضبط وهي تتجر بالعبيد أو تكون  
مرصدة لهذه التجارة أو • •

ولأجل ضمان تنفيذ هذه الاتفاقية وقع اختيار وزير البحرية الانجليزية  
على القبطان ملكولم الذي عين بمرسوم خديوى في أول يناير سنة ٧٨  
مديرا عاما لمصلحة الرقيق في البحر الأحمر •

وكان أول طلب له على أثر تعيينه ، باسم تنفيذ المعاهدة ، طرد حاكم  
زيلع أبى بكر باشا ، متجاهلا نفوذه العظيم بين أبناء عشيرته في هذه  
المناطق • • وقد عارض غردون في هذه السياسة الخرفاء •

وكانت انجلترا تهول من شأن تجارة الرقيق في البحر الأحمر وتدعى  
بناء على تقرير أحد قناصلها أن مجموع العبيد الذين يصدرون سنويا



من الساحل الأفريقي الى الساحل العربي ٣٠٠٠٠٠ مع أن ملكونم نفسه  
كان يقدره بـ ١٧٠٠

وكان غردون يعترض على تعيين ملكولم وعلى سياسته الخطرة  
فاضطر هذا الأخير الى الاستقالة في يونية سنة ٧٨ فبادر قنصل انجلترا  
بناء على تعليمات حكومته تحميل غردون والخديوى « تبعة الاجراءات  
الناجعة الواجب اتخاذها للقضاء على النخاسة التي لازال شرها مستفحلا  
في مين سواكن وزيلع وتاجورة » .

من ذلك الوقت اضطر غردون الى مساندة السياسة الانجليزية  
واعلان حرب شعواء على الرقيق والسودانيين ، وقد أنشأ باعترافه نوعا  
من « حكومة الارهاب » . وبعد أن كانت الحكومة الانجليزية في مارس  
( ٧٨ ) تتهمه بأنه « يهادن تجار الرقيق كمن لا يحس في نفسه القوة  
الكافية لمناصبتهم العداوة » كلفت في نوفمبر مثلها في مصر « بأن يعبر  
للخديوى عن اغتباط الحكومة الانجليزية بالعمل الحازم الذي يقوم به  
غردون ضد تجارة الرقيق » .

وقد اتخذ هذا العمل الحازم صورة حرب صليبية كانت لها أسوأ  
النتائج في المديرية الجنوبية خاصة : بحر الغزال وكردفان ودارفور .  
وحسبنا أن نشير الى الحروب الطويلة التي أثارها جيسى الايطالى ضد  
سليمان ابن الزبير وشيعته . واعدامه رميا بالرصاص غيلة في منتصف  
يولية سنة ١٨٧٩ .

وقد كان الزبير أكبر رجل أنجبه السودان في القرن التاسع عشر  
وكان يجب مصانعته ، ولكن غردون أعرض عن تعليمات الخديوى ونفذ  
سياسة بلاده على حساب مصالح مصر . وقد صدق شاي لونج في حكمه  
« لقد وجد غردون السودان في سلم ورفاهية وتركه في سنة ١٨٧٩  
ينوء بالدين ويهم بالثورة » .

واذا كان غردون قد نجح في بذر بذور الثورة في السودان ومحاربة



امتداد نفوذ مصر في أرجائه الجنوبية فانه لم ينجح في بذر هذه البذور  
في هرر والملحقات •

زار غردون في أثناء رحلة تفتيشية مناطق السومال وهرر في أبريل  
سنة ٧٨ ولكنه قبل وصوله الى هذه المديرية الأخيرة قرر عزل رؤوف باشا  
الذي كان ينفذ خطة انشائية واسعة في أفريقيا الشرقية المصرية •

وكان أمر هذا العزل مبيتا لأن غردون كان ذا غيرة وقلق من المركز  
الضخم الذي وصل اليه رؤوف باشا بنفوذه الشخصي وكان يفكر في  
تعيين أجنبي •

على أن الخديوى من ناحيته أبى ألا أن يعين مصريا خلفا لرؤوف باشا،  
ولكى يؤمن هذه المناطق من شطط غردون وسوء سياسته انتزع في شهر  
ديسمبر ( ٧٨ ) هرر والسومال من إشراف الحاكم العام للسودان  
فأصبحتا تابعتين للقاهرة رأسا ، وبذلك صلح أمر هذه المناطق وبقيت  
بعزل عن القوضى الادارية والسياسية التي عمت السودان •

وقبل أن تنتقل الى الثورة السودانية وتفكيك الامبراطورية المصرية  
يجدر بنا أن نقرر أن مبادئ السودنة والاستقلال قد غرسها غردون  
في السودان في ظل الادارة المختلطة خصوصا في العهد الأخير فقد أكثر  
غردون من تعيين الموظفين السودانيين وكان أكثرهم من عنصر غير رفيع  
ومنهم سكرتيره تهاى الذى اشتهر بالرشوة كما أنه أقصى العناصر  
المصرية الطيبة • وكان أعوانه الأجانب أمثال لتون وكيل مديرية  
خط الاستواء الذى صار حاكما لبحر الغزال وجيسى ومسيداليا وكازاتى  
وسلاطين وأمين ( شنيترز ) يحاربون العنصر العربى في السودان وينادون  
منذ ذلك الوقت بوجوب فصل جنوب السودان وزنوجه عن حكومة  
السودان الشمالى القائمة على العنصر العربى • وكانوا يقترحون تطهير  
الجنوب من العرب الذين تسربوا اليه خوفا من اندماج الزنوج فيهم  
مع الزمن وضرورة ارسال بعثات تبشيرية اليه • وقد فصلنا ذلك في  
كتابنا عن ( الامبراطورية السودانية ) •



وقد نجح غردون في فصل السودان عن مصر روحا فلم يبق الا فصله  
جسما وهو ما ستحققه انجلترا في الثورة المهديّة .

— ٣ —

### الثورة المهديّة لغاية إخلاء السودان

قامت الثورة العرابية في مصر في سنتي ١٨٨١ — ١٨٨٢ ضد التدخل  
الأجنبي ولكن انجلترا دخلت مصر بالحديد والنار وأنشأت فيها احتلالا  
عسكريا . وقد ترتب على هذا الاحتلال فيما ترتب ضياع هيبة مصر  
في السودان حيث قامت ثورة المهدي وكانت دينية الصبغة ، وكانت مساوية  
الحكومة المسيحية المختلطة عنصر قوة لها . وقد أرسلت الحكومة  
المصرية في مايو سنة ١٨٨٢ عبد القادر باشا حلمي لخماد الثورة قبل  
استفحالها ، وكان عبد القادر من أوسع الرجال خبرة ودراية وسياسة  
ولكن انجلترا بعد احتلال مصر ( في يولية ) حطمت الجيش المصري  
ودمرت ذخيرته وعتاده الحربي ومنعت ارسال النجادات التي كان يطلبها  
عبد القادر لأن بقاء الثورة كان في مصلحتها ، وكان بقاء عبد القادر ونجاحه  
المختوم يحولان دون فصل السودان عن مصر ، لذلك حملت انجلترا  
الخدوي توفيق على ارجاعه ( مارس ١٨٨٣ ) وتعيين هكس الانجليزي  
المسيحي مكانه . في ٥ نوفمبر حدثت مجزرة شيكان الشهيرة التي قتل فيها  
هكس ومعه حوالي ١٠٠٠٠ جندي مصري . وقد بلغت منذ ابتداء  
الثورة والهزائم المتوالية في قدير وبارة والأبيض وشيكان خسائر مصر  
في السودان ٢٧٠٠٠ رجل .

عندئذ فكرت انجلترا في ارغام مصر على اخلاء السودان وتكليف غردون  
بتنفيذ هذه السياسة . وقد كتب بيرنج ( اللورد كرومر ) يقول  
« أن الحكومة المصرية ضد استعمال غردون على الاطلاق لأسباب أهمها  
أن حركة السودان ذات صبغة دينية فتعين مسيحي في القيادة العليا  
قد يكون من شأنه تغيير نفوس القبائل التي لا تزال موالية للحكومة » .



وكتب اللورد كتشنر في مذكرة من سواكن — بعد ذلك التاريخ  
بخمسة أعوام — في أول يناير سنة ٨٩ : « حين انتشر نبأ هزيمة هكس  
الكاملة في كردفان اعتقدت في الحال جميع قبائل البدو والعرب في  
السودان الشرقي أن مهديا جديدا ظهر لانقاذهم من أيدي المسيحيين  
الذين كانوا ، على حد قولهم ، يسيطرون في القاهرة » •

وقد عارض شريف في سياسة الاخلاء فوصلت برقية غرانفيل الشهيرة  
في ٦ يناير ، وأبلغ بيرنج بمقتضاها ، الحكومة وشريف باشا : « ضرورة  
اتباع مشورة صاحب الجلالة في المسائل الهامة ما بقى احتلال القوات  
الانجليزية المؤقت في البلاد » •

وقد آثر شريف الاستقالة في ٧ يناير سنة ١٨٨٤ • وخلفه نوبار  
فقرر ايفاد عبد القادر باشا حلمى الى الخرطوم ليشرف على سحب  
الحاميات من السودان ، ولكن الحكومة الانجليزية عجلت بارسال  
غردون الى القاهرة في أواخر يناير ومنها سافر الى السودان •

ومن الانصاف لغردون أن نقوله انه لم يكن مستريح الضمير لتنفيذ  
سياسة انجلترا الجبارة في السودان فكان ذلك سببا في التضحية به ••  
كتب غردون في ٨ فبراير من أبى حمد الى بيرنج « !نك لا تجهل أن نظاما  
عاما للبريد والبرق موجود في السودان وأن محاكم قد أنشئت وادارات  
مالية وغيرها قد أسست وأن البلاد بصفة عامة قد ألقت راحة طويلة  
من الزمن ، حكومة تراقب وتوجه وتشرف الى حد ما ، فالاخلال بهذا  
النظام ، ان لم يكن محوه ، في الظرف الحالى معناه في نظرى دفع البلاد  
الى الفوضى الكاملة ••• »

« من أجل ذلك أرى أن الحكومة المصرية يجب عليها الاحتفاظ  
بمركزها كدولة متبوعة •• لذلك ألح أن تكون الخطة الاخلاء لا الترك  
وأن يحل محل الفرمان الذى استمد منه سلطاتي فرمان آخر يعترف  
برقابة مصر الأدبية ومركزها كدولة متبوعة • »



وقد اقترح غردون ، وأيده بيرنج ونوبار ، ارسال الزبير الى السودان ولكن الحكومة الانجليزية عارضت في الزبير لأنه كان في مقدوره اخماد الثورة واقامة حكومة قوية قد تساعد على تحقيق استقلال السودان لا بالنسبة لمصر ، بل بالنسبة لانجلترا ، وايجاد سد أمام مطامعها فيه .

أما غردون فقد رأت السياسة العاتية أن تتركه وشأنه دون ارسال أى مدد له فانتشرت الثورة والهمجية المتوحشة في كل مكان وعمت المجاعة والقتل والخراب .

وقد سقطت سنكات في ٨ فبراير سنة ٨٤ وكانت محاصرة مند أغسطس ٨٣ . وبعد أن أكلت آخر قطة وآخر جمل ، عاش القومندان توفيق بك والمدافعون معه على الفيران والكلاب والأحذية ، وأخيرا أكلوا الحشرات وأوراق الشجر . . . ولما لم يبق شيء يقتاتون به رمى توفيق مدافعه في الآبار وخرج الجميع ونساؤهم وأطفالهم في أعقابهم ( ٧٠٠ نفس ) ودوخوا العدو حتى اضطر لجلب النجذات لسحقهم وقد ذبح الرجال وأسر النساء واستعبد الأطفال . . .

حدثت أعمال القتل والنهب والسلب والتخريب في بربر وغيرها من المدن العامرة بنفس الصورة .

وأخيرا وصلت من انجلترا الحملة الموعودة المشهورة ( بحملة بعد الأوان ) الى مصر في سبتمبر ، ولم تصل حلفا الا في أكتوبر لانقاذ الخرطوم من طريق النيل ولكن حين وصلت طلائعها بالقرب من الخرطوم كانت المدينة قد سقطت ( ٢٦ يناير ) .

وقد عانت المدينة في أثناء الحصار ضروب البلاء وأكل جنود المدينة الحمير ، وقد اقتحمها الدراويش فقتلوا غردون وقتلوا كل الرجال حتى الشيوخ والمرضى ، وذبحوا جميع موظفي الحكومة وأسرهم وكثيرين من التجار والسكان الآمنين . . . ويقدر عدد القتلى بـ ٢٠٠٠٠ ، وقد استمرت المذبحة ست ساعات ودام النهب والتخريب ثلاثة أيام كاملة في

المباني والمنشآت التي أقامتها الحكومة المصرية في نصف قرن فتحوط  
المدينة الى كومة أنقاض •

— ٤ —

### ممالك السودان المتطرفة

الواقع أن السياسة الانجليزية هي التي مهدت للشورة المهدية  
ثم شجعتها على الانتشار والبقاء في صورتها البشعة الجائحة حتى  
نحو آثار المدنية المصرية والعمران وتمهد لها هي السبيل الى العودة  
في صورة المصلح المنقذ من الفوضى كما حدث في مصر نفسها اذ كانت  
السبب الأكبر في خرابها المالي والاقتصادي في عصر اسماعيل ، فلما  
احتلت البلاد ظهرت في صورة المنقذ من الفوضى المالية والافلاس  
( ١٨٨١ — ١٨٩٨ ) • كانت انجلترا طوال القرن التاسع عشر تعمل  
على اضعاف مصر وتحطيم كل حكومة قوية تقوم فيها فلما اشتد ساعد  
الحركة الوطنية الناشئة سنة ١٨٧٩ ، وكان سنادها وزارة شريف  
والخديوى عجلت بخلع اسماعيل وتبديد الحركة ، ووضعت توفيق مكانه  
وكان مشهورا بضعفه ولين عريكته فلما قامت الثورة العربية على  
مبادئ دستورية قوية سلطت عليها الحديد والنار •

كتب اللورد نورثبروك رئيس البحر الى بيرنج في ٢٧ سبتمبر  
سنة ٨٢ يقول : « أليس من الخطر أن تقوم في مصر دولة قوية معادية ؟  
وهل هناك ما يتعارض مع منطق النظرية القائلة بأنه لو ترك عرابي ورجال  
على شاكلته وكانت لهم السيطرة لقامت في مصر دولة اسلامية مهاجمة  
ذات شأن أو أن دولة أوروبية أخرى كانت تتدخل ، كما تدخلنا ، ولكن  
بدون أغراضنا الشريفة ( كذا ) وبفكرة احتلال الشرق ؟ » •

ومنطق اضعاف مصر وحكوماتها يقتضى فصل السودان عنها وقد فصلته  
فعلا • بقيت « الملحقات » أو الممالك المتطرفة التي كانت جزءاً لا يتجزأ  
من السودان أو من الامبراطورية المصرية السودانية • لم تنجح انجلترا



في بذر بذور الثورة فيها لأنها كانت تتمتع بإدارة مصرية بحثة ، ما خلا المديرية الاستوائية ، ولكن العناصر المصرية السودانية الحاكمة في هذه الأخيرة كانت أقوى من العنصر الأجنبي فقاومت تيار الثورة وصدته • عندئذ عمدت إنجلترا الى القوة التي تستمدها من احتلالها وأرغمت مصر على اخلاء هذه الممالك لتستولى هي على بعضها وتترك البعض الآخر للطلين والفرنسيين والبلجيكين والأثيوبيين •

**البحر الأحمر :** بدأت إنجلترا بتشجيع الطليان على توطيد قدمهم على ساحل البحر الأحمر منذ سنة ١٨٨١ • وفي يناير سنة ١٨٨٥ احتل الطليان بيلول شمال عصب ، وطردها الحامية المصرية منها ، وفي فبراير ، بالاتفاق مع إنجلترا ، قررت ايطاليا احتلال مصوع بالقوة وبسط حمايتها على الساحل من عصب الى مصوع وكان ذلك مبدأ تأسيس ارتيريا •

**الصومال وهرر :** في سنة ١٨٨٤ أرغمت إنجلترا مصر على اخلاء هرر الاسلامية بعد احتلال دام تسعة أعوام وكان المصريون المواطنون فيها ١٤٥٠٠ نفس ، وقد وقع خبر اخلائها كالصاعقة على نفوس سكان هرر من وطنيين وأجانب ومبشرين اجتذبهم الحكم المصري اليها وأكرمهم •

وقد ترك المصريون في هرر وبربرة أعمالا رائعة وحسبنا ما كتبه العالم النمسوي بوليتشكا في كتاب رحلته :

« لقد تمكن المصريون من ادخال ثقافة شرقية في بلد همجي ونشروا التجارة وأمنوا السبل ، وبالجملة أحدثوا انقلابا في أحوال هرر • وان الذي يعرف الشرق — ولاسيما البلاد الأفريقية الخالية من أبسط مبادئ الثقافة — لا يسعه الا أن يقرر أن المدينة المصرية تحتل مكانة عالية من المدنية عامة • ومن الثابت أن استيلاء المصريين على هرر وزيلع وبلهار وبربرة وجميع الساحل لغاية رأس جردفون كانت له في مجموعته

نتائج ثورية لافى هرر فحسب ، بل فى جميع القسم الشمالى من أفريقيا الشرقية • نتائج لا أظن احتلالا آخر وصل إليها فى أفريقيا » •

وقد تركت انجلترا الحبشة تحتل هرر فى سنة ١٨٨٧ واحتلت هى بلاد الصومال الانجليزى : زيلع وبربرة ••• وتركت فرنسا تحتل الصومال الفرنسى •• وايطاليا الصومال الايطالى فى نفس المنطقة التى طردت منها حملة نهر الجب ••

**المديرية الاستوائية** — فى سنة ١٨٨١ كانت مونيوتو أو جورجورو ملحقة بمديرية بحر الغزال وانفصلت عنها فى يولية ٨١ مع مركز رول وألحقت بمديرية خط الاستواء لأنها فى غربها ، وكلف الضابط المصرى حواش منتصر قائد جنود مكراكا بادرارة مركز مونيوتو وبسط سلطان مصر وتوطيده فى هذه المنطقة الغنية التى يسكنها الزنوج ، وقد قام حواش بأعمال انشائية واسعة فى الزراعة والتجارة والصناعة فأتى بالذرة البيضاء ، وزرع أشجار الفاكهة والخضر من كل نوع ، وأحضر بذرة الدخان من القصارف وزرع القطن الذى عم نفعه عندما استدعت الأحوال أن يزاول رجال الحكومة وجنودها صنع ملابسهم بأنفسهم عتب انقطاع المواصلات مع الخرطوم • وأنشأ ( محطة حواش ) على نظام بديع • وفى سنة ١٨٨٥ كان حواش منتصر حاكما على جنوب المديرية ، كما كان مرجان أغا حاكما على الشمال ، وكان أمين باشا الألمانى حاكم المديرية ولكنه كان أكثر الأجانب اعتدالا وكانت السلطة الفعلية فى يد كبار الضباط السودانيين والمصريين الذين قاموا بأعمال باهرة فى تلك البلاد ونظموا المقاومة ضد المهديين وصدوهم فعز ذلك على انجلترا فأرسلت استانلى على رأس حملة ( انقاذ ) لاجراج أمين باشا وجنوده بالقوة من المديرية أو استخدامهم لحساب انجلترا ( ١٨٨٧ ) وقد رفض الضباط والجنود طاعة أمين وأنشأوا حكومة ثورية • وكان الانجليز ( شركة أفريقيا الشرقية ) قد بدأوا يتسهللون الى أوغندة فتمكن لا جارد بدهائه من جلب القوات السودانية الى أوغنده ( ١٨٩١ )



واستطاع بواسطتها التغلب على أحزاب المقاومة فيها وتوطيد النفوذ الانجليزي ، وقد ساعدته هذه القوات نفسها على احتلال مديرية خط الاستواء والأونيورو من جديد وتوسيع رقعة أوغندة بضمها اليها . وكانت مساحة أوغندة القديمة في عهد المصريين لا تزيد على ٥٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع فبلغت في سنة ١٩٠٠ ، بعد أن اتسعت على حساب مصر وبقوة مصر ، حوالى ٣٠٠٠٠٠٠ كيلو متر ( أى ستة أضعاف مساحتها الأولى ) .

فرق الانجليز هذه القوات بعدما استوى لهم الأمر وأفنوها في حروب طاحنة ضد القبائل الوطنية في الغابات والهضاب وأبادوا زعماء السودانين أمثال سليم مطر الذى كان يتمتع بنفوذ عظيم في أوغندة لدى حزب المسلمين فيها ..

وقد أعلن تيجران باشا وزير الخارجية المصرية في ٢٧ أغسطس سنة ١٨٩٢ : « أن مصر تحتفظ بكافة حقوقها على الأراضى التى كانت تتألف منها مديريةية خط الاستواء المصرية » أى مناطق البحيرات وأعالى النيل .

\* \* \*

من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٢ حلت انجلترا وايطاليا وفرنسا والحبشة وبلجيكا محل مصر عنوة واقتدارا فنشأت مستعمرة اريتريا وكانت مساحتها حوالى ٢٠٠٠٠٠ كم . ويلى اريتريا الصومال الفرنسى وتبلغ مساحته حوالى ٢٧٠٠٠٠ كم . ويلى الصومال الفرنسى الصومال الانجليزى وتبلغ مساحته حوالى ٢٥٨٠٠٠٠ كم . فالصومال الايطالى وتبلغ مساحته مع بلاد الجالا حوالى ٦٠٠٠٠٠٠ كم . واستولت الحبشة على هرر ( ٨٧ ) وتبلغ مساحتها حوالى ٢٠٢٠٠٠٠ كم .

ثم تكونت على انقاض السيادة المصرية ، فى خط الاستواء وأوغندة فى منطقة النفوذ المصرى بين المحيط الهندى ومنابع النيل ، أفريقيا

الشرقية الانجليزية وأوغندة في الربع الأول من القرن الحالى  
٣٢٣٠٠٠ كيلو متر •

وقد استولت الحبشة - عدا هرر - في سنة ١٩٠٢ على قسم من  
أراضى السوبات تبلغ مساحته ٣٦٠٠ كيلو متر واستولى الكونغو  
البلجيكى على جزء من مديرية خط الاستواء وجزء من مديرية بحر الغزال  
على نهر الأورلته تبلغ مساحتهما في تقديرنا حوالى ١٢٠٠٠٠ كـم في أقصى  
الجنوب الغربى من السودان • وقد أدمجت في هذه المنطقة مونتوتو  
وبلغت الحدود البلجيكية بحيرة ألبرت نيازا المصرية فأصبح نصفها  
بلجيكيا والنصف الآخر انجليزيا •

واستولى الكونغو الفرنسى على جزء من بحر الغزال على نهر امبويو  
تبلغ مساحته حوالى ١٥٦٠٠٠ كـم وأصبح أقصى حد جنوبى للسودان  
( من ناحية أوغندة ) بلدة نيمول بجوار دوفيله بعد أن كان على ساحل  
فكتوريا الشمالى •

وتبلغ مساحة السودان اليوم حوالى ٣٧٠٠٠٠٠ كـم • اذا أضيفت  
اليها مساحة ما اقتطع من منطقة النفوذ المصرى وهو حوالى  
١٨٠٠٠٠٠ كـم • يكون مجموع مساحة الامبراطورية حوالى  
٥٥٠٠٠٠٠ ( خمسة ملايين ) كيلو متر مربع •

- ٥ -

### السودان المصرى الانجليزى

كان استرداد السودان في سنة ١٨٩٨ كما هو معلوم وقد حدث  
وقتئذ حادث فاشودة فأرسل بطرس باشا غالى وزير الخارجية المصرية  
بهذه المناسبة كتابا جاء نصه في الكتاب الأزرق :

« ان حكومة الخديو كما تعرف سيادتكم لم يغب عن نظرها في  
حين من الأحيان العودة الى استئناف احتلال الأقاليم السودانية التى  
هى مصدر الحياة ذاتها لمصر • ومصر لم تسحب من تلك الأقاليم



ألا عقب قوة قاهرة • وأن استعادة الخرطوم تفقد الغاية منها إذا لم يعد إلى مصر وادى النيل الذى ضحت مصر فى سبيله الضحايا العظيمة •

« ولعلم الحكومة المصرية ان مسألة فاشودة فى هذا الأوان هى موضوع مفاوضات بين بريطانيا العظمى وفرنسا فانها تكل الى أن أطلب من سيادتكم أن تفضلوا بحسن الوساطة لدى اللورد سالسبرى ليتم الاعتراف لمصر بحقوقها التى لا تقبل نزاعا ولكى تعاد اليها الأقاليم التى كانت تحتلها حتى قيام ثورة محمد أحمد » •

لقد أرغمت إنجلترا بطرس باشا نفسه على توقيع اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، المجحفة بحقوق مصر والتى جعلت السودان ، وهو الكتلة الباقية من الامبراطورية المصرية ، انجليزيا مصرية •

وقد اضطر الانجليز عند استرداد السودان الى الاعتماد على أموال مصر وجنود مصر وموظفيها كما اضطروا اليها لتوطيد سلطانهم فى السنوات الأولى حتى يتمكنوا من اعادة النظام وتنفيذ المشاريع العمرانية الكبرى حتى اذا استتب لهم الأمر فكروا منذ الحرب الكبرى الأولى فى التخلص من المصريين فضربوا ضربتهم فى سنة ١٩٢٤ ، على أثر مقتل السير لى استاك ، وتصرفوا فى السودان تصرف الحاكم بأمره ونقضوا العهد وخلا لهم الجو لتحقيق مبدأ السوادة واستقلال السودان بالنسبة لمصر لا بالنسبة لهم وعملوا على فصل جنوب السودان عن شماله وأرسلوا المبشرين اليه • لأنهم يعلمون أن العنصر العربى يهيمن على الشمال وهم لا يأمنون جانبه •

وقد حدثت فى أفريقيا فى أواخر القرن التاسع عشر حروب طاحنة شنها الأوربيون جميعا على العرب فى أواسط أفريقيا فأبادوهم تحت ستار الرقيق والانسانية والواقع أنهم كانوا منافسين لهم وكان الأوربيون يخشون نهضة الزنوج على يد العرب • والانجليز كغيرهم من الأوربيين يريدون بقاء زنوج الجنوب فى حالة جهل وعرى

ويعملون على ذلك حتى يتمكنوا من استعمار أقطارهم الغنية الواسعة  
لأكبر حقبة من الزمن ... ولما كانت هذه الأقطار الجنوبية تقع في  
أعلى النيل فإن الانجليز يصبح في مقدورهم الاستمرار في وضع يدهم  
على مصر من مخنقها ولو تحقق استقلال مصر والسودان وتحققت  
وحدتهما تحت التاج المصرى •

ولا تزال انجلترا تهيمن على مصر من ناحية القناة ، وبعد أن كانت  
مصر في القرن التاسع عشر موطدة الأركان والحدود في فضاءها الحيوى  
الافريقي ، تضاءلت حدودها الى أقصى حد ، وانكسرت على نفسها في  
دائرة ضيقة ، عوراء من كل النواحي •

المصرى فى ١١ / ٢ / ١٩٥٠



## الصومال بعد اريتريا

قلنا يجب أن تكون لنا سياسة أفريقية وهي لم توجد بعد ولم تحدد بعد سياستنا تجاه اريتريا والمستعمرات الايطالية السابقة ، وكان يجب أن يدور الحديث في أوروبا عن مستعمرات مصر السابقة وأن كان الاستعمار المصرى العمارة في البلاد لا الاستغلال والاستعباد . والقراء يعرفون كيف نشر المصريون الحضارة في بربرة وزيلع وسواحل الصومال وهي بلاد عربية اسلامية كانت مصر وحدها قادرة على رفع مستواها والنهوض بها ، وقد شهد بذلك بعض كبار علماء الغرب .

ومعلوم أن الصومال بعد الاحتلال المصرى قد اقتسمته أربع دول فاحتلت انجلترا قسما منه ( الصومال الانجليزى ) واحتلت ايطاليا قسما ( الصومال الايطالى ) وفرنسا قسما ( الصومال الفرنسى ) وأثيوبيا هررا وما اليها ، وهي متصلة به داخلة فيه .

وقد قامت على أثر هذا التقسيم أو التمزيق أكبر عقبة في تدعيم كيان البلاد ووحدتها ، كما أن وجود دول احتلالية لاتربطها بالبلاد روابط وشيجة من لغة أو دين أو جنس أو ثقافة مما زاد الحالة سوءا وساعد على تفكيكها وتبديدها جسما وروحا .

وقد ظهر حديثا كتاب عنوانه (أفريقيا • امبراطورية بريطانيا الثالثة) ويعنى مؤلفه بادمور بالثالثة الثالثة اثنتين فقدتهما : الهند وأمريكا . فى هذا الكتاب يقول المؤلف الانجليزى ما نصه عند ذكر الصومال : « قبل تقسيم أفريقيا بين الدول الأوروبية فى القسم الأخير من القرن التاسع عشر كانت بلاد الصومال وحدة سياسية متماسكة تحت حكم الخديو اسماعيل باشا ، ولكن بريطانيا وفرنسا وايطاليا وأثيوبيا جزأتها فى سنة ١٨٨٤ ، ومن ذلك الوقت الى عهد قريب كانت هذه المملكة الصغيرة

المؤلفة من ٣٦٠٠٠ ميل مربع تحت سيادات أربع مختلفة • والصومال  
شعب يجمع بينه دين واحد - الاسلام - ولغة واحدة ، وتاريخ واحد ،  
وثقافة واحدة • وقد قسم بطريقة جائرة الى « جماعات » يهيمن عليها  
حكام أجنب مختلفون • فقبايل الرعاة التي تخضع لسلطان واحد من  
الناحية الروحية تدفع الآن الضرائب لثلاث أو أربع حكومات أجنبية ،  
فمثلا قبيلة دارود تسيطر عليها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وأثيوبيا •  
ويوجد أيضا بطن من هذه القبيلة يعيش في ظل حكومة كينيا • وكذلك  
قبيلة عيسى الكبيرة تحكمها بريطانيا وفرنسا وأثيوبيا • لذلك توجد  
في كل المناطق فوضى في الإدارة وتأخر في التعليم وكسادا اقتصاديا •  
ولغاية وقتنا هذا لم تتخذ الحكومة الانجليزية خطوات في سبيل التعليم  
أو اصلاح المجتمع في الصومال الانجليزي مع أن تسعة وتسعين في المائة  
من الصوماليين أميون يفتك بهم الجهل والفقر والمرض » ثم قال :  
« ويطلب الآن اتحاد شباب الصومال بتوحيد ممالك الصومال مؤقتا  
تحت وصاية الأمم المتحدة كخطوة أولى في سبيل الاستقلال » •  
ومصر التي حكمت هذه البلاد حوالي اثني عشر عاما وكان حكمها  
العصر الذهبي في تاريخها • أما كان الأجدر بها أن تكون هي الوصية  
الأمينة عليها ، وأن تساعد على الأقل على إعادة الوحدة الى ممالك  
الصومال واعادة الطمأنينة اليها •

المصرى فى ٢ / ٤ / ١٩٥٠



## دولية المسألة المصرية

### وحيدة القناة

- ١ -

منذ سنوات طويلة كتبنا عن وجوب العودة الى سياسة الجهاد والكفاح والرجوع بالمسألة المصرية الى وضعها الصحيح ، الوضع الدولي ، وضمان حيدة مصر والقناة معا ، وليس أدل على سلامة هذا الرأي الذى نادى به ولاية مصر وزعمائها منذ قرن من الزمان من أن انجلترا قد حالت دون تحقيقه بكل الوسائل حتى تتمكن من الانفراد بمصر والسيطرة عليها وتحقيق مصالحها وأغراضها الخاصة فى مصر ، على حساب البلاد نفسها . وقد استأثرت بسلطة الدول فيها وكانت صاحبة الكلمة الأولى وانفردت بالهيمنة على القناة مع أن القناة تهم مصر صاحبة السيادة عليها وتهم الدول الأخرى لأن حرية المرور مكفولة بطبيعتها للجميع .

وقد فطن محمد على الى خطورة القناة حين فاتحه الفرنسيون سنة ١٨٤٣ فى شقها فاشتراط عليهم أن تضمن أوروبا حيدة مصر أولا ، وفى هذا أكبر دليل على بعد نظره ، وكانت قد تآلفت فى ذلك العهد شركة انجليزية - فرنسية - ألمانية برءوس أموال أوروبية لتحقيق المشروع ، وكان محمد على يقول أن تأليف هذه الشركة بدون علمه مؤامرة مبيتة ضده . وكان يهدد بالمقاومة بالقوة اذا دعت الحال . وكان يطالب بعد ضمان حيدة مصر أن يتولى هو تنفيذ المشروع ، وأن يكون لمصر وحدها حق حماية القناة بقواتها ، وحق تقاضى رسوم المرور .

وفى سنة ١٨٥٦ أعطى سعيد امتياز القناة لدلسبس ، وقد جاء

فيه ما نصه :

« نعلن أمام العالم أن قناة السويس والمين التابعة لها مفتوحة في كل وقت للجميع كممرات محايدة لجميع السفن التجارية العابرة دون أى تمييز أو استثناء أو تفضيل لشخص أو جنسية » •

وهذه الحيدة وان لم تتقرر دوليا ولكنها كانت في طبيعة الأشياء • وقد كان شق القناة في عصر اسماعيل من أكبر أسباب خراب مصر المالي لأن الشركة كانت دائما يعوزها المال ، فكان دلسبس يلجأ الى نفوذه الخاص وصلة النسب مع الامبراطور ( نابليون الثالث ) ليبتز المال من اسماعيل بطرق لا تشرف ، وكانت الشركة قد استولت على اراض كثيرة على ضفاف القناة تمهيدا لانشاء مستعمرة فرنسية تحت حكم الأمير عبد القادر • لذلك كانت صيحة اسماعيل « أريد أن تكون القناة لمصر لا مصر للقناة » • والذي حدث أن مصر أصبحت للقناة •

وقد حاولت انجلترا في الحرب العرابية احتلال مصر من ناحية الاسكندرية ولكن تحصينات كفر الدوار ، التى أنشأها المهندس البارع محمود فهمى ، حالت دون تحقيق بغيتهم فعادوا أدراجهم الى البحر •

ولما كان غزو مصر من الشمال في ذلك الوقت من الصعوبة بمكان بسبب وجود الحصون الطبيعية وهى البحيرات فقد اتجه الانجليز شطر القناة ، وكان دلسبس يؤكد لعرابى ضرورة المحافظة على القناة ، ولكن الانجليز لم يروا بدا من الاعتداء على حيدتها فاحتلوا بور سعيد في أغسطس سنة ١٨٨٢ وحدثت هزيمة التل الكبير في سبتمبر •

والواقع أن عرابى لو كان حازما لسد القناة في وجه الانجليز لأن القناة مصرية أولا ثم دولية ، وكان اعتداؤه هو عليها — ان كان ثمة اعتداء — أكثر شرعية من اعتداء الانجليز الذى كان أكبر خرق للحيدة منذ شق القناة الى اليوم ، خصوصا وان مؤتمر الدول الذى كان منعقدا بالاستانة في ذلك الوقت « سنة ١٨٨٢ » كان يعمل على ضمان حيدة



القناة ، ولكن انجلترا تركت الدول تجتمع وتتكلم وتدبر فضربت ضربتها ووضعتها أمام الأمر الواقع •

وفي أوائل سنة ١٨٨٤ اقترح اللورد غرانفيل « ان يتم الجلاء في يناير سنة ١٨٨٨ اذا اتضح للدول في ذلك الوقت أن انسحاب الانجليز لن يضر بالسلم أو النظام • وقد اقترحت الحكومة الانجليزية اعداد خطط خاصة بقناة السويس وحيدة مصر لتوضع موضع التنفيذ في أى وقت يتم فيه الجلاء » •

في ذلك الوقت كانت انجلترا تفكر في ضمان حيدة مصر والقناة معا عند الجلاء ، ولكن تفكيرها في الجلاء والحيدة لم يكن الغرض منه الا تهدئة الدول وتخديرها • وعلى أية حال فهى الحل الطبيعي الوحيد للمسألة المصرية •

وابتداء من سنة ١٨٨٥ اجتمعت لجنة دولية في باريس لضمان حيدة القناة وكان المشروع الذى قدمه المندوب الفرنسى يرمى الى انشاء لجنة دولية كاللجنة التى كانت تشرف على نهر الطونة يعاونها ضباط وسفن وبوليس وتكون مصر وتركيا ممثلتين فيها لتولى الاشراف على القناة وحمايتها اذ كانت المادة السادسة من المشروع تنص على أن مواد الاتفاقية لا تتعارض مع حق الحكومة المصرية فى تولى الدفاع عن البلاد والمحافظة على تنفيذ شروط المعاهدة ، وفى حالة ما اذا كانت لا تملك الوسائل الكافية لذلك فلها أن تطلب مساعدة الباب العالى والدول المتعاقدة •

وقد عارض مندوب انجلترا فى المواد الخاصة بانشاء لجنة دولية على ضفاف القناة ، وفى حق التجاء مصر الى تركيا والدول المتعاقدة عند الحاجة • وكانت انجلترا تريد ألا توجد لجنة دولية اطلاقا وأن يكون التجاء مصر عند الحاجة لا الى الدول المتعاقدة بل الى الدول الحليفة ( أى تركيا وانجلترا ! ) •

وكانت المادة الخامسة تنص على فتح القناة في أثناء الحرب للدول المحاربة على أن لا يكون لها أى حق في اتخاذ أى عمل عدائى في منطقة القناة والأراضى المصرية كانزال جنود أو ذخائر « فطلبت انجلترا تعديل هذه المادة كالآتى » ان المواد الخاصة بعدم السماح للدول المحاربة بارتكاب أى عمل عدائى أو حربى في القناة والمياه المصرية لا تطبق على الأعمال الحربية أو اجراءات القمع التى قد يتطلبها الدفاع عن مصر أو المحافظة على النظام العام » •

وظاهر من هذه التعديلات أن انجلترا تريد أن تحتفظ بحقوق تتناقض مع الحيادة ، وكان يجب في الوقت نفسه التفكير في حيادة مصر لأنه لا حيادة للقناة مع وجود جيش أجنبى في الأرض التى تخترقها • وقد فطن الى ذلك مندوب ألمانيا الذى لاحظ « انه لم يحرك أى عضو في اللجنة الفرعية مسألة حياد مصر ورغمما من ذلك فانه يرى أن مهمة المندوبين تقتضى البحث عن جميع الوسائل التى من شأنها أن تجعل القناة بمأمن من كل اعتداء ولذلك فانه لا يتردد في القول بأن الدفاع عن القناة يجب أن يشد اليه حياد بعض النواحي أو المواقع في الأراضى المصرية وان هذه نقطة لا يصح التردد في مواجهتها » •

وقد استمرت انجلترا في اعتراضاتها على طول الخط • وأخيرا كتب وزير خارجية فرنسا الى وزير خارجية انجلترا في ٢٢ يولييه سنة ١٨٨٧ رسالة يقول فيها « ان فرنسا لا تسلم بأنه في ساعة الخطر الذى يتهدد سلامة القناة تلجأ مصر الى حلفاء لم يعينوا بالذات •• على أنه في حالة حدوث ثورة داخلية تهدد القناة فان تركيا والدول تكفل معا مواجهة ذلك الطارئ • واننا لكبيرو الأمل مع ذلك في أنه مع الزمن سيكون حياد مصر جميعه مكتملا لحرية القناة » •

ولكن انجلترا كانت لا تريد حيادة مصر ولا حيادة القناة ، وقد أوقعتها فرنسا في ورطة كان لا بد من الخروج منها • فذهب اللورد سالسبرى الى باريس في أكتوبر سنة ٨٧ وتمكن من تذليل العقبات ••



وفي ٢١ أكتوبر أرسل سالسبرى من لندن الى باريس نص المشروع  
النهائى لمعاهدة سنة ٨٨ التى تتضمن مبدأ جيدة القناة تمهيدا لموافقة الدول  
عليه • وقد وافقت انجلترا على المشروع فى جوهره ولكنها قصت عليه  
بتحفظ بسيط مستقل ينص على « أن شروط الاتفاقية لا يجرى  
تطبيقها فى الوقت الحالى الا بمقدار انسجامها مع أحوال مصر الانتقالية  
الاستثنائية • وعلى ذلك فان انجلترا لا تتقيد بها وتحفظ بحريتها  
الكاملة فى مدة الاحتلال » •

ويحسن درس معاهدة سنة ١٨٨٨ ومحاضر اللجان الخاصة بها فى  
الكتاب الفرنسى الأصفر لأنها تكشف عما تبطنه السياسة الانجليزية  
لمصر والقناة • وبسبب التحفظ المشار اليه آنفا ظلت معاهدة سنة ٨٨  
معلقة لغاية اتفاقية سنة ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا ، ثم أصبحت نافذة •  
بعد اعلان الحماية على مصر حاولت انجلترا فى معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠  
الحصول من تركيا على التنازل لها عن حقوقها المنصوص عليها فى  
معاهدة سنة ١٨٨٨ فيما يتعلق باستتجاد مصر تركيا للدفاع عن القناة  
كخطوة تمهيدية لطلب المساعدة من الدول الأوربية • ولكن تركيا  
رفضت • ولا توجد منذ اتفاقية سنة ١٨٨٨ أى اتفاقية دولية تعطى انجلترا  
حق حماية القناة •

والتحفظ الخاص بالقناة فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ليست  
له قيمة قانونية • وقد نص فى معاهدة ٣٦ فى المادة الثامنة « انه نظرا  
لأن قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر ، وطريق مواصلات عالمى  
كما هى فى الوقت نفسه طريق مواصلات حيوى بين أجزاء الامبراطورية  
البريطانية المختلفة ، قرر صاحب الجلالة ملك مصر — الى أن يرى  
الطرفان المتعاقدان أن الجيش المصرى أصبح فى مقدوره بموارده  
وقواته تأمين حرية الملاحة فى القناة — أن يأذن لصاحب الجلالة ملك  
انجلترا فى وضع قوات فى الأرض المصرية بجوار القناة لتتعاون مع  
القوات المصرية فى الدفاع عن القناة » وقد جاء فى هذه المادة أيضا :

« أن وجود هذه القوات لن تكون له صفة الاحتلال بحال من الأحوال ولن تمس في صورة من الصور حقوق السيادة التي لمصر » •

ظاهر أن انجلترا بعد اعلان الحماية على مصر كانت تحاول أن تجعلها شرعية لتتمكن ، بطريقة غير مباشرة ، من الحصول على اعتراف الدول بحقها في حماية القناة ، ولكن قيام ثورة ١٩ هدم الحماية من أساسها ، وقد أعلن المرحوم سعد زغلول في مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ « أن وجود جيش انجليزي على أى مكان من أرض مصر يهدد الحيدة المقررة في اتفاقية سنة ١٨٨٠ ، وان استقلال مصر هو خير ضمان لحياة قناة السويس الحقيقى ، وأن مصر وحدها أهل لتكفل صيانة هذا الحيات • وأن مصر قد ورثت عن تركيا هذا الحق بعد زوال سيادة الأخيرة » •

لم يبق أمام انجلترا الا أن تنال من مصر نفسها من طريق الاتفاق معها حق الدفاع عن القناة • وهو ما حدث في معاهدة ٣٦ ، ولكن هل تنازلت مصر عن حقها ؟ وهل تملك انجلترا هذا الحق ؟ انها لا تملكه الا بشروط محددة صريحة ولمدة محددة صريحة ، ومصر لا تزال محتفظة بحقها في الدفاع عن القناة وعن حقوق سيادتها •

وكل اتفاقية جديدة تحاول انجلترا عقدها لن ترمى من ورائها الا الى اكتساب حق كامل صريح باسم الدفاع المشترك والنقطة الاستراتيجية وغيرها • لأن كل ما بنته الى الآن كان على جرف هار • وكانت الرقابة في سنة ١٩٤٥ منعت برقية تقول : « ان ترومان أعلن أن قناة السويس والدردييل وأمثالهما من الممرات المائية يجب أن يكون لها نظام دولى » •

وقد خشيت انجلترا من اثاره هذه المسألة فنصحت تركيا وروسيا أن تتفقا معا في الأمر ، لأن النظام الدولى اذا كان يزيح الخطر الروسى عن الدردييل فانه كان يجبر الى خلق نظام دولى في القناة وضمان حيدة مصر كنتيجة حتمية لوجود نظام دولى بالمعنى الصحيح •



لذلك نام مشروع الدردنيل ونام مشروع القناة فيجب أن نحركه  
وأن نفكر في مصالحنا الحيوية وفي مستقبلنا الذي يريدون أن يعثوا  
به • ولو كانوا مخلصين في رغبتهم حماية مصر والقناة من أى اعتداء  
ولم يكن لهم مطمع خاص أو غرض لكانوا أول من يرحب باشتراك  
الدول جميعا في ضمان جيدة مصر واستقلالها •

المصرى فى ٥ / ٥ / ١٩٥٠

## دولية المسألة المصرية

### وحيدة القناة

- ٢ -

يرى القراء في غير هذا المكان من « المصرى » تصريحاً للأستاذ الصوفانى سكرتير الحزب الوطنى وتصريحاً آخر للأستاذ زكى على باشا عن حيدة القناة وأنا مع ابداء شديد أسفنا على ظهور انقسام جديد فى الحزب الوطنى لا نريد أن نتعرض فى مقالنا الا الى جوهر الموضوع . ان التصريحات المنشورة اليوم ومعظم تصريحات الزعماء التى ظهرت فى الصحف فى الآونة الأخيرة ان دلت على شىء فانها تدل على اضطراب فى التفكير و « العرق فى شبر ماء » . وقد نادينا من قبل بضرورة الدرس والتحصيص والرجوع الى محاضرة جلسات الدول فى السنوات التى سبقت معاهدة سنة ١٨٨٨ وهى كلها فى الكتاب الأصفر الفرنسى . كما أن عصبة الأمم أصدرت فى سنة ١٩٣٥ بحثاً قانونياً راعياً عن حيدة القناة بمناسبة الحرب الايطالية الأثيوبية ومطالبة بعض نواب الانجليز بمنع السفن الايطالية من اختراق القناة بعد موافقة عصبة الأمم . ولو اطلع زعمائنا على ما كتبه الغير وما كتبناه ودققوا فيه النظر لما ركبوا الشطط فى تصريحاتهم ووقعوا فى التفاصيل وتركوا الأساس . فمن قائل بتجديد معاهدة سنة ٨٨ ومن قائل بأن هذا التجديد كعدمه لأن المعاهدة ، بصرف النظر عما فيها من عيب أساسى، وهو التحفظ الانجليزى فانها لم توقع عليها دول كثيرة وخاصة أمريكا . فيجب عقد معاهدة جديدة . والواقع أن كلا الفريقين مخطىء فى دعواه فلا تجديد المعاهدة ولا عقد معاهدة جديدة له قيمة ما ، لأن المعاهدة قررت الحيدة أو بعبارة



أدق قررت نظاما دوليا للقناة لأول مرة ، وهذا النظام الدولي لا يتأثر في روحه ومبناه بعدم اشتراك بعض الدول كأمريكا في تقريره أو بتحفظ إنجلترا ، لأنه إذا كان احتلال إنجلترا في مصر قد منع إنجلترا من التعرض لهذا النظام الدولي إبان الحرب الإيطالية الأثيوبية فمن باب أولى تحفظها الذي تنازلت عنه في سنة ١٩٠٤ عقب سماح فرنسا لها بإطلاق يدها في مصر مقابل إطلاق يد فرنسا في مراکش .

فحيدة القناة قائمة اذن ولها نظام دولي لاشك فيه وانما المهم هو ما تضمنه ذلك الكتاب اللبق السياسي الذي أرسله وزير خارجية فرنسا الى وزير خارجية إنجلترا في ٢٢ يولية سنة ١٨٨٧ بخصوص اعتراضات إنجلترا على بنود المعاهدة المقترحة « ان فرنسا لا تسلم بأنه في ساءة الخطر الذي يهدد سلامة القناة تلجأ مصر الى حلفاء لم يعينوا بالذات ( أى إنجلترا . . ) على أنه في حالة حدوث ثورة داخلية تهدد القناة فان تركيا والدول تكفل معا مواجهة ذلك الطارئ » .

اننا لكبيرو الأمل مع ذلك في أنه سيكون حياد مصر جميعها مكتملا لحيدة القناة » .

ظاهر أن إنجلترا كانت تريد أن تقتل ذلك الحياد من الداخل أى من بطنه وتحفظ بحقوق المحتل والحامى الأول لمصر والقناة . ولما كانت كل ثورة داخلية تهدد القناة طبعاً فالاعتراف لانجلترا بحق القيام « بالأعمال الحربية أو اجراءات القمع التي قد يتطلبها الدفاع عن مصر أو المحافظة على النظام العام » ، كما جاء في التحفظ البريطاني ، كان معناه ضرب عصفورين بحجر ، الحجر الأول افساد الحيدة كما قلنا والحجر الثاني أخذ اعتراف من الدول بشرعية الاحتلال الذي قام في سنة ١٨٨٢ على أساس باطل يتلخص في « اجراءات القمع والمحافظة على النظام » . واذا كان الوزير الانجليزي بارعا فقد كان الوزير الفرنسي أبرع منه لأنه في حالة حدوث ثورة داخلية وهمية أو صحيحة مفتعلة أو غير مفتعلة

لم يترك لانجلترا حق الدفاع عن القناة المهددة من الداخل من ناحية المصريين أو من الخارج من ناحية الانجليز الذين قد يخرقون حيدة القناة في صورة من الصور من طريق جلب النجذات لاختاد الثورة . نقول لم يترك هذا الحق لانجلترا وانما تركه للدول . ثم لم يكتف بذلك بل نظر نظرة واسعة دقيقة الى حيدة القناة وفطن الى أن الخطر الوحيد الذي يتهدها من ناحية الانجليز وحدهم لأنهم هم الذين خرقوا حيدتها سنة ١٨٨٢ ولم يعتد عليها غيرهم منذ أن أنشئت القناة الى اليوم ، فطن اذن الى أن مصدر الشر كله في الاحتلال والى أن حيدة القناة وحدها لاقيمة لها الا اذا اكتملت بحيدة مصر فقال : « واتنا لكبيرو الأمل مع ذلك في أنه مع الزمن سيكون حياذ مصر جميعا مكملا لحرية القناة » .

والواقع أن هذا الكتاب كان « ضربة معلم » كما يقولون ولو تدبره كتابنا لاستخلصوا منه النتيجة العملية الوحيدة وهي أن حيدة القناة وحدها لا تنفع بدون ضمان حيدة مصر في الوقت نفسه . وقد كتب هذا الكتاب في سنة ١٨٨٧ ومن ذلك الوقت تطورت نظرية حيدة القناة من الناحية العملية على أثر اختراع الغواصات والطائرات ، وقد قلنا من قبل أنه لو اجتمعت جيوش الأرض كلها على ضفة القناة لما أمكنها الدفاع عن حيدتها ، لأن قبلة من الهواء تكفى لسدها ، والدول التي تملك غواصات لا مصلحة لها في خرق الحيدة لأنها تكتفى بمراقبة سفن العدو في البحر الأبيض أو البحر الأحمر بالقرب من مداخل القناة ومشارفها ، ولذلك لجأت معظم السفن الانجليزية في الحرب الكبرى الأخيرة الى طريق رأس الرجاء الصالح الطويل لأنه كان مأمونا الى حد كبير . ولو كانت أثيوبيا في حربها مع ايطاليا تملك غواصات لما فكر الانجليز في سد القناة في وجه ايطاليا . فيحسن بزعمائنا وكتابنا أن ينتبهوا الى الحقائق ويدرسوها وأن لا يتكلموا عن حيدة القناة كالبدايين الذين فاتهم القطار •• ان الذي نريده هو حيدة مصر كلها ،



حيدة دولية ، ولن تتحقق هذه الحيدة الا مع الجلاء التام ، الجلاء أولا .  
واليوم الذى تفكر فيه انجلترا جديا فى الجلاء سيكون من مصلحتها  
ضمان هذه الحيدة لأن مصر بقناتها ستصبح كالفاكهة التى زيدت عنها  
فلن تستريح حتى تدود كل يد أجنبية عنها . وما خلقت انجلترا فكرة  
الدفاع عن القناة أو الدفاع المشترك لأن القناة مهددة فى الواقع . .  
ولكن حقيقة الأمر انها تريد أن تجد فى هذا الدفاع المحدود فى الظاهر  
الذى لا يتنافى قانونا مع الاستقلال طريقا ملتويا تؤكد منه حقها فى الدفاع  
عن مصر التى تمثل كلها منطقة القناة ، وبالتالي تؤكد حمايتها فعلا ،  
وتستبقى الاحتلال وان لم تكن له « صفة الاحتلال » وتؤخر الجلاء  
الى أجل غير مسمى . وهذا هو السر فى أن انجلترا أصبح مثلها مثل  
اللاعب الذى يخلط الورق عمدا - ورق الجلاء بالدفاع المشترك -  
ليختلط الأمر على المصريين ويقعوا فى الفخ . والعجيب اننا أصبحنا نحن  
نخلط الورق بأيدينا - ورق حيدة القناة وحيدة مصر - ولا نميز  
بينها وننصب شبك التهلكة لأنفسنا ، ألم يطالب أحد كتابنا بالغاء معاهدة  
سنة ٨٨ التى تؤكد حيدة مصر ، لأنها فى اعتقاده « ضرب من ضروب  
الوصاية الدولية فرضته انجلترا ابان الاحتلال » مع أنه ظاهر من تحليل  
المعاهدة وظروفها السابقة واللاحقة ان هذه المعاهدة « معاهدة الاستانة  
سنة ٨٨ » قد وضعت على الرغم من انجلترا واعتراضاتها ، وظاهر أيضا  
أن نظام الحياد الدولى الذى أوجده لا تأنس له انجلترا ، ولا شك أن  
مصلحتها تقضى بالمطالبة بالغائها خصوصا وانها تتعارض مع مبدأ الدفاع  
عن القناة الذى تريد أن تفرضه علينا فرضا .

وقد يزعم بعض المصريين أن حيدة مصر نفسها لا ضمان لها وانه  
لا توجد وسيلة عملية لذلك الضمان تمنع الدول من خرق المعاهدات  
والاعتداء علينا . قلنا من قبل أن النظام الكامل كالسعادة الكاملة لا وجود  
لها على ظهر الأرض ، وانما تختار الأمم الأصلاح لها نسيبا ، وأى نظام

يقيمه الانسان ويكفل له البقاء ؟ ان المثل العليا في الأرض غيرها  
في السماء ، وما على الانسان الا أن يسعى ويجد وأن لا يستقيم الى  
الباطل ولو كان في زخرف الحق . وما علينا الا أن نسعى ونجد لتحقيق  
الجلاء أولا فالجلاء كالحصان الذي يجذب عربة الحيدة وراءه فضعوا  
الحصان أمام العربة ، وحذار من الحصان الأعرج .

المصرى فى ١٥ / ٥ / ١٩٥٠



## كيف خرقت إنجلترا

معاهدة ١٩٣٦

أعلن أحمد لطفى السيد باشا اذ كان وزيرا للخارجية « أن المعاهدة أصبحت غير ذات موضوع » وأعلن المرحوم محمود فهمى النقراشى باشا « أن المعاهدة قد استنفدت أغراضها » وكلا الرأيين سليم ، ولكن كان يحسن بساستنا أن يبينوا تفصيلا الأسباب التى انبنى عليها ذلك الحكم ، فالحكم المسبب المدعم أقوم من الحكم المبهم غير المدعم مهما بلغت قوته . والعجيب أن معاهدة ٣٦ كما أمعنا فيها النظر وقتلناها بحثا وجدنا فيها جديدا لأنها مزيج من عناصر الجلاء واللاجاء والسيادة والاعتداء على السيادة والروح القانونية والروح اللاقانونية وليس هذا بمستغرب لأنها ثمرة العبقرية الانجليزية فى شخص شامبرلين وكيرزن وغيرهما ، وهى من ناحية أخرى ثمرة العبقرية المصرية ممثلة فى سعد ومصطفى النحاس وعدلى وثروت ورشدى وصدقى ومحمد محمود . وكل مادة فيها عصارة ابحاث ومفاوضات طويلة دامت ثلاثين عاما .

يتبين ذلك جليا من الاطلاع على محاضر المفاوضات والمشاريع المختلفة منذ مشروع ملر لغاية معاهدة ٣٦ نفسها . . . المعاهدة اذن فى مجموعها ثمرة جهاد وثورة ولم يكن كيرزن أمينا حين قال لعدلى باشا اتنا لم نكسب الاستقلال . . . فالواقع اتنا كسبناه فعلا لا بحرب ولكن بثورة ١٩ وهى أهم من الحرب . وقد كان استقلالنا مغتصبا فاضطرت انجلترا الى رده الينا أمام ارادة الشعب ولم تكن الثورة فتنة أو هياجا كما أشار الى ذلك كيرزن .

قلنا ان المعاهدة مكونة من عناصر مختلفة ، ولكن مما لا ريب فيه أن العنصر القانونى الظاهر هو عنصر الجلاء والسيادة المصرية وهو

العنصر الابليج ، وليس في مقدور العناصر الأخرى المضادة ، مهما بلغت  
براعة الساسة الانجليز ، أن تتغلب على العنصر ( المصرى ) وهو  
ما سنبينه •

سبق أن أصدرت انجلترا تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذى  
اعترفت فيه باستقلال مصر ولكنها أردفته بالتحفظات الأربعة التى  
أبلغت نصها الى الدول • وقد توهم الانجليز أن هذه التحفظات تلقى  
ظلا على الاستقلال من الناحية القانونية وانها بمثابة حماية مستترة تنظم  
تدخل انجلترا فى شئوننا وعلاقاتنا مع الدول •

على أنه بالرغم من ذلك الاحتياط فقد نشر معهد الابحاث الخاصة  
فى جنيف « عصابة الأمم » فى سنة ١٩٣٥ مذكرة بخصوص قناة السويس  
جاء فيها أن السير جيمس هيدلام — مورلى الذى كان مستشارا  
ناربخيا لوزارة الخارجية البريطانية أعلن « أنه بالرغم من التحفظات  
الملحقة بالتصريح فان التصريح مطلق وغير مرتهن بشرط • وقد كان  
من حق الحكومة المصرية أن تقبل ما أعطى — الاستقلال — وأن ترفض  
بعد ذلك ، الاتفاق على النقط المحتفظ بها ، عندئذ يبدو للعيان أن  
الحكومة الانجليزية قد وضعت نفسها فى موقف غير سليم » •  
ثم قال :

« أما فيما يتعلق بتبليغ الدول فلا قيمة له لأنه لا يقيد ولا يقيد  
الا انجلترا •• ولو حدث خلاف بين مصر وانجلترا وعرض هذا الخلاف  
على عصابة الأمم أو محكمة العدل الدولية لما كان هناك شك فى أن  
التصريح من جانب واحد وأنه ليست له قوة التعاقد الاجبارية وأن  
كل عمل من أعمال القوة تلجأ اليه انجلترا فى حالة النزاع بين مصر  
وأية دولة أخرى يعتبر عملا عدوانيا » •

وقد أشار المستر ايدن فى أغسطس سنة ١٩٣٦ بمناسبة مناقشة  
المعاهدة فى البرلمان الانجليزى الى « أن الاحتلال أصبح آليا متحركا »  
أى أن انتقاله الى منطقة القناة يتفق مع التطورات الحديثة ولا يغير من



وضعه ... ونشرت مجلة ( ماتش ) الفرنسية في عدد ١٦ فبراير سنة ١٩٣٨ فصلا عن قناة السويس قالت فيه بمناسبة جلاء الجنود الانجليزية عن مصر وذهابها الى القناة « يلوح لنا انه انتقال لا رحيل » .  
ولكن كل ذلك لا يغير الوضع القانوني للمعاهدة فان المادة الأولى تقول « انتهى احتلال مصر عسكريا بواسطة قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور » وقد طلب المصريون عمدا جعل هذه المادة الأولى ، كما حدث قبل ذلك عند النص على الغاء الحماية ، فكل مادة أخرى لا يجوز أن تتعارض مع هذه المادة الأساسية الرئيسية .  
خصوصا وان المادة الثالثة تقرر اعتراف انجلترا « بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة » وتؤيد انضمامها الى عصبة الأمم بهذه الصفة أى باعتبارها « دولة مستقلة ذات سيادة » .

وتنص المادة الخامسة أن « يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن لا يتخذ في علاقاته مع البلاد الأجنبية موقفا يتعارض مع المحالفة » .  
وقد خرقت انجلترا هذه المادة لأن سياستها كلها نحو المستعمرات الايطالية أو المصرية السابقة تتعارض مع هذه المصالح ، وسياستها في شرق الأردن ومع اسرائيل ، تلك السياسة التي كان من جرائها ، تضحياتنا الجسيمة في فلسطين وسوء مركزنا المالى والعسكرى والسياسى ..

والمادة الثامنة تقول « كما أن قناة السويس جزء لا يتجزأ من مصر هى فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هى أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فالى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القناة وسلامتها التامة يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القناة بالمنطقة المحدودة فى ملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان

الدفاع عن القناة » ثم تؤكد : « ولا يكون لوجود تلك القوات صفة  
لاحتلال بأى حال من الأحوال • كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجود  
بحقوق السادة المصرية » •

وجاء فى ملحق هذه المادة الثامنة « يجب أن لا يزيد عدد قوات  
صاحب الجلالة الملك والامبراطور التى توجد بقرب القناة على  
عشرة آلاف من القوات البرية » •

هذا من ناحية العدد . أما من ناحية الزمن فقد جاء فى صلب المادة  
« انه اذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية العشرين سنة المحدودة  
فى المادة السادسة عشرة على ما اذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد  
ضروريا لأن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل  
بمفرده حرية الملاحة على القناة وسلامتها التامة فان هذا الخلاف يجوز  
عرضه على مجلس عصبة الأمم » .

بقيت ناحية المكان ، وقد تقرر أن يكون فى نقطة بمنطقة القناة  
حددت فى ملحق المادة الثامنة .

الواقع أن انجلترا خرقت هذه المادة ، وهى من أهم المواد ، خرقا  
لا يتفق مع انتهاء الاحتلال العسكرى ( المادة الأولى ) ولا مع سيادة  
مصر واستقلالها ( المادة الثالثة ) خرقتها بالثلث فى فروعها الثلاثة فى العدد  
والزمان والمكان . فى العدد لأن قوة القناة كان متفقا عليها منذ مفاوضات  
ملنر أن لا تزيد عن عشرة آلاف وأن تكون « قوة صغيرة » فأصبح  
عددها أكثر من مائة ألف . فى المكان والزمان . ان انجلترا تتوطد وتتسع  
الآن فى منطقة القناة كلها وتمهد للبقاء بعد العشرين عاما . وكان يجب  
أن تنسحب قواتها وتجلو عن القناة منذ سنوات لأن حرية الملاحة على  
القناة وسلامتها التامة مكفولتان بمعاهدة ١٨ التى قررت حيدة القناة ،  
وهذه المعاهدة دولية لا تزال قائمة معترفا بها . ولأن « هذه القوات  
( الانجليزية ) تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القناة »



فالقوات المصرية هي الأصل والقوات الانجليزية ثانوية منذ البداية ،  
وهي الآن أكثر « ثانوية » بعد تقوية الجيش المصرى وتأليفه من عشرات  
الآلاف أى أضعاف القوات الانجليزية الصغيرة المنصوص عليها ، وقد  
أثبتت الحوادث أن الدفاع عن القناة أصبح غير ذى موضوع بعد تطور  
الاختراعات الخاصة بالطيران والغواصات . ولا ريب أن ذلك كان من  
أكبر العوامل التى دفعت الانجليز فى مشروع صدقى - بينفن الى الوعد  
بالجلاء النهائى فى سنة ١٩٤٩ . وهذا الجلاء النهائى التام كان التكملة  
والتطبيق الوحيد للمادة الأولى من معاهدة ٣٦ التى تقرر « انتهاء  
الاحتلال العسكرى » . ولا شك أن ادعاء شنويل فى العام الفائت بأنه  
لا يعتقد أن انجلترا تفكر فى الجلاء قريبا يتعارض مع نص وروح  
معاهدة ٣٦ وفيه اعتداء على سيادتنا .

ويمكننا أن نضيف أن عدم خضوع هذه القوات للرقابة المصرية  
والقوانين المصرية قد ترتب عليه اعتداء على سيادتنا ومخالفة صريحة  
لروح المعاهدة وقد كان عدم خضوعهم للقوانين الصحية مثلا السبب  
فى الوباء الذى اجتاح البلاد .

وقد خرقت انجلترا أيضا روح المعاهدة فى المادة السابعة التى تقول  
« وتنحصر معاونة صاحب الجلالة ملك مصر ، فى حالة الحرب فى أن  
يقدم الى صاحب الجلالة الملك والامبراطور داخل حدود الأراضى  
المصرية ومع مراعاة النظام المصرى للإدارة والتشريع جميع التسهيلات  
والمساعدات التى فى وسعه بما فى ذلك استخدام موانئه ومطاراته  
وطرق المواصلات » .

« وبناء على هذا فالحكومة المصرية هى التى لها أن تتخذ جميع  
الاجراءات الادارية والتشريعية بما فى ذلك اعلان الأحكام العرفية واقامة  
رقابة وافية على الأبناء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة » .

قلنا أن انجلترا لم تعتد على هذه المادة في شكلها ولكنها خرقت روحها فان السلطات الانجليزية لم تسلك مسلك الدولة الحليفة ولكنها سلكت مسلك الدولة المحتلة وكادت تتعدى التسهيلات المنصوص عليها الى الزج بمصر في الحرب ، كما انها أرغمت السلطات المصرية على اعتقال الأحرار واستخدمت الرقابة لبث دعاية استعمارية خبيثة وأسرفت في الانتفاع بالتسهيلات الى حد يتعارض مع سيادة مصر ومصالحها • والواقع أن الاحتلال العسكري الذي انتهى رسميا في زمن السلم يتجدد في زمن الحرب بفعل المادة السابعة لأن الانجليز لا يحترمون المعاهدات ويخرقونها نضا أو روحا أو الاثنين معا •

وتنص المادة العاشرة على انه « ليس في احكام هذه المعاهدة ما يمس أو ما يقصد به أن يمس بأى حال من الأحوال الحقوق والالتزامات المترتبة أو التي قد تترتب لأحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد عصبة الأمم أو ميثاق منع الحرب الموقع عليه بباريس في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ » •

هذه المادة مهمة جدا من الناحية الدولية ومن ناحية التعهدات الدولية بصفة عامة ، ولا شك أن معاهدة ٨٨ تعهد دولي مصر مرتبطة به وان لم تشترك فيه خصوصا وان معاهدة فرساي وجمعية عصبة الأمم نفسها قد اعترفتا بهذه المعاهدة ، وبسبب هذه المعاهدة لم تتمكن انجلترا من اغلاق القناة في وجه ايطاليا في أثناء الحرب الأثيوبية • ولا ريب أن في هذه المعاهدة التي تضمن حيدة القناة وحرية الملاحة لجميع الدول في السلم أو في الحرب التزام لمصر وانجلترا معا • وقد كان تفكير المفاوضين المصريين جميعا منذ سنة ١٩٢٠ يتجه الى وضع قوة صغيرة على القناة ولمدة قصيرة • ويحسن هنا أن نذكر ما قاله عدلى باشا نلويد جورج في ٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ « ان وضع الجنود الانجليزية في أرض مصرية حتى على القناة نفسها لا ينظر اليه المصريون بعين الرضى اذ الواقع انه لا ضرورة لها في وقت السلم » •



وقبل ذلك في يوم ٢٩ يولية ١٩٣١ قال اللورد كيرزن « تقولون  
عن القوة العسكرية انها توضع في جانب منعزل ويبقى عددها صغيرا  
وتلبث لا تتحرك حتى تقوم حرب • انى أضرب لكم مثلا بلدا صغيرا  
كبلجيكا فقد كانت مضمونة من ألمانيا وفرنسا وانجلترا فماذا افادتها  
تلك الضمانة ؟ أحالت دون غزوها واجتياحها ؟ اذا كنتم تعتقدون أن  
المعاهدة وحدها تضمن كل شىء فأنتم واهمون » •

رشدى باشا : « ولكن ايرضى البلجيكيون أنكم فى سبيل الدفاع  
عنهم ترابطون بجيش فى أرضهم ؟ » •

وقد قبلت انجلترا الاكتفاء بالقوة الصغيرة المقيدة بحدود العدد  
والزمان والمكان ولكنها خرقت المعاهدة فى معظم بنودها وموادها  
وهدمت الثقة التى تقوم على أساسها المعاهدات •

جاء فى المادة الحادية عشرة « مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة  
فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يولية سنة ١٨٩٩ قد اتفق  
الطرفان المتعاقدان على أن ادارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين  
المذكورتين •• وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة  
على السودان » وجاء فى الفقرة الرابعة من هذه المادة « لا تكون هجرة  
المصريين الى السودان خالية من كل قيد الا فيما يتعلق بالصحة والنظام  
العام » وفى الفقرة الخامسة « لا يكون هناك تمييز فى السودان بين  
الرعايا البريطانيين وبين الرعايا المصريين فى شئون التجارة والمهاجرة  
أو فى الملكية » •

فهل محاولة انجلترا فصل السودان عن مصر ومحاربة اشراك المصريين  
تنفق مع هذه المادة ؟ كان المفروض أن تعديل الاتفاقيتين ، المشار اليهما ،  
فى المستقبل ، سيكون المقصود منه تثبيت حقوق مصر فى السودان  
أو حقوق المصريين والسودانيين معا فى الوادى الموحد تحت التاج ،  
ولكن انجلترا تمهد لذلك التعديل بخرق هذه المادة بدلا من احترامها  
فهل مسلك انجلترا فى السودان يتفق مع روح المحافظة ؟ •

الناظر الى جميع المفاوضات التي جرت من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٣٠ يجد أن أهم نقطتين ناضل الانجليز فيهما مسألة السودان ومسألة الجلاء ، وقد نجح المصريون في حصر القوة الانجليزية في حدود ضيقة من العدد والزمن والمكان . ولكن انجلترا تحاول الآن ، تحت ستار الدفاع المشترك والموقف الدولي ، التخلص من هذه الحدود أو القيود وتصحيح مركز الاحتلال الفعلي الجديد غير الشرعى في منطقة القناة ، وبذلك يتسنى لها جعل اشرافها السياسى والعسكرى على القناة اشرافا قانونيا ثابتا لا غبار عليه ، حتى اذا حلت سنة ١٩٦٨ وانتهى امتياز الشركة كانت في مركز يساعدها على مده في صورة من الصور ، فكان لها الاشراف المالى أيضا ، وهذا له خطره ، لأن انجلترا تعلم أن موقع القناة ، من الناحية السياسية والعسكرية والمالية أو الاقتصادية ، اذا عرفت مصر كيف تستفيد منه ، كانت من أكبر الدول عزة ومنعة وثروة خصوصا اذا تألفت من مصر والسودان كتلة واحدة ، وهذا أشد ما تخشاه .

وفي اعتقادنا أن التسليم بمبدأ الدفاع المشترك حتى مع تحقيق الجلاء التام كالتسليم بمبدأ « التسهيلات » في حالة الحرب الى جانب التسليم بوجود قوة صغيرة على القناة لأن المبدأ الأول في الحاليتين يحتمل تطورات خطيرة ونتائج عسكرية وسياسية يجب أن يحسب لها ألف حساب .

المصرى فى ٢٩ / ٥ / ١٩٥٠



### كتب المؤلف العربية

- ١ - أدب وتاريخ - صدر في سنة ١٩٢٧ وقد طبع بمطبعة دار الكتب المصرية . وهو يؤلف الجزء الأول من الكتاب الحالى ( أدب وتاريخ واجتماع ) .
- ٢ - الشوامخ . الجزء الأول : امرؤ القيس . طبع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤ .
- ٣ - الجزء الثانى : الشعر الجاهلى خصائصه وأعلامه . طبع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤ .
- ٤ - الجزء الثالث : ذو الرمة . طبع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦ .
- ٥ - الجزء الرابع : أبو عبادة البحتري . طبع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦ .
- ٦ - تاريخ مصر الحديث . طبع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ .
- ٧ - الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر . طبع بمطبعة مصر سنة ١٩٤٨ . ٨ - أطلس الامبراطورية السودانية .

### كتب المؤلف الفرنسية

وضع المؤلف عدة كتب بالفرنسية أهمها كتابان يقع كلاهما فى حوالى ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير : الامبراطورية المصرية فى عهد محمد على والمسألة الشرقية ، والامبراطورية المصرية فى عهد اسماعيل والتدخل الانجليزى -

### بعض آراء النقاد والعلماء

( عصر محمد على )

(١) مجلة ريفى دى فرانس عدد اول يولية سنة ١٩٣٠ : « هذا الكتاب الضخم يسجل أهم حقبة فى تاريخ المسألة الشرقية ، تلك الحقبة التى تمكن فيها محمد على بمساعدة ابنه ابراهيم من النهوض بمصر . وقد كان الخيط الذى اهتدى به المؤلف فى بحثه هو تحليل شخصية محمد على فتمكن بهذه الطريقة من تجديد ذلك التاريخ تجديدا شاملا مع أنه كان من قبل موضوع دراسات طويلة وكان الغموض والتعقيد يكتنفانه من كل جانب .

(٢) مجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندرة . المجلد السادس القسم الاول . سنة ١٩٣٠ . بقلم هنرى دودويل : لاشك أن المؤلف قد اضطر الى عمل مجهود ضخم لتأليف هذا الكتاب الكبير . وقد انتفع بعدد لا يحصى من الوثائق والمستندات المستخرجة من مصادر متنوعة جدا . وقد يكثر من ذكرها باسهاب ولكن بفن . ولا جدال فى أن أهمها وأعلاها

قيمة الرسائل المتبادلة بين الباشا الكبير وابنه ابراهيم ومنتخباته من رسائل وزارة الخارجية النمساوية فهذه كلها جديدة للجميع . وهذا هو السبب الذي من أجله يلقي ذلك الكتاب ضوءا كبيرا جديدا على حياة محمد على السياسية .

(٣) **مجلة تاريخ المستعمرات الفرنسية** . فصل كتبه المؤرخ الكبير شارل رو السفير القديم ورئيس شركة قناة السويس وأحد أعوان هانوتو ( عدد يناير - فبراير سنة ١٩٣١ ) :

« ان أول مزية لصبرى هي الطريقة التى صاغ بها موضوعه المحدد بالدقة فى العنوان .

« وتتجلى مزية أخرى لصبرى فى تنوع مستنداته وكثرتها . . . وهذه المستندات ، التى لم يسبق نشر معظمها ، قد ساعدته على الأتيان بجديد فى موضوعه على الرغم من كثرة تعرض الباحثين له من قبل وهذه أولى فضائل هذا الكتاب فى نظر المشتغلين بتاريخ الشرق .

(٤) **مجلة الأدب المستشرقة** ( التى تصدر فى لبيزج ) . سنة ١٩٣١ عدد ٧ . بقلم هازنكليفر الأستاذ بجامعة جيتنجن :

« دراسة كبيرة رائعة مؤسسة على مواد محفوظات واسعة جدا . . .

(٥) **ريقى بليسه** . ( باريس ) . أول أغسطس سنة ١٩٣١ . بقلم بول فايل :

ما أحفل هذا الكتاب بالوقائع المستقاة من مصادر المحفوظات الخطية وما أعظم أمانة المؤلف العلمية فى التعليق والشرح وما أجمل رصانة أسلوبه ؟ .

(٦) **مجلة الجمعية الآسيوية** ( لندرة ) . يناير سنة ١٩٣٣ بقلم الكولونيل الجود :

« قد يكون هذا الكتاب طويلا جدا للقارئ المتوسط ولكن العلماء سيذكرون للمؤلف جلده فى البحث فى محفوظات القاهرة وباريس ولندرة وفينا . وحسب الدكتور صبرى أنه لم يخف أى شىء هام على بصره الناقد .

(٧) **مجلة المستعمرات الإيطالية** التى كانت تصدرها وزارة المستعمرات الإيطالية . عدد نوفمبر سنة ١٩٣٠ :

« ان هذا الكتاب عمل جليل فى تاريخ المسألة الشرقية الشهيرة التى طال بحثها ولكن دراسة صبرى يبرز فيها طابع خاص . وبالجملة فان هذا الكتاب فى مجموعته جديد فى أسلوبه وأسانيده وطرائقه » .

(٨) **وكتب جورج دوان فى كتابه ( حرب الشام الأولى )** . الذى ظهر بالفرنسية فى سنة ١٩٣١ :

« . . على أن التاريخ العام لذلك العصر قد كتبه الدكتور صبرى بأسلوب يدل على نبوغ يطيب لنا أن ننحنى له اجلالا » .

#### ( عصر اسماعيل )

(١) **مجلة العالم الاسلامى** . الانجليزية . عدد ٢٥ يولية سنة ١٩٣٤ :

« أظهر المؤلف فى هذا الكتاب ما اتصف به من دأب وتبسط فى العلم



في كتابه الأول الخاص بتاريخ محمد على وهو يمشى قدما في اقامة ذلك الصرح  
الرفيع في تاريخ مصر السياسي » .

(٢) - مجلة الجمعية الجغرافية بباريس . عدد ديسمبر سنة ١٩٣٣ :

« ان صبرى العالم المصرى قد أخذ على عاتقه كتابة تاريخ مصر من  
محمد على الى اليوم ٠٠٠ وان هذا الكتاب الذى هو عمل ضخيم مدعم بالمستندات  
الكثيرة من وضع مؤرخ مصرى يفتح لنا في تاريخ مصر المرتبط بتاريخ أوروبا  
سبلا جديدة ، لم تطرق من قبل ، عظيمة الشأن » .

(٣) مجلة الشهر ( ليوموا ) . عدد ١٠ يناير سنة ١٩٣٤ :

« ان هذا الكتاب الفخم يثبت لنا أن الفضائح المالية لم يخل منها بلد  
ولا زمان ٠٠٠ وقد أظهر صبرى بقوة أن فرنسا فى ذلك العصر لم تكن أسلم  
طوية من انجلترا وقد برر المؤلف رد الفعل الذى حدث فى مصر وقتئذ ضد  
الدول الأوربية التى كان أكبر همها التغيير بمصر وسلبها ونهبها ٠ ولا ريب  
أن هذا الكتاب عظيم الشأن من كل النواحي » .

(٤) مجلة الدراسات التاريخية بباريس . عدد يولية سنة ١٩٣٤ :

« هذا كتاب رائع جدا مدعم بمستندات رصينة معظمها لم يسبق نشره .  
وهو يبحث فى عصر هام من تاريخ مصر والتوغل الأوروبى فى أفريقيا وهوليس  
تاريخا سياسيا كما يصفه المؤلف فحسب بل تاريخا اقتصاديا واستعماريا  
يجدد فى نواح كثيرة موضوعا كنا لا نعرفه حق المعرفة . وقد ظهرت شخصية  
غردون الفامضة فى جلاء رائع وبانت مسألة القناة فى جميع بواطنها الخافية » .

(٥) مجلة أفريقيا الفرنسية . عدد فبراير سنة ١٩٣٥ :

« ان الوثائق التى أتى بها المؤلف تظهر فى صورة غير مشرفة الوسائل  
التى لجأ اليها دلسيس للتحايل على ابتزاز المال من الخديوى اسماعيل ٠ وقد  
بسط المؤلف المراحل السياسية المختلفة بقوة نفاذه وبانت ملامح جديدة  
فى شخصية غردون الفامضة » .

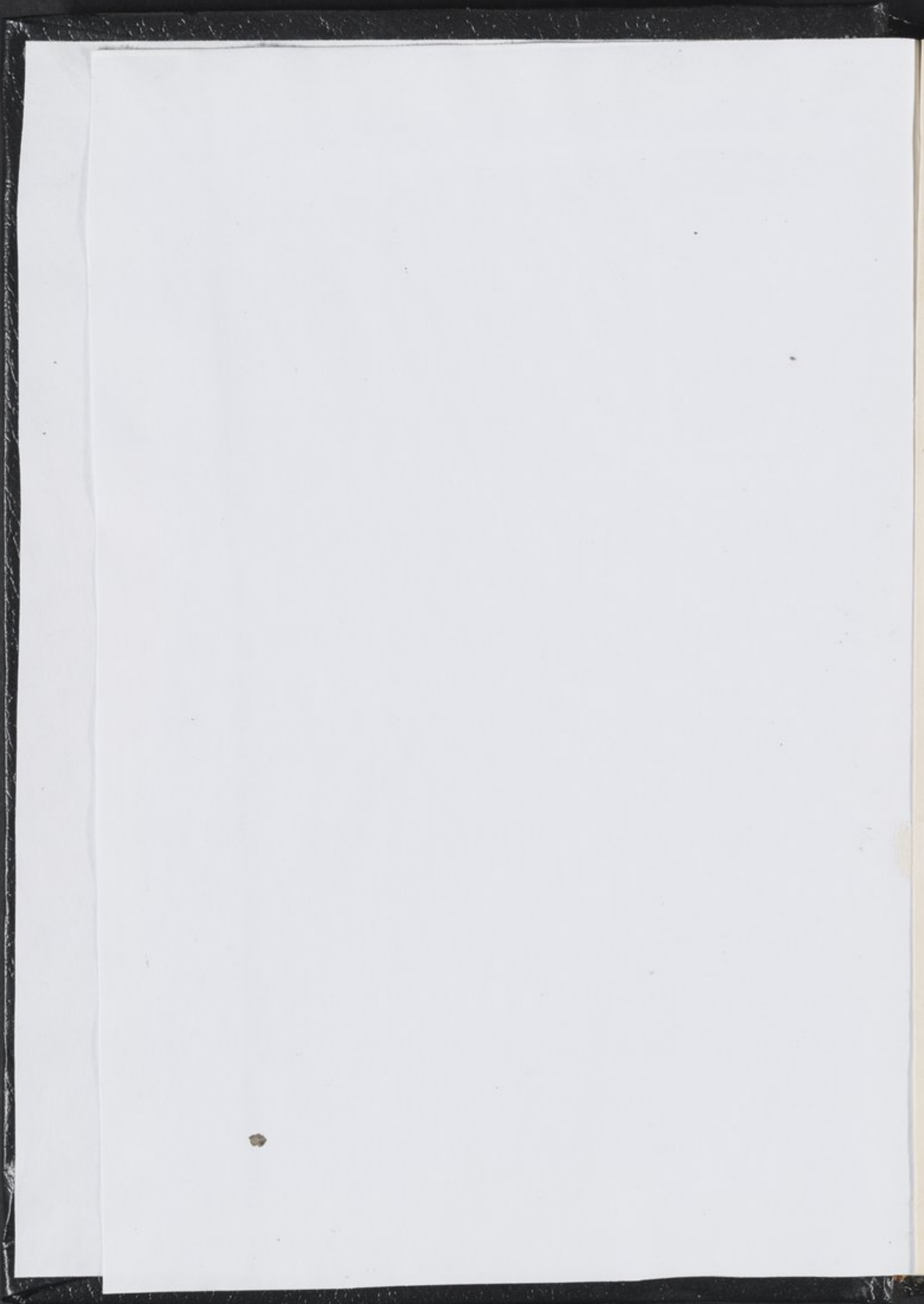
(٦) مجلة الآداب المستشرقة التى تصدر فى لبيزج . بقلم الأستاذ

هازنكليفر جيتنجن . عدد ٥ من سنة ١٩٣٥ :

« ان هذا الكتاب الثانى ليس أقل روعة وشأنا من الأول وانه مثله تماما  
فى توخى الدقة فى البحث وفى براعة العرض والبناء وفى تنوع فصوله  
ومناحيه » .

(٧) المجلة الأمريكية التاريخية . بقلم هوسكنز الأستاذ بجامعة تفتس :

« ان الكتاب فى مجموعه قد كتب بدقة واحكام وبطريقة علمية رائعة  
منزهة عن كل مأخذ . وفى الكتاب وجهات نظر جديدة لها شأنها وحسبه  
أنه مرحلة هامة من تاريخ التدخل الأوروبى فى أفريقيا » .





THE UNIVERSITY OF CALIFORNIA  
LIBRARY





